بسمه تعالی

معارف القرآن الاعتقادية (۱)

الدرس ۱

تفسير و شرح الإمامة، الولاية، الخلافة

بكالوريوس

المقدمة

من المعارف القرآنية التي تستحق المزيد من العناية و التدقيق هي الامامة و ذلك للاثر الكبير الذي تتركه رؤيتنا لهذا المفهوم القرآني على حياتنا و معتقداتنا خصوصا و ان الاختلاف فيه بات يصنف الانسان المسلم إلى شيعي أو سني و يتبع ذلك الاختلاف في المرجعية الفقهية و الزعامة الدينية و الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه و آله، فما هي حقيقة الامامة؟ و كيف تناولتها الآيات القرآنية؟ و ما هي أقوال علماء المسلمين في ذلك؟ ما هو فرق بين الامام و النبي؟ ما هي الوظائف الملقاة على عاتق الامام و ما مصدر علمه في ما يقول و يفعل؟ هذا ما سنتعرف عليه في هذا الدرس من سلسلة دروس المعارف القرآنية.

المحتوى العلمي

لفظة «الامام» فى اللغة والقرآن

الإمام فى اللغة

ان كلمة امام على وزن ((كتاب)) هي اسم مصدر كما قال ارباب اللغة وهي تطلق على كل ما يتوجه اليه الانسان ويبتغيه، وهذا المعنى يختلف باختلاف الموارد والاسباب والملاحظات فتارة يقال: امام الجمعة، وامام الجماعة، وامام الهدى، واخرى يقال: امام الضلالة [١].

وقد جائت هذه الكلمة في الاصل من مادة ((أم)) وتعني القصد، يقول صاحب مقاييس اللغة:((أم)) تعني الاصل والمرجع والجماعة والدين، والامام تعني من نأتم به وهو امام في الافعال.

كما ذكرت معان كثيرة لكلمة امام في لسان العرب، منها الامام، المعلم،والشاقول الذي يستخدم اثناء تشييد المباني لتنظيم العمل، والسبيل، والمقدمة ونحو ذلك.

الا ان مؤلف التحقيق،ارتأى ان اصل جميع هذه المعاني هو القصد المقترن بالاهتمام الخاص، وحتى لو قيل للأُم ((أُما)) او اطلقت كلمة ((أُم)) على اصل وقاعدة كل شي فهو لانها غاية الانسان ومرامه، كما تفيد كلمة الامام معنى المقتدى اي من يقصده الناس ويبدون عناية خاصة به.

و قال ابن فارس: الإمام كل من اقتدي به وقُدّم في الأُمور، والنبي إمام الأئمّة، والخليفة إمام الرعية، والقرآن إمام المسلمين.

وقال ابن منظور: الإمام ما ائتُمّ به من رئيس وغيره، وفي التنزيل العزيز: (فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ)، أي قاتلوا رؤساء الكفر وقادتهم... إمام كل شيء قيّمه والمصلح له، والقرآن إمام المسلمين.

---

١. للمراجعة والتحقيق مادة (ام) في المعاجم اللغوية.

وليست تلك النصوص من هذين العلمين مبيّنة للمعنى الأصلي للكلمة، وإنّما تشير إلى مصاديق المعنى الأصلي، والنص اللغوي الصحيح الّذي جاء يحدّد معنى الكلمة مجردة عن انطباقه على مصاديقها هو ما ذكره صاحب القاموس: الإمام هو ما يتعلّمه الغلام كل يوم من رؤوس أقلام، وما امتثل عليه من مثال ودليل، وخشبة يسوى عليها البناء.

وهذه العبارة من صاحب القاموس توصلنا إلى أصل المعنى اللغوي، وهو انّ الإمام عبارة عن كل شيء يتّخذه الإنسان مثالاً لعمله ودليلاً لفعله، ويطبّق فعله وعمله على ذلك المثال وذلك الدليل، فهذا هو المعنى الأصلي لتلك الكلمة، فالنبي إمام، والقرآن إمام، وخشبة البناء إمام للبنّاء، لأجل أنّ الإنسان يطبق عمله على عمل وقول النبي أو القرآن، فكل شيء اتخذ مثالاً في الحياة وأُسوة في مقام التطبيق يكون إماماً من غير فرق بين الأشياء المادية أوغيرها، هذا كلّه في توضيح مفهوم « الإمام » من حيث اللغة، وإليك توضيحه في القرآن.

الإمام فى القرآن الكريم

جاء لفظ الإمام في الذكر الحكيم اثنتا عشرة مرة بين مفرد وجمع، مفردها سبع مرات، وجمعها خمس مرات.

وقد استعملت في الجميع بمعنى واحد، وهو الّذي تعرّفت عليه من صاحب القاموس وإن كانت تطبيقاتها مختلفة، ولأجل ذلك لا يمكن عدّها من معاني كلمة الإمام.

وإليك تلك الموارد:

١. ترى أنّه سبحانه يصف التوراة بأنّها إمام، يقول سبحانه وتعالى: (وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَ رَحْمَةً)[١].

٢. كما يصف الطريق الّذي تمشي عليه القوافل إماماً ويقول: (فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُمَا لَبِإِمَام مُبِين)[٢]، أي انتقمنا من قوم لوط وأصحاب الأيكة وانّ مساكنهم على الطريق لواضح.

٣. كما أنّه يصف قادة الكفر والانحراف به ويقول: (وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ)[(١)]، بل يصف كل قائد بالإمامة بقوله: (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاس بِإِمَامِهِمْ) [(٢)].

فالمعنى في الجميع واحد، وهو الدليل الّذي يهتدى به، والمثال الّذي يمتثل به، وإن كانت التطبيقات مختلفة، فالتوراة إمام، لأنّها يقتدى بها، وطريق القوافل إمام، لأنّ القوافل تتّخذه دليلاً وتمشي عليه،

١. هود: ١٧.

٢. الحجر: ٧٩.

وقادة الكفر بل جميع القادة أئمّة، لأنّ المقتدين يتّخذونهم مثالاً في الحياة ويمشون على آثارهم حتى إن الأنبياء جميعهم أئمّة بهذا المعنى، فإنّ كلا من عمل وقول النبي (ص) وتقريره يتّخذ مثالاً ودليلاً يسار على ضوئه.

وهذا ما قلناه من أنّ معنى الإمام في الذكر الحكيم لا يختلف عن المعنى الّذي نصّت عليه الكتب اللغوية حتى الإمام في الآية المباركة، فقد استعمل الإمام فيها بالمعنى اللغوي لا غير، وهو الدليل والمثال والأُسوة والمقتدى غير أنّ ما يجب التدبّر فيه هو الوقوف على الملاك الّذي جعل به الخليل (ع) إماماً، فهل هو لأجل كونه نبياً أو رسولاً أو خليلاً اوكونه مفترض الطاعة أو غير ذلك من الملاكات المختلفة الّتي تصحح كون الإنسان إماماً.

ما هی الامامة؟

فيمايتعلق بتعريف الامامة هنالك اختلاف كثير في وجهات النظر، ولا بد من وجود هذا الاختلاف، فالامامة في نظر طائفة ((الشيعة واتباع مذهب اهل البيت عليهم السلام)) من اصول الدين والاسس العقائدية، بينما تعتبر في نظر طائفة اخرى ((اهل السنة)) من فروع الدين والاحكام العملية.

فمن البديهي ان لاتتشابه نظرة الطائفتين الى مسألة الامامة، وان لايكون لهما تعريف واحد لها.

من هنا نرى عالماً سنّياً يعرف الامامة هكذا:

الامامة رئاسة عامة في امور الدين والدنيا، خلافة عن النبي[١].

واستنادا الى هذا التعريف، فالامامة مسؤولية ظاهرية في حدود الحكومة،غاية الامر ان الحكومة تتأطر بإطار ديني، وتتخذ طابع خلافة النبي (ص)((الخلافة والنيابة في امر الحكومة)) وبطبيعة الحال يمكن انتخاب مثل هذا الامام من قبل الناس.

واعتبر البعض ان الامامة تعني ((خلافة شخص للنبي (ص) في إقامة الاحكام الشرعية وحراسة الدين بنحو تكون إطاعته واجبة على جميع الأمة)) [٢].

وهذا التعريف لا يختلف عن التعريف الاول نوعاً ما، لانه يحتوي على نفس المفهوم والمضمون.

كما أن ابن خلدون قد سار على نفس هذا المعنى في مقدمة تاريخه المعروفة[٣].

---

١. شرح التجريد للقوشجي ص ٤٧٢.

٢. الشرح القديم للتجريد لشمس الدين الاصفهاني نقلا عن توضيح المراد، تعليقة على شرح تجريد الاعتقادللسيد هاشم الحسيني الطهراني، ص ٦٧٢.

٣. مقدمة ابن خلدون، ص ١٩١.

ويقول الشيخ المفيد في ((أوائل المقالات)) في بحث العصمة مايلي: إن الائمة القائمين مقام الانبياء في تنفيذ الاحكام، واقامة الحدود، وحفظ الشرائع، وتأديب الانام معصومون كعصمة الانبياء[١].

فطبقاً لهذا التعريف الذي يجاري ما يعتقد به اتباع اهل البيت عليهم السلام ان الامامة أعلى مرتبة واشمل من الزعامة والحكومة على الناس، بل ان جميع شؤون الانبياء((سوى تلقي الوحي وما شابهه)) ثابت للائمة.من هنا فشرط العصمة المتوفر في الانبياء متوفر في الائمة أيضا (تأملوا جيدا).

لهذا فقد جاء تعريف الامامة في نظر الشيعة في كتاب شرح إحقاق الحق كما يلي:((هي منصب الهي حائز لجميع الشؤون الكريمة والفضائل إلا النبوة وما يلازم تلك المرتبة السامية)) [٢].

بناء على هذا التعريف، فالامام ينصب من قبل اللّه تعالى عن طريق النبي (ص)، ويمتلك نفس الفضائل والخصائص التي يمتلكها النبي (ص) عدا النبوة، ولا ينحصر عمله في الحكومة الدينية فقط.

لهذا يعتبر الايمان بالامامة جزء من اصول الدين لامن فروعه.

ولايخفي أنّ هناك أصلين انفرد بهما مذهب الشيعة الإمامية، ولذلك يُعدّان من أُصول المذهب، دون أُصول الدين، لأنّ الثاني عبارة عن الأُصول التي يشترك فيها جميع المسلمين بخلاف أُصول المذهب، فانّها من خصوصيات مذهب دون مذهب آخر، وقد تقدّم انّ التوحيد والمعاد والنبوة العامة والخاصة ممّا اتفقت عليه عامة المسلمين دون العدل والإمامة، فالأوّل قالت به المعتزلة والشيعة، والثاني انفردت به الشيعة وبالأخص الإمامية منهم، وقد فرغنا عن بيان العدل ودلائله و شبهاته و حلولها، فحان البحث في الأصل الثاني وهو الإمامة والخلافة.

وليُعلم انّ أصل الإمامة ممّا اتّفقت عليه كلمة المسلمين إلا بعض الفرق الشاذة، فالجميع على لزوم وجود إمام يقود الأُمة إلى الصلاح والفلاح، ويقوم بإدارة البلاد على أفضل وجه، ويُطبّق الشريعة على صعيد الحياة إلى غير ذلك ممّا كان النبي (ص) يقوم به. وهذا ممّا لا خلاف فيه بين المسلمين..

إنّما الكلام في أنّ تعيين النبي (ص) ونصبه لهذا المنصب، هل هو بيد اللّه سبحانه وبذلك يُعَدُّ منصب الإمامة كالنبوة، منصباً إلهياً؟ أو بيد الأُمَّة أو بعضهم فتصير الإمامة منصباً اجتماعياً كسائر المناصب الاجتماعية أو السياسية التي يقوم به آحاد الأُمَّة أو طبقة منهم؟

فالإمامية عن بكرة أبيهم على القول الأوّل، حيث يرون انّ نصب الإمام بيد اللّه تبارك وتعالى ويسوقون على ذلك دلائل عقلية وتاريخية، كما أنّ أهل السنة على القول الثاني، وبذلك تجاذب تيّاران مختلفان الأُمَّة الإسلامية.

---

١. اوائل المقالات، ص ٧٤.

٢. احقاق الحق، ج٢، ص ٣٠٠ (الهامش الاول).

بما انّ أهل السنة يرون الإمامة منصباً اجتماعياً أو سياسياً، قالوا بأنّ الإمامة من فروع الدين لا من أُصوله، وهي من أغصان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لأنّ تحقيق ذلك الأصل في المجتمع، أي إشاعة المعروف وتحجيم دور المنكر يتوقف على وجود إمام عادل مبسوط اليد يتمتع بنفوذ على نطاق واسع، ولذلك يجب على الأُمّة نصب إمام بغية تحقّق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإليك سرد كلماهم في هذا المجال:

يقول الإيجي (المتوفّى عام ٧٥٧ ه) في كتاب « المواقف»: وهي عندنا من الفروع وإنّما ذكرناها في علم الكلام تأسّياً بمن قبلنا[١]

يقول سعد الدين التفتازاني (المتوفّى عام ٧٩١ ه): لا نزاع في أنّ مباحث الإمامة بعلم الفروع أليق لرجوعها إلى أنّ القيام بالإمامة ونصب الإمام الموصوف بالصفات المخصوصة من فروض الكفايات، ولا خفاء انّ ذلك من الأحكام العملية دون الاعتقادية[٢]

وعلى هذا فالإمامة أمر لا يناط به الإيمان والكفر، بل موقفه كسائر الأحكام الشرعية الفرعية التي لا يكفر المنكر لها إلا إذا استلزم إنكارهُ إنكارَ الرسالة والنبوة لنبينا (ص) فلا فرق بين مسألة الإمامة، ومسألة المسح على الخفين حيث أصبحت مسألة خلافية بين أهل السنّة.

ولكن وللأسف إنّهم ربما يتعاملون مع الإمامة والخلافة بعد النبي (ص) بغير هذا النحو، فربما ويُكفرون أو يفسقون من لم يعترف بإمامة الخلفاء عن اجتهاد. ولذلك نرى أنّ إمام الحنابلة (المتوفّى عام ٢٤١ ه) يذكر خلافة الخلفاء الأربعة في عداد المسائل العقائدية [٣]، وتبعه أبو جعفر الطحاوي (المتوفّى عام ٣٢١ ه) في «العقيدة الطحاوية»[٤]

وقد تبعهما أكثر من جاء بعدهم كالأشعري (المتوفّى عام ٣٢٤ ه) في كتاب الإبانة[٥] وعبد القاهر البغدادي (المتوفّى عام ٤٢٩ ه) في (الفرق بين الفرق)[٦]

كلّ ذلك تبعاً لإمام الأشاعرة أو الشيخ الطحاوي الذي أصبح الأخير إماماً للعقيدة في الديار المصرية. والحقّ هو ما صرّح به عضد الدين الإيجي والتفتازاني من أنّ الإمامة من فروع الدين لا من أُصوله، وانّ النصب لتحقيق غاية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا صلة له بأُصول الدين، وقد كان النبي

---

١. المواقف: ٣٩٥.
٢. شرح المقاصد: ٢/٢٧١.
٣. كتاب السنَّة: ٤٩.
٤. شرح العقيدة الطحاوية: ٤٧١.
٥. الابانة في أُصول الديانة: ١٩٠، الباب ١٦.
٦. الفرق بين الفرق ٣٥٠.

(ص) يقبَل إسلام من أسلم واعترف بالشهادتين من دون أن يسأله عن واقع الإمامة، وانّه هل هو منصب إلهي أو اجتماعي، ومن دون أن يعلمه بلزوم اجتماع الأُمّة بعد رحيله على نصب إمام لهم، و لم يكن أي أثر من تلك المباحث في عصر النبي (ص) فلذلك لم يتلق أهل السنّة الإمامة والخلافة بعد النبي (ص) أمراً أصيلاً من صميم الدين.

نعم أوّل من أدخل خلافة الشيخين في أُصول الدين هو داهية العرب عمرو بن العاص عند اجتماعه مع أبي موسى الأشعري في دومة الجندل للتشاور في مسألة التحكيم المعروفة، و لم يكن هدفه من عدّ خلافة الخليفتين من أُصول الإسلام إلا الإطاحة بالإمام علي بن أبي طالب حيث تقدم عمرو بن العاص بالكلام، وقال للكاتب: اكتب، فكتب الشهادة بالتوحيد والرسالة، ثمّ قال للكاتب: ونشهد انّ أبابكر خليفة رسول اللّه، عمل بكتاب اللّه وسنّة رسول اللّه حتى قبضه اللّه إليه، وقد أدّى الحق الذي عليه.[١]

فخرجنا بالنتيجة التالية: انّ منصب الإمامة عندهم منصب اجتماعي يُشبه منصبَ رئاسة الجمهورية في الوقت الحاضر، أو منصب رئاسة الوزراء في الحكومات الملكية أو ما يشبه ذلك، ولذلك لا يشترط فيه سوى الكفاءة لإدارة البلاد. ولا ينعزل بالفسق و الظلم ولا بأكبر من ذلك، و ما هذا إلا لأنّه منصب اجتماعي، وما أكثر الظلم والفسق في أوساط الأمراء ورؤساء الجمهور، وإن كنت في شكّ من ذلك فاقرأ ما كتبه عظيم الأشاعرة أبوبكر الباقلاني وغيره.

قال الباقلاني (المتوفّى عام٤٠٣هـ): لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه بغصب الأموال، وضرب الأبشار، وتناول النفوس المحرمة، وتضييع الحقوق، وتعطيل الحدود، ولا يجب الخروج عليه بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في شيء ممّا يدعو إليه من معاصي اللّه.[٢]

وليس الباقلاني نسيج وحده في تلك الفكرة، بل هي فكرة سادت عبر القرون، تراها في كلمات الآخرين، يقول التفتازاني: ولا ينعزل الإمام بالفسق أو بالخروج عن طاعة اللّه تعالى والجور، لأنّه قد ظهر الفسق وانتشر الجور من الأئمّة و الأُمراء بعد الخلفاء الراشدين، والسلف كانوا ينقادون لهم ويقيمون الجُمَع والأعياد بإذنهم، ولا يرون الخروج عليهم، ونقل عن كتب الشافعية انّ القاضي ينعزل بالفسق، بخلاف الإمام، والفرق انّ في انعزاله ووجوب نصب غيره، إثارة الفتن لما له من الشوكة بخلاف القاضي.[٣]

---

١. مروج الذهب: ٢/٣٩٧.

٢. التمهيد: ١٨١.

٣. شرح العقائد النسفية: ١٨٥ ١٨٦، ط اسلامبول.

هذا كلّه عند أئمّة السنة، وأمّا الشيعة فماهيَّة الإمامة عندهم، عبارة عن الرئاسة العامة في أُمور الدين والدنيا نيابة عن النبي (ص).

و بعبارة أُخرى: الإمامة هي استمرار وظائف النبوة (لا نفس النبوة لانقطاعها برحيل النبي (ص) فيقوم الإمام بنفس ما كان النبي (ص) يقوم به، فالنبوة ونزول الوحي منقطعة لكن الوظائف الملقاة على عاتق النبي (ص) كلّها على عاتق الإمام، فهو يقوم وراء إدارة البلاد و عمرانها وتوزيع الأرزاق وتأمين السبل والطرق والجهاد في سبيل اللّه لإشاعة الإسلام وكسر الموانع و العوائق.

فهو يقوم مع هذه الوظائف بوظائف أُخرى، تطلب لنفسها صلاحيات إلهية وتربية سماوية، وتلك الوظائف عبارة عن:

١- بيان الأحكام الإسلامية من كليات وجزئيات

٢- تفسير الكتاب العزيز وشرح مقاصده، وبيان أهدافه، وكشف رموزه وأسراره

٣- تربية المسلمين، وتهذيبهم وتزكيتهم وتخليص نفوسهم من شوائب الشرك والكفر والجاهلية.

٤- الردّ على الشبهات والتشكيكات التي كان يُلقيها أعداء الإسلام ويوجهونها ضد الدعوة الإسلامية.

٥- الحفاظ على الرسالة الإلهية من أية محاولة تحريفية، ومن أي دسٍّ في التعاليم المقدسة.

فقد كان النبي (ص) يقوم بهذه الأُمور معتمداً على الوحي، فيجب أن يقوم من ناب بها عنه بتعليمٍ غيبيّ حتى لا يطرأ خلل في الحياة الدينيّة.

و عندئذٍ يطرح هذا السؤال نفسه، وهو إذا كان النبي (ص) قائماً بهذه الوظائف العلمية والفكرية معتمداً على الوحي، فكيف يقوم غيره مقامه مع انقطاع الوحي والسفارة من اللّه سبحانه. و الإجابة عن هذا واضحة، فانّ الفيض الإلهي لم يزل يمدُّ عباده الصالحين وإن لم يكونوا رسلاً وأنبياء، وهذا هو الذي يعبر عنه بالمحدَّث، فيلهم إليه وإن لم يكن نبياً من عند اللّه، وهذا هو مصاحب موسى يعرفه سبحانه بقوله: فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً[1]

فعلى ذلك فالإشراقات الإلهية على قلوب الصالحين لا تلازم النبوة والرسالة، بل يكفي أن يكون إنساناً مثالياً، وهذا هو جليس سليمان يصفه سبحانه بقوله: قالَ الّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتابِ أَنا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرفُكَ فَلَمّا رَآهُ مُسْتَقرّاً عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي[2]

١. الكهف: ٦٥.

٢. النمل: ٤٠.

وهذا الجليس لم يكن نبيّاً، ولكن كان عنده علم من الكتاب، وهو لم يحصّله من الطرق العادية بل كان علماً إلهياً أُفيض إليه، لصفاء قلبه وروحه ولأجل ذلك يَنسب علمه إلى فضل ربه، ويقول: «هذا مِنْ فَضْلِ رَبّي ».

كما تضافرت الروايات على أنّ في الأُمّة الإسلامية كالأُمم الغابرة رجالاً مخلصين محدَّثين تفاض عليهم حقائق من عالم الغيب من دون أن يكونوا أنبياء، وإن كنت في شكّ من ذلك فارجع إلى ما رواه أهل السنّة في هذا الموضوع:

أخرج البخاري في صحيحه: « لقد كان في من كان قبلكم من بني إسرائيل يُكلّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أُمّتي منهم أحد فعمر[١].

قال القسطلاني: ليس قوله: (فان يكن) للترديد بل للتأكيد، كقولك: إن يكن لي صديق ففلان، إذ المراد اختصاصه بكمال الصداقة لا نفي الأصدقاء.

وإذا ثبت أنّ هذا وجد في غير هذه الأُمّة المفضولة، فوجوده في هذه الأُمّة الفاضلة أحرى.[٢]

وأخرج البخاري في صحيحه أيضاً بعد حديث الغار: عن أبي هريرة مرفوعاً: أنّه قد كان فيما مضى قبلكم من الأُمم محدَّثون، إن كان في أُمّتي هذه منهم، فإنّه عمر بن الخطاب.[٣]

قال القسطلاني في شرحه: قال المؤلف: يجري على ألسنتهم الصواب من غير نبوّة وقال الخطابي: يُلقى الشيء في روعه، فكأنّه قد حُدِّث به يظن فيصيب، ويخطر الشيء بباله فيكون، وهي مترلة رفيعة من منازل الأولياء.

وأخرج مسلم في صحيحه في باب فضائل عمر عن عائشة عن النبي (ص): « قد كان في الأُمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أُمّتي منهم أحد فإنّ عمر بن الخطاب منهم»[٤].

ورواه ابن الجوزي في صفة الصفوة، وقال: حديث متّفق عليه.[٥]

وأخرجه أبو جعفر الطحاوي في « مشكل الآثار » بطرق شتى عن عائشة وأبي هريرة، وأخرج قراءة ابن عباس: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدّث. قال: معنى قوله محدَّثون أي ملهمون، فكان عمر رضى اللّه عنه ينطق بما كان ينطق مُلهماً.

---

١. صحيح البخاري: ٢:١٤٩.
٢. إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري: ٦.
٣. صحيح البخاري ٥:٤٣١.
٤. صفة الصفوة: ١/١٠٤.
٥. مشكل الآثار: ٢/٢٥٧.

قال النووي في شرح صحيح مسلم: اختلف تفسير العلماء للمراد ب « محدّثون »، فقال ابن وهب: ملهمون، وقيل: مصيبون، إذا ظنّوا فكأنّهم حُدِّثوا بشيء فظنّوه. وقيل: تكلّمهم الملائكة، وجاء في رواية: مكلّمون.

وقال البخاري: يجري الصواب على ألسنتهم، وفيه إثبات كرامات الأولياء.

وقال الحافظ محبّ الدين الطبري في « الرياض »: ومعنى « محدّثون واللّه أعلم أي ويلهمون الصواب، ويجوز أن يحمل على ظاهره، وتحدّثهم الملائكة لا بوحي، وإنّما بما يطلق عليه اسم حديث، وتلك فضيلة عظيمة.[١]

قال القرطبي: محدَّثون بفتح الدال اسم مفعول جمع محدَّث بالفتح أي ملهم أو صادق الظن، وهو من أُلقي في نفسه شيء على وجه الإلهام والمكاشفة من الملأ الأعلى، أو من يجري الصواب على لسانه بلا قصد، أو تكلّمه الملائكة بلا نبوّة، أو مَن إذا رأى رأياً أو ظنّ ظنّاً أجاب كأنّه حُدِّث به وأُلقي في روعه من عالم الملكوت فيظهر على نحو ما وقع له، وهذه كرامة يُكرم اللّه بها من شاء من عباده، وهذه منزلة جليلة من منازل الأولياء.

فإن يكن من أُمّتي منهم أحد فإنّه عمر، كأنّه جعله في انقطاع قرينة في ذلك كأنّه نبيّ، فلذلك أتى بلفظ « إن » بصورة الترديد. قال القاضي: ونظير هذا التعليق في الدلالة على التأكيد والاختصاص، قولك: إن كان لي صديق فهو زيد، فإنّ قائله لا يريد به الشكّ في صداقته بل المبالغة في أنّ الصداقة مختصّة به لا تتخطّاه إلى غيره.[٢] فإذا كان في الأُمم السالفة رجال بهذا القدر والشأن، فلماذا لا يكون في الأُمّة الإسلامية رجال شملتهم العناية الإلهية فأحاطوا بالكتاب والسنّة إحاطة كاملة يرفعون حاجات الأُمّة في مجال العقيدة والتشريع.

فمن زعم أنّ مثل هذه الإفاضة تساوق النبوّة والرسالة، فقد خلط الأعم بالأخصّ، إذ النبوّة منصب إلهيّ يقع طرفاً للوحي يسمع كلام اللّه تعالى ويرى رسول الوحي، ويكون إمّا صاحب شريعة مستقلّة أو مروّجاً لشريعة من قبله.

وأمّا الإمام: وهو الخازن لعلوم النبوّة في كل ما تحتاج إليه الأُمّة من دون أن يكون طرفاً للوحي أو سامعاً كلامه سبحانه أو رائياً للملك الحامل له. ولإحاطته بعلوم النبوّة طرق أشرنا إليها.

ومن التصوّر الخاطئ: الحكم بأنّ كل من أُلهم من اللّه سبحانه أو كلّمه الملك فهو نبيّ ورسول، مع أنّ الذكر الحكيم يعرّف أُناساً، أُلهموا أو رأوا الملك و لم يكونوا بالنسبة إلى النبوّة في حلّ ولا مرتحل.

---

١. الرياض: ١/١٩٩.

٢. للوقوف على سائر الكلمات حول المحدَّث، لاحظ كتاب الغدير: ٥/٤٢ ـ ٤٩.

هذه أُمّ موسى يقول سبحانه في حقّها: وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسى أنْ أرْضِعيهِ فإذا خِفْتِ عَلَيهِ فَأَلْقِيهِ في اليَمِّ ولا تَخافِي ولا تَحْزَني إنّا رادُّوهُ إليكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ[1]

أفصارت أُمّ موسى بهذا الإلهام نبيّة من الأنبياء؟

وهذه مريم البتول، تكلّمها الملائكة من دون أن تكون نبيّة، قال سبحانه: وإذْ قالَتِ الملائِكَةُ يا مَريمُ إنَّ اللّهَ اصْطَفاكِ وطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ العالَمِينَ * يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ[2]

بلغت مريم العذراء مكاناً شاهدت رسول ربّها المتمثّل لها بصورة البشر، قال سبحانه فَأَرْسَلْنَا إلَيْهَا رُوحَنا فَتَمثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً * قَالتْ إنّي أعُوذُ بالرَّحمنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِيّاً * قَالَ إنَّما أنا رَسُولُ رَبِّكِ لأهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً * قَالتْ أنّى يكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسني بَشرٌ ولَمْ أَكُ بَغِيّاً * قَالَ كذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَليَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنّاسِ وَرحْمَةً مِنّا وَكانَ أَمْراً مَقْضِيّاً[3]

نرى أنّ مريم البتول رأت الملك وسمعت كلامه و لم تُصبح نبيّة ولا رسولة.

فمن تدبّر في الكتاب والسنّة يقف على أبدال شملتهم العناية الإلهية ووقفوا على أسرار الشريعة ومكامن الدين بفضل من اللّه سبحانه من دون أن يصيروا أنبياء.

---

١. القصص: ٧.

٢. آل عمران: ٤٢ ٤٣.

٣. مريم: ١٧.

الخلاصة

١–الامامة اسم مصدر وهي لغوياً تعني ما يقصده الانسان و يتوجه اليه و يتخذه مثالا و دليلا له،انسانا كان او شيئا آخر و لذلك تعدد الاستعمال القرآني لهذه المفردة في مصاديق مختلفة.

٢–اتفق المسلمون على ضرورة وجود امام يقود الأمة نحو الفلاح و الصلاح و اختلفوا في طريقة نصبه و وظائفه.

٣–الامامة عند أهل السنة امر اجتماعي يمثل رئاسة الشخص في الدين و الدنيا خلافة عن النبي و هي من الفروع كما ان الامام لا ينعزل بالفسق و لا بالظلم و لا بأكبر من ذلك.

٣– الامامة عند الشيعة اصل من اصول المذهب وهي منصب الهي حائز لجميع الشؤون الكريمة والفضائل الا النبوة وما يلازم تلك المرتبة السامية.

٤–إن وظيفة الامام لدى السنة هي ادارة شؤون المسلمين من توزيع الارزاق و تأمين السبل و الجهاد في سبيل الله و ما الى ذلك من امور حياتهم.

٥–ترى الشيعة أن الامام يتولى مهامّ النبي (ص)كلها ما عدى استلام الوحي من تبيين احكام الله و تفسير كتابه و تهذيب النفوس و تزكيتها والحفاظ على الدين مقابل التحريف و التشكيك و....

٦–يقوم الامام بما سبق و هو ملهم مسدد بعلم الهي يفيضه الباري عليه و هذا لا يلازم النبوة بل هو نظير ما ورد في القرآن الكريم عن مصاحب موسى عليه السلام او جليس سليمان عليه السلام او مريم سلام الله عليها.

بسمه تعالى

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٢

نظرية الإمامة بين الفريقين

بكالوريوس

المقدمة

اختلف المسلون قديما في مسألة خلافة رسول الله صلى الله عليه و اله و مازال الامر مطروحا على طاولة البحث و التدقيق لدى العلماء و الباحثين، و هو امر لا يمكن التغاضي عنه بوجه لما يترتب عليه من آثار و نتائج عقدية و فقهية و غير ذلك، فما هي النظريات المطروحة حول موضوع الامامة؟ وما هي الشروط التي تعتبرها المدارس الكلامية في الامام؟ و ماهي الادلة التي يبني عليها كل من الطرفين حجته؟ نقف على هذه المحاور في هذا الدرس من سلسلة دروس المعارف القرآنية.

المحتوى العلمي

تمهيد

للتعرّف على مفهوم كلمة الإمام في القرآن أهمية خاصة، كما أنّ التعرّف على مفهومي النبي والرسول فيه كذلك، وقد فرغنا من تبيين مفهوم الأخيرين في الجزء السابق، وبقي البحث عن مفهوم الإمام في الكتاب العزيز.

إنّ الإمام في مصطلح المتكلّمين هو القائد العام للمسلمين الّذي يخلف النبي (ص) في كل أو بعض ما يمتّ له بصلة، وقد اتّفقت الأُمّة على انسداد باب الوحي وختم التشريع بموت النبي (ص) ولحوقه بالرفيق الأعلى، وإنّما الكلام في مقدار المسؤولية الّتي يتحمّلها الإمام في خلافته عنه، وهذا الاختلاف أوجد نظريتين في باب الإمامة بين المتكلّمين، بل أحدث مدرستين وصار سبباً للاختلاف في لزوم بعض الشروط في الإمام وعدمها، ولا يمكن الوصول إلى الحق إلاّ بعد دراسة النظريتين على ضوء الكتاب والسنّة والعقل، ولا يصح إبداء النظر في لزوم الشروط الّتي ذكرها المتكلّمون إلاّ بعد تلك الدراسة، وإليك بيان النظريتين:

الإمامة تفويض اجتماعي

بمعنى انّ الأُمّة هي صاحبة السلطة العليا تخوّلها للإمام، وهي الّتي تحاسب الإمام وتراقب قراراته وعليها أن تنتخب من يقودها.

وبعبارة أُخرى: إنّ من حقّ الأُمّة أن تختار حكّامها، تعيّنهم وتعزلهم وتراقبهم في كل تصرفاتهم الشخصية والعامّة، وعلى ذلك فالإمامة منصب عرفي كسائر المناصب المطروحة في المجتمع غير أنّها تتفاوت بسعة المسؤولية وضيقها، فالإمام أكثر مسؤولية من الوزراء، وهم أكبر مسؤولية من المدراء العامّين، ولا يخلف الإمامُ النبيَّ الراحلَ إلاّ في بعض مسؤوليته، وهي الأخذ بزمام السلطة في الشؤون الّتي تتوقف عليها حياة الأُمّة، ولأجل ذلك يعتبر فيه من المؤهلات والصلاحيات: الدراية والكفاية أوّلاً، والعلم بالأحكام والقوانين على مستوى خاص ثانياً.

وأمّا سائر الشروط، كالعصمة الإلهية، والعلم بجميع الأحكام الشرعية، والإجابة عن كل الأسئلة المطروحة، والدفاع العلمي عن أُصول الشريعة ومعارفها العليا، وتفسير ما ورد من الآيات في الذكر الحكيم و ... فلا يعتبر قطعاً، لأنّ الهدف المتوخّى من الإمام على هذا الصعيد هو إعمال السلطة وقيادة السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية، وتكفيه المقدرة العادية والعلم بمقدار محدود.

هذا هو أساس تلك النظرية، وعلى ذلك نجد أنّ معتنقي تلك النظرية يصفون الإمام وشروطه بالعبارات التالية:

يقول القاضي الباقلاني: يجب أن يكون الإمام على أوصاف: منها: أن يكون قرشياً من الصميم، وأن يكون من العلم بمنزلة من يصلح أن يكون قاضياً من قضاة المسلمين، وأن يكون ذا بصيرة بأمر الحرب وتدبير الجيوش والسرايا وسدّ الثغور وحماية البيضة وحفظ الأُمّة والانتقام من ظالمها ونصرة مظلومها وما يتعلّق به من مصالحها، وأن لا يكون ممّن تلحقه رقّة ولا هوادة في إقامة الحدود ولا جزع من ضرب الرقاب والابشار.[1]

وقد جاء على منوال القاضي أكثر من تأخّر عنه إلى عصرنا هذا، ولا حاجة لنقل ما ذكره المتأخرون عنه، ونكتفي بنقل ما ذكره أحد الشخصيات البارزة في زماننا ألا وهو الشيخ محمود شلتوت، حيث قال:

اتفق الفقهاء على أنّ خليفة المسلمين هو مجرّد وكيل عن الأُمّة يخضع لسلطان موكّله في جميع أُموره، وهو مثل وكيل من الأُمّة في البيع والشراء يخضع لما يخضع له الوكيل الشخصي كما اتفقوا على أنّ موظفي الدولة الّذين يعيّنهم الخليفة أو يعزلهم، لا يعملون بولايته ولا ينعزلون بعزله باعتباره الشخصي وانّما بولاية الأُمّة وعزلها الّتي وكّلته في التولية والعزل، ولهذا إذا عزل الخليفة لا ينعزل ولاته وقضاته، لأنّهم يعملون باسم الأُمّة وفي حق الأُمّة لا باسم الخليفة ولا في خالص حق الخليفة.[2]

وتتلخص تلك النظرية في أنّ الأُمّة نقلت إلى الإمام ولايتها، وجعلت فيه ثقتها، ولو قام أهل الحل والعقد بتنصيبه، فلأجل أنّهم وكلاء الأُمّة.

هذه حقيقة تلك النظرية عند أصحابها، وسواء أطابقت واقع خلافة الخلفاء وجلوسهم على منصّة الحكم أم لا، فهؤلاء يتبنّون تلك النظرية ويحاولون أن يسوقوا على صحتها الشواهد والدلائل.

---

١. التمهيد: ١٨١

٢. من توجيهات الإسلام: ٥٦٣

الخليفة والعدالة

إنّ أصحاب هذه النظرية اختلفوا في اشتراط العدالة في الخليفة، فهم بين نافين لها مستدلين ببعض الخلفاء الذين افتقدوا السيرة المحمودة والعدالة، وبين مثبتين لها، وإليك نصوص كلا الطرفين:

يقول القاضي الباقلاني: قال الجمهور من أهل الاثبات وأصحاب الحديث: لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه بغصب الأموال وضرب الأبشار وتناول النفوس المحرّمة وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود ولا ينخلع بهذه الأُمور، ولا يجب الخروج عليه، بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في شيء ممّا يدعو إليه من معاصي الله، واحتجوا لذلك بأخبار كثيرة متضافرة عن النبي والصحابة في وجوب طاعة الأئمّة وان جاروا واستأثروا بالأموال.[١]

وقال التفتازاني: وإذا مات الإمام وتصدّى للإمامة من يستجمع شرائطها من غير استخلاف، وقهر الناس بشوكته، انعقدت الخلافة له، وكذا إذا كان فاسقاً اوجائراً على الأظهر إلاّ أنّه يعصي بما فعل، وتجب طاعة الإمام ما لم يخالف حكم الشرع سواء كان عادلاً أو جائراً، ولا ينعزل الإمام بالفسق.[٢]

وعلى هذا الأساس اشتهر بين أهل السنّة: أنّهم لا يرون الخروج على الأئمّة وقتالهم بالسيف وإن كان منهم ظلم ويتمسّكون في ذلك بأحاديث منسوبة إلى النبي (ص)، وربّما يُعلّلون ذلك بأنّ الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل من ظلمهم بدون قتال، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى، ولا تكاد تعرف طائفة خرجت على السلطان، إلاّ كان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الّذي أزالته.[٣]

وعلى هذا الأساس تسلّط أصحاب السلطة من الأُمويين والعباسيين على أعناق الناس، وأراقوا الدماء واستباحوا الأعراض وانتهبوا الأموال، وصار أصحاب الحديث يبرّرون سلوكهم في عدم جهاد الطواغيت بهذه العلة التافهة الّتي لو أخذنا بها لاندرس من الدين حتّى الاسم، وهؤلاء المساكين لا يدرون أنّه إنّما قام للإسلام عمود واخضرّ له عود، بمجاهة المخلصين من المسلمين عن طريق ثوراتهم وأعمالهم على السلطات الجائرة حتّى استشهد كثير منهم، وسقوا شجرة الإسلام بدمائهم الطاهرة، فبقيت مخضرّة تُؤتي أُكلها كل حين.

وفي مقابل هذه الطائفة من أهل السنّة هناك من لمس الواقع ودرس حقيقة الإمامة على وجه صحيح ولو من بعض جوانبها، منهم: القاضي عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، وشارح كتابه المحقّق

---

١. التمهيد: ١٨٦
٢. شرح المقاصد: ٢ / ٢٧٢، ط اسلامبول
٣. منهاج السنة: ٧٨

السيد الشريف، إذ يقولان: نعم يجب أن يكون عدلاً في الظاهر لئلاّ يجور، لأنّ الفاسق ربّما يصرف الأموال في أغراض نفسه ويضيع الحقوق.[١]

ويقول إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني: إنّ الإمام إذا جار وظهر ظلمه وغيّه ولم يرعوِ لزاجر من سوء صنيعه، فلأهل الحل والعقد، التواطؤ على ردعه ولو بحمل السلاح ونصب الحروب.[٢]

يقول العلاّمة الشيخ محمود شلتوت: فالحاكم يجب أن يكون حميد السيرة، فإن ساءت سيرته فللأُمّة عزله.[٣]

الإمامة والاجتهاد

يظهر من كثير من متكلّمي السنّة شرط الاجتهاد في الإمامة.

قال القاضي الإيجي: الجمهور على أنّ أهل الإمامة مجتهد في الأُصول والفروع ليقوم بأُمور الدين.

وقرّره على ذلك الشرط شارح المواقف السيد الشريف الجرجاني مفسراً العبارة المزبورة بقوله: حتّى يكون متمكّناً من إقامة الحجج وحل الشبه في العقائد الدينية مستقلاً بالفتاوى في النوازل والأحكام والوقائع نصاً واستنباطاً، لأنّ أهم مقاصد الإمامة حفظ العقائد وفصل الحكومات ورفع المخاصمات، ولن يتم ذلك بدون هذا.[٤]

وقال شمس الدين بن محمود الاصفهاني (المتوفّى عام ٧٤٩ هـ) المعروف بابن السناء: صفات الأئمّة هي تسع: الأُولى: أن يكون الإمام مجتهداً في أُصول الدين وفروعه.[٥]

وقال إمام الحرمين: إنّ من شروط الإمام الاجتهاد بحيث لا يحتاج إلى استفتاء غيره في الحوادث، قال: وهذا متفق عليه.[٦]

وقد أكد على ذلك الإمام في بعض أسفاره كـ « غياث الأُمم ».[٧]

وقد تبلورت هذه النظرية عند المتأخرين من أهل السنّة، فترى أنّ الشيخ محمد أبو زهرة يقول في حق الحاكم: أن يكون مجتهداً مشاوراً للمجتهدين.[٨]

---

١. شرح المواقف: ٨ / ٣٥٠، ط مصر
٢. شرح المقاصد: ٢ / ٢٧٢
٣. من توجيهات الإسلام: ٥٦٣
٤. شرح المواقف: ٨ / ٣٤٩
٥. مطالع الأنظار : ٤٧٠.
٦. القرشي في كتاب الحكم والإدارة نقلاً عن الإرشاد: ٤٢٦
٧. راجع غياث الأُمم: ٢٧٤
٨. المجتمع الإسلامي: ١٢٨

وهناك عدة أُخرى من المتقدّمين من العلماء والمتأخرين ركّزوا على هذا الشرط.

وأنت إذا لاحظت ما نقلناه عن أصحاب هذه المدرسة في ماهية الإمامة وشروطها تخرج بهذه النتيجة: انّ الإمامة عند أصحابها ليست إلاّ رئاسة عامة لتدبير أمر الجيوش وسد الثغور وردع الظالم والأخذ للمظلوم بحقه وإقامة الحدود وقسمة الفيء بين المسلمين، ولايشترط فيها نبوغ في العلم يزيد على علم الرعية، بل هو والأُمّة في علم الشريعة سيان، ويكفيه من العلم ما يكون عند القضاة، هذه هي ماهية النظرية، وأمّا الشروط فقد وقفت على متفقها ومختلفها.

وعلى هذه النتيجة الّتي خرجنا بها يكون البحث عن العصمة الإلهية والعلم بكل الأحكام الشرعية والذب عن حريم العقائد والمعارف وتبيين ما أجمل من الكتاب أمراً غير لازم بل غير متحقّق ولا متمكن منه، إذ من المستحيل أن يكون منتخب الأُمّة حائزاً لهذا الكمال اذالم يكن المنتخب واقعاً في إطار التربية الغيبية كالنبي (ص) والإمام في النظرية الثانية.

ولأجل ذلك نجد انّ أصحاب هذه النظرية يستوحشون من سماع شرط العصمة في الإمام أو من سماع بعض الشروط مثل أن يكون أعلم الأُمّة وعارفاً بكل ما يرجع إلى الشريعة والسياسة. وإذ فرغنا من دراسة حقيقة هذه النظرية فهلمّ معي ندرس حقيقة النظرية الأُخرى.

الإمامة منصب إلهي

إنّ أصحاب هذه النظرية يعترفون بختم النبوة والرسالة بارتحال النبي (ص) إلى الرفيق الأعلى وانقطاع الوحي بموته (ص)، ومع ذلك يقولون بأنّ منصب الإمامة استمرار لشؤون و وظائف الرسالة، وانّ الإمام يقوم بكل ما كان يقوم به النبي (ص) سوى كونه متلقياً للوحي، فالرسول، خص بالتشريع والوحي الإلهي، وشأن الخليفة والإمام التبليغ والبيان وتفصيل المجمل وتفسير المعضل وإظهار ما لم يتسن للنبي (ص) الإشارة إليه إمّا لتأخّر ظرفه، اولعدم تهيّؤ النفوس له، أو لغير ذلك من العلل، وإذا مات الرسول فهناك أحكام لم تبلغ وإن كانت مشرّعة وأُخرى لم تأت ظروفها فالإمام مبلّغها ومبيّنها.

ولا تتم وظيفة الإمام في هذا المجال فحسب، بل هناك وظائف أُخرى، كوظائف النبي (ص) حذو القذة بالقذة; فالإمام ببيانه يكمل الشريعة، ويزيح شبه الملحدين، ويدرأ عن الدين عادية أعدائه بقوته وسلطانه، ويقيم الأمت والعوج بيده ولسانه، وعلى الجملة كل ما كان من الوظائف والمسؤوليات على عاتق النبي (ص)، فهو على عاتق الإمام إلاّ التشريع وتحمّل الوحي الإلهي.

هذه هي حقيقة هذه النظرية وتترتب عليها الشروط الّتي تسالم أصحابها عليها من كون الإمام: أعلم الأُمّة، وأقضاها، وأعرفها بأُصول الدين وفروعه، وأقواها على الذب عن حريم الدين والعقائد

والمعارف إلى غير ذلك من المؤهلات الّتي يجب أن يكون النبي متّصفاً بها، وقد استدل أصحاب هذه النظرية على ما يتبنّونه بوجوه عقلية ونقلية مذكورة في كتبهم، وعلى القارئ الكريم مراجعتها.

ولأجل إيضاح الحق نأتي بالبيان التالي:

إنّ رحلة النبي الأكرم (ص) أحدثت فراغاً هائلاً في مختلف المجالات المادية والمعنوية، ومقتضى لطفه سبحانه وعنايته بالعباد، أن يملأ هذا الفراغ بإنسان يخلف النبي (ص) ولا يقدر على ذلك إلاّ الإنسان المثالي الّذي يكون له من الوعي والتربية والعلم والشجاعة مثل ما كان للنبي (ص) سوى كونه نبياً ذا شريعة ومتلقياً للوحي.

كان النبي (ص) يقوم بمسؤوليات كثيرة تجمعها الأُمور التالية:

١. إدارة أُمور الأُمّة في مختلف مجالاتها الحيوية: السياسية والاقتصادية والعسكرية والقضائية وغيرها ممّا تجمعها إدارة الحكومة.

٢. تفسير الكتاب العزيز وتوضيح مقاصده وبيان أهدافه وكشف أسراره.

٣. الإجابة عن الأسئلة الشرعية الّتي لها مساس بعمل المسلم في حياته من حيث الحلال والحرام.

٤. الرد على الشبهات والتشكيكات الّتي يلقيها أعداء الإسلام ويوجّهونها ضده من يهود ومسيحيين وغيرهم، فكان يرد عليها تارة بلسان الوحي المقدّس وأُخرى بلسان الحديث.

٥. صيانة الدين الإسلامي عن أي فكرة تحريفية، وعن أي دسّ في التعاليم، فلم يكن لأي دسّاس مقدرة على تحريف الدين أُصولاً وفروعاً.

٦. يرتقي بأُمّته إلى طريق الكمال والتقدّم الروحي.

ولا شك أنّ النبي (ص) كان يقوم بهذه المسؤوليات وكان فقدانه وغيابه عن الساحة، يلازم حدوث فراغ هائل في حياة الأُمّة لايسدّ إلاّ بإنسان يتمتع بتلك الكفاءات عدا النبوّة وتلقّي الوحي.

والفراغ الأوّل وإن كان يملأ باختيار الإمام من جانب الأُمّة لكن الفراغ الباقي لا يسدّ إلاّ بإنسان مثالي تربّى في وضع خاص من العناية الإلهية، ولّما كانت هذه الأُمور النفسية والمؤهّلات المعنوية الّتي يتمكّن بها الإنسان المثالي من ملء الفراغ، لا يمكن الوقوف عليها ومعرفتها إلاّ بتعريف من الله تعالى وتعيين منه، فلأجل ذلك صار الأصل عند أصحاب هذه النظرية في مسألة الإمامة هو التنصيب والتعيين من جانبه سبحانه.

ولّما كان القيام بهذه المسؤوليات متوقفاً على كون الإنسان المثالي مصوناً من الزلل ومعصوماً عن الخطأ، كان الأصل في الإمام هو العصمة من الذنب.

إنّ الإجابة عن الأسئلة الشرعية على وجه الحق، وتفسير القرآن على النهج الصحيح، وتفنيد الشبهات على وجه يطابق الواقع، وصيانة الدين عن أي تحريف لا يحصل إلاّ بمن يعتصم بحبل العصمة ويكون قوله وفعله مميزين للحق والباطل.

نعم انّ الإنسان الجليل ربّما يملأ هذا الفراغ ولكن لا بصورة تامة جداً، ولأجل ذلك نرى أنّ الأُمّة افترقت في الأُصول والفروع إلى فرق كثيرة يصعب تحديدها وتعدادها.

فلأجل هذه الأُمور لا محيص عن وجود إنسان كامل عارف بالشريعة: أُصولها وفروعها، عالم بالقرآن، واقف على الشبهات وكيفية الإجابة عنها، قائم على الصراط السوي ليرجع إليه من تقدّم على الصراط ومن تأخّر عنه.

وهذا يقتضي كون الإمام منصوباً من جانبه سبحانه معصوماً بعصمته، وهذه خلاصة هذه النظرية وأدلّتها الّتي تتمسّك بها.

الخلاصة

١–اختلفت الامة على سعة مسؤولية الامام الذي يخلف النبي صلى الله عليه واله بعد اتفاق الجميع على ضرورة وجوده.

٢–نتج عن هذا الخلاف نظريتان في الاسلام هما التفويض الاجتماعي و المنصب الالهي.

٣–يرى اصحاب النظرية الاولى ان الامام لا يعدو كونه وكيلا عن المسلمين في ادارة شؤونهم و قسمة فيئهم و الدفاع عنهم وما الى ذلك من امور حياتهم.

٤–لا يعتبر اتباع هذه المدرسة عصمة الامام او اعلميته او سائر الفضائل و الكمالات و انما ركزوا على كونه ذا خبرة و دراية بالحكم الى جانب شيء من العلم يعينه على فهم الشرع .

٥–لقد اختلف هؤلاء في اشتراط العدالة في الامام بين مثبت و ناف وذلك لانعدام العدل و الانصاف في بعض من تقلد الخلافة كما ان اكثرهم اعتبر اجتهاد الامام في الاصول و الفروع.

٦–تبنت طائفة من المسلمين نظرية النصب الالهي في الامام و اعتبرت كل ما يعتبر في النبي من مؤهلات و فضائل، ليسد الفراغ بعد النبي و يقوم مقامه في كل شيء سوى تلقي الوحي.

٧–ساق اتباع هذه النظرية ادلة عقلية و نقلية على ما تبنوا و من ذلك قاعدة اللطف الالهي.

٨–لابد ان ينسد الفراغ الذي احدثه وفاة النبي بشخصية مثالية كفوؤة قادرة على تحمل كل ما نهض به النبي و ليس في علم الناس الوقوف على صاحب هذه المؤهلات فتعين النصب الالهي.

بسمه تعالی

جامعة المصطفى المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (۱)

الدرس ۳

الاستدلال بالقرآن على لزوم عصمة الإمام من الذنب (۱)

بكالوريوس

المقدمة

لقد تعرفنا في الدرسين السابقين على نظرية النصب الالهي في الامامة و في هذا الدرس سوف نقف على أول دليل قرآني على هذه النظرية و هي الآية ١٢٤ من سورة البقرة حيث تنص على أن ابراهيم عليه السلام قد نال درجة الامامة من قِبل الله تعالى بعد ابتلائه بكلمات و اتمامها، و لكن ترى ما السبب في ابتلاء الانسان و اختباره؟ ما هي الكلمات التي اتمهن ابراهيم و ما آراء المفسرين في ذلك؟ وأخيرا ما المقصود من الاتمام هنا؟ هذه المواضيع سوف نتعرف عليها في هذا الدرس إن شاء الله.

المحتوى العلمي

الاستدلال بالقرآن على لزوم عصمة الامام من الذنب

الآية الأولى: آية الابتلاء

إنّ أصحاب نظرية النصب الإلهي في الامامة استدلوا بآيات على لزوم كون الإمام معصوماً من الذنب، ونحن نقتصر الآن على آيتين:

أُولاهما: آية الابتلاء. والثاني: آية التطهير، والآية الأُولى تركّز على عصمة الإمام من الذنب على وجه الإطلاق، والآية الثانية تختص بجماعة معينة.

الآية الأُولى: قوله سبحانه: (وَ إِذ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَات فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ).[١]

كيفية الاستدلال بهذه الآية على عصمة الإمام تتوقف على البحث في عدة نقاط:

١. ما هو الهدف من الابتلاء؟

٢. ما هو المراد من الكلمات؟

٣. ما هو المراد من الإتمام؟

٤. ما هو المراد من الإمام؟

٥. كيف تكون الإمامة عهداً إلهياً؟

٦. ما هو المراد من الظالمين؟

٧. ما هي دلالة الآية على عصمة الإمام من الذنب؟

وإليك بيان كل واحدة من هذه النقاط على وجه الاختصار.

---

١. البقرة: ١٢٤.

١. ما هو الهدف من الابتلاء؟

هاهنا سؤال يفرض نفسه وهو انّ الهدف من الامتحان هو الاطّلاع على أحوال الممتحَن، والله سبحانه مطّلع على أحوال العباد، عارف بشؤونهم الخاصة والعامة، فما هو الهدف من وضعهم في ظروف شاقّة من البلاء والامتحان؟

والإجابة عن هذا السؤال تحصل بكل من الأُمور التالية:

١. إنّ الهدف من الامتحان لدى غيره سبحانه،هو الاطّلاع على سرائر الآخرين، وأمّا بالنسبة إليه سبحانه وتعالى فالهدف هو إتمام الحجة على العبد، قال سبحانه: (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَة وَ يَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَة)[١] ولنعم ما قال الشاعر البغدادي:

وليحيا الجيل عن بينة وليهلكن عليها من هلك

وعند الامتحان بالتكاليف والوظائف ينقسم العباد إلى قسمين:

طائفة تقوم بما أُلقي على عاتقها من التكاليف، وأُخرى: تخفق في مجال التكليف.

فالحياة للطائفة الأُولى عن حجة. والهلاك للطائفة الثانية عن حجة أيضاً، قال سبحانه: (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)[٢]، وقال سبحانه أيضاً: (قُلْ فَللهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ)[٣].

فالله سبحانه يعلم القائم بالوظائف من القاعد عنها، ولكنّه لو جازاهم بهذا العلم، ربما يعترض عليه القاعد بأنّه لو كلّفه في الدنيا لقام بالوظائف، فلماذا أثابه دونه؟ فلأجل محو هذا الاعتراض من الأساس، جعلهم في بوتقة الامتحان حتى تكون له الحجة البالغة على القاعدة.

٢. انّ الهدف من الاختبار هو تمحيص المؤمن من الكافر، وتمييز الخبيث من الطيب في المجتمع الإسلامي، فإنَّ لهذا التمحيص شأناً من الشؤون وأثراً من الآثار، قال سبحانه: (مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)[٤]، وقال سبحانه: (لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْض فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)[٥] وبما أنّ المنافق يتظاهر بالإيمان، والعدو بالصداقة، فلابدَّ من إجراء الامتحان والابتلاء حتى يتميزا، فإذا

---

١. الأنفال: ٤٢.

٢. النساء: ١٦٥.

٣. الأنعام: ١٤٩.

٤. آل عمران: ١٧٩.

٥. الأنفال: ٣٧.

أمر الله سبحانه ببذل النفس والنفيس في سبيل الله فيتقدّم المؤمن حسب إيمانه ويتثاقل المنافق، وعندئذ يتمايز الصنفان.

٣. انّ الهدف من الامتحان، إبراز الطاقات الكامنة في الإنسان وإخراجها من مكامنها، فكل إنسان خلق وله قابليات خاصّة كامنة في ذاته، غير أنّ ظهورها وخروجها من القوّة إلى الفعل، يحتاج إلى وقوع الإنسان في خضمّ الامتحان والاختبار حتى تنبثق تلك القابليات من مكامنها، وترى نور الوجود فكما أنّ البذرة لا تتفتح، ولا تصير نباتاً ولا شجرة إلاّ بعد ابتلاء وتأثير من الهواء، والشمس، والأرض، فهكذا الإنسان لا تتفتح طاقاته الكامنة إلاّ إذا وضع في ظروف خاصّة توجب تفتح القوّة وظهورها إلى مرحلة الكمال.

فالتكاليف الشاقة الملازمة للشدّة والضغط، توجب ظهور الثمار وإبراز الطاقة.

ولندرس حياة الخليل (ع) حتى نقف على حقيقة هذا الجواب.

كان إبراهيم (ع) قبل الابتلاء إنساناً ذا طاقة وكمال دفين في شخصيته غير أنّ تلك الطاقة – الّتي نعبّر عنها: بأنّه كان قابلاً لأن يكون إنساناً مثالياً ملكوتياً بترك كل شيء من أجل خالقه تعالى – كانت مستورة في وجوده، دفينة في أغوار شخصيته، فأراد سبحانه إظهارها فجعلها في مجال الامتحان وبوتقة الاختبار، فتفتحت وصارت كمالاً بالفعل.

وقد أشار الإمام علي (ع) إلى هذا الجواب بقوله: « لا يقولنّ أحدكم اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الفتنة، لأنّه ليس أحد إلاّ وهو مشتمل على فتنة، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلاّت الفتن، فإنّ الله سبحانه يقول: (وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)[١] ».[٢] وهذا التعبير من الإمام يشير إلى أنّ الامتحان سنّة ثابتة من الله سبحانه وتعالى في عباده ليس عنها محيص، ويشير بعد ذلك إلى فلسفة تلك السنّة بقوله)ع): « ومعنى ذلك انّه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبيّن الساخط لرزقه والراضي بقسمه، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال الّتي بها يستحق الثواب والعقاب، لأنّ بعضهم يحب الذكور ويكره الإناث وبعضهم يحب المال ويكره انثلام الحال »[٣].

إنّه سبحانه جعل الخليل على محك الاختبار فأمره بمكافحة عبدة الأصنام وكسر آلهتهم المزعومة، إلى حدٍّ يستعد به للبلاء في طريق طاعته، وإن كان بالقتل والحرق، كما أمره سبحانه بإسكان أهله بأرض غير ذي زرع، كما أمره ببناء بيته وتطهيره، وذبح ولده بيده، و... فهذه الوظائف الشاقة المرّة في

---

١. الأنفال: ٢٨.

٢. بحار الأنوار: ٩٤ / ١٩٧ / ح ٦.

٣. نهج البلاغة: قسم الحكم برقم ٩٣.

ظاهرها، الحلوة في باطنها، جعلت الخليل (ع)بفضل بطولاته العجيبة في مجال الامتحان إنساناً إلهيـــاً لايعرف في مسيرة حياته غير الله ولا يهمه غير أمره، وهذا منتهى الكمال الممكن للإنســـان المثـــالي، فكم فرق بين إنسان نسي ميوله الحيوانية وغرائزه عندما تعارضت مع مراد مولاه وغاية مناه وهو الله، وبين إنسان غارق في الشهوات وخائض في لجج الغرائز، أسّره الهوى فصار عبداً للشيطان (أَرَأَيْتَ مَن اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)[١].

فالاختبار يجلي تلك الطاقات الكامنة في الصنفين المتقابلين في الناس، ويعمل في النفوس المستعدة عمل الحرارة في تمييز الذهب عن خليطه.

هذا مجمل القول حول فلسفة الامتحان والتفصيل موكول إلى البحث عن الآيات الواردة حوله.

٢. ما هو المراد من الكلمات؟

الكلمات جمع «كلمة»، والمراد منها هو المفرد من الألفاظ، وربّما يطلق على الجملة، فيقال: «لا إله إلاّ الله» كلمة الإخلاص، غير أنّ القرآن يتوسع بعناية خاصّة في استعمال الكلمة فيطلقها على الأشياء والأفعال الخارجية قال سبحانه: (بِكَلِمَة مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ)[٢]، وقال سبحانه: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي)[٣]، وكمـــا أنّـــه يســـتعملها في الأعيان الخارجية، يستعملها أيضاً في الأفعال الّتي يقوم بها الإنسان الممتحن، وقد اختلف المفسرون في تعيين تلك الأفعال الّتي اختبر الخليل(ع) بها، فنأتي بآرائهم إجمالاً:

١. المراد من الكلمات هي الإمامة، وتطهير البيت، ورفع القواعد، والدعاء لبعث محمد (ص)، فـــإنّ هذه الأُمور شاقة، أمّا الإمامة فلأنَّ المراد منها هنا هي النبوّة، وهذا التكليف يتضمن مشاقاً عظيمـــة، وأمّا بناء البيت وتطهيره ورفع قواعده فمن وقف على ما روي في كيفية بنائه عرف شدّة البلوى فيه، ثم إنّه يتضمن إقامة المناسك، وقد امتحن الله الخليل عليه الصلاة والسلام بالشيطان في الموقف لرمـــي الجمار وغيره، وأمّا اشتغاله بالدعاء في أن يبعث الله تعالى محمداً (ص) في آخر الزمان فهذا ممّا يحتـــاج إليه من إخلاص العمل لله وإزالة الحسد عن القلب بالكلية.[٤]

ولا يخفى أنّ الرازي ومن قال بهذا القول قد خلطوا الحق بالباطل، أمّا الحق فلأنَّ عدّ تطهـــير البيـــت ورفع قواعده من الأُمور الّتي اختبر الله الخليل بها حق لا مرية فيه، وسيوافيك بيانه، وأمّا الباطل فهـــو أمران:

---

١. الفرقان: ٤٣.

٢. آل عمران: ٤٥.

٣. الكهف: ١٠٩.

٤. مفاتيح الغيب: ١ / ٤٩٠، ط مصر.

الأوّل: عدّ الإمامة من جملة ما اختبر بها إبراهيم (ص)، فلأنّ الظاهر من الآية أنّه سبحانه شرّف إبراهيم بمقام الإمامة بعد أمرين:

١. الابتلاء بالكلمات.

٢. إتمامه إيّاها.

فعند ذلك نصبه سبحانه في مقام الإمامة ونتيجة ذلك مغايرة الكلمات مع الإمامة الموهوبة له، ولو كانت الإمامة من جملة ما ابتلي به إبراهيم لوجب تقديمها على قوله: (فأتمّها) وناسب أن يقول: « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات قال إني جاعلك للناس إماماً فأتمهن ».

والعجب أنّ الرازي جعل تطهير البيت ورفع قواعده من جملة الكلمات الّتي ابتلي بها إبراهيم، و لم يجعل قيامه بذبح الولد، واستعداده لذلك من جملة تلك الكلمات، مع أنّه سبحانه يعرّف ذاك العمل بأنّه بلاء مبين ويقول: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ).[١]

وإنّما فعل الرازي ذلك لأنّه قصر نظره في الآيات الواردة بعد هذه الآية، فقد ورد فيها الأمر بالتطهير ورفع القواعد وطلب بعث النبي (ص)، فزعم الكل تفسيراً « للكلمات » مع أنّه ليست في بيان تلك الأُمور أيّة قرينة على كون هذه الأُمور تفسيراً لها، وإنّما وقفنا على كون بعض ما جاء فيها من الكلمات، من القرائن الخارجية.

والظاهر المتبادر، أنّ تنصيبه في مقام الإمامة كان جزاءً منه سبحانه لإتمامه الكلمات ونجاحه في الامتحان، فلو كانت الإمامة من جملة تلك الأُمور لأصبح الكلام غير تام، وصار السامع في نظائر المقام ينتظر حين يسمع، المثوبةَ الّتي نالها إبراهيم لأجل النجاح في معترك الامتحان ولا يتم ذلك إلاّ بإخراج الإمامة عن جملة تلك الأُمور، وجعلها جزاءً لإتمامه الكلمات لامن الأُمور الّتي اختبر بها.

وأمّا ما أيّد به الرازي نظره وقال: ثم إنّ الّذي يدلّ على أنّ المراد ذلك أنّه عقبه بذكره من غير فصل بحرف من حروف العطف، فلم يقل: فقال إنّي جاعلك للناس إماماً » بل قال: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)، فدلّ على أنّ الابتلاء الوارد في الآية كان عبارة عن هذه الأُمور المذكورة.

ففيه أنّ (إذ) في قوله سبحانه (وإذ ابتلى) ظرفية زمانية، وليس مظروفه سوى قوله (قال إنّي جاعلك)، ومفاد الآية هكذا: في الظرف الّذي ابتلي إبراهيم بكلمات وأتمّها، قيل له إنّه منصوب للإمامة، وعلى هذا لا حاجة للإتيان بحرف العطف « فاء » كانت أو غيرها.

وبعبارة أُخرى: يريد سبحانه أن يقول: في هذا الظرف الكذائي الّذي ابتلاه الله بكلمات وهو أتمّها، قال له سبحانه: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) وفي مثل المورد يكون العاطف مخلاً، ولعل الرازي توهم

---

١. الصافات: ١٠٦.

ّأنّ «إذ» الظرفية متضمنة لمعنى الشرط، وهو غير صحيح، وليست هذه أوّل قارورة كسرها الرازي، فله في تفسيره شطحات كثيرة يقف عليها السابر فيه، خصوصاً فيما يرجع إلى العلوم العربية وتفسير كلمات القرآن ومفرداتها، ولأجل ذلك قال أبو الوليد ابن الشحنة الحنفي الحلبي في روض المناظرة في حوادث سنة ٦٠٦ هـ: إنّ الرازي له اليد الطولى في العلوم خلا العربية.[١]

الثاني: انّه زعم انّ اشتغال الخليل بالدعاء في حق النبي (ص) دليل على إخلاصه وزوال الحسد من قلبه.

وفيه: انّه لا شك في إخلاصه وطهارته من كل رذيلة خلقية، لكن جعل هذا دليلاً عليه أشبه شيء بجعل الصباح دليلاً على وجود ضوء الشمس، فإنّ العامة من الناس يقومون بذلك فضلاً عن الأكارم،فكىف بالأنبياء؟ ولا يستدل أحد بهذا العمل على إخلاص الداعي وطهارته من الحسد خصوصاً إذا كان المدعو له يجيء بعده بقرون وبالأخص إذا كان من أولاده وأحفاده.

ولعمر القارئ إنّه لو وقف عربي صميم خال ذهنه عن المناقشات الكلامية على هذه الآية، لقضى بأنّه كان هناك ابتلاء من الله بالنسبة إلى نبيّه إبراهيم بعدّة أُمور، وإنّ إبراهيم أتمهن فجزاه الله سبحانه بتشريفه بمقام الإمامة، وأمّا ما هو المراد من الكلمات، فهو من الأُمور الّتي يجب أن تطلب من التفحص حول ما ورد في حقه (ص) من الآيات، ولا يخطر بباله أنّ الإمامة من جملة ما ابتلي به إبراهيم.

٢.المراد من الكلمات: الخصال العشر الّتي تسمّى خصال الفطرة، وهي: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وتقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، والاستنجاء بالماء.

هذا الرأي لا يقصر عن سابقه، فإنّ القيام بهذه الأُمور ليس أمراً شاقاً حتى يبتلي الله بها أنبياءه ورسله، بل يقوم بها كل إنسان بسهولة.

٣.المراد من الكلمات هو الخصال الثلاثون الّتي لم يبتل أحد بها قبله، فأقامها الخليل (ع) كلّها فأتمهن فكتب له البراءة فقال تعالى: (وَ إِبْرَاهِيمَ الذِي وَفَّى) وهي:

عشرة في سورة براءة: (اَلتَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ...)[٢]، وعشرة في سورة الأحزاب: (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمَاتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ...)[٣]، وعشرة في سورة المؤمنون: (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ

---

١. الغدير: ١ / ٣٥٧ ط بيروت.

٢. التوبة: ١١٢.

٣. الأحزاب: ٣٥.

خَاشِعُونَ * وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ...)[١]، وعشرة في سورة المعارج: (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ... * وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ)[٢].

ولا يخفى أن هذا أشبه شيء بالتفسير بالرأي، وإنّما هو مجرّد استحسان، و لم يدل دليل على كون المراد من الكلمات هذه الخصال الواردة في الآيات المباركة على أنّ الخصال أزيد من ثلاثين، فلاحظ.

٤. المراد هو التكاليف الشاقة الملقاة على عاتق الخليل منذ شبابه إلى أُخريات أيامه، يظهر ذلك بالرجوع إلى الآيات التالية الحاكية عن حياته، من شبابه إلى شيخوخته: (وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْب سَلِيم * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لاَ تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَ اللهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ * وَ قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَم حَلِيم * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنِيَ إِنِّي أَرى فِي الْمَنَامِ إِنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِين * وَ نَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ * وَ فَدَيْنَاهُ بِذِبْح عَظِيم * وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَ بَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * وَ بَارَكْنَا عَلَيْهِ وَ عَلَى إِسْحَاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ)[٣].

وهذه الآيات تصرّح بأنّ إبراهيم بطل التوحيد قد ابتلي منذ شبابه إلى شيخوخته بأُمور:

١. أمره سبحانه بتحطيم الأصنام، فقام بهذا العمل الخطير بحماس ورباطة جأش، واستقبل رد فعل قومه وهو الإلقاء في النار، بصلابة وقوّة عزيمة.

٢. أمره تعالى بترك الوطن وإلقاء الرحل في دار الغربة لنشر الدعوة، فجاءه الوحي بأن يذهب بأهله وولده إلى واد غير ذي زرع، فاستقبل الأمر ببشاشة وجه، ونادى ربَّه بقوله: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَاد غَيْرِ ذِي زَرْع عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ)[٤].

---

١. المؤمنون: ٢ – ٩.

٢. المعارج: ٢٣ – ٣٤.

٣. الصافات: ٨٣ – ١١٣.

٤. إبراهيم: ٣٧.

أمره سبحانه بعمارة البيت ورفع قواعده وتطهيره، وجاء به النص في قوله سبحانه: (وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ...)وكذلك قوله تعالى(إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).[1]

٤. أمره بذبح ولده، فقام بامتثال الأمر على صعوبته البالغة برحابة صدر وتسليم لأمر الله، بحيث حكى ذلك تعالى بقوله: (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ...).

فالله سبحانه يصف القيامة بالأمر الأخير بقوله: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ).[2]

وهذا التوصيف (البلاء المبين) وإن كان ناظراً إلى قيام إبراهيم بمحاولة ذبح الولد، ولكنّه يشعر بأنّ بقية الكلمات الّتي ابتلي بها إبراهيم كانت أعمالاً تشابه ذلك من حيث المشقة، وليست تلك الأعمال في حياة إبراهيم إلاّ ما تكفّلت تلك الآيات ببيانها.

فعند ذلك قامت الحجة على أنّ إبراهيم خالص من كل مزيج، صفو من كل كدر، فاستحق الارتقاء إلى منصب عال لم يرتق إليه أحد من قبله، وهو منصب الإمامة.

٣. ما هو المراد من الإتمام؟

المراد من الإتمام التمام في مقابل النقص، ومعنى الإتمام إبلاغ الشيء إلى حد الكمال، يقول سبحانه: (وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)، والمراد من إتمام الكلمات هو القيام بها بنجاح في معترك الابتلاء، وقد نقل سبحانه كيفية نجاح إبراهيم في تلك المعركة وتظهر بالرجوع إلى الآيات الواردة حول ابتلائه في السور المختلفة.[3]

قال الزمخشري في « الكشاف » في تفسير « فأتمهن »: فقام بهنّ حق القيام وأدّاهنّ أحسن التأدية من غير تفريط وتوان. ويؤيد كون الفاعل هو إبراهيم قوله سبحانه: (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَ إِبْرَاهِيمَ الذِي وَفَّى)[4] ، أي تمّم وأكمل ما ابتلي وامتحن به أو الأعم منه وما أمر به.[5]

وربّما يحتمل كون الفاعل، هو الضمير العائد إلى الله سبحانه، وعليه يكون مفاده توفيقه لما أراد منه حتى تصح نسبة إتمام الكلمات إليه سبحانه، فالفاعل المباشر هو الخليل والله سبحانه هو الموفّق، وتصح نسبة الفعل الواحد إلى المباشر والسبب جميعاً.

---

١. البقرة: ١٢٥ – ١٢٧.

٢. الصافات : ١٠٦.

٣. البقرة: ١٢٧ – ١٢٨ ؛ الأنعام: ٧٠ – ٨٣ ؛ الأنبياء: ٥٣ – ٧١ ؛ الحج: ٢٦ – ٢٧ ؛ وسورة إبراهيم: ٣٧ – ٤٠.

٤. النجم: ٣٦ – ٣٧.

٥. لاحظ الكشاف: ١ / ٢٣٦ ؛ مجمع البيان: ٥ / ١٨٠.

وأمّا تفسير الإتمام – بناء على كون الضمير عائداً إلى الله – « بأنّه أعطاه ما طلبه و لم يــنقص منــه شيئاً»، فهو كلام عار عن التحقيق، فإنّ الضمير المتصل بالفعل يرجع إلى الكلمات، أعني: « هــن » في « أتمهن » وليست الكلمات شيئاً طلبها إبراهيم من الله، بل الله سبحانه طلبها منه كما سيوافيك، وعلى ذلك لا يصح تفسير إتمام الله بإعطائه ما طلبه إبراهيم منه، وإنّما يصح بتوفيقه إيّاه للقيام بما أمر والنجاح في ما ابتلي.

الخلاصة

١.لقد استدل القائلون بالنصب الإلهي في الامامة،بأدلة قرآنية تثبت عصمة الامام منها آية الابــتلاء و آية التطهير.

٢.من الآيات القرآنية التي استدل بها هي الآية ١٢٤ من سورة البقرة و التي تتحدث عن نصب ابــراهيم اماماً للناس من قبل الله تعالى (و اذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال اني جاعلك للناس اماما).

٣.الغاية من الامتحانات الالهية هي اتمام الحجة على العبد يوم القيامة وكذلك تمحيص المؤمن من الكــافر و المنافق واخيراً ابراز الطاقات الكامنة في وجود الانسان و إلا فإن الله تعالى عالم بما تخفي الصدور.

٤.الكلمات جمع الكلمة و هي لُغوياً تدل على اللفظ الواحد او الجملة و قد استعملها القرآن الكريم في نطاق اوسع فأطلق الكلمة على الاشياء و الاعيان الخارجية كما اطلقها على الافعال التي يقوم بها الانسان.

٥. هناك أقوال في توضيح المراد من الكلمات في الآية المباركة منها أن الكلمات امور كالامامــة و الدعاء لبعث النبي الخاتم (ص)و فيه أن الامامة لا تصلح ان تكون من الكلمات بل هي نتيجة لاتمــام تلك الكلمات.

٦.هي الخصال العشر (قص الشارب و المضمضة و نتف الابط و...) او الثلاثون و هي ثلاثون صفة موزعة في آيات الكتاب العزيز.

٧.ان الخصال العشرة المتقدمة ليست في تلك الدرجة من الصعوبة حتى يخــتص نــبي الله و خليلــه بالابتلاء بها، كما أن تفسير الكلمات بالخصال الثلاثين لا يعتمد على دليل وحجة واضحة.

٨.الصواب أن الكلمات هي مجموع ما ابتلي به ابراهيم (ع) طيلة حياته من التكاليف الشاقة كوقوعه عرضة لعقوبة الاحراق بعد تحطيمه للاصنام،الى اسكان اهله في صحراء قاحلة انقياداً لله،الى ذبح ابنــه الى....

٩.المراد من الاتمام في الآية هو التمام و الإكمال ما يعني بأن ابراهيم (ع) اجتاز كل الابتلائات الالهية بنجاح وفوز كما يثني عليه الباري في قوله تعالى:وإبراهيم الذي وفى.

بسمه تعالى

جامعة المصطفى المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٤

الاستدلال بالقرآن على لزوم عصمة الإمام من الذنب (٢)

بكالوريوس

المقدمة

لقد مرّ في الدروس السابقة الحديث عن مفهوم الامامة في القرآن الكريم و أهمية هـذا الموضـوع في الابحاث العقائدية كما ألمحنا الى وجود نظريتين في الامامة هما التفويض الاجتماعي و المنصب الالهي و قد بدأنا في بيان اول دليل قرآني أقيم على نظرية النصب الالهي و هي آية الابتلاء. فدرسنا بعض مـا يتعلق بمفردات هذه الآية إلا انه بقي أمامنا بعض التساؤلات، فما هو ملاك إمامة ابراهيم عليه السلام في آية الابتلاء و ما هي الآراء في ذلك؟ هل الامامة هنا تعني نبوته ام أنه كان نبياً قبل ذلـك؟ هـل كون ابراهيم اسوة للانبياء و لغيره هو الذي أهّله لهذا المنصب الالهي أم أن الملاك شيء وراء ذلـك كله؟ سنتعرف على هذه المواضيع في هذا الدرس إن شاء الله.

المحتوى العلمي

ما هو ملاك إمامة الخليل(ع) فى آية الابتلاء؟

نرى أنّ المفسرين يفترضون للإمام معاني مختلفة، ثم يبحثون عن معناه في هذه الآية ويذهبون يميناً وشمالاً، غير انّ البحث بهذه الكيفية غير تام أصلاً، لأنّه ليس لذلك اللفظ إلاّ معنى واحد كما بيّنا، والّذي يجب التركيز عليه هو التعرض لملاك الإمامة ومعيارها وإنّه بماذا جعل الخليل إماماً في زمانه دون لوط (عليه السلام) مع أنّ الثاني كالأوّل كان نبياً، ومع ذلك خُصّ بكونه إماماً من بين أنبياء عصره، فلابد أن يكون هناك ملاك يختص به الخليل عليه السلام. وعلى الجملة نحن لا نشك انّ للكلمة في جميع موارد استعمالها معنى واحداً سواء أوقعت وصفاً للكتاب أم للطريق أم للإنسان، ولكن الّذي كان من واجب المفسرين هو تعيين ملاك الإمامة في كل مورد من موارد استعمالها حتى الآية الّتي نبحث عنها غير أنّهم أهملوا تلك الناحية الحساسة في البحث.

ولأجل ذلك نطرح ما ذكره المفسرون على بساط البحث معبرين عنه بملاكات الإمامة ومعاييرها.

الملاك الأوّل هو النبوة

ذهب عدّة من المفسرين منهم الرازي في « مفاتيح الغيب » ـــ إلى أنّ المراد من الإمامة هنا هو النبوة. بعبارة صحيحة: انّ ملاك إمامة الخليل نبوته، لأنّها تتضمن مشاقّ عظيمة.[1]

---

١. مفاتيح الغيب: ١ / ٤٩٠.

وقال الشيخ محمد عبده على ما في « تفسير المنار »: الإمامة هنا عبارة عن الرسالة، وهي لا تنال بكسب الكاسب، وليس في الكلام دليل على أنّ الابتلاء كان قبل النبوة.[١]

ولا يخفى وهن هذا الرأي، لأنّ إبراهيم (عليه السلام) كان نبياً قبل الابتلاء بالكلمات وقبل تنصيبه إماماً، فكيف يصحّ أن تفسر الإمامة بالنبوة على ما في لفظ الرازي والرسالة على ما في لفظ المنار؟!

ويتضح ذلك بالأُمور التالية:

١. إنّ نزول الوحي على إبراهيم (عليه السلام) ــ كما تدل عليه الآية: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)،أوضح دليل على أنّه كان نبياً متلقياً للوحي قبل نزول هذه الآية، وليس في وسع أحد أن يقول: إنّ الخطاب إليه بقوله: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) يدلّ على كونه نبياً حينه، ولا يدل على كونه نبياً من قبل، وذلك لأنّ اسلوب الوحي البدائي يختلف لوناً عن الوحي الاستمراري، فالمحاورة الموجودة في هذه الآية تُعرب عن أنّه كان مأنوساً بالوحي قبل نزولها، ولأجل ذلك لما تشرف بمقام الإمامة أطال الكلام وطلبها لذُريته، وليس هذا اللون من الكلام يشبه الوحي الابتدائي أبداً، فإنّ الإنسان في بدء لقائه وكلامه مع شخص، لا يتجاوز عن أُمور كلية ولا يتجاوز إلى أخص الخصوصيات، وهي طلب المنزلة لنسله، بل هذا يناسب كلام من كان مأنوساً بمن يخاطبه ويكلّمه.

ويمكن لك أن تكشف الحقيقة بالخطاب النازل على موسى في بداية الإيحاء إليه بالنبوة قال سبحانه: (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).[٢]

ونظير ذلك ما خوطب به النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في بدء نزول الوحي، قال سبحانه: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ)[٣].

ومن هذا ينتج انّ الخليل كان نبياً قبل إلقاء الخطاب بالرسالة عليه، فيكون ملاك الإمامة غير النبوة.

٢. دلت الآيات على أنّ إبراهيم كان نبياً و لم يرزق أيّ ولد لا إسماعيل ولا إسحاق.

أمّا الأوّل فإنّما بُشّر به بعد ما كان نبياً وقام بتحطيم الأصنام في « بابل » وحكم عليه بالإحراق، ولّما نجّاه سبحانه وعالى، ترك الموطن ذاهباً إلى فلسطين، فعند ذلك جاءت البشارة بأنّه يرزق غلاماً حليماً، قال سبحانه: (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَ اللهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ

---

١. تفسير المنار: ١ / ٤٥٥.

٢. القصص: ٣٠.

٣. العلق: ١.

الأَسْفَلِينَ * وَ قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيم * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنِي إِنِّي أَرى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)[١].

وأمّا الثاني فقد بُشّر به أيضاً عندما نزلت عليه الملائكة ضيوفاً، قال سبحانه: (وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيم * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ)[٢]، ونزول الملائكة –الذين كانوا مرسلين إلى قوم لوط – عليه،آية نبوته عند البشارة بإسحاق.

هذا من جانب، ومن جانب آخر إنّ إبراهيم يطلب من الله سبحانه أن يرزق ذريته الإمامة كما رزقها إيّاه، فطلبه لها دليل على أنّه كان عند إفاضة الإمامة عليه ووقت الدعاء لذريته، صاحب ذرية وأولاد.

إذا عرفت هذين الأمرين فنقول: يجب أن تكون الإمامة الموهوبة (عند ما كان الخليل صاحب ذرية) غير النبوة، وإلاّ فيلزم أن تكون هبة المنصب الّذي كان واجداً له قبل ذلك بكثير، أشبه بتحصيل الحاصل.

والحاصل: انّ الآية تدل على أنّ الإمامة أُفيضت عليه عندماكان ذا ولد بدليل طلبها لهم، ودلّت الآيات الماضية على أنّه كان نبياً قبل أن يرزق أيّ ولد، فينتج انّ الإمامة الموهوبة في الأزمنة المتأخرة عن بعثته بكثير، غير النبوة، غير انّ بعض المفسرين لّما وقف على ذلك الوجه وانّه لا يصحّ طلب شيء للذرية إلاّ لمن كان له بعضها صار بصدد دفعه بأنّ إبراهيم يوم خوطب بقوله سبحانه: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً...) لم يكن ذا ذريّة وإنّما طلبها لهم لأجل التعرّف من جواب الله سبحانه على أنّه هل يكون في المستقبل ذا ذرية أم لا؟ فوقف من جوابه سبحانه على أنّه لايموت عقيماً بل يكون ذا ذرية.

ولايخفى أنّ ما ذكره غير صحيح، لأنّ الحكم على الذرية على وجه الإيجاب يقتضي أن يكون الرجل رزق بعضها، وأمّا إذا لم يكن له أي ولد فلا يستحسن في العرف، الدعاء لهم بالإمامة، ولأجل ذلك ترى أنّ إبراهيم يستعمل لفظ الذرية في أولاده المحقّقين ويقول: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَاد غَيْرِ ذِي زَرْع عِنْدَ بَيْتِكَ الْمحَرَّمِ)[٣].

ويقول أيضاً: (رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً)[٤]، وقد طلب ذلك عندما كان يرفع القواعد من البيت مع ولده إسماعيل.

---

١. الصافات: ٩٣ ـــ ١٠٢.

٢. الحجر: ٥١ ـــ ٥٥.

٣. إبراهيم: ٣٧.

٤. البقرة: ١٢٨.

نعم إنّ الإنسان يصحّ أن يطلب من الله ذرية صالحة تكن قرة عين له كما أمر به سبحانه بقوله: (وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُن وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً)[١]، ولكن لا يصحّ إذا أُعطي شيئاً من جانب الله سبحانه، أن يطلبه في الوقت نفسه لذريته مع أنّه لم يكن في وقت الطلب ذا ذرية، فإنّ ذلك كلام خارج عن المتعارف، وأمّا كون الطلب لأجل الوقوف على أنّه هل يرزق في المستقبل بعض الذرية أو لا؟ فهو كما ترى.

قال العلاّمة الطباطبائي: وكيف يسع من له أدنى تدريب بأدب الكلام، وخاصة مثل إبراهيم الخليل في خطاب يخاطب به ربّه الجليل أن يتفوّه بما لا علم له به؟ ولو كان ذلك لكان من الواجب أن يقول: ومن ذريتي إن رزقتني ذرية أو ما يؤدّي هذا المعنى.[٢]

الملاك الثاني كونه أُسوة في المجالات الثلاثة

النبوة عبارة عن نزول الوحي على الإنسان، والرسالة إبلاغه وتحقيق النبوة في مجالها، ولكن ليس كل نبي إماماً بل الأنبياء على قسمين: منهم أئمّة ومنهم غير أئمة قال سبحانه: (وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)[٣]، والآية بحكم « من » التبعيضية تدل على أنّه سبحانه لم يجعل كل الأنبياء أئمّة، بل جعل البعض منهم أئمّة.

وعلى ذلك فيجب التفحص في الآيات الواردة حول الأنبياء للتعرف على الأئمّة من بينهم، ويستظهر انّ المراد مَن يصلح أن يكون أُسوة على الإطلاق في جميع المجالات الثلاثة: قولاً وفعلاً وتقريراً، لا في مجال خاص كالإتيان بالواجبات وترك المحرمات دون مجال كترك الأولى.

توضيحه: انّ الأنبياء على قسمين: قسم منهم يصحّ أن نجعل أقوالهم وأفعالهم وتقريراتهم على وجه الإطلاق أُسوة، ودليلاً في مجالات الحياة ; وقسم منهم ليسوا كذلك، لأنّهم اقترفوا ما كان الأولى والأليق بشأنهم تركه، ولأجل ذلك لا يصحّ أن يتخذوا أئمّة على الإطلاق، ونرى أنّه سبحانه ينقل عن عدة منهم اقتراف أُمور لا تصحّ أن تتخذ قدوة في الحياة وأُسوة للمؤمنين، يقول سبحانه في حق أبينا آدم: (وَ لَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا)[٤].

---

١. الفرقان: ٧٤.

٢. الميزان: ١ / ٢٧.

٣. السجدة: ٢٤.

٤. طه: ١١٥.

كما ذكر تعالى عن نبيه موسى (عليه السلام) عندما وكز عدوه وقضى عليه: (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ)[١].

وينقل عن نبيّه يونس قوله: (وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)[٢].

وهذه الأعمال الصادرة من هؤلاء الأنبياء وإن لم تكن معصية ونقضاً للحكم المبرم وكانت عبارة عن ما يسمّى بـــ « ترك الأولى » في المصطلح، وقد دللنا على ذلك عند البحث عن عصمة الأنبياء غير انّ هذه الأفعال حالت بينهم وبين أن يكونوا أئمّة على الإطلاق ويؤخذ بأفعالهم على وجه الإبرام، ولأجل ذلك لم يكونوا أئمّة وأُسوة في كل شيء وإنّما كانت الإمامة ثابتة لطائفة أُخرى من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهم الذين يصفهم سبحانه بقوله: (وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ)[٣].

فالهداية المطلقة والدعوة الواسعة والأُسوة التامة خاصة لقسم من الأنبياء وإن كان كل نبي داعياً وهادياً إلى الحلال والحرام، ويرشد إلى ذلك أنّ الخليل إنّما وصل إلى ذلك المقام، بعد ما صار خليلاً، والخلّة هي فراغ القلب من غير الله سبحانه بحيث لا يفعل صاحبها إلاّ ما فيه رضى الله سبحانه وتعالى، وإليك نص الحديث: إنّ الله تبارك وتعالى اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وانّ الله اتّخذه نبياً قبل أن يتّخذه رسولاً، وانّ الله اتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً، وانّ الله اتّخذه خليلاً قبل أن يتّخذه إماماً، فلمّا جمع له الأشياء قال: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً).[٤]

فالإمامة نتيجة الخلّة وصيرورة النبي فارغاً من كل شيء سوى الله سبحانه، وعند ذلك، يكون إماماً مطلقاً يستدل به وأُسوة يقتدى به في المجالات الثلاثة: قولاً وفعلاً وتقريراً.

تحليل النظرية

وفيه: أوّلاً: إنّ هذه النظرية مبنية على ما استظهره من قوله سبحانه: (وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا)، فاستظهر أنّ الأنبياء على قسمين: إمام وغيره، بشهادة كلمة « من »، لكن الاستظهار غفلة عن مرجع الضمير، فالضمير يرجع إلى بني إسرائيل لا إلى الأنبياء، قال سبحانه: (وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى

---

١. القصص: ١٥.
٢. الأنبياء: ٨٧.
٣. الأنبياء: ٧٣.
٤. الكافي: ١ / ١٧٥، باب طبقة الأنبياء.

الْكِتَابَ فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)[١].

ولأجل ذلك نرى أنّه سبحانه يصف إبراهيم ولوطاً وإسحاق ويعقوب أئمّة يهدون بأمره، قال سبحانه: (ونَجَّيْنَاهُ وَ لُوطًا إِلَى الأَرْضِ التِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا)[٢].

وعلى هذا فجعل الأنبياء على قسمين معتمداً على ما استظهر من الآية غير تام، وإن كان أصل التقسيم صحيحاً على ما سيبيّن.

وثانياً: فلماذا لا تكون الإمامة ذات مراتب ودرجات ومقولةً بالتشكيك ويكون الكل باعتبار انّ لهم نور الوحي والنبوة، والعصمة والمصونية، أئمّة يقتدى بهم، وتخصيص الإمامة بجماعة خاصة منهم بلغوا القمّة في الطهارة والفضيلة يحتاج إلى دليل خاص، فإنّ الإنسان المثالي إذا بلغ مقام العصمة يصبح أُسوة للناس ودليلاً في الحياة، وإماماً في القول والعمل، فالتشدّد والتزمّت في شرطية ترك الأولى في الإمامة، غير واضح.

نعم لو كان ما اقترفوه من الأعمال، عصياناً صحّ القول بعدم كونهم أئمّة وأُسوة على وجه الإطلاق، وأمّا اذا كان أمراً مباحاً وجائزاً شرعاً وإن كان الأولى تركه، فلا وجه لإخراج المقترفين منهم عن كونهم أئمّة.

الملاك الثالث: كونه معلم الهداية عبر العصور

إنّ هذه النظرية تتلخّص في كلمة: وهي انّ الإمامة الّتي جاءت في هذه الآية من خصائص الخليل (عليه السلام)، ولا تعدوه إلى أشخاص آخرين، لاختصاص ملاكها به من الأنبياء، وهو كونه بين الأنبياء واقعاً في قمة الهداية ومعلماً للآخرين، وانّ الذين جاءوا بعده ساروا على الطريق الّذي اختطه. ويظهر لك من الآيات الواردة في حقّه، قال سبحانه: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لاَ نَصْرَانِيًّا وَ لَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[٣].

(إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)[٤].

---

١. السجدة: ٢٣ ــ ٢٤.

٢. الأنبياء: ٧١ ــ ٧٣.

٣. آل عمران: ٦٧.

٤. آل عمرن: ٦٨.

فالآية الأُولى تجلّ إبراهيم عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً، وتصفه بأنّه كان حنيفاً مسلماً وما كان مشركاً، وذلك لأنّ اليهودية والنصرانية عدلتا عن جادة التوحيد وامتزجتا بالشرك، مضافاً إلى أنّ إبراهيم بعث قبل نزول الشريعتين.

والآية الثانية تخص الأصناف الثلاثة بأنّهم أولى بإبراهيم، فإنّ الصنف الأوّل هم الذين اتّبعوه في عصره وما بعد عصره حتّى ظهور النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، والصنف الثاني هو النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، والثالث الذين آمنوا بالنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فأولوية الصنف الأوّل به لأجل كونهم من أُمّته والثاني والثالث لوجود الوحدة بين الخطين والتشابه بين المنهجين.

نرى في بعض الآيات انّ الأمر أعظم من ذلك حيث يأمر سبحانه النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) باتّباع طريقة إبراهيم، وهي الطريقة الحنيفية، وخصّ منها البراءة من الشرك والنزاهة من الوثنية حتّى يعرف الخليل (عليه السلام) بأنّه أبو الإسلام والمسلمين، وانّه هو أوّل من وصف أصحاب خط التوحيد بالمسلمين، قال سبحانه: (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[١]. ويقول أيضاً: (وَ جَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)[٢].

وهذه الآيات وغيرها تعرب عن إمامة إبراهيم عبر العصور والأدوار وانّه بطريقته المثلى وشريعته الحنيفية ونزاهته من ألوان الشرك في العقيدة والعمل صار مثالاً شاخصاً لجميع الأنبياء والمرسلين، والشرائع السماوية من بدايتها إلى نهايتها الّتي تمت بشريعة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكأنّ الأنبياء في كل عصر يتّبعون منهجه ويخطون خطواته ويسيرون على الخط الّذي سار عليه، ولأجل ذلك صار الخليل إماماً للناس ومثالاً للأُمم يتمثل به ويتخذ مناراً يقتدى به في القول والعمل.

تحليل هذه النظرية

لاشك انّ إبراهيم يعد من القمم بين الأنبياء وانّ له من الصفات الجليلة الّتي يذكرها القرآن ما ليس لغيره إلاّ أنّ تفسير ملاك الإمامة على النحو الّذي مر يوجب اختصاص الإمامة به من بين جميع الأنبياء والأولياء ولا تتعدى إلى غيره، لأنّ الخصيصة الّتي نالها إبراهيم (عليه السلام) من جانب

---

١. الأنبياء: ٧٣.

٢. الكافي: ١ / ١٧٥، باب طبقة الأنبياء.

شريعته وطريقته حتّى صار علماً ومناراً في حقول الشرائع والنبوّات أمر يختص به، فلو كان ملاك الإمامة هو هذا، يجب أن يكون هو الإمام وحده دون غيره مع أنّه (عليه السلام) طلبها لذريته فأُجيب بأنّ عهده سبحانه: (لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) مشعراً بأنّ غيرهم ينالونه، فلو كان ملاك الإمامة كون الإنسان مناراً بين الأنبياء، وشريعته علماً بين الشرائع لاختصت الإمامة به، ولايناسب في المقام سؤلها للأولاد بما ذكر.

وحصيلة الجواب: انّ ما ذكر من الفضيلة لبطل التوحيد أمر لاينكر على ضوء الآيات الّتي ذكرناها، لكنّها لا تكون ملاكاً للإمامة بل يجب هناك شيء آخر وراءها يكون ملاكاً حتّى يصحّ طلبها لذريته وتصحّ الإجابة بنيل العدول منهم لها.

الملاك الرابع: كونه مفترض الطاعة

هذه النظرية تتلخّص في أنّ الإمام في الآية هو الحاكم السائد على المجتمع، والآخذ بيد الأُمّة إلى الكمال في الحياة الفردية والاجتماعية، فيجب على الأُمّة امتثال أوامره وتوجيهاته في الحقول السياسية والاجتماعية والقضائية والعسكرية وغير ذلك، ولا نقف على مدى صحة هذه النظرية إلاّ بعد الوقوف على معنى النبي والرسول في القرآن الكريم حتّى نعرف أنّ الإمام يشتمل على معنى لا يشتمل عليه اللفظان، وعلى الأصحّ يشتمل منصب الإمامة على شيء لا يوجد في منصبي النبوة والرسالة فنقول:

النبي ــ سواء أجعل بمعنى المطّلع على الغيب أو بمعنى المنبئ عن الغيب ــ إنسان مؤدّ عن الله بلا واسطة بشرية[١]، وهذا الإنسان باعتبار اتصاله بالملأ الأعلى وكونه متلقياً للوحي ومطّلعاً عليه ومنبئاً عنه، يسمّ نبياً، وإذا كلّف بإبلاغ ما أُمر به وتجسيد ما أخبر به على صعيد الحياة فهو رسول، ففي إطار النبوة ليس إلاّ قضية الاطّلاع على الغيب أو قدرة الإخبار عنه إلى الناس ولا يتعدى عنها كما أنّه في إطار الرسالة، مأمور بالإبلاغ والبيان ولا يتعدى عن هذه الوظيفة.

ولكن القول الّذي نركّز عليه هو انّ الرسول المأمور بالإبلاغ ليس له في هذا المجال أمر ولا نهي ولا إكراه ولا سيطرة، بل تتلخص وظيفته في التذكير والتبليغ، قال سبحانه: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)[٢] ويقول سبحانه: (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ)[٣]، ففي

١. الرسائل العشر للشيخ الطوسي: ١١.
٢. الغاشية: ٢١ ــ ٢٢.
٣. المائدة: ٩٢.

هذا المجال تتجلّى وظيفة الرسالة في بيان الحلال والحرام والمشروع والممنوع وإراءة طرق الصلاح والفلاح، فلو صحّ في تبيين الحقيقة التمثيل بشيء أقل رتبة من الممثّل فنقول: إنّ مثل الرسول في توجيهاته الرسالية أشبه بمستنبط الأحكام من الكتاب والسنّة وإبلاغها للناس، فإذا امتثل الناس ما يقول فقد امتثلوا المشرّع الأعظم وأطاعوه، وإن لم يقوموا بأداء ما يقول فقد خالفوا الشارع وعصوه، وعلى هذا الضوء فالناس في صلاتهم وصومهم وحجهم وزكاتهم مطيعون لله سبحانه فقط وليس للرسول أيّ طاعة إلاّ بضرب من العناية، كما أنّ للمفتي والمجتهد طاعة مثله، فحينما يقول سبحانه: (وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُول إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ)[١]، فهو يرشد إلى هذا النوع من الإطاعة، فالمطاع هو الله سبحانه حقيقة والنبي مطاع بضرب من العناية إذ المفروض انّه ليس للرسول أيّ تشريع وأيّ تقنين ولا أمر ونهي فلا يكون له طاعة.

الخلاصة

١.اختلف المفسرون في ملاك إمامة ابراهيم في آية الابتلاء،فمنهم من قال ان الإمامة هنا نفس نبوته و منهم من ذهب الى أنه نال الامامة لكونه قدوة في كافة تصرفاته او لأنه علم الهداية لكل من تلاه من الانبياء.

٢.إن ابراهيم كان نبيا قبل هذا الخطاب فلا يصح القول ان الامامة هنا تعني النبوة و الرسالة.

٣.مما يدل على نبوة ابراهيم قبل هذا الخطاب هو نوع الخطاب في الآية و طلب الامامة لذريته مما يدل على انه كان له ذرية حين الطلب من الله و من المعلوم أن إبراهيم بعث نبياً قبل ان يرزق ولدا.

٤.قيل إن إمامة إبراهيم في آية الابتلاء تعني أنه أسوة في كافة تصرفاته قولا و فعلا وسيرة،فليس كل نبي يصلح للامامة لصدور بعض الاخطاء و لو غير المحرمة من بعضهم،فالانبياء منهم ائمة و منهم غير ائمة.

٥.يؤخذ على هذا القول أن كل نبي إمام بمعنى عام لأن الانبياء كلهم طاهرون ومعصومون من الذنوب وان كانت تتفاوت درجاتهم لكن كل نبي يمثل قدوة الهية يحتذى به في الحياة.

٦.ذهب بعض الى ان الامامة في الاية منصب مختص بابراهيم و ليس لغيره نصيب منه سواء الانبياء و غيرهم و هو كونه علم الهداية لكل الانبياء،بل هو ابو الاسلام و المسلمين و آيات الكتاب حافلة بالثناء عليه.

٧.إن توحيد ابراهيم و فضائله لا تمنع من أن يكون غيره ينال مقام الامامة و إلا لما سألها لذريته كما في الآية (ومن ذريتي).

---

١. النساء: ٦٤.

بسمه تعالى

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٥

الاستدلال بالقرآن على لزوم عصمة الإمام من الذنب (٣)

بكالوريوس

المقدمة

لقد انتهينا في الدرس السابق إلى أن الملاك الصحيح في إمامة إبراهيم هو كونه مفترض الطاعة و أنه أصبح قائداً يُطاع في كل ما يأمر و ينهى و قد حان أن نتطرق إلى أبعاد هذا القول و نتبين ما إذا كان هناك شواهد قرانية تدل عليه. نعم، ماذا حصل لإبراهيم و ما الذي ناله عند ما منحه الباري مقام الإمامة؟ هل يحق لأحد أن يمارس الحكم و الولاية على الناس أم انها لله لا يشاركه فيه أحد؟ ماذا يقول القرآن الكريم في ذلك؟ في قوله تعالى «فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب الحكمة و آتيناهم ملكاً عظيماً» ماهو الملك العظيم و ماصلته بالإمامة؟ و أخيراً ماذا يجد المتتبع في الأخبار حول هذا الموضوع؟ هذه الامور سنتعرف عليها في هذا الدرس إن شاء الله تعالى.

المحتوى العلمي

إمامة الرسول

ابراهيم الخليل(ع) كان نبياً رسولاً فأي شيء حدث بواسطة الابتلاء ونجاحه في الامتحان الالهي؟

فالثمرة كانت موهبة الامامة فالله سبحانه وتعالى لما كساه ثوب الإمامة بعد أن ابتلاه ونصبه لمقام الإمامة وصار عند ذلك حاكماً سائداً على المجتمع، رائداً للأُمّة، قائماً بإرشادهم في الحقول المختلفة سياسياً وعسكرياً...

فعند ذلك كان الرسول في مقام التنفيذ ذا أمر ونهي وأخذ و ردّ وتعيين وعزل إلى غير ذلك من الأُمور الّتي يمارسها الرسول باعتبار كونه حاكماً وسائساً ومؤدّباً للأُمّة وقائداً للمجتمع وإماماً للمؤمنين.

ولا ريب انّه ليس لأحد ولاية على أحد وانّ الناس كأسنان المشط ليس لأحدهم حق حكم على الآخر، بل الولاية المطلقة لله سبحانه وتعالى، فهو باعتبار كونه خالقاً للكون ومدبراً لما فيه، له حق الحكم والطاعة، يقول سبحانه: (إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)[١].

وهذا ما يعبّر عنه بالتوحيد في الحاكمية والطاعة لا يشاركه فيها غيره، لكن مع الاعتراف بذلك لا نعني من عنوان انحصار الحاكمية (بالله) حصر الإمرة بالله بأن يتولّى سبحانه الإمرة على العباد، فالولاية وحق الحاكمية بالأصالة حق لله سبحانه، ولكن الإمرة لخيرة عباده يتصدّون لها بإذنه.

١. يوسف: ٤٠.

وإن شئت قلت: إنّ المقصود من قوله سبحانه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾[١]، وقوله: ﴿أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾[٢]، وقوله سبحانه: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٣]، هو حصر الولاية وحق الحاكمية لا الإمرة والتصدّي لنظام البلاد، إذ يستحيل ممارسة الحكم من الله تعالى بصورة مباشرة، ولأجل ذلك نجد جمعاً من الأنبياء تولّوا منصة الولاية بإذن الله وأخذوا بتدبير شؤون الحياة الاجتماعية للإنسان، ففي هذا الصدد يقول سبحانه: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾.[٤]

فالرسول الّذي يحظى بمقام تنفيذ الولاية الإلهية في المجالات المختلفة بين الناس، هو الإمام المفترضة طاعته، ولا يحظى به إلاّ ثلة من المصطفين الأخيار، وإليك الشواهد القرآنية الّتي تدل بوضوح على أنّ ملاك الإمامة في هذه الآية – لا مطلقاً – هو كونه مثالاً في القول والعمل، وعلى الأُمّة طاعته في كل ما يأمر وينهى ويبرم وينقض، فهو أُسوة في الحياة وقدوة للجميع.

الشواهد القرآنية على تفسير الإمامة بافتراض الطاعة

إنّ تفسير ملاك الإمامة بافتراض الطاعة والقيادة الإلهية الحكيمة شيء تؤيده الآيات التالية بل تثبته.

روى بعض المفسرين أنّ كعب بن الأشرف خرج في سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أُحد، ليحالفوا قريشاً ضد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثـــواه، ونزلت اليهود في دور قريش، فقالت قريش: إنّكم أهل كتاب، ومحمد صاحب كتاب، فلا نأمن من أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما، ففعل ذلك.

ثم قال أبو سفيان لكعب: إنّك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أُميّون لا نعلم، فأيّنا أهـــدى طريقـــاً وأقرب للحق نحن أم محمد؟

قال كعب: اعرضوا عليّ دينكم، فلمّاعرض أبو سفيان عليه دينه، قال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً ممّا عليه محمد.

فأنزل الله سبحانه الآيات التالية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً*... أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ

---

١. الأنعام: ٥٧.

٢. الأنعام: ٦٢.

٣. القصص: ٧٠.

٤. ص: ٢٦.

فَإِذًا لاَ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً)[١].[٢]

توضيح الاستدلال

أنّه سبحانه ردّ على قولهم (هَؤُلاَءِ (المشركون) أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً) بوجوه ثلاثة:

الأوّل والثاني: يستفادان من قوله سبحانه: (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً)، فإنّ « أم » بحكم كونها متصلة تدلّ على وجود معطوف عليه محذوف، مثل: « أَلَهم علم في كل ما حكموا به من حكم » ثم قال: (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ). وعلى ذلك فعطف على ذلك المقدر قوله: أم لهم نصيب من الملك ثم أجاب بجواب ثالث.

(أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ).

فيؤوّل معنى الآية وجوابه سبحانه عنهم إلى شقوق ثلاثة:

الف. ألهم حق الحكم في كل شيء حتى في أنّ المشركين أهدى من الذين آمنوا؟

ب. أم لهم نصيب من الملك الذي أنعم الله به على نبيّه، ولو كان لهم نصيب من الملك لم يؤتوا الناس حتى أقل القليل الّذي لا يعتد به لبخلهم وسوء سريرتهم، وهذا يظهر من قوله سبحانه: (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ).[٣]

ثم عاد سبحانه يبيّن أساس قضائهم وحكمهم بكون المشركين أهدى من الذين آمنوا وقال:

ج. (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ).

فبيّن أنّ أساس حكمهم بكون المشرك أهدى من الموحّد هو الحسد للموحّد وهو النبي، وبذلك تبيّن أنّ المراد من الناس المحسودين هو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإطلاق لفظ « النّاس » عليه، إمّا لأجل كونه في وحدته أُمّة، كما كان إبراهيم كذلك، قال تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[٤]، أو لأجل الذين التفوا حوله.

ولكي يؤيسهم ويقطع رجائهم في زوال هذه النعمة وانقطاع هذا الفضل، بيّن بأنّ الله قد أعطى آل إبراهيم من فضله ما أعطى وآتاهم من رحمته ما آتى،ليموت هؤلاء بغيظهم فلن ينفعهم الحسد، وقال: (فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً) فأخبر عن حقيقة ثابتة غير زائلة

---

١. النساء: ٥١ ــ ٥٤.
٢. مجمع البيان: ٢ / ٥٩، وغيره.
٣. الإسراء: ١٠٠.
٤. النحل: ١٢٠.

تعلّقت بها الإرادة الحكيمة وهي: آتاهم الكتاب أوّلاً، والحكمة ثانياً، والملك العظيم ثالثاً. وهذا النبي من آل إبراهيم أيضاً قد أُوتي مثل ما أُوتي سائرهم من غير فرق بين أولاد إسماعيل وإسحاق، فشملته العناية الإلهية فآتاه الأُمور الثلاثة فلن ينفعهم الحسد في زوال هذه النعمة.

والكتاب والحكمة واضحان، فالكتاب رمز الوحي والنبوة، والحكمة هي السنّة وجوامع الكلم. وانّما الكلام في « الملك العظيم » الّذي أعطاه الله سبحانه المصطفين من آل إبراهيم من غير فرق بين ولد إسماعيل وأخيه إسحاق.

فباقتران هذه الآية الّتي أخبرفيها سبحانه أنّه أعطى آل إبراهيم الملك العظيم بآية الابتلاء، الّتي استجاب فيها سبحانه أن يرزق المصطفين من ذرية إبراهيم الإمامة، يتبيّن انّ الإمامة الموهوبة لهم (الّتي دللنا انّها غير النبوة والرسالة) هي نفس « الملك العظيم » الّذي يدلّ ظاهر الآية على أنّه غير النبوّة والرسالة لعطفه على الكتاب والحكمة اللّذين يعدّان رمز الوحي ونزوله والاتصاف بالنبوة.

ولا يصح حمل الملك العظيم على النبوة أو الرسالة للاستغناء عنهما بما تقدم من إيتاء الكتاب والحكمة، كيف؟ ونزول الكتاب والحكمة دليل على كون المترول عليه نبياً يترل عليه الوحي بلا واسطة فلا حاجة لتكراره مجدّداً، قال سبحانه: (وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَ الْحِكْمَةِ)[١]، فالآية تهيب ببني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله عليهم حيث بعث فيهم الأنبياء والرسل، وقال سبحانه: (وَ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ)[٢] إلى غير ذلك من الآيات الّتي وردت فيهما الكلمتان. وإن شئت قلت: إنّ الآية المباركة تدل على أنّه سبحانه أعطى منصب الإمامة لآل إبراهيم وبعض ذريته.

والآية الثانية تدل على أنّه سبحانه أعطى آل إبراهيم بعد الكتاب والحكمة، الملك العظيم، فباقتران الآيتين نخرج بهذه النتيجة: انّ الإمامة المعطاة لآل إبراهيم هي الملك العظيم فيتحدان حقيقة ومصداقاً، فإذا كان ملاك الإمامة في الذرية هو كونهم ذوي ملك عظيم، فيصبح ملاكها في نفس الخليل أيضاً ذلك.

الملك العظيم في القرآن

إنّ القرآن الكريم يصنّف ذرية إبراهيم إلى قسمين:

قسم أُعطي النبوة والرسالة، كأيوب وزكريا ويحيى وعيسى. وقسم أُعطي بعدهما الملك والحكومة.

---

١. البقرة: ٢٣١.

٢. النساء: ١١٣.

وتشير إلى ذلك الآيات التالية:

ألف. يقول يوسف بعدما أُعطي القوة والقدرة في حكومته وصار أميناً مكيناً فيها: (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ) [١]، فجملة (تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ) رمز لجزء من النبوة، والملك إشارة إلى السلطة والقدرة الّتي نالها.

ب. يقول سبحانه في حق داود: (وَ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ) [٢].

ويقول أيضاً: (وَ شَدَدْنَا مُلْكَهُ وَ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطَابِ).[٣]

ويحكي سبحانه عن سليمان أنّه قال: (وَ هَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لِأَحَد مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) [٤]. فاستجاب الله دعاءه كما تحكي الآية التالية: (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَ الشَّيَّاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَ غَوَّاص * وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَاب) [٥].

ففي هذه الشخصيات الإلهية اجتمعت المناصب الثلاثة: النبوة، والرسالة، والإمامة. ولكن ربّما تقتضي المصلحة فصل الحكم عن النبوة والرسالة، فيكون المبعوث بالنبوة والرسالة، غير المبعوث للحكم، ولأجل ذلك نرى أنّه سبحانه يعرّف طالوت ملكاً على لسان نبي زمانه قال سبحانه: (وَ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَ زَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ وَ اللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَ اللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [٦].

ففي هذه الآية والآيات الّتي تليها عدة نكات نشير إليها:

أوّلاً: انّ المصالح ربّما تقتضي التفكيك بين المنصبين، ولأجل إمكانه ما اعترض بنو إسرائيل باستهجانه بل اعترضوا بأنّهم أحق بالملك منه.

ثانياً: انّ طالوت صار ملكاً وحاكماً ورئيساً للجيش بأمر من الله سبحانه، قال سبحانه: (إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا).

ثالثاً: انّ وظيفة طالوت لم تتلخص في قيادة الجيش، بل قيادة الجيش كانت جزءاً منها، ولأجل ذلك يقول سبحانه: (إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا) ويقول في ذيلها: (وَ اللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ).

---

١. يوسف: ١٠١.
٢. البقرة: ٢٥١.
٣. ص: ٢٠.
٤. ص: ٣٥.
٥. ص: ٣٦ ـــ ٣٩.
٦. البقرة: ٢٤٧.

رابعاً: انّ الآية تشير إلى أنّ أعظم المؤهّلات في القيادة الإلهية هو استكمال القائد من حيث العلم والجسم، فالإنسان الجاهل بالشؤون الحكومية غير قادر عليها كما أنّ الإنسان الضعيف في القوى الجسمانية لا يقدر أن يقوم بمشاق الأُمور ومصاعبها.

خامساً: انّه سبحانه عندما يعد نعمه على بني إسرائيل يذكر منها أنّه جعل فيهم أنبياء وملوكاً قال سبحانه: (اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكًا) [١]، فالآية تصرّح بأنّهم كانوا ملوكاً، غير أنّ نسبة الملوكية إلى الجميع لأجل أنّ طائفة منهم صاروا ملوكاً بأمر من الله سبحانه.

فحصيلة البحث: انّ الآيات المتقدمة بأجمعها تعطي النتيجة التالية:

فمن جانب: طلب إبراهيم لذريته العطية الإلهية، أعني: الإمامة، وقد استجاب دعوته في بعضهم.

ومن جانب آخر: انّ مجموعة من ذريته كيوسف وداود وسليمان عليهم السلام الى جانب النبوة والرسالة حظوا بمنصب الحكومة والقيادة.

ومن جانب ثالث: نرى أنّه سبحانه أعطى آل إبراهيم مع الكتاب والحكمة الملك العظيم.

فبعد ضم هذه الأُمور بعضها إلى بعض نخرج بهذه النتيجة: انّ ملاك الإمامة في ذرية إبراهيم هو قيادتهم وحكمهم في المجتمع لا غير ; وأمّا ملاكها في نفس إبراهيم، فالآيات وإن كانت غير ناظرة إليها، لكنّها تفضي بوحدة الملاك في الوالد والأولاد، وانّ ملاك إمامة الخليل أيضاً هي حاكميته وافتراض طاعته، وإلاّ لزم الفصل في ملاك الإمامة بينه وبين ذريته، وهو كما ترى.

هذا ما وصلنا إليه من التدبّر في الآيات، والله العالم بالحقائق.

الملك العظيم في الأحاديث الإسلامية

هذا وقد تضافرت الروايات على أنّ المراد من قوله (مُلْكاً عَظِيماً) هو كونهم مفترضي الطاعة.

روى حمران بن أعين قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) قول الله عزّ وجلّ: (فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ)؟ قال: « النبوة »، قلت: (وَ الْحِكْمَةَ)؟، قال: « الفهم والقضاء »، قلت: (وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً)؟ فقال: « الطاعة ».

وروى بريد العجلي عن أبي جعفر (عليه السلام) في تفسير الآية المباركة أنّه قال: « الملك العظيم: ان جعل فيهم أئمّة من أطاعهم أطاع الله، ومن عصاهم عصى الله، فهو الملك العظيم ».[٢]

---

١. المائدة: ٢٠.

٢. الكافي: ١ / ٢٠٦، باب انّ الأئمّة (عليهم السلام) ولاة الأمر وهم الناس المحسودون.

روى السيوطي وقال: أخرج الزبير بن بكار في الموفقيات، عن ابن عباس انّ معاوية قال: يا بني هاشم إنّكم تريدون أن تستحقوا الخلافة كما استحققتم النبوة ولا يجتمعان لأحد، وتزعمون أنّ لكم ملكاً. فقال له ابن عباس: أمّا قولك انّا نستحق الخلافة بالنبوة، فإن لم نستحقها بالنبوة فبمن نستحقها؟!وأمّا قولك إنّ النبوة والخلافة لا يجتمعان لأحد فأين قول الله: (فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً)[1] فالكتاب: النبوة، والحكمة: السنّة، والملك: الخلافة، نحن آل إبراهيم أمر الله فينا وفيهم واحد، والسنّة لنا ولهم جارية.[2]

وهذا البيان الضافي أوقفنا على معنى (مُلْكاً عَظِيماً) في الآية المباركة.

وبضم هذه الأحاديث إلى ما وصلنا إليه من التدبّر في الآيات يتّضح الحق بإذنه سبحانه و تعالى.

الخلاصة

١–إن ثمرة جهد إبراهيم و صبره على الابتلائات الالهية كانت إمامة تمنحه الولاية و الحكم و ادارة شؤون العباد لكن كل ذلك بإذن الله تعالى و ذلك لانه لا حُكم إلا لله و لا ولاية لغيره إلا بإذنه.

٢–إن كون الله تعالى هو الولي و الحاكم لا يعني أنه يتصدى لتنفيذ الحكم بين الناس مباشرة و إنما يتم ذلك عبر المصطفَين من عباده و انبيائه.

٣–لقد وردت عدة آيات تبين أن الله تعالى منح بعض أنبيائه الولاية و الحكم بين العباد كقوله تعالى: يا داود إنا جعلناك خليفة فاحكم بين الناس بالحق.

٤–لو ضممنا قوله تعالى ﴿فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب و الحكمة و آتيناهم ملكاً عظيماً﴾إلى آية الابتلاء يتضح أن الامامة هي الملك العظيم.

٥–يتضح من خلال الآيات القرآنية أن النبوة و الملك قد يجتمعان في شخصية واحدة و قد تقتضي المصلحة الالهية أن يكون الملك غير النبي.

٦–لقد اجتمعت النبوة و الملك في سليمان و يوسف و داود عليهم السلام و لكن انفرد طالوت بالملك الالهي دون النبوة.

٧–وردت روايات كثيرة تفسر الملك العظيم بالامامة و الطاعة بعدما فسرت الكتاب بالنبوة و الحكمة بالفهم و القضاء.

---

١. النساء: ٥٤.

٢. الدر المنثور: ٢ / ١٧٣ ــ ١٧٤.

بسمه تعالى

جامعة المصطفى المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٦

الاستدلال بالقرآن على لزوم عصمة الإمام من الذنب (٤)

بكالوريوس

المقدمة

لقد تحدثنا في الدروس السابقة عن آية الابتلاء و مقام الامامة في القرآن الكريم و قد وقفنا على عظم شأن هذا المقام الالهي و علوّ مرتبته، في هذا الدرس نريد أن ندرس جوانب أخرى من هذا المفهوم القرآني، فما هي الصلة بين النبوة و الامامة وهل هما متلازمتان ام لا؟ ما هو المنهج الذي يعتمده الامام في زعامته و من أين يستقي علمه؟ هل الابتلاء شرط في الامامة ام أن الامام قد ينال هذا المقام عن طريق وجود مؤهلات أخرى؟ ماذا عن إمامة نبي الاسلام صلى الله عليه و اله و ما الدلائل عليها؟ هذه المحاور سوف نتعرف عليها في هذا الدرس إن شاء الله تعالى.

المحتوى العلمي

١. هل زعامة الأنبياء كانت بتشريع من الله؟

الجواب: الآيات الّتي تلوناها عليك دلّت بوضوح على أنّ نيل هؤلاء لمقام الملك والإمامة كان بجعل منه سبحانه، ويكفي في ذلك قوله سبحانه: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)، وقوله سبحانه: (إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً)، وهناك آيات أُخر في هذا الصدد قد مرّت عليك.

٢. ما هى النسبة بين النبوة والإمامة الواردة فى الآية؟ وما هى النسبة بين النبى والإمام؟ فهل هما متساويان فى المصداق، بمعنى أنّ كل نبى إمام، وكل إمام نبى أو لا؟

الجواب: الآيات التي تلوناها عليك تنفي الملازمة بينهما، فهذا هو الخليل (عليه السلام) قد قضى شطراً كبيراً من عمره وكان نبياً و لم يكن إماماً، وإنّما أُفيضت الإمامة عليه بعد ما بلغ من العمر عتياً وابتلاه سبحانه بأُمور كما بيّناه.

وهذا هو طالوت بعثه الله سبحانه ملكاً على بني إسرائيل، وقد أخبر به بلسان نبيّهم، فصار إماماً مطاعاً وقائداً لهم و لم يكن نبياً.

وبذلك اتضح انّه لا ملازمة بين النبوة والإمامة، وأنّه لا يلزم أن يكون كل نبي إماماً، كما هو الحال في الخليل قبل أن يبلغ منصب الإمامة وسائر الأنبياء الذين لم ينالوا منصب الإمامة، كما أنّه لا يلزم أن يكون كل إمام نبياً كما هو الحال في طالوت. وقد تجتمعان في بعض الفترات مثل اجتماعهما في الخليل ويوسف وداود وسليمان والنبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم).

وربّما يستدل على تفكيك النبوة عن الإمامة بقوله سبحانه: ﴿وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[١].

«فإنّ الآية بحكم لفظة « من » التبعيضية تصنّف الأنبياء إلى صنفين بين كونهم أئمّة، وغير أئمّة، لكن الاستدلال مبني على إرجاع الضمير إلى الأنبياء، وهو غير صحيح، بل الضمير يعود إلى «بني إسرائيل»، الوارد ذكرهم في ذيل الآية السابقة عليها، قال سبحانه: ﴿وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَة مِنْ لِقَائِهِ وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾[٢] وقد مر ذلك فلاحظ.[٣]

نعم عندما يصف مجموعة من الأنبياء بالإمامة يقول: ﴿وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَوةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[٤].

وقد وافاك أنّ ملاك إمامة هؤلاء، هي نبوّتهم ليس غير. نعم كان ملاك إمامة غيرهم كالخليل وأمثاله أمراً وراء نبوتهم كما أسلفنا بيانه.

٣. هل الإمام لا يحقّق أهدافه إلاّ فى ضوء الشريعة؟

إنّ محور السؤال في ما سبق هو التعرّف على مدى الملازمة بين النبوة والإمامة، وانّه هل كل نبي إمام، وكل إمام نبي أو لا؟ وقد عرفت عدمها، ولكن الهدف من هذا السؤال هو التعرّف على الإطار الّذي يحقّق الإمام أهدافه فيه وهو الشريعة الإلهية، فهل هو لا يأمر ولا ينهى ولا يبعث ولا يزجر إلاّ استلهاماً من الدساتير الكلية السماوية سواء أكان هو نفسه صاحب الشريعة أم غيره، أو أنّه يتوسع في حكمه وتدبيره ويعمل على صعيد أوسع منها؟

الحق الّذي لا يعتريه الشك هو الأوّل، لأنّ الإمامة وتدبير الأُمّة ليست مقصودة بالذات، وانّما اتخذت أداة لإسعاد الأُمّة وإرشادها إلى قمّة الكمال، ولا يحصل ذلك إلاّ بتطبيق الشريعة الإلهية وتجسيدها في المجتمع، لقصور كل المناهج البشرية عن القيام بذلك الهدف الأسمى.

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الإمام لا يحقّق أهدافه إلاّ في ضوء الشريعة السماوية سواء أنزلت عليه أم نزلت على غيره، وسواء كان ذلك الغير حياً حاضراً أم ميتاً راحلاً، وعلى كل تقدير فسياسة الأُمّة وتدبيرها وقيادتها ودفعها إلى الكمال والّتي تعد من الوظائف الأساسية للإمام، لا تحصل

١. السجدة: ٢٤.

٢. السجدة: ٢٣ ــ ٢٤.

٣. مر تفصيله عند البحث عن الملاك الثاني لإمامة الخليل.

٤. الأنبياء: ٧٣.

إلاّ أن يكون أمره ونهيه وفعله وتقريره انعكاساً عن الكليات والدساتير العامة النازلة منه سبحانه على نبي زمانه وصاحب شريعته.

وقد عرفت أنّ وظيفة النبي تلقّي الوحي، كما أنّ وظيفة الرسول هي إبلاغه إلى الناس، ولكن تجسيد هذه الكليات وتحقيقها في المجتمع من وظيفة الإمام، ولأجل ذلك يجب إمّا أن يكون نبياً صاحب شريعة، أو يكون تابعاً لشريعة نبي آخر معاصر له أو لنبي قبله.

والأوّل كالخليل والنبي الأعظم، والثاني: كطالوت بني إسرائيل الّذي بعثه الله سبحانه سائساً لهم وقائداً مطاعاً.

وبذلك يعلم أنّ القادة المعصومين كعلي (عليه السلام) وأولاده الذين نصبوا أئمّة للأُمّة الإسلامية لا يحقّقون أهدافهم، ولا يقومون بشؤون الأُمّة وسياستها إلاّ في ضوء الشريعة المحمدية النازلة على النبي الأكرم، فهم من تلك الجهة كداود وسليمان اللّذين حقّقا أهداف الإمامة في ضوء الشريعة الموسوية ــ سلام الله عليهم أجمعين ــ.

٤. الإمامة رهن الابتلاء

المتبادر من الآية الكريمة أن إفاضة الإمامة على الخليل كانت رهن ابتلائه وإتمامه الكلمات على النحو المطلوب، ونجاحه الباهر في هذا المعترك.

وبعبارة أُخرى: كانت هناك صلة ولو بنحو المقتضى والمعدّ بين النجاح في الامتحان، وجعله إماماً وإن إتمامه الكلمات على النحو المطلوب وفّر أرضية مناسبة لمنح منصب الإمامة له.

ولا يشك في هذا من أُعطي حق النظر في الآية بشرط تجرّده عن أي فكر مسبق وأمّا ما اختاره صاحب المنار: من عدم وجود الصلة بين الابتلاء وإفاضة الإمامة، فهو على خلاف المتبادر من الآية. وإليك كلامه، قال:

قال شيخنا: ولم يقل: « فقال إنّي جاعلك » للإشعار بأنّ هذه الإمامة بمحض فضل الله تعالى واصطفائه لا بسبب إتمام الكلمات، فإنّ الإمامة هنا عبارة عن الرسالة، وهي لا تنال بكسب الكاسب، وليس في الكلام دليل على أنّ الابتلاء كان قبل النبوة، وأمّا فائدة الابتلاء فهي تعريف إبراهيم (عليه السلام) بنفسه وانّه جدير بما اختصه الله به، وتقوية له على القيام بما يوجه إليه. وقد تحقّقت إمامته للناس بدعوته إيّاهم إلى التوحيد الخالص ــ وكانت الوثنية قد عمتهم وأحاطت بهم ــ

فقام على عهده بالحنيفية، وهي الإيمان بتوحيد الله والبراءة من الشرك وإثبات الرسالة، وتسلسل ذلك في ذريته خاصة، فلم ينقطع منها دين التوحيد، ولذلك وصف الله الإسلام بأنّه ملة إبراهيم. [١]

ولا يخفى ما فيه:

أمّا أوّلاً: فلأنّ الآية لّما أخبرت عن إتمام الخليل الكلمات الّتي ابتلي بها، صار المقام أن يسأل عن ما قال له ربّه حين أتمّ الكلمات، اوفعل به، فأُجيب بقوله: (قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) (٢)، فعدم الإتيان بالفاء، لأجل كونه جواباً عن سؤال مقدّر يرد على الذهن عند الوقوف على قوله: (وَ إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَات فَأَتَمَّهُنَّ) [٢]، وعلى ذلك فتكون الجملة استئنافية. وأمّا جعله بياناً لقوله: (وَ إِذ ابْتَلَى) وتفسير له، فيراد بالكلمات ما ذكره من الإمامة وتطهير البيت فقد عرفت بطلانه، لأنّ ملاك الإمامة على هذا الفرض هي من الرسالة، وقد كان الخليل رسولاً قبل نزول الآية بكثير.

وثانياً: ماذكره من أنّ الإمامة في الآية عبارة عن الرسالة وهي لا تنال بكسب الكاسب،حتى وإن كان صحيحاً [٣] إلاّ أنّ الإفاضات على حسب اللياقات، والعطايا الإلهية على حد الصلاحيات، والمناصب المعنوية قيد مؤهلات وشروط، بين ما هي خارجة عن حدود الاختيار غير قابلة للاكتساب، وما هي داخلة فيها وقابلة له، فالرسالة لا تفاض على الإنسان ارتجالاً بلا سبق مؤهلات وقابليات ذاتية أو مكتسبة، وليست المناصب الإلهية غرضاً لكل هادف أو رمية لكل نابل، وانّما يصل إليها الأمثل فالأمثل. نعم، الله سبحانه (أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)، لكنّه لايجعل رسالته إلاّ في النفوس والأرواح الكاملة، ذات الأرضيات الصالحة الذين يضرب بهم المثل في مجال الفضل والفضيلة، ويشار إليهم بالبنان بين الموصوفين بالمثل العليا والفضائل الكبرى.

ثم إنّ كثيراً من هذه الصلاحيات وإن كانت خارجة عن إطار الاكتساب لكن بعضاً منها قابل له في ضوء المواهب الإلهية، وكون الرسالة أمراً غير اكتسابي لا يلازم أن تكون جميع الأرضيات المصحّحة لإفاضتها، أمراً خارجاً عن حد الاكتساب.

---

١. البقرة: ١٣٤.

٢. من غير فرق بين كون الضمير في « اتمّهنّ » راجعاً إلى الخليل أو إلى الله سبحانه، لما عرفت عند البحث عن « إتمام الكلمات » من أنّ الإتمام من جانب إبراهيم عبارة عن قيامه به، ومن جانبه سبحانه توفيقه لما أمر به وطلب منه، فهنا فعل واحد ينسب إلى المباشر والسبب معاً، فلو رجع إلى إبراهيم لصح، لكونه الفاعل المباشر، ولو رجع إلى الله لصح أيضاً لكونه السبب الموفق.

٣. ليس بصحيح، لأنّ تفسير الإمامة بالرسالة غير صحيح كما شرحناه.

وبهذا تبيّن انّه إذا كانت الرسالة رهن قيد وشروط، فالإمامة أحرى وأحوج إليها من الرسالة، لأنّ وظيفة النبي والرسول تتلخّص في تلقّي الوحي وإبلاغ الرسالة ولكن وظيفة الإمام هي تجسيد البرامج الإلهية وتحقيقها في المجتمع، وسوقه إلى سعادة النشأتين وهي أصعب من وظيفة التبليغ.

إنّ القيام بمسؤولية القيادة أشد وطأ من القيام بمسؤولية التبليغ والبيان، وهي من أشكل الأُمور وأصعبها، فلا يقوم بها إلاّ الإنسان الصبور أمام المصاعب والمشاكل، الواصل إلى مقام الخلّة الّذي لا يرى في نفسه وذاته سوى حبه سبحانه ورضاه.

نعم الابتلاء بالمشاكل، والامتحان بأُمور صعبة، أحد العوامل البنّاءة للشخصيات الإلهية، وهناك عوامل أُخرى لبنائها وصنعها، قد بيّنت في موضعها، ولأجله لا يجب أن يكون كل إمام مبتلى بما ابتلي به إبراهيم، وانّما الواجب الاتصاف بالمواهب الذاتية والفضائل الاكتسابية، وغير ذلك من الأُمور المصححة لإفاضة منصب سياسة الأُمّة وتدبير أُمورها وإسعادها في الدارين.

وباختصار: انّ الابتلاء ليس العامل الوحيد لإيجاد المؤهلات والصلاحيات، بل هناك عامل أو عوامل تقوم مقام الابتلاء وتؤثر أثره، ولأجل ذلك قد بلغ بعض الأئمّة المعصومين لدى الشيعة إلى القمة من الكمال والصلاح من دون أن يتعرضوا للابتلاء، وصاروا ذوي شخصيات صلبة غير متزعزعة أمام الأحداث والنوائب، وإن لم يقعوا في معرض الامتحان، وذلك لما عرفت من أنّ الابتلاء ليس عاملاً وحيداً في تكوين الشخصيات العالية، بل هناك عوامل أُخرى مكشوفة وغير مكشوفة مؤثرة في ذلك المضمار.

أمّا المكشوفة: فمنها الوراثة والتربية والبيئة. والأئمّة المعصومون تربّوا في بيت رفيع عريق طاهر معروف بالصدق، والوفاء، والشجاعة والسماحة، والغيرة والأمانة إلى غير ذلك من حميد الأخلاق، وكان أجدادهم شرفاء، كرماء، ومن هذا المنطلق ورث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما في هذا البيت من الشرف والكمال، فإذا كانت التربية عاملاً مؤثراً بنّاءً في مجال تكوين الشخصيات، وموجبة لتفتح الكمالات المكنونة وازدهار كوامن النفوس، فقد تربّوا في البيت النبوي تحت رعاية آبائهم المكرمين، فورثوا المكارم من أجدادهم وأظهروا الكمالات برعاية آبائهم.

وإذا كانت الوراثة والتربية والبيئة الصالحة من العوامل المكشوفة، فهناك عوامل غير مكشوفة لبناء الشخصيات، تساهم تلك العوامل في عملية تكوين الشخصيات الأصيلة، ولأجل ذلك نرى بروز نوابغ في بعض البيوتات من دون أن يكون هناك أثر من العوامل البنّاءة المعروفة، وما ذلك إلاّ لأنّ

الإنسان ما أُوتي من العلم إلاّ قليلاً، ولا يعلم من أسرار الحياة إلاّ ظاهرها وقليلها.[١] فهناك أسباب لتكوّن الشخصيات لم يعرفها الإنسان ولم يقف عليها، وهذه العوامل مكشوفها وغير مكشوفها تخلّف الأرضية الصالحة لإفاضة منصب الإمامة، بل العصمة مضافاً إلى عنايته سبحانه وحكمته البالغة فإنّ الأُمّة تحتاج إلى معلم بارع وهاد مصون من الزلل والخطأ، ومقتضى لطفه وعنايته تقدير الأسباب المنتهية إلى تكوين شخصيات عالية صالحة، لأن يكونوا أئمّة وأُسوة في الحياة وقدوة في القول والفعل.

٥. هل حقق الخليل أهداف الإمامة؟

وفي الختام يطرح هذا السؤال نفسه: إذا كان الهدف من تنصيب إبراهيم هو قيادة الأُمّة وتنظيم أُمورهم في الحياة فلسائل أن يسأل عن تحقّق تلك الغاية في حياة الخليل وعدمه، وانّه هل ساعدته الظروف لقيامه بتلك الوظيفة الخطيرة أم لا؟

الجواب: انّ حياة الخليل كحياة سائر الأنبياء محفوفة بالإبهام، وما ورد في قصص الأنبياء لا يصحّ الركون إليه لأنّ أكثرها إسرائيليات أو مسيحيات، وأمّا العهدان، فقد لعب بهما الهوى، وسرى إليهما التحريف، فلا يصحّ الاعتماد على محتوياتهما، ولأجل ذلك لايمكن إظهار النظر حول السؤال على وجه باتّ.

والّذي يمكن أن يقال: إنّ القيادة وافتراض الطاعة وتنظيم أُمور الأُمّة بالأمر والنهي ذات مراتب، وهي تختلف حسب اختلاف الظروف والإمكانيات، وحسب اختلاف الأزمنة والحضارات، فالقيادة البارزة الّتي أُتيحت للنبي(ص) أو لمن قبله من الأئمّة كداود وسليمان(ع) لم تكن متاحة ولا ممكنة في زمن الخليل(ع)، لماعرفت من اختلاف القيادة باختلاف إمكانيات الظروف، وازدهار الحضارات.

ولكن القيادة بإحدى مراتبها كانت متاحة ومتحقّقة له، وإلاّ يلزم لغوية منحه المنصب، ولو لم يتسن له مثل ما تسنّى لسائر الأئمّة فليس لقصور في القاعدة وأدائه، بل لقصور في الظروف والأزمنة، أو لتقصير في الأُمّة والتابعين، أو غير ذلك.

دلائل إمامة النبى الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)

دلّت الآية الكريمة على أنّه سبحانه جعل إبراهيم إماماً للناس، وقد سأل الخليل أن يجعل من ذريته أئمّة للناس، فاستجاب سبحانه دعوته، وصرّح بأنّها تنال غير الظالمين منهم، والنبي الأعظم أفضل ذريته

---

١. إيماء إلى قوله سبحانه: (وَ مَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) (الإسراء: ٨٥) وقوله سبحانه: (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الروم: ٧).

وأمثلهم، فطبع الحال يتقضى أن يكون مشمولاً لدعاء جده ويكون إماماً كالخليل، هذا من جانب. ومن جانب آخر، قد استفاضت الآيات والروايات على أنّ النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) كان له منصب الإمامة وراء النبوة والرسالة، فهو بما أنّه كان يتلقّى الوحي ويبلغه كان نبياً ورسولاً، و لم تكن له في هذا المجال أيّة طاعة وعصيان إلاّ بالعناية. وبما أنّه كان قائداً وزعيماً للأُمّة في مختلف المجالات كان إماماً مفترض الطاعة، وهو في هذا المقام صاحب أمر وبعث ونهي، وزجر ونصب وعزل وقضاء وفصل وغزوة وسرية، إلى غير ذلك من الأُمور الراجعة إلى إدارة المجتمع وسياسته، وإليك بيان ما يثبت إمامته بوضوح، وما يدل على ذلك من الآيات:

١. (النَّبي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَ أُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْض فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ)[١]، ومعنى كون النبي أولى بهم من أنفسهم، أنّه أولى بهم منهم، ومعنى الأولوية رجحان جانب النبي إذا دار الأمر بينه وبين غيره، ويتحصّل من ذلك أنّ ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ والكلاءة وإنفاذ الإرادة، فالنبي أولى بذلك من نفسه، فلو دار الأمر بين النبي وبين نفس المؤمن وما يرجع إليه، كان جانب النبي أرجح من جانب المؤمن نفسه وما يتعلّق به.

فعلى ذلك يجب أن يكون النبي أحب إليه من نفسه وأكرم عنده منها ولو دعته نفسه إلى شيء والنبي إلى خلافه كان المتعيّن إجابة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وطاعته وتقديم أمر النبي على نفسه.

وعلى ذلك فمقتضى الإطلاق، (إطلاق الأولوية) أنّ النبي أولى بهم فيما يتعلّق بالأُمور الدنيوية أو الدينية، وهذا يمثّل قمة الإطاعة له وذروة الإمامة والقيادة في جميع المجالات على أحسن وجه.

نعم إذا أمر النبي بإخراج المؤمن عن نفسه ونفيسه، فيجب عليه الخروج، لأنّ النبي لا يأمر لغايات شخصية، وإنّما يأمر لمصالح الإسلام والمسلمين، ولا يتصوّر أنّ الآية، تهدف إلى جعله مستبداً بالحكم وتسلم زمام المجتمع بيد الفرد حتّى يتصرف فيه بما شاء هواه وأمرت به نفسه، حاشا النبي الأعظم المسدّد أن تكون سيادته على أساس التسلّط الفردي والنفع الشخصي، وانّما يتبع الوحي في حكمه وقضائه و هو مصون بتسديد من الله عن الخطأ والزلل، قال سبحانه: (وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى)[٢]، وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى اللهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *... وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ).[٣]

---

١. الأحزاب: ٦.
٢. النجم: ٣ ــ ٤.
٣. الحجرات: ١ ــ ٧.

وقد كان بعض الصحابة يصرّ على اتّباع الرسول لآرائهم، فردّ الله عليهم بأنّ مقتضى الإيمان أن لا يتقدم المؤمن على الله سبحانه و رسوله، ولو أنّ الرسول اتّبع آراءهم، لكانت عاقبة ذلك العنت والهلاك.

٢. (وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَ رَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)[١]، فقضاؤه (صلى الله عليه وآله وسلم) قضاء منه بولايته، وفي الوقت نفسه قضاء من الله سبحانه، لأنّه الجاعل لولايته والمنفّذ أمره، وبما أنّه جعل الأمر الواحد « قضى » متعلّقاً لقضاء الله ورسوله معاً، فهو يدل على أنّ المراد من القضاء التصرف في شؤون الناس في الأُمور الدنيوية والأُخروية، لا القضاء بمعنى التشريع وجعل الأحكام، لأنّه مختص بالله سبحانه.

وبالجملة ليس لأحد من المؤمنين والمؤمنات إذا قضى الله ورسوله بالتصرّف في أمر من أُمورهم، اختيار غير ما أراد الله ورسوله، بل عليهم أن يتّبعوا قضاء الله ورسوله، فالآية تمثّل أعلى مرتبة من الحكم للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن المعلوم أنّ جعل قضاء الرسول كقضاء الله تابع لملاكات صحيحة تتّبع المصالح العامة فقط لا المصالح الشخصية.

٣. (مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَللهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبِي وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[٢].

الآية تمثّل مقام ولاية النبي في تقسيم الفيء، وانّه يجب على المؤمنين اتّباعه في كيفيته، ولا يعترضوا عليه بشيء، هذا من غير فرق بين تفسير الإيتاء في (آتَاكُمُ) بمعنى الأمر والبعث بقرينة قوله: (وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) والمعنى ما أمركم الرسول فخذوه بالاتّباع والطاعة، أو تفسيره بمعنى الإعطاء أي ما أعطاكم الرسول من الفيء فخذوه و ما نهاكم عنه ومنعكم فانتهوا ولا تطلبوه، وذلك لأنّ موقف الآية إعطاء الضابطة في كل ما آتاه الرسول فيجب اتّباعه سواء أكان في مجال الفيء أم غيره بشهادة قوله في ذيل الآية: (وَ اتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)، وكون المورد هو الفيء لا يوجب تخصيص الآية بها، والرجوع إلى الآيات السابقة لهذه الآية يفيد بأنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يمثل مقام الإمامة والحكم، وإليك الآيات السابقة:

١. (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ).

٢. (وَ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لاَ رِكَابٍ).

---

١. الأحزاب: ٣٦.

٢. الحشر: ٧.

٣. (مَا أَفَاءَ اللّٰهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَللهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لذِي الْقُرْبى)

٤. (وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

فمجموع الآيات من بدئها إلى آخرها واردة في مجال الحكم والقضاء وانّ الله فوّض إدارة أُمور المسلمين إلى نبيه، وأمرهم بالأخذ بما آتى والانتهاء عمّا نهى، وبهذا المعنى صرّحت الأحاديث المروية عن أهل البيت (عليهم السلام) فقال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في تفسير الآية: « ثم فوّض إليه أمر الدين يسوس عباده فقال: (وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) انّ الرسول كان مسدداً موفقاً مؤيداً بروح القدس ولايزلّ ولا يخطأ في شيء ممّا يسوس به الخلق ».[١]

وقال (عليه السلام) أيضاً: « إنّ الله عزّ وجل فوّض إلى نبيه أمر خلقه لينظر كيف طاعتهم » ثم تلا هذه الآية.[٢]

والمراد من تفويض أمر خلقه، إمضاؤه تعالى ما يأمر به وينهى عنه، وافتراض طاعته وإمضاء ولايته في أمر الناس. نعم التفويض بمعنى سلبه تعالى ما أثبته للنبي عن نفسه، فمستحيل كما قرر في محله.

٤. انّ هناك آيات كثيرة تتجاوز عشرين آية تفرض طاعة الرسول على الأُمّة، فيجب إمعان النظر فيما هو المراد من هذه الفريضة، فنقول:

الرسول بما هو رسول وبما هو واسطة لإبلاغ كلامه سبحانه إلى الناس ليس له أمر ونهي حتّى تفترض له الطاعة، بل هو في ذلك مبلّغ لرسالات الله ومذكر بآياته وليست له سلطة وسيطرة، قال سبحانه: (إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)[٣]، غير انّ الرسول إذا كان له مع الرسالة منصب الحكم وحق الأمر والنهي في تدبير المجتمع وتجسيد الشريعة يكون له حق الطاعة وعلى الأُمّة فرض الاقتفاء، والآيات التالية تشير إلى ذلك النوع من الطاعة حيث يقول سبحانه: (أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ).[٤]

فترى أنّه سبحانه يعطف طاعة الرسول على طاعته، لكن بتكرار الفعل مشيراً إلى أنّ له طاعة خاصة وإن كانت في طول طاعة الله ومشتقة منها، وقال سبحانه: (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّٰهَ وَ مَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً).[٥]

---

١ الكافي: ١ / ٢٦٦، باب التفويض إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من كتاب الحجة.

٢. الكافي: ١ / ٢٦٦، باب التفويض إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من كتاب الحجة.

٣. الغاشية: ٢١ ـــ ٢٢.

٤. النساء: ٥٩.

٥. النساء: ٨٠.

يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في تفسير الآية: « فقرن طاعته بطاعته، ومعصيته بمعصيته، وكان ذلك دليلاً على ما فوّض إليه، وشاهداً على من اتّبعه وعصاه، وبيّن ذلك في غير موضع من الكتاب العظيم ».[١]

فالرجوع إلى الآيات الواردة فيها طاعة الرسول يوقفك على جلاء الحال.

الخلاصة

١-إن منصب الإمامة و الزعامة منصب الهي يتم باختيار من الله تعالى كما في الآية الكريمة: ﴿قال إني جاعلك للناس إماما﴾.

٢-لا ملازمة بين النبوة و الإمامة فقد تجتمعان في شخص واحد كما في النبي إبراهيم عليه السلام و قد تتوفر إحداهما في الشخص كما في طالوت ملكاً.

٣-إن الامام يتخذ الشريعة الالهية منهجاً يسير عليه في تنفيذ مهامّه سواء أكان هو صاحب الشريعة كالنبي الخاتم (ص) أو نزلت الشريعة على غيره كما في داود و سليمان في شريعة موسى(ع).

٤-التأمل في آية الابتلاء يفيد أن منح الامامة لابراهيم كان جزاءاً لصبره و مكافئة على نجاحه في إتمام الكلمات.

٥-قيل إن الابتلاء لا صلة له بالامامة لأنها لو كانت مقابل الفوز بالابتلاء و نتيجته، استلزم دخول الفاء على قوله تعالى ﴿قال إني جاعلك للناس اماما﴾.

٦- إن قوله تعالى ﴿قال إني جاعلك للناس اماما﴾ جملة مستأنفة و هي جواب عن سؤال مقدر كأن السامع يسأل:ماذا قال الله لابراهيم بعد اتمام الكلمات؟فلا تحتاج إلى فاء.

٧-إن كون الامامة أعطِيت لابراهيم بعد الابتلاء لا يعني ضرورة الابتلاء لكل إمام فقد تلعب أمور أخرى دورها في تأهيل الانسان للإمامة.

٨-سأل ابراهيم الامامة لذريته و لما كان النبي محمد(ص) أعظم و أشرف ذريته، تَعيّن أن يكون قد نال هذا المنصب الالهي العظيم.

٩-دلت آيات و روايات كثيرة على إمامة النبي محمد (ص) منها قوله تعالى﴿النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم ﴾و الآية تتضمن أعلى درجات الولاية على المؤمنين و تقدم إرادته على إرادتهم.

---

١. نور الثقلين: ١ / ٤٣١.

بسمه تعالى

جامعة المصطفى العالمية المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٧

الاستدلال بالقرآن على لزوم عصمة الإمام من الذنب (٥)

بكالوريوس

المقدمة

لقد تعرفت من خلال ما أسلفنا من الدروس على المعنى الصحيح للإمامة و ما هو الملاك الذي جعل إبراهيم مؤهلاً لنيل هذا المقام الجليل، في هذا الدرس سوف نتعرض إلى الأخبار و الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام حيث تعضد المعنى المختار من الامامة،كما نتطرق إلى رأي خامس و هو الذي ارتآه العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان، و بالتالي نجيب عن أسئلة ذات صلة بالمقام و هي: ما هو المقصود بالظالمين في الآية و من هو الظالم؟ هل تثبت الآية عصمة للإمام أم إنها قاصرة عن ذلك؟ كيف تطبق الآية المباركة على واقع الخلافة الاسلامية و ما هو الرأي الصائب في ذلك؟

المحتوى العلمي

الإمامة في الأحاديث الإسلامية

قد عرفت أنّ الإمامة الّتي أُفيضت على الخليل كانت عبارة عن حكمه بين الناس وتدبيره أُمورهم، وقد استظهرنا ذلك من سائر الآيات الواردة في هذا المضمار، والأحاديث الإسلامية تدعم ذلك المعنى بوضوح وتفسر الآية على النحو الّذي فسرناه.

قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): « والإمامة نظاماً للأُمّة والطاعة تعظيماً للإمامة »[١].

وقال الإمام الصادق (عليه السلام): « اتّقوا الحكومة إنّما هي للإمام العالم بالقضاء العادل في المسلمين ».[٢]

وقال الإمام الثامن علي بن موسى الرضا (عليه السلام): « إنّ الإمامة زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعز المؤمنين ».[٣]

وقال (عليه السلام) أيضاً: « الإمام يحلّل حلال الله، ويحرّم حرامه، ويقيم حدود الله، ويذب عن دين الله، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة — إلى أن قال: مضطلع بالأمر، عالم بالسياسة، مستحق للرئاسة، مفترض الطاعة، قائم بأمرالله، ناصح لعباد الله »[٤].

فهذه العقود الدرّية تعرب عن مفهوم الإمامة لدى أئمّة أهل البيت، وهو مطابق لما استفدناه من الآية الكريمة.

١. نهج البلاغة: قسم الحكم، برقم ٢٥٢. وقد جاء في المطبوع من نهج البلاغة بمصر بشرح الشيخ محمد عبده: « الأمانات » مكان « الإمامة ». وهو اشتباه محض وقد تبعه صبحي الصالح في الاشتباه.

٢. وسائل الشيعة: ١٨ / ٧، كتاب القضاء، الباب ٣ من أبواب صفات القاضي، الحديث ٣.

٣. الكافي: ١ / ٢٠٠، كتاب الحجة، باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته.

٤. تحف العقول: ٤٣٦ — ٤٤١.

هذه هي النظريات الأربع المذكورة حول ملاك إمامة الخليل الواردة في آية الابتلاء، وبقيت هنا نظرية خامسة اختارها العلاّمة الطباطبائي نتبرّك في خاتمة المطاف بذكرها وتحليلها، وإنّما أخّرنا ذكرها، لأنّ للنظرية الرابعة تأثيراً خاصاً في فهمها وتوضيحها وما يتوجه إليها من الإشكال، وإليك بيانها.

الإمامة عهد من الله

العهد في الأصل هو الاحتفاظ بالشيء، وإليه ترجع سائر المعاني الّتي استعملت فيها تلك اللفظة، فيقال للوصية: العهد، لأنّه ينبغي الاحتفاظ بها كما يطلق على ما يكتب للولاة من الوصية، لأنّه ممّا ينبغي الاحتفاظ به، العهدة: الكتاب الّذي يستوثق به في البيعات.[١]

وعلى ذلك فكل شيء غال قيم ينبغي الاحتفاظ به فهو العهد، والله سبحانه ينسب الإمامة إلى نفسه ويقول: (عهدي)، ويريد بذلك إنّه شيء غال وهدية ثمينة من الله سبحانه يجب الاحتفاظ بها من جانب الأُمّة، وبما أنّ الشيء الثمين لا يودع إلاّ عند من كان أميناً واضعاً كل شيء في مكانه، قال سبحانه: (لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)، فالإمامة ميثاق الله سبحانه بين الأُمّة يجب الاحتفاظ بها عن طريق امتثال ما يفترض من الأوامر والنواهي وعدم إضاعتها.

ويظهر من ذلك، أي أنّ الإمامة عهد الله سبحانه،أنّ الإمامة نوع من الحكومة، وليس لأحد حق الحكم على أحد إلاّ بإذنه سبحانه، فالحاكم الواقعي المشروع حكمه، النافذ أمره ونهيه، من استند في ولايته إلى الله سبحانه وتعالى.

ما هو المقصود من الظالمين؟

الظلم في اللغة: هو وضع الشيء في غير موضعه، قال ابن فارس بعد ذكره لهذه الجملة: ألا تراهم يقولون من أشبه أباه فما ظلم، أي: ما وضع الشبه غير موضعه، وبه قال غيره من اللغويين.

قال ابن منظور: الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومن أمثال العرب: من أشبه أباه فما ظلم. قال الأصمعي: أي ما وضع الشبه في غير موضعه. وفي المثل: من استرعى الذئب فقد ظلم. وفي حديث ابن زمل: لزموا الطريق فلم يظلموه، أي: لم يعدلواعنه، يقال: أخذ في طريق فما ظلم يميناً ولا شمالاً. وأصل الظلم: الجور، ومجاوزة الحد. والظلم: الميل عن القصد، والعرب تقول: الزم هذا الصوب ولا تظلم عنه، أي لا تجز عنه. قال سبحانه: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)، وذلك لأنّه جعل النعمة لغير ربها.

---

١. معجم مقاييس اللغة: ٤ / ١٦٨.

فإذا كان الظلم بمعنى مجاوزة الحد الّذي عيّنه العرف أو الشرع، فالمعصية كبيرها وصغيرها ظلــم، لأنّ مقترفهما يتجاوز عن الحد الّذي رسمه الشارع، والظلم له مراتب والمجموع يشترك في كونه تجــاوزاً عن الحد و وضعاً للشيء في غير موضعه.

ولما خلع سبحانه ثوب الإمامة على خليله ونصبه إماماً للناس ودعا إبراهيم أن يجعل من ذريته إماماً، فأُجيب بأنّ الإمامة وثيقة إلهية قيّمة لا تنال الظالمين، لأنّ الإمام هو المطاع بين الناس، المتصــرف في النفوس والأموال، والقائد للمجتمع إلى السعادة، فيجب أن يكون على الصراط السوي حتى يكــون أمره ونهيه وتصرّفه وقيادته نابعة عنه، والظالم هو المتجاوز عن الحد، المتمايل عن الصراط إلى الــيمين والشمال [١]، الواضع للشيء في غيرموضعه وهو لا يصلح لهذا المنصب وحدوده.

إنّ الظالم الناكث لعهد الله، والناقض لدساتيره وحدوده على شفا جرف هار لا يــؤتمن عليــه، ولا تلقى إليه مقاليد الخلافة، ولا مفاتيح القيادة، لأنّه على مقربة من الخيانة والتعدّي، وعلى استعداد لأن يقع أداة للجائرين، فكيف يصح في منطق العقل أن يكون إماماً مطاعاً، نافذاً قوله، مشروعاً تصرفه، إلى غير ذلك من شؤون الإمامة؟

دلالة الآية على عصمة الإمام

إنّ بعض المناصب والمقامات تعيّن شروطها بنفسها، فمدير المستشفى، له شروط تختلف عن شــروط قائد الجيش، وهكذا غيرهما.

فالإمامة الّتي لا تنفك عن التصرّف في النفوس والأموال، وبها يناط حفظ القوانين، يجب أن يكــون القائم بها إنساناً مثالياً مالكاً لنفسه، وغرائزه، حتى لا يتجاوز في حكمه عن الحد، وفي قضــائه عــن الحق.

والمستفاد من الآية أنّ الظلم بشتى ألوانه مانع من النيل لمقام الإمامة، لأنّ كلمة « الظالمين » بحكــم كونها محلاّة باللام تفيد الاستغراق في الأفراد، فإذا كان الظالمون بعامة أفرادهم ممنوعين من الارتقــاء إلى هذا المقام، يكون الظلم بكل ألوانه وصوره مانعاً عن الرقي والنيل لهذا المنصب الإلهي، فالاستغراق في جانب الأفراد يستلزم الاستغراق في جانب الظلم وأقسامه وتكون النتيجة مانعية كل فرد منه عــن الارتقاء إلى منصب الإمامة.

---

١. ونعم ما قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): « اليمين والشمال مضلّة، والطريق الوسطى هي الجادة ». (نهج البلاغــة: قســم الخطب، الرقم ١٥.

وبالجملة: فالآية تستغرق جميع الظالمين، وتسلب الصلاحية عن كل فرد منهم، وبالنتيجة تفيد بأنّ الظلم باي شكل كان مانع عن الارتقاء إلى الإمامة. فالاستغراق في ناحية الأفراد يلازم الاستغراق في أقسام الظلم.

فتكون النتيجة: انّ من صدق عليه أنّه ظالم ولو في فترة من عمره يكون ممنوعاً من نيل هذا المقام الرفيع.

سؤال وجواب

أمّا **السؤال**، فهو: انّ الآية انّما تشمل من كان مقيماً على الظلم، فأمّا التائب عنه فلا يتعلّق به الحكم، لأنّ الحكم إذا كان معلّقاً على صفة و زالت الصفة زال الحكم، وصفة الظلم صفة ذم، فإنّما تلحقه ما دام مقيماً عليه، فإذا زال عنه زالت الصفة عنه، كذلك يزول عنه الحكم الّذي علّق به من نفي نيل العهد في قوله تعالى: (لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) ألا ترى أنّ قوله تعالى: (وَ لاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) إنّما هو نهي عن الركون إليهم ما أقاموا على الظلم، وكذلك قوله تعالى: (مَا عَلَى الْمحْسِنِينَ مِنْ سَبِيل) إنّما هو ما أقاموا على الإحسان، فقوله تعالى: (لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) لم نف به العهد عن من تاب عن ظلمه، لأنّه في هذه الحالة لا يسمّى ظالماً كما لا يسمّى من تاب من الكفر كافراً ومن تاب من الفسق فاسقاً، وانّما يقال كان كافراً وكان فاسقاً، وكان ظالماً، والله تعالى لم يقل لم ينل عهدي من كان ظالماً، وانّما نفى ذلك عن من كان موسوماً بسمة الظالم والاسم لازم له باق عليه. [١]

الجواب

إنّ ما أفاده الجصاص من أنّ الحكم يدور مدار وجود الموضوع ليس ضابطاً كلياً يعتمد عليه في كل الموارد، وما استشهد به من المثالين لا يكون مبدأ لانتزاع القاعدة الكلية المزعومة، بل الأحكام على قسمين: قسم يدور مدار وجود الموضوع، فينتفي بانتفائه، وقسم يكفي فيه اتصاف الموضوع بالوصف والعنوان آناً ما ولحظة واحدة، وإن انتفى بعد الاتصاف، وإليك توضيح كلا القسمين:

أمّا القسم الأوّل: مثل قولنا الخمر حرام، أو في سائمة الغنم زكاة، فالمائع ما دام يصدق عليه عنوان الخمر يحرم شربه، فإذا انقلب إلى الخل يرتفع عنه الحكم، والغنم ما دامت سائمة تتعلّق بها الزكاة، فإذا زال العنوان وعادت معلوفة يرتفع عنها الحكم، وله في العرف والشريعة أمثلة لا تعد ولا تحصى.

---

١. أحكام القرآن (لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصّاص، المتوفى عام ٣٧٠ هـ): ١ / ٧٢ بتلخيص.

وأمّا القسم الثاني: أعني ما يكفي في بقاء الحكم اتصاف الموضوع بالعنوان ولو مرة واحدة أو لحظة سريعة عابرة، فهو كالزاني والسارق، فالإنسان إذا تلبّس بالزنا أو السرقة، يكون محكوماً بالحد وإن زال عنه العنوان، بل وإن تاب وأناب بعد ثبوت الحكم في حقه، ومثله عنوان المستطيع، فمن استطاع الحج يجب عليه وإن زالت عنه الاستطاعة وقصر في أداء الحج.

ومثل هذه الأمثلة، عنوان « أُمّهات نسائكم » فمن اتصفت بكونها أُمّاً لزوجة ولو لحظة، تحرم على الزوج وإن زالت علقة الزوجية، وعلى هذا الضوء يكون قوله تعالى: (وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا)[١]، وقوله سبحانه: (الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ)[٢]، وقوله سبحانه: (وَ للهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً)[٣]، وقوله سبحانه: (وَ أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ) [٤]، شاملاً لكل من تلبس بالسرقة والزنا والاستطاعة والأُمومة للزوجة، سواء بقوا على العنوان أم زال عنهم، وعلى هذا القياس يجب تقسيم الموضوعات المتصفة بالعناوين إلى قسمين لا جعلهما قسماً واحداً كما صنع الجصّاص.

نعم، المهم في المقام إثبات أنّ الموضوع في الآية من قبيل القسم الثاني لا القسم الأوّل، فما لم يثبت كونه منه لا يفيد تقسيم العنوان إلى قسمين.

وبعبارة أُخرى: اللازم إثبات أنّ المتلبّس بالظلم ولو آناً ما، ولو فترة يسيرة من عمره لا يصلح للإمامة في كل عمره وإن تاب من الذنب، ويمكن إثبات ذلك من طريقين:

الأوّل: طريق العقل

إنّ الهدف الأسمى من تنصيب أمثال الخليل (عليه السلام) للإمامة تحقيق الشريعة الإلهية في المجتمع وتحقيقها بين الناس، فإذا كان القائد رجلاً مثالياً نقي الثوب، مشرق الصحيفة، ناصع السلوك، يكون لأمره ونهيه نفوذ في القلوب، ولا تكون قيادته محل طعن من قبل المجتمع، بل يستقبله الشعب بوجوه ملؤها الإجلال والإكبار، لأنّه عاش بين ظهرانيهم و لم يروا منه عصياناً ولا زلة، بل كان قائماً على الصراط السوي غير مائل عنه، وعند ذلك يتحقّق الهدف الأسمى من تنصيب الشخصيات المعينة للإمامة.

وأمّا اذا كان في فترة من عمره مقترفاً للمعاصي، مجترحاً للسيئات، فهو غرض لسهام الناقدين، ومن البعيد أن ينفذ قوله وتقبل قيادته بسهولة، بل يقع مورداً للاعتراض بأنّه كان بالأمس يقترف الذنوب

---

١. المائدة: ٣٨.

٢. النور: ٢.

٣. آل عمران: ٩٧.

٤. النساء: ٢٣.

ويعمل المعاصي، ويتبنّى الباطل وأصبح اليوم آمراً بالحق ومميتاً للباطل! وعند ذلك لا يتحقق الهدف الّذي لأجله خلعت عليه الإمامة.

وهذا التحليل العقلي يحكم بلزوم نقاوة الإمام عن كل زلة ومعصية وأنّ الإنابة لو كانت ناجحة في حياته الفردية لاتكون ناجحة في حياته الاجتماعية ولا يقع أمره ونهيه موقع القبول ولا يقدر أن يأخذ بمجامع القلوب.

الثاني: طريق النقل

وهو تحليل الآية: ببيان أنّ الناس بالنسبة إلى الظلم على أربعة أقسام:

١. من كان في طيلة عمره ظالماً.

٢. من كان طاهراً ونقياً في جميع عمره.

٣. من كان ظالماً في بداية عمره وتائباً في آخره.

٤. من كان طاهراً في بداية عمره وظالماً في آخره.

عند ذلك يجب أن نقف على أنّ إبراهيم (عليه السلام) الّذي سأل الإمامة لبعض ذريته، أراد أيّ قسم منهم؟ حاشا إبراهيم (عليه السلام) أن يسأل الإمامة للقسم الأوّل والرابع من ذريته، لوضوح أنّ الغارق في الظلم من بداية عمره إلى آخره أو الموصوف به أيام تصدّيه للإمامة لايصلح لأن يؤتمن عليها، فبقي القسمان الآخران، أعني: الثاني والثالث، وقد نص سبحانه على أنّه: لا ينال عهده الظالم، والظالم في هذه العبارة لا ينطبق إلاّ على القسم الثالث، أعني: من كان ظالماً في بداية عمره وصار تائباً حين التصدّي، فإذا خرج هذا القسم بقي القسم الثاني، وهو من كان نقي الصحيفة طيلة عمره، لم يُر منه لا قبل التصدّي ولا بعده انحراف عن الحق، ومجاوزة للصراط السوي.

وحصيلة البحث: أنّ الإمام هو الإنسان المثالي المطاع قوله، المقتدى بفعله، والمنصوب من الله سبحانه، لأجل تحقيق الأهداف الإلهية في المجتمع ولا يختلف كلامه وتقريره عنها قيد شعرة، حتّى يحقّق الهدف الّذي نصب لأجله وبما أنّ الآية الكريمة تنفي صلاحية الظالم لنيل هذا المقام، وهي على وجه الاستغراق، فالظالم بجميع أصنافه لا يصلح لهذا المقام وإن تاب وطهر، لما عرفت من الوجهين من أنّ المقام من قبيل القسم الثاني الّذي يكفي في ثبوت الحكم دائماً تلبس الموضوع بالعنوان آناً ما.

سؤال وجواب

أمّا **السؤال** فحاصله: أنّ غاية ما يستفاد من الآية لزوم كون الإمام نقي الصحيفة عادلاً غير ظالم، وأمّا كونه معصوماً قد أُفيضت عليه ملكة العصمة فلا يستفاد من الآية؟

وإن شئت قلت: إنّ نفي صلاحية الظالم للتصدّي للإمامة لا يثبت إلاّ صلاحية تصدّي العادل، وهو أعم من المعصوم الّذي نحن بصدد إثباته ؟

الجواب:

إنّ العدالة المطلقة الّتي يؤكد عليها القرآن وهي كون الرجل نقياً عن كل ذنب، صغير وكبير طيلة عمره، من أوان بلوغه إلى لقاء ربّه، تلازم العصمة ولا تنفك عنها، إذ من المستحيل عادة أن يثبت الإنسان على الحق ولا يتجاوز عنه ولا تصدر منه كبيرة ولا صغيرة إلى أن يلاقي ربّه، ومع ذلك يكون فاقداً للعصمة وملكة المصونية.

إنّ الإنسان القائم على الصراط السوي في جميع لحظات عمره غير المائل عن الحق فكراً وعملاً، لا ينفك عن كونه يمتلك ملكة العصمة الحامية من الزلل.

نعم: العدالة غير المطلقة لا تلازم العصمة، ولأجل ذلك ربّما يقترف العادل بعض المعاصي وإن كان يتوب بسرعة، لكنّها ليست عدالة مطلقة، بل عدالة خاصة لا تنافي صدور المعصية، وأمّا العدالة المطلقة في جميع سني العمر، والالتزام بالحق قولاً وفعلاً، عقيدة وعملاً، بلا انحراف، فهي عبارة أُخرى عن العصمة، ولا تتحقق إلاّ بالموهبة الإلهية المفاضة من الله سبحانه على عباده المخلصين.

وإن أبيت إلاّ عن أعمّية ما تهدف إليه الآية و أنّ المستفاد منها العدالة المطلقة لا العصمة المفاضة من الله سبحانه، فنقول: إنّ الشيعة الإمامية تكتفي بذلك في نفي خلافة من تصدّى للخلافة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، بحجة أنّهم لم يكونوا ذوي عدالة مطلقة، كيف وقد عبدوا الصنم والوثن في فترات من عمرهم؟!

فإذا ثبت عدم صلاحيتهم تعيّنت إمامة العترة الطاهرة، لأنّ الأُمّة في مسألة الإمامة ذات قولين، فذهبت طائفة إلى إمامة الخلفاء، وذهبت طائفة أُخرى إلى إمامة علي وأهل بيته (عليهم السلام)، فإذا نفيت صلاحية الفرقة الأُولى تعيّنت خلافة الطائفة الثانية، لأنّ إمامة غير هاتين الطائفتين لم يذهب إليها أحد.

وبالجملة: اتفقت الأُمّة الإسلامية على قولين في مسألة الإمامة، فذهب أهل السنّة إلى خلافة الخلفاء الأربعة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم تبدّلت الخلافة بعد الخليفة الرابع إلى الملوكية وخرجت عن صبغة الخلافة الإسلامية، وقد كان أكثر هؤلاء الخلفاء الأربعة غير مجتنبين عن الشرك وعبادة الوثن في أوّليات حياتهم، وإن صاروا ببركة الإسلام موحّدين تاركين الخط الجاهلي.

وذهب الشيعة بعامة فرقهم إلى خلافة علي وبعده الحسن والحسين إلى آخر أئمّة الهدى، فهؤلاء كانوا طاهرين عن الشرك منذ نعومة أظفارهم إلى لقاء ربّهم، وليس بين الأُمّة قول بإمامة غير هاتين الطائفتين.

هذان هما القولان اللّذان أشرنا إليهما، ومن جانب آخر انّ الآية تدلّ على شرطية طهارة الإمام على وجه الإطلاق عن كل ظلم في جميع أدوار الحياة، وهذا لا ينطبق إلاّ على الطائفة الثانية، لأنّ كثيراً من أفراد الطائفة الأُولى كانوا غير مجتنبين عن الظلم في بداية حياتهم وذلك ممّا لا يختلف فيه اثنان.

الخلاصة

١- ما ورد في أخبار أهل البيت عليهم السلام يعضد الرأي المختار في الامامة (الحكم و تدبير الأمة) و من ذلك قول أمير المؤمنين(ع): والإمامة نظاماً للأُمّة والطاعة تعظيماً للإمامة.

٢- يرى العلامة الطباطبائي في آية الابتلاء أن الإمامة عهد الهي و العهد لغوياً هو الشيءالثمين الذي يجب الاحتفاظ به فالامامة أمر إلهي ثمين لا يودع إلا عند من يملك ولاية وحكماً إلهياً.

٣- الظلم في أصل اللغة يعني وضع الشيء في غير موضعه ومجاوزة حده و عليه فالمعصية صغيرها و كبيرها ظلم لان العاصي يتجاوز حدود الشرع.

٤- نفت الآية إمامة الظالم لأنه ليس أميناً عليها و هو على مقربة من التعدي و الوقوع أداةً في يد الشيطان و أعداء الله.

٥- لام الاستغراق في الآية تفيد بأن الإمامة لا تجتمع مع شيء من أنواع الظلم فالإمام هو الطاهر من كل معاني الجور و المعصية.

٦- قيل إن من ظلم ثم تاب عن ظلمه فلا يطلق عليه أنه ظالم و بالتالي فليس بالضرورة أن يكون الامام معصوما من الذنب طيلة حياته.

٧- الجواب عن ذلك ان العنوان قد يصدق على موضوعه بمجرد اتصافه به في آن واحد كما في الزاني و السارق و... و عنوان الظلم لا ينفك عن صاحبه و إن أقلع عن ظلمه.

٨- مما يدل على ذلك أن الشخص الذي اجترح السيئات و اقترف المعصية لو ينصب اماماً للناس فلن تقع إمامته موقع القبول في نفوسهم و لا يقدر أن يحقق الهدف السامي من الامامة.

٩- و أيضا يدل على ما ذكرنا أن ابراهيم (ع) عندما سأل الإمامة لذريته فإما أن يكون قد سأل للطاهر منهم طيلة حياته او حتى لمن تاب بعد ظلم،نفيت إمامة الظالم،فتحتمت عصمة الامام.

١٠- قد يقال إن الآية غاية ما تثبت عصمة طهارة الإمام طيلة حياته أما العصمة الالهية فلا.

١١- من المستحيل عادة أن يكون الانسان بعيدا عن كل معصية في كل أيام حياته من دون أن يكون في صيانة الهية.

١٢- على تقدير قصور الآية عن إثبات العصمة الالهية،فالشيعة تحتج على المذاهب الاسلامية بأن الخلفاء لم تتوفر فيهم الطهارة المطلقة التي أثبتتها الآية المباركة للإمام.

بسمه تعالى

جامعة المصطفى العالمية المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٨

الولاية والامامة العامة في القرآن الكريم

بكالوريوس

المقدمة

كما اتضح في البحوث السابقة إن الإمامة من المفاهيم القرآنية التي تحظى بأهمية بالغة و في هذا الدرس سوف ندرس أبعاد ضرورة وجود الإمام المعصوم و أهم الأدوار التي يقوم بها كما نتطرق إلى الولاية العامة و الولاية الخاصة على ضوء ما ورد في الكتاب العزيز ومن ذلك الآيتان المباركتان:﴿إنما أنت منذر و لكل قوم هاد ﴾ و ﴿يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله و كونوا مع الصادقين﴾. فما هو مدلول هاتين الآيتين و من هو الهادي و من هم الصادقون و ما هي صفاقم؟

المحتوى العلمي

فلسفة وجود الامام

بالرغم من اتضاح فلسفة وجود الامام بنحو إجمالي في البحث السابق من خلال الاستعانة بالآيات المتعلقة بامامة ابراهيم (ع) إلا ان هذا الموضوع مهم إلى الحد الذي يتطلب فتح بحث مستقل له.

وبشكل عام فإن الكثير من الأمور التي تذكر على أنها الأهداف من بعثة الأنبياء أو فلسفة وجودهم، تصدق بحق الإمام أيضا.

لقد تطرق الخواجة نصير الدين الطوسي (قدس سرّه) الى بيان فلسفة بعثة الأنبياء في فصل النبوة من كتاب تجريد الاعتقاد وأشار العلامة الكبير الحلّي في شرح ذلك الكلام الى تسع نقاط من هذه الفلسفة ندرجها إجمالا كمايلي ونضعها أمام القارئ الكريم، وكما سنلاحظ فإن الكثير منها يصدق على قضية تعيين الائمة المعصومين أيضا:

١. ترسيخ المعرفة العقلية عن طريق البيان النقلي، من هنا فإن الانسان يدرك الكثير من الحقائق سواء في الاصول او في فروع الدين من خلال القوة العقلية ,إلا ان الوساوس قد تغزو قلبه أحيانا، وهذا الاضطراب يحول دون أدائها، أمّا اذا تمّ تأييد وترسيخ هذه الاحكام العقلية بكلام الائمة المعصومين فستزول جميع أشكال الغموض والاضطراب، ويسعى الانسان لأدائها برباطة جأش ويقين.

٢. إن الانسان يحذر أحيانا عن أداء الاعمال لأنه يخشى ما ان يقوم بفعل من في حدود وتصرفه وسلطته خلافا لرضا اللّه، فكلام الائمة يزيل هذا الحذر والخوف.

٣. لا تجتمع اعمال الانسان في حدود ((الحسن القبح العقلي، وما اكثر الامور التي لا يدرك عقل الانسان حسنها وقبحها، فهنا لابد من التشبث بأذيال القادة الالهيين، لإدراك حسنها وقبحها.

٤. إن بعض الاشياء مفيد وبعضها الآخر مضرّ، ولا قدرة للانسان على إدراك منفعتها وضررها من خلال تفكيره فقط بدون إرشاد القادة الالهيين، فهنا يشعر بالحاجة اليهم.

٥. إن الانسان موجود اجتماعي، وهو عاجز عن حلّ مشاكل حياته بدون التنسيق والتعاون مع الآخرين، ومن المسلّم به أن المجتمع لن يستقيم ولن يبلغ الكمال المطلوب ما لم يمتلك القوانين التي تحافظ على حقوق جميع الاشخاص،وتأخذ بأيديهم نحو الصراط المستقيم، فتشخيص هذه القوانين بشكل صائب ومن ثَم تطبيقها لن يحصل إلا عن طريق القادة الواعين والطاهرين والمعصومين.

٦. إن الناس يتفاوتون في إدراك الكمالات وكسب العلوم والمعارف والفضائل،فالبعض يمتلك القدرة على السير في هذا الطريق، والآخر عاجز، فالقادة الالهيون يقومون بترسيخ الفئة الأولى وتسديدهم، وإعانة الفئة الثانية كي تصل الفئتان الى الكمال الممكن.

٧. إن النوع الانساني بحاجة إلى مستلزمات وصناعات وعلوم، ويستطيع القادة الربانيون تأمين هذه المستلزمات وذلك من خلال توجيه المجتمع نحو الحصول عليها.

٨. إن المراتب الاخلاقية متفاوتة لدى الناس، والسبيل الوحيد لتنمية هذه الفضائل هو سبيل القادة الالهيين الطاهرين والمعصومين.

٩. إن الائمة مطّلعون على الثواب والعقاب والأجر والجزاء إزاء الطاعة والمعصية، وعندما يُعلمون الآخرين هذه الأمور فهم يخلقون لديهم حافزاً قوياً لاداء الواجبات .

ونظراً إلى أن الائمة ليسوا سوى استمرار لخطّ النبوة، فإن اغلب هذه الفلسفات يثبت بواسطة الائمة المعصومين (ع) ايضا.

وفي القرآن الكريم تتلخص هذه الامور بل وحتى اكثر منها في ثلاثة مواضيع وهي:

((التعليم)) و ((التربية)) و ((القيام بالقسط)) التي أشير اليها في آيات عديدة، فيقول تعالى بشأن الفلسفة من بعثة النبي (ص) ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويُعلّمهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبين﴾ (الجمعة ٢).

فقد تمت الاشارة هنا الى مسألة ((التعليم)) و ((التربية)) التي هي أهم أهداف الأنبياء والائمة المعصومين (ع).

وفي مكان آخر يقول تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلَنا بالبيّناتِ وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقِسط﴾ (الحديد ٢٥).

وقد أشير هنا الى العدالة الاجتماعية والقيام بالقسط الذي يوفّر أرضية ((التعليم)) و ((التربية)) الصحيحتين.

نعم فالزعماء العاديون في العالم يفكرون:

اولاً: بصيانة مكانتهم ومصالحهم الشخصية او الحزبية، لهذا فهم طالما يضحّون بمصالح المجتمعات البشرية من أجل مصالحهم الخاصة، فالقادة الطاهرون والمعصومون وأتباعهم فقط الذين يستطيعون المحافظة على حقوق الانسان والمصالح العامة للمجتمع الانساني كما ينبغي.

ثانياً: هب أن الزعماء غير الربانيين يريدون تطبيق العدالة وقيادة المجتمعات البشرية نحو الكمال المطلوب، فإن تشخيص هذه الامور في الكثير من الحالات غير ممكن بالنسبة لهم، فهم يستطيعون في هذه الحالة أن يشخصوا الامور ولكن تشخيصهم ناقص وغير دقيق.

وهذا الامر (التشخيص الدقيق) ممكن فقط بالنسبة للقادة الربانيين الذين يعتمدون على البحر اللامتناهي من العلم الالهي.

وقد أثبتت تجربة الاعوام السبعين من الحكم الشيوعي على نصف سكان الكرة الارضية هذه الحقيقة بوضوح،فلقد كرّسوا أوسع و أعظم جهاز إعلامي لترسيخ دعائم الماركسية، وقدّموا الملايين من الكتب والكرّاسات والمقالات والخطب على هذا الصعيد، وزعموا بأن الشيوعية هي الطريق الوحيد لحل مشاكل المجتمع البشري وتأمين العدالة الاجتماعية، وتكامل النوع البشري، وأفضل وسيلة للتفسير الصحيح للتاريخ والعلوم الاجتماعية، وقمعوا المعارضين لهم بشتى الاساليب،لكننا رأينا أنها لم تجلب سوى التعاسة والتخلف والديكتاتورية، وفي خاتمة المطاف اضطر مفكروهم الى الاعتراف بأن ما كانوا يتصورونه الطريق الحقيقي للسعادة لم يكن إلا انحطاطاً وتخلفاً للمجتمع الانساني.

ربما لم يشهد التاريخ نظيرا لهذه القضية، اذ تُدافع طائفة كبيرة من المفكرين والعلماء وأساتذة الجامعات عن عقيدة ما وفي النهاية يتضح أن ماكانوا يؤمنون به،فارغ من المحتوى.

فما الضمان لعدم حدوث مثل هذه الحالة في المستقبل، وعدم تلوث عقائد المجتمع الانساني بهذه الافكار المضلة؟

هنا تبرز ضرورة الانتفاع من نهج الانبياء والائمة المعصومين (ع) المصونين من الزلل والخطأ من قبل اللّه تعالى.

وخلاصة الكلام هي ان الإله الذي خلق النوع الانساني وأمَره بالسير في طريق الكمال والسعادة، وارسل الانبياء المعصومين الذين يتلقون الأوامر الالهية بواسطة الوحي، من اجل ((إرائة الطريق)) و ((الايصال الى المطلوب))، فلابد ان يجعل ائمة معصومين يخلفون الانبياء بعد رحيلهم من اجل استمرار هذا الطريق، ويعينون المجتمع البشري في ارائة الطريق والايصال الى المطلوب، ومن المسلّم به أن هذا الهدف سيبقى ناقصاً بدونهم للاسباب التالية:

اولاً: من المتيقن أن العقول البشرية لا تستطيع تشخيص جميع عوامل واسباب التقدم والرُقي وحدها، وقد لا تشخّص عُشر ذلك.

ثانياً: ربما يتعرض دين الانبياء بعد ارتحالهم لانواع التحريف، فلا بد من الحُرّاس المعصومين والربانيين ليحافظوا عليه ويَحولوا بين تحريف المبطلين وبين بلوغ مآربهم، وآراء الجهلة وتفسيرات اصحاب الاهواء والمآرب.

وهذا نفس ماورد في الحديث المعروف في أصول الكافي عن الامام الصادق (ع) حيث يقول: ((ان فينا اهل البيت في كل خلف عُدولاً ينفون عنه تحريفَ الغالين وانتحالَ المبطلين، وتأويل الجاهلين))[١].

وكذلك ما اشار اليه الامام علي (ع) في إحدى كلماته القيمة، إذ يقول: ((اللهم بلى لا تخلو الارض من قائم للّه بحجة إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً لئلا تبطل حججُ اللّه وبيناتُه))[٢].

ثالثاً: من المتعذر اقامة الحكومة الالهية التي توصل الانسان الى الغاية التي خلق من اجلها، إلا عن طريق المعصومين، لأن الحكومات البشرية، و وفقاً لشهادة التاريخ كانت غالباً ما تسير في خط المصالح الشخصيه او الفئوية، وان جميع مساعيهاكانت في هذا الاتجاه، وكما جربنا مراراً وتكراراً ان شعارات ((الديمقراطية)) و ((حكم الشعب للشعب)) و ((حقوق الانسان)) وما شابه ذلك ماهي إلا قناع للوصول الى اهدافهم الشيطانية عن طريق أسهل،فقد فرضوا اغراضهم على الشعوب بشكل خفي ومن خلال استغلال هذا المنطق وهذه الادوات.

إن هذه الاصول الثلاثة أي ((ارائة الطريق)) الذي يعجز العقل عن تشخيصه، و ((المحافظة على مواريث الانبياء)) و ((إقامة حكومة العدل))، تُمثّل بالواقع الاسس الحقيقية لفلسفة وجود الامام المعصوم.

ونختم هذا الحديث بكلام للامام علي بن موسى الرضا (ع) حيث يعتبر من اكثر الكلمات شمولية فيما يتعلق بفلسفة الامامة، وحديث من نهج البلاغة لاميرالمؤمنين (ع):

الحديث الاول الذي تحدث به (ع) يوم الجمعة في المسجد الجامع في مدينة (مرو) بحضور حشد من الناس، يتناول مسائل كثيرة، نشير هنا إلى جانب منها،قال (ع):

((ان الامامة هي مترلة الانبياء و إرث الاوصياء، إن الامامة خلافة اللّه وخلافة الرسول، الامام البدرُ المنير، والسراج الزاهر، والنور الساطع، والنجم الهادي في غياهِب الدُجى، الامام الماء العَذبُ على الظما والدالّ على الهدى والمنجي من الردى، الامام السحابُ الماطر، والغيث الهاطل، والشمس

---

١. اصول الكافي: ج١، ص ٣٢، (باب صفة العلم، الحديث ٢

٢. نهج البلاغة: قصار الكلمات الكلمة ١٤٧

المضيئة، الامام أمين اللّه في خلقه، وحجته على عباده، وخليفته في بلاده، نظام الدين، و عِزّ المسلمين، وغيض المنافقين، وبوار الكافرين))[١].

وفي عبارة قصيرة يصوّر امير المؤمنين (ع) روح الامامة، فيقول:

((ومكان القيّم بالامر مكان النظام من الخرز، يجمعه ويضمه، فاذا انقطع النظام تفرق الخرز والذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً))[٢].

الولاية والامامة العامة في القرآن الكريم

تمهيد

هنالك بحثان مستقلان في موضوع الولاية وهما:

١. ((الولاية العامة)) أي لابد من وجود امام بين الناس منصوب من قِبل اللّه،دائما و في كل عصر، سواء كان يتمتع بمقام النبوة و الرسالة، او بمقام الولاية فقط.

٢. ((الولاية والامامة الخاصة)) أي من الذي يتصدى لهذا المنصب والمقام الالهي بعد النبي (ص)؟.

وبتعبير آخر: كما أن النبوة تتفرع الى ((نبوة خاصة)) و((نبوة عامة))، فكذلك الامامة.

وقد ورد في القرآن الكريم مايشير الى الولاية العامة ندرجه فيما يلي:

١- (إنما أنت منذر ولكل قوم هادٍ) (الرعد ٧).

٢- (يا أيها الذين ءامنوا اتقوا اللّه وكونوا مع الصادقين) (التوبة ١١٩).

٣- (أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) (النسا ٥٩).

آية الانذار والهداية

ففي الاية الاولى يخاطب اللّه تعالى النبي (ص): (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد).

ينقل الفخر الرازي ثلاثة اقوال في تفسير هذه الاية:

الاول: إن ((المنذر)) و ((الهادي)) شيء واحد، وعليه يكون مفهوم الآية كما يلي:

(إنما انت منذر وهادٍ لكل قوم).

الثاني: المنذر هو النبي (ص) والهادي هو اللّه تعالى.

---

١. اصول الكافي: ج١، ص ٢٠٠ (باب نادر جامع في فضل الامام).

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٤٦.

الثالث: المنذر هو النبي (ص) والهادي هو علي (ع)، اذ يقول ابن عباس:ان النبي قد وضع يده على صدره وقال: انا المنذر ثم أومأ الى منكب علي (ع) وقال:((انت الهادي ياعلي، بك يهتدي المهتدون من بعدي))[١].

وقد نقلت مجموعة أخرى من المفسرين هذه التفاسير الثلاثة، فيما أصرّ بعض مفسري أهل السنة على ان تفسير الاية أحد التفسيرين الاولين، لان التفسير الثالث لايتناسب ونمط تفكيرهم المليء بالتعصب.
بينما لا يتناسب التفسير الاول مع ظاهر الاية، فلو كان مقرراً أن يكون الوصفان لرسول اللّه (ص) لقال: انما انت منذر وهادٍ لكل قوم، وبتعبير آخر لاينبغي تقديم ((لكل قوم)) وهو جار ومجرور على ((هاد)) واذا ما تقدم فيجب ان يتقدم على الوصفين فيقال: انما انت لكل قوم منذر وهاد، وخلاصة القول: انه لا يبدو هنالك مبررّ لتقديم ((لكل قوم)) على وصف وتأخيره عن الآخر، او لابد من تقديمه عليهما او تاخيره عنهما (تأملوا جيدا).

والتفسير الثاني غير مألوف ولا مناسب، لان كون اللّه هادياً فلاشك فيه حتى يحتاج الى بيان، أضف الى ان ظاهر العبارة هو أن لكل عصر و زمان هادياً خاصاً والحال ان اللّه واحد أحد، فهذه الوحدانية لا تنسجم والتعددية التي تستفاد من عبارة لكل قوم هاد.

بناءاً على ذلك فالتفسير الوحيد الذي يحظى بالقبول هو: ان النبي (ص) منذر و لكل قوم في كل عصر و دهر ((هاد)).

فهل هذا الهادي اشارة الى علماء كل قوم وكل زمان؟

الاجابة على هذا السؤال سلبية ايضا، فهنالك علماء عديدون في كل عصر و دهر وليس هاد واحد، فكما كان النبي (ص) واحدا فهادي المسلمين واحد في كل عصر و زمان.

وبتعبير آخر، إن النبي (ص) مؤسس الدين عن طريق الانذار، والامام يواصل طريقه من خلال الهداية.

ان هذه النكات تستفاد من الاية نفسها ولو بحثنا عن الروايات المنقولة عن طريق اهل السنة والشيعة بهذا الصدد لاتضحت المسالة اكثر.

ففي تفسير الدر المنثور وهو من تفاسير اهل السنة المعروفة ((تاليف جلال الدين السيوطي)) المتوفى عام ٩١٠ ه ق، والقائم على اساس تفسير الايات والروايات، ينقل روايات عديدة في تفسير هذه الاية عن النبي (ص):

---

١. التفسير الكبير للفخر الرازي: ج١٩ ص ١٤.

١. يروي عن ابن جرير وابن مردويه وابو نعيم والديلمي وابن عساكر وابن النجار: لما نزلت ((انما انت منذر ولكل قوم هاد)) وضع رسول اللّه (ص) يده على صدره فقال: انا المنذر، وأومأ بيده الى منكب علي (ع) فقال: انت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي [١].

٢. يقول ابو برزة الاسلمي: سمعت من النبي (ص) بشان هذه الاية[٢] وقدوضع يده على صدره وقال: انما انت منذر، و وضع يده على صدر علي (ع) وقال:لكل قوم هاد.

٣. وفي الكتاب نفسه ينقل عن ((عبد اللّه بن احمد)) و ((ابن ابي حاتم))و ((الطبراني)) و ((الحاكم)) و ((ابن مردويه)) و ((ابن عساكر)) عن علي (ع) في تفسير الاية: ((انما انت منذر ولكل قوم هاد)) قال: رسول اللّه المنذر، وانا الهادي[٣].

٤. ونقرأ في رواية اخرى عن ابن عباس أن النبي (ص) قال: انا المنذر وعلي الهادي، وبك يا علي يهتدي المهتدون.

وقد اورد هذا الحديث طائفة من مشاهير حفاظ اهل السنة منهم: ((الحاكم)) في ((المستدرك)) و ((الذهبي)) في ((التلخيص)) و ((الفخر الرازي)) و ((ابن كثير)) في ((تفسيريهما))، و ((ابن الصباغ المالكي)) في ((الفصول المهمة)) و ((ام الشبلنجي الشافعي))في ((كفاية الطالب)) و ((العلامة الطبري)) في ((تفسيره)) و ((ابن حيان الاندلسي)) في ((البحر المحيط)) و ((النيشابوري)) في ((تفسيره))، و ((الحمويني)) في ((فرائد السمطين))وطائفة اخرى في كتبهم التفسيرية[٤].

٥. يقول ((مير غياث الدين)) مؤلف كتاب ((حبيب السير)): قد ثبت بطرق متعددة انه لما نزل قوله تعالى: (انما انت منذر ولكل قوم هاد)، قال (ص) لعلي (ع): انا المنذر وانت الهادي، بك يا علي يهتدي المهتدون من بعدي[٥].

٦. وقد نقل الحمويني هذا الحديث ايضا عن ابي هريرة عن علي (ع)[٦].

٧. ونقل هذا الحديث في ((مستدرك الحاكم)) عن ((ابي بريدة الاسلمي)) بشكل واسع فقال: دعا رسول اللّه (ص) بالطهور وعنده علي بن ابي طالب فاخذ رسول اللّه (ص) بيد علي بعد ما تطهّر

---

١. الدر المنثور: ج ٤، ص ٤٥.
٢. الدر المنثور: ج ٤، ص ٤٥.
٣. الدر المنثور: ج ٤، ص ٤٥.
٤. للاطلاع على هذا الحديث ووثائقه راجعوا كتاب احقاق الحق: ج٣، ص ٨٨ ٩٩.
٥. حبيب السير:، ج٢، ص ١٢.
٦. احقاق الحق: ج٣، ص ٩٢.

فالصقها بصدره ثم قال:((انما انت منذر)) ويعني نفسه ثم ردّها الى صدر علي ثم قال: ((ولكل قوم هاد))، ثم قال له: ((انت منار الانام وغاية الهدى، وامير القرا ء، اشهد على ذلك انك كذلك))[١].

وليس من المستبعد ان يكون النبي (ص) قد بيّن هذا الكلام في حالات متعددة وباشكال مختلفة، والتعابير المختلفة للاحاديث اعلاه تشهد على هذا الامر.

كما وردت في مصادر اتباع اهل البيت (ع) روايات متعددة في هذا المجال، ولامجال لذكرها جميعا، بل نكتفي بالاشارة الى بعضها فقد ورد في تفسير نور الثقلين [٢]مايربو على خمسة عشر حديثاً منها ما روي عن الامام الباقر (ع) والامام الصادق (ع) أنهما قالا: كل امام هاد كل قوم في زمانه، وفي تعبير آخر: كل امام هادٍ للقرن الذي هو فيه[٣].

والعجيب ان بعض المفسرين قد تناسوا جميع هذه الاحاديث، وذكروا معانٍ اخرى للآية أعلاه، مستندين الى اقوال بعض الصحابة التي لم تُروَ عن النبي (ص)، منها التفسير الذي نقل عن مجاهد حيث يقول: المراد من ((المنذر)) محمد (ص) والمراد من ((لكل قوم هاد)) ((ان لكل قوم نبياً يدعوهم الى اللّه)) وروي تفسير آخر عن سعيد بن جبير حيث يقول: المنذر محمد (ص) والهادي هو اللّه. ظاهر الاية هو ان هادي كل قوم يختلف عن هادي الاخرين، علماً بأن اللّه الواحد هادي جميع الاقوام، ولايتناسب مع مثل هذه التفاسير.

فهل من المناسب أن نترك الروايات المتواترة عن رسول اللّه (ص) ونذهب وراء هذه التفاسير الخاطئة حرصاً على أن لا يمتلك الشيعة مستمسكا؟.

آية الصادقين

وفي الاية الثانية خاطب تعالى المؤمنين داعياً إياهم الى التقوى، وبعدها أَمَرهم بان يكونوا مع الصادقين ((دائما)) ((لئلا ينحرفوا)): (يا أيها الذين ءامنوا اتقوا اللّه وكونوا مع الصادقين).

فمَن هم الصادقون هنا؟ ثمة تفاسير مختلفة ايضا:

فقد احتمل البعض أن المراد من ((الصادقين)) هو شخص النبي (ص)، وهذه الاية منحصرة بزمانه، ولا يخفى أن خطاب هذه الاية كسائر خطابات القرآن عامة، وتشمل كل المؤمنين في كل عصر ومصر.

---

١. تفسير الميزان: ج ١١، ص ٣٢٧ ذيل الاية اعلاه
٢. نور الثقلين: ج٢، ص ٤٨٢ ٤٨٥.
٣. نورالثقلين: ج ١٩ و ٢٠، ص ٤٨٣.

وقال آخرون: إن ((مع)) تعني ((من))، اي كونوا من الصادقين.ضرورة لمثل هذه التاويلات والتبريرات، بل ليس من المعتاد أبدا في الادب العربي وكلام الادباء استخدام ((مع)) بمعنى ((من)).

فطبقاً لظاهر الآية فان جميع المسلمين مكلفون ان يكونوا في خط الصادقين ومعهم في كل زمن وعصر.

من هنا يعرف بان ثمة صادق او صادقين في كل عصر يتحتم على الناس ان يكونوا معهم في طريق التقوى والزهد.

ومن اجل فهم معنى الصادقين، من الافضل ان نعود الى القرآن نفسه لنرى ماذا يذكر من صفات للصادقين، ففي مكان يقول: (إنما المؤمنون الذين آمنوا باللّه ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل اللّه اولئك هم الصادقون) (الحجرات ١٥).

ففي هذه الاية وصف تعالى الصدق بانه فرع او شعبة من ((الايمان)) و ((العمل التريه)) عن كل اشكال الشك والريب والتردد.

وفي الاية ١٧٧ من سورة البقرة بعد ان ذكر تعالى ان حقيقة الايمان تكمن في الايمان باللّه واليوم الاخر والملائكة والكتب السماوية والانبياء وكذا الانفاق في سبيل اللّه وفي سبيل تحرير المستضعفين والمحرومين من ربقة الظالمين وكذلك اقامة الصلاة وايتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر والاستقامة ازاء المشاكل واثناء الجهاد، يضيف: (اولئك الذين صدقوا).

بناءا على ذلك فقد ذكر أن السمة المميّزة للصادقين هي: الايمان التام بجميع المقدسات، واطاعة اوامر اللّه على جميع الاصعدة، لاسيما الصلاة وايتاء الزكاة والانفاق والاستقامة في الجهاد، وفي مواجهة المشاكل، وقد جاء نظير هذا المعنى في الاية ٨ من سورة الحشر ايضا.

من مجموع هذه الايات وكذلك من اطلاق الاية مورد البحث التي تأمر باتباع الصادقين بدون قيد او شرط، نستنتج ان المسلمين مكلّفون باتباع الذين يتمتعون باعلى مراحل الايمان والتقوى، وأسمى المستويات من ناحية العلم والعمل والاستقامة والجهاد ((تأملوا جيدا، فالاية لا تقول: كونوا من الصادقين، بل تقول: كونوامعهم بينما انها تقول: كونوا من الزاهدين. وهذا يبرهن على ان المراد مرتبة أسمى من المراتب التي يصلها الناس، واجلى مصداق لهذا المعنى هم المعصومون . هذا من جانب، ومن جانب آخر ان الامر باتباع الصادقين بشكل مطلق، وعدم الانفصال عنهم بدون قيد او شرط، دليل آخر على عصمتهم، لان الاتباع بلا قيد او شرط لامعنى له الا فيما يتعلق بالمعصومين (تأملوا جيدا).

ونظرا لوضوح محتوى الاية لم يستطع الفخر الرازي انكار دلالتها على وجودالمعصوم في زمان ومكان، الا انه ولعدم ايمانه بعقائد اتباع اهل البيت (ع) يتحدث عن عصمة جميع الامة، او بتعبير

آخر ((اجماع الأمة))، بينما نرى ان القضايا التي تحظى باجماع الامه محدودة للغاية، والحال ان اتباع الصادقين تكليف عام وفي كل الاحوال والشؤون (تأملوا جيدا).

وكذلك لم يفهم اي ناطق بالعربية اثناء نزول هذه الاية من ان كلمة ((الصادقين))تعني مجموع الامة، فكيف يمكن حملها على هذا المعنى؟ اليس من الافضل الاقرار بوجود صادق في كل عصر و زمان ليس في سيرته السهو والخطأ ويجب علينا اتباعه؟.

وهنا يثار سؤال وهو: ان ((الصادقين)) ذكرت بصيغة الجمع وعليه فلابد من وجود عدة معصومين في كل زمان، فكيف يتلائم هذا وعقائد اتباع مذهب اهل البيت (ع)؟.

ان الجواب على هذا السؤال من خلال التنبيه الى نقطة، وهي: ان هذا الجمع ربما يكون اشارة الى مجموع الازمنة، لان ((الصادقين)) وعلى مدى مجموع الازمنة يمثلون مجموعة، تماماً كما يقال بانه يتحتم على الناس اتباع الانبياء في كل زمان، فليس مفهوم هذا الكلام هو وجود انبياء متعددين في كل زمان، بل المقصود هو:ان على كل قوم اتباع نبي زمانهم، او يقال: على الناس ان يعرفوا تكاليفهم من العلماء والمراجع، اي: على كل شخص اتباع عالم ومرجع زمانه.

والشاهد على هذا الامر هو عدم وجود شخص مفترض الطاعة في عهد رسول اللّه (ص) غيره، في الوقت الذي تشمل الاية اعلاه زمانه ايضا بكل تأكيد.

من هنايتضح ان المراد ليس الجمع في زمان واحد، بل في عدة ازمنة، وهذا الكلام هو بمثابة تحليل لهذه الاية.

واما من ناحية الروايات، فان الكثير من مفسري ومحدثي اهل السنة نقلوا عن ابن عباس قوله: ان هذه الاية بحق علي بن ابي طالب (ع).

منهم ((العلامة الثعلبي)) في تفسيره، فقد روى: ان ابن عباس قال في تفسير هذه الاية: ((مع الصادقين يعني مع علي بن ابي طالب واصحابه))[١].

كما ينقل ((العلامة الكنجي)) في ((كفاية الطالب))، و ((العلامة سبط بن الجوزي))في ((التذكرة)) عن طائفة من العلماء مايلي: ((قال علماء السير معناه كونوا مع علي (ع) واهل بيته، قال ابن عباس: علي (ع) سيد الصادقين))[٢].

وجرى التاكيد على هذا المعنى ايضا في الروايات العديدة التي وصلتنا عن اهل البيت (ع)، منها الرواية التي نقرأها عن جابر بن عبد اللّه الانصاري عن الامام الباقر (ع) انه قال في تفسير آية ((وكونوا مع

١. احقاق الحق: ج ٣، ص ٢٩٧.

٢. احقاق الحق: ج ٣، ص ٢٩٧.

الصادقين))، يعني ((محمد وال محمد))[1] ونقرأ في رواية اخرى أن ((بريد بن معاوية)) روى عن الامام الباقر (ع) في تفسيرهذه الآية انه قال: إيانا عنى[2].

وفي تفسير البرهان ينقل عن كتاب نهج البيان: روي ان النبي (ص) سئل عن الصادقين فقال: ((هم علي وفاطمة والحسن والحسين وذريتهم الطاهرون الى يوم القيامة))[3].

ومن البديهي ان جميع هذه الروايات انما هي في الواقع بيان للمصداق، ولاتتعارض مع المفهوم العام للاية، لانها تشمل شخص النبي (ص) بالمرتبة الاولى، ومن ثم الائمة المعصومين (ع) في كل عصر ودهر.

من هنا فان الاية اعلاه تثبت ((الولاية العامة)) وكذلك ((الولاية الخاصة)).

الخلاصة

١- هناك أمور لا تحقق إلا بوجود قائد إلهي و إمام معصوم، منها ترسيخ المعارف العقلية بالنقل،تبيين حسن الأفعال من قبيحها،تبيين القوانين الاجتماعية و تطبيقها،تربية النفوس و تهذيبها.

٢- إن إرساء العدالة في المجتمع ليس بمقدور الزعماء غير الالهيين لأنهم إما عاجزون عن تشخيص المصالح العالية لسعادة الإنسان أو يقدمون مصالحهم الفردية أو الحزبية على مصالح الجمهور.

٣- من المهام التي ينهض بها الإمام بعد الرسول (ص) هو الذود و الصيانة عن دين الله و التصدي لتحريف دين الله و كتابه العزيز.

٤- وردت أخبار كثيرة تؤكد منزلة الإمام السامية كقول أمير المؤمنين(ع):ومكان القيم بالامر مكان النظام من الخرز،يجمعه ويضمه،فاذا انقطع النظام تفرق الخرز والذهب ثم لم يجتمع بحذافيره ابدا.

٥- مما يتصل بموضوع الإمامة، مفهوم الولاية و هي على قسمين ولاية عامة و ولاية خاصة.

٦- تعني الولاية العامة ضرورة وجود إمام بين الناس منصوب من قبل الله تعالى،نبياً كان أو رسولاً أو غير ذلك و أما الولاية الخاصة فهي خلافة إلهية لرسول الله (ص).

٧- من الآيات التي تشير إلى الولاية العامة قوله تعالى: (انما انت منذر ولكل قوم هاد) (الرعد ٧)و قوله تعالى:(يا ايها الذين امنوا اتقوا اللّه وكونوا مع الصادقين) (التوبة ١١٩).

---

١. نور الثقلين: ج٢، ص ٢٨٠، الحديث ٣٩٢ و ٣٩٣.
٢. نور الثقلين: ج٢، ص ٢٨٠، الحديث ٣٩٢ و ٣٩٣.
٣. تفسير البرهان: ج٢، ص ١٧٠.

٨- الآية الأولى أثبتت وجود هاد بعد رسول الله (ص) و ليس هو النبي نفسه لتقديم الجار و المجرور(لكل قوم) و ليس العلماء لأن الآية تتحدث عن شخص واحد لكل قوم و العلماء كثيرون.

٩- كما وردت أخبار كثيرة من طرق السنة و الشيعة،إن الهادي بعد رسول الله (ص) هو علي بن أبي طالب و الأئمة العصومون من ذريته عليهم السلام.

١٠- الآية الثانية(وكونوا مع الصادقين)تدعو المؤمنين إلى مرافقة الصادقين و الخطاب عام لكل المسلمين في كل عصر فليس المقصود رسول الله فقط.

١١- مراجعة أوصاف الصادقين في سائر الآيات تفيد أنهم في أعلى مراتب الإيمان و بما أن الآية تدعو إلى متابعتهم مطلقاً في كل شيء و في كل زمان فهي تثبت عصمتهم.

بسمه تعالى

جامعة المصطفى العالمية المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٩

الولاية والامامة العامة في القرآن و السنة

بكالوريوس

المقدمة

سبق و أن تحدثنا في الدرس السابق عن الولاية العامة و الولاية الخاصة و تطرقنا إلى بعض الآيـــات في هذا المجال، و في هذا الدرس سوف نقوم بتسليط الضوء على آية أخرى في هذا المجال و هـــي قولــه تعالى: ﴿قل أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم﴾ فما هو مدلول الآية و من هم أولـــوا الامر الذين قرن الله طاعتهم بطاعة رسوله؟ ثم نعرّج إلى السنة النبوية الشريفة لنرى ما ورد من أخبار عن الرسول الأكرم (ص) في هذا المجال فنقرأ حديث الثقلين و نتعرف على رواته و المصادر التي روته من كتب المسلمين و المواطن التي تفوّه فيها النبي (ص) بهذا الحديث الشريف ثم نتأمل مدلوله و مـــا يتضمن من معنى هامّ و عظيم.

المحتوى العلمي

الاستدلال بآية أولى الأمر

والحديث في الآية الثالثة عن وجوب إطاعة اللّه ورسوله وأولي الأمر، يقول تعـــالى: ﴿أطيعـــوا اللّـــه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ فوجوب اطاعة اللّه ورسوله (ص) واضح ومعلوم، أما من هـــم المقصودون في ((أولي الأمر)) الذين اعتبرت إطاعتهم بموازاة إطاعة اللّه و رسوله (ص)، فهنالك جدل بين المفسرين.

يتفق علماء الشيعة وأتباع مذهب أهل البيت (ع) أن المراد من ((أولي الامر)) هم الأئمة المعصـــومون الذين هم قادة المجتمع معنوياً ومادياً في كافة شؤون الحياة، ولاتشمل غيرهم، لأن الطاعة (بلا قيد أو شرط) الواردة في الآية الكريمة والتي اعتبرت موازية لطاعة اللّه ورسوله (ص) لا يمكن تصـــورها إلا بحق الائمة المعصومين، وأما الآخرون الذين تجب طاعتهم فإنها محدودة بحدود ومقيّـــدة بقيـــود، ولا وجود للطاعة المطلقة بشأنهم أبدا، وهذا الامر واضح.

هذا في الوقت الذي يختلف فيه مفسرو و علماء أهل السنة كثيرا في معنى أولي الامر فمنهم من فسّرها بمعنى ((الصحابة))، ومنهم ب ((قادة الجيش))، وبعضهم فسّرها ب ((الخلفاء الاربعة)).

وهم لم يقدّموا أي دليل واضح لهذه التفاسير الثلاثة.

واعتبرت طائفة اخرى ((أولي الامر)) بمعنى العلماء، مستندين الى الاية ٨٣ من سورة النســـاء: ﴿واذا جائهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو رَدّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لَعَلِمَه الـــذين يستنبطونه منهم ﴾.

ولكن نظراً إلى أن الآية التي هي محل بحثنا تتحدث عن الطاعة بلا قيد او شرط، والاية ٨٣ من سورة النساء تتعلق بالسؤال والتحقيق، فإنها توضح أمرين مختلفين، و لا يمكن اعتبار كلا الامـــرين بمعـــنى

واحد، فالتحقيق من العالم أمر، والطاعة بلا قيد او شرط أمر آخر، فلا يتصور الثاني الا بحق المعصومين، اما الاول فله مفهوم اوسع.

وقد أعطى بعض مفسري أهل السنة احتمالاً خامساً وهو: ان المراد من أولي الامر هم ممثّلو طبقات الناس، والحكام، والزعماء، والعلماء، وذوو المناصب في جميع شؤون الحياة.

وبتعبير آخر: المقصود هم اهل الحل والعقد الذين حيثما اتفقوا على شيء تجب طاعتهم بلا قيد او شرط ((على شرط ان يكونوا منا، حيث ذكرت «منكم» كشرط في الآية الكريمة، ولا يخالفون سنة الرسول الاكرم (ص)، ولا يتعرضون للاجبار في مباحثاتهم، وان يتمتعوا باتفاق الآراء، وتلك المسالة من المسائل)).

فهذه المجموعة واجبة الطاعة في المسائل التي لم يصلنا فيها نص، ويمكن القول:إنهم معصومون، لذا ورد الامر باطاعتهم بلا قيد او شرط[١].

من هنا فالموما اليه يعتبر أولي الامر مجموعة من العلماء واهل الحل والعقد الذين تتوفر فيهم الشروط الخمسة التالية:

١. الاسلام ٢. عدم مخالفة السنة ٣. غير مجبور في إبداء الرأي ٤. إبداء الرأي فيما لا نص فيه ٥. التمتع باتفاق الاراء، و يعدّ مثل هذه الجماعة معصومة.

فهل ياترى هذا هو المقصود من ((اولي الامر)) في الآية الكريمة؟ وهل إن اهل العرف واصحاب رسول اللّه (ص) كانوا يستفيدون هذا المعنى حيث سماعها؟ أم ان هذا المعنى قد فرض على الآية بتكلف وعناء لئلا تنساق الآية الى الائمة المعصومين (ع) الذين يعتقد بهم الشيعة؟.

ويظهر أن كلام ((المنار)) مشتق من كلام ((الفخر الرازي)) حيث يقول:

واعلم أن قوله ((اولي الامر منكم)) يدل عندنا على أن إجماع الأمة حجة والدليل على ذلك أن اللّه تعالى امر بطاعة اولي الامر على سبيل الجزم في هذه الاية، ومن امر اللّه بطاعته على سبيل الجزم والقطع لابد وان يكون معصوماً عن الخطأ، اذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ،كان بتقدير إقدامه على الخطأ، والخطأ لكونه منهياً عنه، فهذا يفضي الى اجتماع الامر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وإنه محال،فثبت أن اللّه تعالى امر بطاعة اولي الامر على سبيل الجزم و ثبت ان كل من امرَ اللّه تعالى بطاعته على سبيل الجزم وجب ان يكون معصوماً عن الخطأ فثبت قطعاً أن اولي الامر المذكور في هذه الاية لابد وان يكون معصوماً.

---

١. تفسير المنار: ج٥،ص ١٨١.

ثم يضيف: ذلك المعصوم إما مجموع الأمة او بعض الأمة، لاجائز أن يكون بعض الامة، لأننا بيّنـــا أن اللّه تعالى اوجب طاعة اولي الامر في هذه الاية قطعاً،وايجاب طاعتهم قطعاً مشروط بكوننا عـــارفين بهم قادرين على الوصول اليهم والاستفادة منهم، ونحن نعلم بالضرورة انا في زماننا هذا عاجزون عن معرفة الامام المعصوم، عاجزون عن الوصول اليهم، عاجزون عن استفادة الدين والعلـــم منـــهم،واذا كان الامر كذلك علِمنا أن المعصوم الذي امر اللّه المؤمنين بطاعته ليس بعضاً من أبعاض الامـــة ولا طائفة من طوائفهم وذلك يوجب القطع بان اجماع الامة حجة [١].

إن ما وضع الفخر الرازي وصاحب المنار وامثالهم في الزاوية الحرجة وجعلهم يفسرون هذه الاية بهذا التفسير الذي من المسلّم بان أياً من اصحاب رسول اللّه (ص) لم يكن يفهمه حين نزول الاية، هـــو التعيين المسبق الذي يحول دون البحث عن مفهوم الآية في ائمة اهل البيت (ع) المعصـــومين، فمـــن ناحيةٍ إن دلالة الآية على عصمة اولي الامر جلية، و لم يكن في نيتهم التسليم لشخص كإمام معصـــوم من ناحية أخرى، لذا فهم يبحثون عن تفسير لم يفهمه اصحاب رسول اللّه (ص) اثناء نزول الاية.

والاعجب من جميع التفاسير هو التفسير الذي ينتخبه بعض مفسري اهل السنة، ويقولون: ان المـــراد من اولي الامر الحكام والأمراء والملوك ويجب اتّباع أي حاكم يتسلط على المسلمين، عادلاً كـــان أم ظالماً، سالكا جادة الصواب ام منحرفاً،يأمر بإطاعة اللّه ام بمعصيته، كما يقول في تفســـير المنـــار في اشارة غامضة: ((وبعضهم اطلق في الحكام فاوجبوا طاعة كل حاكم)) [٢].

والاعجب من ذلك ايضا، الروايات المشكوكة والموضوعة التي نسبت لرسول اللّه (ص) لاثبات تفسير هذه الاية، كالذي قاله رسول اللّه (ص) في جوابه لجابر الجعفي حين قال: يانبي اللّه أرأيت إن قامت علينا أمراء يسالونا حقهم و يمنعونا حقنا فما تأمرنا؟

قال (ص): اسمعوا واطيعوا [٣].

وفي حديث آخر في الكتاب نفسه، روي عن أبي ذر أنه قال:

إن خليلي اوصاني ان اسمع واطيع وإن كان عبدا مجدّع الاطراف [٤].

وقد فسّر البعض مجدّع الاطراف بمعنى من ولد في بيت غير طاهر و ملوث ومن المسلّم به ان الساحة المقدسة للنبي (ص) اطهر من أن يامر خلافاً لمنطق العقل والشرع في الوقت الذي يروى عنه انه قال: ((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))واجلى دليل على ابتداع مثل هذه الاحاديث هو ان اباذر الذي

---

١. تفسير الفخر الرازي: ج١٠، ص ١٤٤.

٢. تفسير المنار: ج ٥، ص ١٨١.

٣. صحيح مسلم: ج٣، كتاب الامارة، باب طاعة الامراء وإن منعوا الحقوق،ص ٤٧٤.

٤. صحيح مسلم: ج٣، كتاب الامارة، باب طاعة الامراء وإن منعوا الحقوق،ص ٤٦٧.

روي عنه الحديث لم يفعل هكذا بشهادة تاريخه، حتى انه قد ضحّى بنفسه بسبب اعتراضه على انحراف أمراء وحكام عصره هذه الاقاويل، فليس من انسان عاقل ينطق بهذا الكلام ويقول: ان الحاكم واجب الطاعة في كل مايقول به، لا سيما و ان هذا الحديث: ((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))مشهور بين علماء المسلمين سواء الشيعة او السنة [1].

ولاطاعة لبشر في معصية اللّه[2].

من هنا نستنتج أن أصح تفسير للآية هو اطاعة الائمة المعصومين (ع).

ويبقى لدينا سؤالان الان لابد من التطرق اليهما:

١. اذا كان معنى ((اولي الامر)) هو الامام المعصوم، فهل يتناسب مع كلمة ((اولي)) التي تفيد الجمع؟ فباعتقاد الشيعة إن الامام المعصوم واحد لا اكثر في كل عصر.

وقد اتضح الجواب على هذا السؤال من البحوث الآنفة، فصحيح أن الامام المعصوم واحد في كل زمن، ولكن بالنظر لعمومية الآية بالنسبة لكافة الازمنة، فان الائمة المعصومين بمجموعهم يشكلون مجموعة، ونظير هذا المعنى كثير في كلمات العرب، فمثلا نقول: السلام عليكم وعلى ارواحكم واجسادكم فلا يمكن الاعتراض على هذا السلام بحجة أن الانسان لا يمتلك اكثر من روح وجسم، فلماذا ذكرت الارواح والاجساد هنا بصيغة الجمع؟ الجواب ان هذا الجمع ناظر للمجموع.

من هنا فبالرغم من أن النبي (ص) له وصي في كل زمان لكنهم يتعددون في مجموع الازمنة، فيتحتم استخدام صيغة الجمع لهم.

٢. والسؤال الآخر هو: ان الامام المعصوم لم يكن موجوداً في عهد النبي (ص)فكيف يؤمر بطاعته؟

والاجابة على هذا السؤال هو ما قيل اعلاه وهو: لو كانت الآية ناظرة الى زمان النبي (ص) فقط لورد مثل هذا المأخذ، أما وإنها تعتبر حكماً عاماً لجميع المسلمين حتى يوم القيامة فلا يرد ذلك المأخذ، ففي عهد رسول اللّه كان هو الامام (ص) وفي سائر العصور كان الائمة المعصومون (ع)، فليس مفهوم الكلام ((يجب على المسلمين اطاعة النبي و اوصيائه))، هو وجوب وجود اوصيائه في عهده.

ونختتم هذا الكلام بإشارة سريعة الى الروايات الواردة في كتب الشيعة والسنة في ذيل هذه الآية والتي تفسّرها بعلي (ع) وسائر الائمة المعصومين (ع):

---

١. نهج البلاغة: قصار الكلمات، العبارة ١٦٥.

٢. الدر المنثور: ج٢، ص ١٧٧.

ينقل الشيخ سليمان القندوزي الحنفي في كتاب ينابيع المودة، عن تفسير ((مجاهد)) ان اية (اطيعوا اللّه واطيعوا الرسول واولي الامر منكم) نزلت في علي (ع) أثناء ما خلفه رسول اللّه (ص) في المدينة خلال ((معركة تبوك))، ويروي عن علي (ع) بانه استدل بهذه الآية أثناء محاججته على المهاجرين والانصار، و لم يؤاخذه المهاجرون والانصار[١].

ونقل في شواهد التنزيل عن الحاكم الحسكاني في ذيل الاية: (اطيعوا اللّه واطيعوا الرسول واولي الامر منكم)، سألت رسول اللّه (ص): يانبي اللّه من هم؟ قال: انت أوّلهم[٢].

كما رويت روايات كثيرة عن ائمة اهل البيت (ع) ايضا في تفسير هذه الاية بالائمة المعصومين (ع) وبلغت العشرات، وجاء فيها جميعاً أن ((اولي الامر)) هم الائمة المعصومون[٣].

الولاية والامامة العامة فى السنة

تمهيد

يعتبر هذا القسم من اهم اقسام السنة واحاديث النبي (ص)، وقد وردت بهذا الصدد روايات كثيرة عن النبي (ص) في أشهر وأهم المصادر الاسلامية حيث من المناسب الالتفات اليها بكامل الدقة والحياد، لإزالة الاتهامات التي الصقت بهذه المسألة سنوات طويلة، وذلك من خلال نور العلم والاخلاص والبحث، والكشف عن الصورة الحقيقية لها بعيدا عن التعصبات، وليتضح واجبنا الالهي إزاء هذه القضية الاسلامية المهمة.

ونكتفي هنا بتناول جانب من الروايات المشهورة التي تتناول مسألة الامامة والولاية بشكل عام، مع شرح مختصر لمحتواها ومفهومها، ونرجو من القراء الكرام أن يمرّوا ثانية بهذه الروايات والوثائق والمصادر، مطّلعين بدقة على مضمونها،ونوكل اليهم الاستنتاج والاستنباط النهائي.

إننا نعتقد أن اتخاذ موقف اللامبالاة إزاء هذه الاحاديث الناطقة والمرور بها مرور الكرام، او غض الطرف عن الحقائق، لا يقلل من مسؤليتنا، بل يضاعفها.

---

١. ينابيع المودة: ص ١١٤ و ١١٥ و ١١٦.

٢.شواهد التنزيل: ج١، ص ١٤٨، طبعة بيروت

٣. من اجل المزيد من الاطلاع راجعوا تفسير البرهان: ج١ ص ٣٨١ الى ٣٨٧،وتفسير كنز الدقائق ج٣ ص ٤٣٧-٤٥٢.

١- حديث الثقلين

لقد سمي هذا الحديث بهذا الاسم لان النبي (ص) قال فيه: ((إني تارك فيكم الثقلين))[١] .

ونقل هذا الحديث عن رسول اللّه (ص) بشكل واسع للغاية في كتب الشيعة والسنة المشهورة (وفي أمهات المصادر) بحيث لم يبق معه شك في صدور هذا الحديث عن النبي (ص)، ويستفاد جيداً من مجموع هذه الروايات أن النبي (ص) لم يدل بهذا الحديث فحسب فيكون حديثاً واحداً ورواته كثيرين، بل ادلى به في مواقع مختلفة وروي بروايات متعددة ايضا.

ونذكر هنا رواة هذا الحديث والكتب الاسلامية التي ورد فيها:

١. ففي صحيح مسلم الذي هو من اشهر المصادر لدى اهل السنة واهم الصحاح الستة، ينقل عن ((زيد بن ارقم)) انه قال: ((قام رسول اللّه (ص) يوماً فينا خطيباً بما يدعى خمّاً، بين مكة والمدينة[٢]، فحمد اللّه واثنى عليه و وعظ وذكر، ثم قال: امابعد الا ايها الناس فإنما أنا بشر، يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب واني تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب اللّه فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب اللّه واستمسكوا به، فحثّ على كتاب اللّه و رغّب فيه، ثم قال: واهل بيتي أذكّركم اللّهَ في أهل بيتي، أذكّركم اللّه في اهل بيتي، اذكّركم اللّه في اهل بيتي[٣].

إن جعل اهل البيت (ع) في موازاة القرآن باعتبارهما شيئين ثمينين، والتأكيد على التذكير بالمسؤولية الالهية تجاههما يبرهن على علاقة هذا الامر بمصير المسلمين وهدايتهم والمحافظة على اصول الاسلام، والا لما اجتمعا.

٢. وجاءت في نفس الكتاب رواية اخرى لنفس الراوي مع شيء من الاختلاف [٤].

واللطيف انه عندما يسأل زيد بن ارقم تعقيبا على هذه الاية هل المقصود من اهل بيته زوجاته؟ فيجيب: لا، المقصود من اهل البيت اهله من النسب الذين تحرم عليهم الصدقة.

٣. ونقرأ في كتاب سنن الترمذي الذي يعرف ب ((صحيح الترمذي)) ايضا في بحث مناقب اهل البيت (ع) عن جابر بن عبد اللّه انه يقول: رأيت رسول اللّه (ص) يوم عرفة وقد صعد ناقته

---

١. تُقرأ كلمة (ثقلين) على نحوين فتارة تقرأ على وزن ((حرمين))، ومفردها (ثقل) على وزن ((حرم)) وتعني الشيء الثمين والنفيس، كما تأتي بمعنى متاع المسافر، وتارة تقرأ (ثقلين) على وزن (سبطين) حيث تعني الشيء الثقيل، ويعتقد صاحب كتاب ((التحقيق)) أن الأولى تعني القيمة المعنوية والثانية اكثر شمولية كماينبغي الانتباه الى ان (ثقل) (على وزن حرم) صفة مشبهة، و (ثقل) (على وزن سبط) اسم مصدر.

٢. جاء في هامش صحيح مسلم ان غدير خم يبعد عن الجحفة ثلاثة اميال.

٣. صحيح مسلم: ج٤ ص ١٨٧٣.

٤. صحيح مسلم: ج ٤، ص ١٨٧٤.

وخطب، فسمعته يقول: ((يا ايها الناس اني قد تركت فيكم ما إن اخذتم به لن تضلوا، كتاب اللّـه وعترتي اهل بيتي))[١].

ثم يضيف الترمذي: وقد روى كلٌ من أبي ذر، وأبي سعيد الخدري، وزيد بن الارقم، وحذيفة هـذا المعنى ايضا.

٤. بعد قليل وفي نفس الكتاب يروي عن أبي سعيد و زيد بن الارقم أنهما قالا:قال رسول اللّه (ص) ((اني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: احدهما أعظم من الآخر، كتاب اللّه حبل ممدود مابين السماء والارض، وعترتي اهل بيتي، وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فـانظروا كيـف تخلفوني فيهما))[٢].

٥. وفي سنن الدارمي وهو من الكتب المعروفة ايضا، روى حديث يشابه حديث زيد بن الارقم عن النبي (ص)، ويختتم الكلام بالتصرح باسم الثقلين و((كتاب اللّه واهل البيت))[٣].

لا ينبغي نسيان أن (الدارمي) وبناءا على ما قاله بعض العارفين هو استاذ مسلم وابي داود، وكتـاب سنن الدارمي احد الكتب الستة المعتبرة المعروفة لدى اهل السنة (وان ذكر البعض سنن ابن ماجه بدلاً عنه).

٦. ونقرأ في مسند احمد وهو من الائمة الاربعة لاهل السنة رواية عن زيد بن ثابت حيث يقول: قال رسول اللّه (ص): ((اني تارك فيكم خليفتين: كتاب اللّه حبل ممدود بين السماء والارض، او ما بين السما الى الارض، وعترتي اهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض))[٤].

انتبهوا الى انه في بعض هذه الروايات ورد تعبير((الثقلين)) ((كما في رواية صـحيح مسـلم)) وفي بعضها ((خليفتي)) ((كما في الرواية الاخيرة التي نقلت عن سنن احمد))،وفي البعض الآخر لم يرد اي منهما، بل مفهومها ومضمونها، وفي الحقيقة فإنها جميعا تعود الى امر واحد.

٧. يروي احمد بن شعيب ((النسائي)) الذي يعتبر من اعاظم اهل السنة ايضـا،وكتاب سـننه مـن الصحاح الستة المشهورة ايضا، في كتاب ((الخصائص)) عن زيد بن الارقم قوله: ان الـنبي (ص) و حين عودته من حجة الوداع و وصوله الى غدير خم امر بإقامة ظلة هناك واغتسل تحتـها ثم قـال: ((كأني دعيت فأجبت، واني تارك فيكم الثقلين احدهما اكبر من الآخر، كتاب اللّه وعترتي فـانظروا

---

١. صحيح الترمذي: ج٥، ص ٦٦٢، باب مناقب اهل بيت النبي، الحديث ٣٧٨٦.

٢. صحيح الترمذي: ص ٦٦٣، الحديث ٣٧٨٨

٣. سنن الدارمي: ج٢، ص ٤٣٢ (طبعة دار الفكربيروت).

٤. مسند الامام احمد: ج ٥، ص ١٨٢، طبعة دار الصادر بيروت.

كيف تخلفوني فيهما، فانهما لن يفترقاحتى يردا علي الحوض، ثم قال: ان اللّه مولاي وانا مولى كل مؤمن ثم اخذ بيد علي (ع)، فقال: من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)). وفي نهاية الرواية ورد ان الراوي الثاني ((ابو طفيل)) قال: قلت لزيد بن الارقم:اسمعت هذا الحديث من رسول اللّه (ص)؟قال: كل من كان تحت الظلة راى هذا المنظر بعينيه، وسمع هذا الكلام باذنيه [١].

هذه الرواية تبرهن جيدا على ان النبي (ص) ادلى بهذا الكلام في الملأ العام وبحضور حشد غفير في غدير خم، والجميع قد سمعوا ذلك.

٨. ويروي الحاكم النيشابوريوهو من علماء القرن الرابع الهجري في كتاب مستدرك الصحيحين وهو من المصادر المعروفة لدى اهل السنة ويضم الروايات التي لم ترد في صحيحي البخاري ومسلم، بينما هو في مرتبتهما من ناحية القيمة والوزنهذا الحديث عن ابن واصلة أنه يقول: سمعت من زيد بن الارقم ان النبي (ص) وصل الى اشجار بين مكة والمدينة وكانت هناك خمس ظلل، فنزل وقام الناس بتنظيف ما تحت الاشجار، وبعد صلاتي الظهر والعصر، خطبنا رسول اللّه فحمد اللّه واثنى عليه، وبالغ في الوعظ ثم قال: ((ايها الناس اني تارك فيكم امرين لن تضلوا ان اتبعتموهما: وهما كتاب اللّه واهل بيتي عترتي)) [٢].

ثم يضيف الحاكم: وهذا الحديث صحيح على شرط الشيخين [٣].

٩. يقول ابن حجر الهيثمي مفتي الحجاز وهو من ألدّ اعداء الشيعة، في كتاب ((الصواعق المحرقة)): في رواية صحيحة ((كأني قد دعيت فاجبت، اني قد تركت فيكم الثقلين احدهما اكبر من الاخر، كتاب اللّه عز وجل وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض)).

ثم يضيف: وقد وردت هذه الزيادة في رواية اخرى ايضا: ((سألت ربي ذلك لهما، فلا تتقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولاتعلموهم فانهم اعلم منكم)).

---

١. خصائص النسائي: ص ٢٠ (طبعة التقدم في مصر) (وفقا لما نقل عن فضائل الخمسة) ج٢ ص ٥٤.

٢. مستدرك الصحيحين: ج٣، ص ١٠٩ (طبقا لنفس المصدر).

٣. المراد من شرط ذينك الشخصين هو انهما ينقلان الاحاديث التي تنتهي سلسلة سندها الى النبي (ص) وان رواتها يحظون بثقتهما وليسوا متهمين، وحيث إنهما لم ينقلا كل الاحاديث التي تتمتع بهذا الشرط، فقد قام الحاكم النيشابوري بجمع الاحاديث التي تتمتع بالشروط و لم تأت في الكتابين، وذلك في كتابه ((المستدرك))، من هنا يمكن ان يكون المستدرك موازياً لصحيحي البخاري ومسلم.

ثم يضيف: ان لهذه الرواية طرقاً ورواة كثيرون يربون على نيّف وعشرين راوياً، ولا حاجة لشرحه وتفصيله[١].

ان هذا الإقرار الصريح بسعة هذا الحديث ((الى حد التواتر)) ومن شخص طالما شن اعنف الهجمات على الشيعة فيما يخص مسالة الامامة لهو أمر جدير بالاهتمام.

١٠. يروي ابن الاثير ((محمد بن محمد بن عبد الكريم)) صاحب الكتب المشهورة والتي من بينها كتاب اسد الغابة في معرفة الصحابة في احوال ((عبد اللّه بن حنطب)) انه قال:((خطبنا رسول اللّه (ص) بالجحفة فقال: الست اولى بكم من انفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه اثنين عن القرآن وعن عترتي))[٢].

١١. وذكر ((جلال الدين عبد الرحمن السيوطي)) وهو من العلماء المعروفين ايضا وصاحب المؤلفات الكثيرة[٣]، في كتاب ((احياء الميت)) ما اورده ابن الاثير في اسد الغابة[٤].

١٢. وقد اورد البيهقي ((ابو بكر احمد بن الحسين)) الذي يقول الزمخشري بحقه: ((ان للشافعي دَيناً على عاتق جميع اتباعه، الا أن البيهقي ولما كتبه فهو ذو حق على الشافعي نفسه وعلى اتباعه ايضا))[٥].

واورد هذا الحديث في كتاب ((السنن الكبرى)) وهو من اهم كتبه (نظيرا لما وردفي صحيح مسلم لا سيما وان كلمة اهل البيت قد تكررت فيه ثلاثا)[٦].

١٣. كما ان الحافظ الطبراني وهو من المحدّثين المعروفين لدى اهل السنة ((وقد عاش في القرن الثالث والرابع الهجري)) وكما يقول البعض: انه عاصر اكثر من الف استاذ في الحديث، يروي في كتابه الموسوم ((المعجم الكبير)) بسنده الى رسول اللّه (ص) ان النبي (ص) دعا الناس الى اتباع الثقلين فقام رجل وسأله: يارسول اللّه وما الثقلان؟ قال: الاكبر كتاب اللّه، سبب طرفه بيد اللّه، وطرفه بايديكم، فتمسكوا به لن تزالوا ولا تضلوا، والاصغر عترتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض.

---

١. الصواعق: ص ٢٢٦ طبعة عبد اللطيف في مصر.

٢. اسد الغابة في معرفة الصحابة: ج٣، ص ٤٧ (طبعة مصر وطبعة بيروت).

٣. قيل انه كتب اكثر من خمسمائة كتاب (الكنى والالقاب، ج١ ص ٢٠٧).

٤. احياء الميت الذي طبع على هامش الاتحاف، ص ١١٦.

٥. الكنى والالقاب: ج٢، ص ١١٤.

٦. سنن البيهقي: ج١٠، ص ١١٤.

ثم اضاف النبي (ص): ((وقد سألت ربي لهما ذلك، فلا تتقدموهم فتهلكوا، ولاتعلموهم فانهم اعلم منكم))[١].

١٤. ونقل ابن تيمية ((احمد بن عبد الحليم الحنبلي)) ((المتوفي سنه ٧٢٨ ه))مؤسس ((المذهب الوهابي)) في كتاب منهاج السنة، هذا الحديث كما ورد في صحيح مسلم[٢].

كما نقله جماعة اخرون من علما السنة المشهورين والمعروفين في كتبهم منهم:

١٥. ابن المغازلي علي بن محمد، ((الفقية الشافعي وهو من علماء القرن الخامس الهجري)) اذ نقل هذا الحديث بمزيد من التفصيل عن زيد بن الارقم[٣].

١٦. الخوارزمي وهو من مشاهير علماء القرن السادس وكان من الفقهاء والمحدّثين والخطباء والشعراء، نقل هذا الحديث ايضا في كتابه الموسوم ب((المناقب))[٤].

١٧. وذكره الذهبي ((محمد بن احمد بن عثمان الدمشقي الشافعي)) وهو من علماء القرنين السابع والثامن، وهو معروف بالتحيّز لمذهبة وقد قال تاج الدين السبكي في كتاب ((طبقات الشافعية)) بحقه: انه محدّث عصره، وختام الحفاظ،ورافع راية مذهب السنة والجماعة، وامام اهل زماننا، هذا الحديث ايضا في كتاب ((تلخيص المستدرك))[٥].

١٨. وذكر المؤرخ الشهير علي بن برهان الحلبي الشافعي وهو من علماء القرن الحادي عشر، في كتابه ((انسان العيون)) المشهور بالسيرة الحلبية حديث الثقلين ضمن بيانه لحديث الغدير وبعبارات صريحه كالذي ذكرناه آنفا، وبعد ذكر هذاالحديث يقول بصراحة: ((هذا حديث صحيح حيث نقل بأسناد صحيحة وحسنة))[٦].

وذكر ابن حيان المالكي في كتاب ((المقتبس في احوال الاندلس)) شبيه ما ورد في صحيح مسلم، الا انه ذكر المكان الذي تلا فيه النبي (ص) تلك الخطبة والواقع بين مكة والمدينة بانه ((الحصائن)) والتي تعني ((القلاع)) [٧].

---

١. المعجم الكبير: ص ١٣٧، وفقا لما نقله احقاق الحق: ج ٩، ص ٣٢٢.

٢. منهاج السنة: ج ٤، ص ١٠٤ (طبعة القاهرة).

٣. احقاق الحق: ج ٤، ص ٤٣٨، (نقلا عن كتابه الخطي).

٤. المناقب: ص ٩٣.

٥. جاء هذا الكتاب على هامش كتاب المستدرك للحاكم، ج ٣، ص ١٠٩ (وطبعة حيدر آباد).

٦. السيرة الحلبية: ج ٣، ص ٢٧٤، طبعة القاهرة.

٧. المقتبس: ص ١٦٧ (طبعة باريس).

٢٠. واورد ((علاء الدين علي بن محمد البغدادي)) المشهور ب ((الخازن)) وهو من علماء القرن الثامن الهجري في تفسيره ما جاء في صحيحي مسلم و الترمذي[١].

٢١. واورد ((ابن ابي الحديد المعتزلي عز الدين عبد الحميد)) وهو من علماء القرن السابع الهجري، هذه الرواية ايضا في شرح نهج البلاغة، فيقول: ((قد بيّن رسول اللّه (ص) عترته من هي لما قال: اني تارك فيكم الثقلين، فقال عترتي اهل بيتي)).

ثم يضيف: وقد بين رسول اللّه (ص) اهل بيته ايضا في مكان آخر، عندما نشر عليهم الكساء، وعندما نزلت آية: (انما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس)، قال:الهي هؤلا اهل بيتي فأذهب عنهم الرجس[٢].

٢٢. ونقل ((زيني دحلان))الشافعي (سيد احمد) مفتي مكة وهو من علماء القرن الثالث عشر الهجري وله مؤلفات كثيرة، هذا الحديث في كتاب ((السيرة النبوية))الذي طبع على هامش السيرة الحلبية كما نقلة صحيح مسلم تماماً، وكما رواه مسند احمد بن حنبل عن ابي سعيد الخدري[٣].

ترتيب مختصر

كانت هذه مجموعة من مشاهير العلماء منذ القرون الاولى للاسلام وحتى القرون الاخيرة، حيث أوردوا حديث الثقلين في كتبهم بكل صراحة، ولكن لا ينبغي نسيان أن هذه طائفة قليلة من مجموع رواة هذا الحديث، وطبقا لما جاء في خلاصة عبقات الانوار فقد ذكر المرحوم مير حامد حسين الهندي مائة وستة وعشرين كتاباً معروفاً وقد اورد في كتابه هذا نص العبارة مع رقم الجزء و الصفحة في الكتاب[٤].

ومن الجدير بالذكر ان هذا الحديث لم يرو عن جابر بن عبد اللّه الانصاري او أبي سعيد الخدري او زيد بن الارقم، رواه ما لايقل عن ثلاثة و عشرين من صحابة رسول اللّه (ص) عنه مباشرة، فيما يلي اسماؤهم:

١. زيد بن الارقم ٢. ابو سعيد الخدري ٣. جابر بن عبد اللّه الانصاري ٤. حذيفة بن اسيد ٥. خزيمة بن ثابت ٦. زيد بن ثابت ٧. سهل بن سعد ٨. ضمرة الاسلمي ٩. عامر بن ليلى ١٠. عبد الرحمن بن عوف ١١. عبد اللّه بن عباس ١٢ عبد اللّه بن عمر ١٣. عدي بن حاتم ١٤. عقبة بن

---

١. تفسير الخازن: ج ١ ص ٤ (طبعة القاهرة).

٢. شرح نهج البلاغة: ج٢، ص ٤٣٧ طبعة القاهرة، و ج٦ ص ٣٧٥ الطبعة الحلبية في بيروت الخطبة ٨٦.

٣. السيرة النبوية: ج٢، ص ٣٠٠، على هامش ج٣ من السيرة الحلبية، ص ٣٣ وجاء ايضا في الصفحة ٣٣ من طبعة مصر.

٤. نقلا عن خلاصة عبقات الانوار: ج ٢، ص ١٠٥. ٢٤٢ طبعة مؤسسة البعثة.

عامر ١٥. علي بن ابي طالب (ع) ١٦. ابو ذر الغفاري ١٧. ابو رافع ١٨. ابو شريح الخزاعي ١٩. ابو قدامة الانصاري ٢٠. ابو هريرة ٢١. ابو هيثم بن التيهان ٢٢. ام سلمه ٢٣. ام هاني.

تكرار حديث الثقلين على لسان النبى (ص).

وهذا جدير بالذكر ايضا، حيث إن النبي (ص) لم يدل بهذا الحديث مرة واحدة فقط كما هو الحال بالنسبة لحديث الغدير الذي صرح به النبي (ص) مرة واحدة وسمعه ونقله كثيرون، بل انه ردّد حديث الثقلين في مواطن عديدة ومناسبات مختلفة.

المواطن التي ذكر فيها الحديث ونقل عن رسول اللّه (ص) في كتب اهل السنة هي عبارة عن:

١. في غدير خم اثناء عودة النبي (ص) من حجة الوداع، حيث قام و اورد حديث الثقلين ضمن كلماته المفصلة.

وهذا ما ذكرناه آنفا عن صحيح مسلم وخصائص النسائي مع ذكر الاسناد و المصادر.

٢. خلال ايام الحج وفي يوم عرفة وعندما كان النبي (ص) يخطب من على ناقته حيث ادلى بهذا الحديث.

وهذا ما رواه الترمذي في صحيحه عن جابر بن عبد اللّه الانصاري، وادرج سابقا تحت الرقم ٢.

٣. اورد (ص) هذا الحديث في ((الجحفة)) وهي احد مواقيت الحج بين مكة والمدينة، كما ذكر ذلك ابن الاثير في ((اسد الغابة)) في احوال ((عبد اللّه بن حنطب))،وذكر سابقا في العدد ٨ من سلسلة الاحاديث.

٤. اثناء مرضه الذي انتهى بوفاته، وعندما كان يدلي بآخر وصاياه،اوصى (ص) بالثقلين وقال: ((ايها الناس يوشك ان اقبض قبضاً سريعا فينطلق بي وقد قدمت اليكم القول معذرة اليكم، الا اني مخلف فيكم كتاب ربي عز وجل وعترتي اهل بيتي، ثم اخذ بيد علي (ع) فرفعها، فقال: هذا علي مع القران والقران مع علي لا يفترقان حتى يردا علي الحوض فاسئلوهما ما خلفت فيهما)) [١].

وهناك دقائق وظرائف لا تخفى على اهل الحقيقة.

٥. قال (ص) في ((مسجد الخيف)) اثناء ((حجة الوداع)): الا واني سائلكم عن الثقلين قالوا: يارسول اللّه وما الثقلان؟ قال: كتاب اللّه الثقل الاكبر، طرف بيد اللّه وطرف بايديكم فتمسكوا به

١. الصواعق المحرقة: ص ٧٥.

لن تضلوا ولن تزلوا، وعترتي واهل بيتي، فإنه قد نبّأني اللطيف الخبير انهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض كاصبعي هاتين[١].

٦. أثناء عودته (ص) من الطائف ((بعد فتح مكة)) حيث وقف النبي وذكر هذا الحديث وهذه النقاط المهمة[٢].

ان هذا التكرار والتأكيد في مختلف الامكنة، في المدينة وفي ايام الحج، في يوم عرفة، وفي مسجد الخيف ((ايام منى)) وفي وسط الطريق بين مكة والمدينة،وموارد اخرى دليل واضح وبرهان قوي وناطق على ان التمسك بهذين الامرين المهمين يعتبر قضية مصيرية ومهمة بحيث كان النبي (ص) يريد توعية المسلمين على اهميتهما لئلا يضلوا، والعجب العجاب اذا ما تخلينا عنهما بعد كل هذا التكرار و التاكيد، والقينا بانفسنا في الضلالة، او التقليل من شأنهم من خلال التبريرات الخاطئة.

فكيف يمكن المرور مرور الكرام بحديث نقله نيّف وعشرون من صحابة رسول اللّه (ص)، وورد في المصادر الشهيرة ومن قبل الطبقة الاولى، ونقل في ما يقارب من مائتي كتاب اسلامي معروف لاشك ولاريب في سنده، ولا غموض في برهانه؟من المسلم به ان من يمر بهذا الحديث مرور الكرام تقع على عاتقه مسؤولية عظيمة.

فالذي يؤمن بالنبي (ص) باعتباره رسول اللّه (ص) وخاتم النبيين والامين على الوحي، ويرى تأكيده على التمسك بهذين الامرين المهمّين رأي العين، ويعتبر أن الهدى في اتباعهما، عليه أن يعلم أن هناك سرّاً مهمّاً يكمن في هذين الامرين،(تأملوا جيدا).

١. تفسير علي بن ابراهيم وفقا لنقل بحار الانوار: ج ٢٣، ص ١٢٩، الحديث ٦١.

٢. صواعق ابن حجر: الفصل الاول، الباب ١١ آخر الصفة ٨٩.

الخلاصة

١- من الآيات القرآنية التي تتناول الولاية و الإمامة هي قوله تعالى: ﴿قل أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم﴾.

٢- تثبت هذه الآية على المسلمين وجوب الطاعة المطلقة في كل شيء لأولي الأمر و هذا يعني عصمتهم و هذا ما اعترف به مفسروا السنة أيضا.

٣- لا تنطبق الآية إلا على أئمة أهل البيت (ع) و بذلك وردت أخبار في كتب السنة و الشيعة.

٤- لا يصح تفسير أولي الامر بالصحابة او العلماء او قادة الجيش او الحكام و السلاطين لانه لا دليل على ذلك أبدا و على فرضه فإن طاعتهم مشروطة و مقيدة و ليست مطلقة.

٥- إن كون الإمام واحد في كل عصر لا ينافي معنى الجمع في «أولي الأمر» لأن الجمع باعتبار مجموع الأئمة مع تعدد العصور.

٦- النبي الكريم (ص) هو أول الأئمة و مصداق لأولي الأمر وبالتالي لا يقال إن الآية لا مصداق لها في زمن الرسول (ص).

٧- حفلت مصادر السنة بنقل روايات تتضمن مفهوم الولاية و الإمامة منها حديث الثقلين و قوله (ص): يا ايها الناس اني قد تركت فيكم ما إن اخذتم به لن تضلوا، كتاب اللّه وعترتي اهل بيتي.

٨- روي حديث الثقلين في بعض صحاح مسلم و الترمذي و النسائي و كثير من المصادر و قد صدر منه(ص) في عدة مواطن كغدير خم و أيام الحج و قبل وفاته.

٩- إن التأكيد على التمسك بالعترة كعِدل للقرآن و تكرار الحديث من قبل رسول الله (ص) يبين مدى أهمية الأمر وعظم شأن أهل بيت النبي(ص) و الرسالة الملقاة على عاتق المسلمين تجاههم(ع).

بسمه تعالى

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ١٠

الولاية والامامة العامة في السنة (١)

بكالوريوس

المقدمة

لقد قرأنا في البحوث السابقة حديث الثقلين و درسناه من ناحية نصه و سنده و المصادر التي روته من السنة و الشيعة، فاتضح أن الحديث له صلة مباشرة بمصير الأمة الإسلامية و هدايتها، و نظرا لأهميته البالغة نقف في هذا الدرس عند هذا الحديث النبوي و نتأمل معانيه العالية. كما نتطرق إلى أحاديث أخرى حول الولاية و الإمامة من المصادر المعتبرة لدى الفريقين فنقرأ قوله(ص): «مثَل اهل بيتي فيكم كمثَل سفينة نوح مَن رَكِبها نجا ومَن تخلّف عنها هلَك» وقوله (ص):«النجوم أمان لأهل الارض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتْها قبيلةٌ من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس» و نتعرف على مدلول هذه الكلمات النبوية.

المحتوى العلمي

المسائل المستوحاة من حديث الثقلين

ان هذا الحديث الشريف يرسم خطوطاً مهمة أمام المسلمين و سنشير الى جانب منها بشكل مختصر:

١. إن القرآن وأهل البيت (ع) متلازمان دائماً ولا يمكن فصلهما، والذين يطلبون حقائق القرآن يتحتم عليهم التمسك بأهل البيت (ع).

٢. كما أن اتباع القرآن واجب على المسلمين بلا قيد او شرط فان اتّباع اهل البيت (ع) واجب ايضاً بلا قيد اوشرط.

٣. إن أهل البيت معصومون، فعدم افتراقهم عن القرآن من ناحية، و وجوب اتّباعهم بلا قيد او شرط من ناحية أخرى، دليل واضح على عصمتهم من الزلل والخطأ والذنب، فلو كانوا يذنبون او يخطؤون لانفصلوا عن القرآن و ما كان اتباعهم يحفظ المسلمين من الضلالة والانحراف، فإن قوله (ص): ما إن تمسّكتهم بهم لن تضلوا، دليل جلي على عصمتهم.

٤. والأهم من كل ذلك أن النبي (ص) قد رسم هذا الخط للمسلمين على مرّ الزمان الى يوم القيامة، فيقول: «انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض » فهذا يوضح بجلاء أنه لا يخلو زمان من وجود شخص من اهل البيت (ع) يكون الإمام المعصوم ، و كما أن القرآن نبراس هداية فإنهم كذلك، اذن لابد أن نسعى ونعثر عليهم في كل عصر و زمان.

٥. يستفاد من هذا الحديث الشريف أن الانفصال عن اهل البيت (ع) او التقدم عليهم يمثّل اساس الضلال، ولا ينبغي تقدم شيء على ما يختارونه.

٦. إنهم افضل و اعلم من كافة الناس.

نعم، فلا غموض في استجلاء هذه الامور من الحديث أعلاه أبدا.

واللطيف أن ((السمهودي)) والشافعي [١] وهو من علماء القرن التاسع والعاشر الهجري المعروفين وصاحب كتاب ((وفاء الوفاء)) يقول في إحدى مؤلفاته باسم ((جواهر العقدين)) الذي كتبه حول حديث الثقلين: إن ذلك يفهم وجود من يكون أهلاً للتمسك به من اهل البيت والعترة الطاهرة في كل زمان وجدوا فيه الى قيام الساعة،حتى يتوجه الحث المذكور الى التمسك به كما أن الكتاب العزيز كذلك[٢] .

سؤال

يبقى سؤال واحد فقط و هو: انه عبّر في بعض الروايات وان كانت قليلة جداب ((وسنتي)) بدلاً عن ((وعترتي اهل بيتي))، حيث عثرنا عليهما في مكانين في سنن البيهقي، ففي مورد يروي ابن عباس عن النبي (ص) انه خطبنا في حجة الوداع وقال: إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا ابداً، ثم قال: كتاب اللّه وسنة نبيه [٣].

وفي سند آخر نقل هذا المعنى عن ابي هريرة ايضا[٤].

ولكن من الواضح ان هذه الرواية لا يستند عليها في مقابل جميع تلك الروايات التي تصرح باسم اهل البيت والعترة، وحتى ان كلمة اهل البيت تكررت في بعضها ثلاث مرات، وتم التأكيد عليهم، و في بعضها جاء اسم علي (ع) بالنص، و أن النبي (ص) اخذ بيده وعرف به، ويبدو أن سلاطين الزمان قاموا بهذا التغيير للإفلات من مؤاخذات الناس، إلا انهم لم يستطيعوا التحريف.

فضلا عن ان هاتين الروايتين على فرض صحة حديث « وسنتي » لاتتعارضان، ففي مكان يوصي النبي (ص) بالكتاب والسنة، وفي مكان آخر بالكتاب والعترة، لأن النبي (ص) وكما اسلفنا قد ادلى بهذا الحديث مرات عديدة (وفقاً للروايات التي وردت في المصادر المشهورة لأهل السنة) فتارة في حجة الوداع، وأخرى أثناء عودته من الطائف، ومرة في المدينة وعلى المنبر، وأخرى على فراش المرض والوفاة[٥]، فما الضير في أن يقول مرّات ومرّات: ((وعترتي)) ومرة واحدة: كتاب اللّه وسنتي؟.

---

١. سمهود: قرية كبيرة الى جانب النيل في مصر.

٢. خلاصة عبقات الانوار: ج ٢، ص ٢٨٥.

٣. سنن البيهقي: ج ١٠، ص ١١٤.

٤. نفس المصدر.

٥. لقد تمت الاشارة الى هذه الموارد سابقا، ويجدر القول ان المرحوم السيد شرف الدين قد اشار الى الموارد في الرسالة الثامنة من كتابه المراجعات.

وهل هنالك شخص ينكر أن سنة النبي (ص) هي إحدى آثاره العظيمة، التي يجب العمل بها؟ وهل يمكن لمسلم ان يغض الطرف عن سنة رسول اللّه (ص) التي أكد عليها القرآن، وقال: (ما ءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) (الحشر. ٧) ويهملها؟ فهذا المعنى لا يتعارض و التأكيد على اتباع العترة و التمسك بها الوارد في الموارد الاخرى.

وبتعبير آخر: إن اختيار إحدى الروايتين يكون في موضع يتعارضان فيه، والحال إنهما لا يتعارضان على الاطلاق، إن التمسك بهدى اهل البيت (ع) هو احد المصاديق البارزة للعمل بسنة رسول اللّه (ص) فمن أطاع اهل البيت (ع) فقد عمل بسنة رسول اللّه (ص)، والذي أدار ظهره لهم وقدّم اختياره على اختيار رسول اللّه (ص) فقد تمرّد على رسول اللّه (ص).

وعلى اي حال لا يمكن التنصل من المسؤولية التي حملتها إيانا احاديث الثقلين، الاحاديث المتواترة بلاشك و التي لا يمكن التغاضي عنها من ناحية السند و البرهان.

ونختم الكلام بشعر أورده الامام الشافعي بهذا الصدد:

ولما رأيت الناس قد ذهبت بهم مذاهبهم في أبحر العين والجهل.

ركبت على اسم اللّه في سفن النجاة وهم آل بيت المصطفى خاتم الرسل.

وامسكت حبل اللّه وهو ولائهم كما قد امرنا بالتمسك في الحبل.

وما اسعد الانسان اذ يراهم الملاذ في كل شيء ويعرف الحق من خلالهم[١].

وقد استند في الكثير من الروايات الآنفة الى قضية حوض الكوثر، وسبب ذلك بحسب الظاهر أن حوض الكوثر يقع في باب الجنة، وأن اول قدم للدخول تكون هناك، وأن الصالحين يزورون النبي (ص) واهل البيت (ع) هناك.

٢ -حديث سفينة نوح

من الاحاديث المشهورة بحق اهل البيت (ع) والائمة المعصومين (ع) هو«حديث السفينة » الذي ورد في الكتب المعروفة لدى الشيعة واهل السنة بشكل واسع، ونحن هنا نبحث في نص واسناد ومصادر هذا الحديث الشريف بشكل سريع:

١. كتاب ذخيرة المال: (طبقا لنقل خلاصة العبقات) ج ٢ ص ٢٧٧.

لقد نقل هذا الحديث ما لا يقل عن ثمانية من اصحاب رسول اللّه (ص) وهم (ابو ذر، وابو سعيد الخدري، وابن عباس، وانس، وعبد اللّه بن الزبير، وعامر بن وائلة،وسلمة بن الاكوع، وعلي عليه السلام)[١].

لقد وردت الروايات الآنفة في الكتب المشهورة لدى اهل السنة حيث نشير الى جانب منها فيما ياتي، وللمزيد من التوضيح نحثّ على مراجعة الكتب التالية:إحقاق الحق (الجزء التاسع)، وخلاصة عبقات الانوار (الجزء الرابع) وسائر الكتب.

إن أبا ذر كان ماسكاً بباب الكعبة ويقول: من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فليعلم أني أبو ذر الغفاري، سمعت رسول اللّه (ص) يقول: ((مثَل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها هلك))، وجاء في رواية: ((ومن تخلّف عنها غرق))[٢].

وعليه فهم سفينة النجاة في بحر الحياة المتلاطم.

٢. يروي ((ابن عباس)) وكذا ((سلمة بن الاكوع)). وفقاً لما ينقله أبو الحسن علي بن محمد الشافعي، المشهور بابن المغازلي، في كتاب المناقب عن النبي (ص) أنه قال: ((اهل بيتي فيكم مثَل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها هلك)).

وهذه العبارة نقلت عن ابن عباس، إلا أن عبارة ((ابن الاكوع)) أكثر اختصاراً وهي:

((مثل اهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا)).

يقول الشيخ ((محمد امين الانطاكي))، مؤلف كتاب ((لماذا اخترت مذهب الشيعة))في بحث حديث السفينة: اتفقت آراء علماء الاسلام على صحة واستفاضة نقل هذا الحديث حتى بلغ حد التواتر، وهناك عدد كبير من الحفّاظ وأئمة الحديث واهل السير و التواريخ نقلوا هذا الحديث حتى بلغ عددهم اكثر من مائة وحتى غير المسلمين نقلوا هذا الحديث و وضعوه بين الاحاديث الاسلامية))[٣].

و روي هذا الحديث في كتاب ((عبقات الانوار)) عن اثنين وتسعين كتاباً ألّفها اثنان وتسعون من مشاهير علماء اهل السنة بشكل مفصل مع جميع المشخصات:

---

١. وفقا لما نقل في اسد الغابة إن عبد اللّه بن الزبير ولد في بداية الهجرة، وفي سن السابعة او الثامنة جاء به ابوه الزبير الى الرسول (ص) ليبايعه، فسمع منه (ص) مابقي من عمره ورواها (اسد الغابة، ج٣،ص ١٦٢).

٢. روى هذا الحديث الحافظ الطبراني في المعجم الكبير والمعجم الصغير (ص ٧٨ طبعة دلهي) وابن قتيبة الدينوري في عيون الاخبار (ج١ ص ٢١٢ طبعة مصر) والحاكم النيشابوري في المستدرك (ج٣ ص ١٥٠)والذهبي في ميزان الاعتدال (ج١ ص ٢٢٤) والسيوطي في تاريخ الخلفاء (ص ٥٧٣) وجماعة اخرى كثيرة.

٣. كتاب ((لماذا اخترت مذهب الشيعة))، ص ١٦٦.

وفي الملحقات التي ذكرها صاحب كتاب «خلاصة عبقات الانوار» نقل هذا الحديث عن ثمانية من الصحابة، وثمانية من التابعين، وثلاثة من علماء القرن الثاني، وثمانية من علماء القرن الثالث، واربعة عشر من علماء القرن الرابع، وهكذا قرناً بعد قرن حتى وصل إلى القرن الحالي، وذكرهم جميعاً بالاسم والمواصفات[١].

مفاد حديث السفينة

من اجل ادراك المعنى الدقيق لهذا الحديث لابد من إلقاء نظرة على احوال سفينة نوح.

يقول القرآن الكريم: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قُد قُدِر﴾ (القمر. ١١ و ١٣).

لقد دمّر هذا الفيضان الشامل وغطّى الماء كل شيء و لم يبق مأوى يلتجئ الانسان اليه سوى سفينة نوح التي ضمن اللّه تعالى لمن ركبها النجاة من الغرق، بحيث عندما قال ابن نوح بغرور: ﴿سآوي الى جبل يَعصِمُني من الماء﴾ فليس هناك فيضان يصل الى قمم الجبال، جوبه بردّ أبيه الجازم والرادع حيث قال له:﴿ لاعاصمَ اليوم من أمْر اللّه إلا من رحِم ﴾ وظهر صدق كلام نوح مباشرة إذ: ﴿وحالَ بينهما الموجُ فكان من المغرَقين ﴾ (هود / ٤٣).

إن تشبيه اهل البيت بمثل هذه السفينة وفي تلك الظروف، زاخر بالمعاني التي تعلمنا الكثير من الحقائق، منها:

١. إن العواصف ستعصف بالأمة الاسلامية بعد النبي (ص) وتجرف الكثير معها و يغرق وسط أمواجها.

٢. هنالك نقطة واحدة فقط للخلاص من مخالب الاخطار التي تهدّد الدين والايمان وارواح الناس، ألا وهي سفينة أهل البيت (ع) التي يعتبر التخلف عنها و مفارقتها سبباً للهلاك.

٣. إن الانفصال عن واسطة النقل في الصحراء قد لا يزامنه الموت دائماً، إلا انه يعرّض الانسان الى العناء، بيد أن التخلف عن سفينة النجاة في بحر متلاطم لاينتج عنه سوى الموت والهلاك.

٤. لقد كان شرط الركوب في سفينة نوح (ع) الايمان والعمل الصالح، من هنا فقد عرض نوح (ع) على ابنه الايمان، والانفصال عن الكافرين، والركوب معه ومع اصحابه في السفينة: ﴿يابني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾، بناءا على ذلك فشرط نجاة هذه الأمه من العواصف والانحرافات هو الايمان واليقين بمقام سفينة النجاة هذه.

---

١. خلاصة عبقات الانوار: ج٢، ص ١٢٦. ١٩٥.

٥. ليست مجرد محبتهم تؤدي الى النجاة حيث طرح بعض علماء الاسلام ذلك بادّعائهم أن جميع المسلمين يحبّون اهل البيت (ع) ويعظّمونهم، من هنا فهم جمعياً من الناجين.

بل إن الكلام الذي جاء في الرواية هو اتباعهم (مقابل التخلف عنهم)،فان ابن نوح كان يحبّ أباه الا انه لم يكن يتّبعه، و لم تؤد محبته الى نجاته ابداً (تأملواجيدا).

٦. كما استفيد من ((حديث الثقلين)) خلال البحوث الآنفة بأن التمسك بولاء اهل البيت (ع) مستمرّ حتى نهاية العالم، وأن القرآن واهل البيت (ع) لن يفترقا حتى يردا على رسول اللّه (ص) الحوض في الجنة، يستفاد ايضا من ((حديث السفينة))، أن هذا الخط مستمر حتى نهاية الكون، لان الدنيا ظرف العواصف، اي إن الشياطين ودعاة الضلالة والتائهين في وادي الحيرة موجودون في كل زمان، ولاتهدأ هذه العواصف، وهي قائمة إلى يوم القيامة حيث يحكم اللّه تعالى بين عباده، فتزول الاختلافات.[١] على هذا الاساس، فإن وجود السفينة (سفينة النجاة) ضروری الى الأبد والتخلف عنها يؤدي الى الهلاك.

٧. إن التمسك المطلق بأهل البيت (ع) (في قبال التخلّف عنهم) يمكن أن يكون شاهداً جلياً على وجود الامام المعصوم في كل زمان من اهل البيت (ع)،حيث يؤدي اتّباعه الى النجاة والتخلف عنه الى الهلاك.

٨. إن هذا الحديث تفسير للحديث المعروف ((ستفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة، فرقة ناجية والباقون في النار)) [٢].ويبرهن على أن الفرقة الناجية هم الذين يتمسكون بمذهب اهل البيت (ع)، ويهتدون بهداهم في أصول و فروع الدين.

من مجموع ما قيل يمكن الاستفادة ايضا من هذا الحديث المعروف: أن مسالة اهل البيت (ع) يجب ان لاتكون مسالة بسيطة وعلى الهامش، بحيث يأخذ المسلمون ما يريدونه في أمور الدين والدنيا من الغير و يكتفون بمحبة اهل البيت (ع).

٣. حديث النجوم

الحديث الآخر الذي ورد بشكل واسع بحق أهل البيت (ع) في المصادر الاسلامية، ويؤكّد على أنهم (ع) هداة و أئمة الناس في كل زمان هو حديث النجوم حيث رواه جماعة كثيرة من اصحاب رسول

١. يصرح القرآن في آيات عديدة ان يوم القيامة يوم يزول فيه الاختلاف وان اللّه يفصل بين الامم.

٢. لقد روى هذا الحديث طائفة كثيرة من علماء الشيعة والسنة، وجاء في بعض طرق الحديث ان النبي (ص)قال في جوابه لعلي (ع) الذي سأله: من هي الفرقة الناجية؟: المتمسّك بما تمسّكت به انت وشيعتك واصحابك (احقاق الحق: ج ٧، ص ١٨٥).

اللّه (ص) (ما لا يقلّ عن سبعة أشخاص، ومنهم علي (ع)، وجابر بن عبد اللّه، وابو سعيد الخدري، وأنس بن مالك، والمنكدر[١]، وسلمة بن الاكوع وابن عباس) و جرت الاشارة اليه في عشرات الكتب من قبل حفّاظ اهل السنة ومحدّثيهم، حيث ندرج جانباً منها فيما يأتي، ونشير إلى بقية المصادر بشكل اجمالي (للمزيد من اطلاع القرّاء):

١. ينقل ((الحاكم النيشابوري)) في المستدرك عن ((ابن عباس)) ان النبي (ص)قال: ((النجوم أمان لاهل الارض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب ابليس)).

وبعد ذكره لهذا الحديث قال الحاكم: هذا حديث صحيح السند[٢].

يقول العلامة ((الحمزاوي)) في ((مشارق الانوار)): جاء في الرواية التي صححها [٣] الحاكم النيشابوري: ((النجوم أمان لأهل الارض من الغرق وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف)).

ومن الذين أوردوا هذا الحديث في كتابه، ((ابن حجر)) في ((الصواعق)) و((العلامة علي المتقي)) في ((منتخب كتر العمال)) و ((البدخشي)) في ((مفتاح النجاح)) و((الشيخ محمد صبان المالكي)) في ((إسعاف الراغبين)) و ((العلامة النبهاني)) في ((الشرف المؤبد)) و ((جواهر البحار))[٤].

كل هذا متعلق بالحديث الذي رواه ابن عباس عن النبي (ص)، كما أشرنا ايضاً إن هناك رواة كثيرين أيضاً نقلوا هذا الحديث عن النبي (ص)، حيث وردت رواياتهم في كتب السنة والشيعة المعروفة (وبالطبع هناك تفاوت قليل في عبارات هذه الروايات لا أثر لها في ما يمثّل الهدف الحقيقي).

فمثلاً نقرأ في رواية ((سلمة بن الاكوع)): قال رسول اللّه (ص): ((النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأمتي)) [٥].

وقد روى هذا المعنى عن رسول اللّه (ص) بشي من الاختلاف كل من جابر بن عبد اللّه الانصاري والمنكدر، وانس، وابو سعيد الخدري.

---

١. المنكدر بن عبد اللّه: ابو محمد بن المنكدر. طبقاً لقول ابن الاثير في اسد الغابة. هو من اصحاب رسول اللّه (ص).

٢. الحاكم النيشابوري في المستدرك: ج٣، ص ١٤٩ (طبعة حيدر آباد طبقا لنقل احقاق الحق: ج٩، ص ٢٩٤).

٣. عباة الحمزاوي هكذا: صححها الحاكم على شرط الشيخين (اشارة الى المعايير التي على اساسها يعتبرالبخاري ومسلم الاحاديث صحيحة، فهذا الحديث صحيح (مشارق الانوار، ص ٩٠ المطبعة الشرقية مصر).

٤. للمزيد من الاطلاع يراجع احقاق الحق: ج ٩، ص ٢٩٤. ٢٩٦.

٥. لقد أورد هذا الحديث كل من السيوطي في الجامع الصغير (ص ٥٨٧ طبعة مصر) ومحب الدين الطبري في ذخائر العقبى، وابن حجر في الصواعق، وجماعة آخرون في كتبهم.

ونقرأ في الحديث الآخر الذي رواه علي (ع) عن النبي (ص) بهذا الصدد:((النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت ذهب اهل السماء وأهل بيتي أمان لاهل الارض فاذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الارض)).

وقد نقل هذا الحديث ((محب الدين الطبري)) في ((ذخائر العقبى)) عن ((مناقب احمدبن حنبل))[١].

ونقله جماعة آخرون في كتبهم، مثل ((الحمويني)) في ((فرائد السمطين)) و((ابن حجر)) في ((الصواعق)) و ((محمد بن صبان)) و((اسعاف الراغبين)) و((الخوارزمي)) في ((مقتل الحسين)) و((النبهاني)) في ((الشرف المؤيد)).

مضمون حديث النجوم

إن حديث او احاديث النجوم تشير الى امور مختلفة:

١. ان هذا الحديث في واقع الأمر إشارة الى آيات القرآن التي تبيّن أن لنجوم السماء أثرين مهمّين:

اولا: قوله تعالى: ﴿ وبالنجم هم يهتدون﴾ (النحل / ١٦).

ويقول في مكان آخر: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر﴾ (الانعام/٩٧).

إن هذا في الواقع اشارة إلى إحدى الفوائد المهمة للنجوم، فقبل اختراع البوصلة كان من المتعذر تشخيص الطرق لاسيما في الاسفار البحرية (حيث لا وجود للجبال والاشجار) إلا عن طريق النجوم، لهذا فان السفن تتوقف عن المسير خلال الليالي التي تغطّي فيها الغيوم السماء، و إذا واصلت طريقها فإن خطر الموت يهدّدهم.

وهذا يعود إلى أن نجوم السماء متجمعة ماعدا النجوم الخمسة السيارة (عطارد،الزهرة، المريخ، المشتري و زحل) ولاتغيّر مكانها، وكأنها جواهر قد رصّعت قطعة قماش سوداء، وهذه القطعة سحبت باتجاه معين وهنّ يأخذن بها في الاتجاه المعاكس، لهذا فقد سمّيت ((الثوابت)) بالاضافة الى النجمة القطبية الثابتة في مكانها التي لاتبزغ او تأفل كسائر النجوم، وهذا الوضع أدّى الى ان يتعرفوا على سائر النجوم ويعرفون مكانها على مدار السنة وأن يلتمسوا طريقهم نحو مقاصدهم من خلال الخارطة التي كانت لديهم.

والفائدة الاخرى هي ما يقوله القرآن إن بعض النجوم ((رجوم)) للشياطين، أي انها بمثابة السهام التي تنطلق نحو الشياطين وتحول دون نفوذهم الى السموات، إذ يقول القرآن: (إنا زينّا السماء الدنيا بزينة

---

١. ذخائر العقبى: ص ٧، طبعة القدس القاهرة.

الكواكب وحفظاً من كلّ شيطانٍ ماردٍ لايسّمعون إلى الملأ الاعلى ويُقذَفون من كل جانب دُحوراً و لهم عذابٌ واصبٌ)(الصافات / ٦ – ٩).

من هذه الآيات وسائر آيات القرآن يمكن ادراك مفهوم أمان النجوم لأهل الارض.

فكيف توصد النجوم او ((الشهب)) الطريق أمام الشياطين، وتمنعها عن النفوذ إلى السموات؟ إن هذه المسألة يجب أن تبحث على حدة، وما يتوجب الاهتمام به هنا هو المفهوم الاجمالي للآيات التي تبين أن النجوم هي سبب تقهقر الشياطين عن الملأ الاعلى،ويصبح منطقة متزهة للملائكة والكروميين وهذا المقدار كاف لتفسير حديث النجوم.

نعم قال النبي (ص) كنجوم السماء، فمن جهة ينقذون الناس من الضلالة في ظلمات الكفر و الفساد والذنوب، ويشخصون لهم سبيل بلوغ غاياتهم، ويحفظون سالكي سبيل الحق من الغرق وسط امواج الضلالة.

ومن جهة أخرى عندما يحاول شياطين الجن والانس النفوذ الى حرم الاسلام ليقوموا بتحريف احكام القرآن والسنة فإنهم (ع) يردّونهم على أعقابهم كالشهب الثاقبة، ويردّون كيدهم الى نحورهم ويحولون دون تطلّعهم على الاسرار.

وهذه النكتة جديرة بالاهتمام أيضاً لاسيما و إنها تبين أن أهل البيت (ع) أمان للأمة ازاء الاختلافات، فلو استمرت الاختلافات لصار الناس من حزب ابليس كما يقول: (اختلفوا فصاروا حزب ابليس) وهذا التعبير مفعم بالمعاني.

٢. يستفاد من هذا الحديث أن خط هداية اهل البيت (ع) متواصل حتى فناء الكون، كاستمرار امان النجوم لأهل السماء او اهل الارض.

٣. انه يثبت عصمتهم من الخطأ والذنب ايضاً، فلو أمكن صدور الخطأ والذنب عنهم لم يتسنّ لهم ان يكونوا أماناً بشكل كامل ومطلق لأهل الارض في مواجهة الاختلاف والضلال، (تأملوا جيدا).

٤. كما أن نجوم السماء تتبادل البزوغ فكلما أفل منها واحد بزغ آخر، وكلما اختفت منها مجموعة في الافق، طلعت أخرى، فان اهل البيت (ع) كذلك ايضاً.

وقد وضح علي (ع) هذا الامر بصريح العبارة في نهج البلاغة:

((الا إن مثل آل محمد (ص) كمثل نجوم السماء إذا هوى نجم طلع نجم)) [١].

ولعل الامر لا يحتاج الى تذكير بعدم امكانية تفسير اهل البيت (ع) في هذه الروايات بنساء النبي (ص)، لانه يتحدث عن اشخاص يمثّلون اساس هداية الامة ونجاتها من الغرق في الضلالة، ويتصدون

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٠٠.

للاختلافات في كل عصر، ونحن نعلم أن نساء النبي كنّ يعِشن في زمان خاص، بالاضافة الى أنهن لم يكن لهن دور خاص في التصدي للاختلافات.

سؤال

ربما يقال: إننا نقرأ في الحديث المروي عن النبي (ص) في مختلف الكتب:((اصحابي بمنزلة النجـــوم في السما فأيّما اخذتم به اهتديتم)) [١].

فهل إن هذا الحديث لايتعارض والاحاديث أعلاه التي وردت بحق اهل البيت (ع)؟

للاجابة على هذا السؤال، لابد من الالتفات الى بعض الامور:

١. على فرض أن حديث ((اصحابي كالنجوم)) حديث معتبر فهو لايتعارض مع ما ورد بحق اهـــل البيت (ع)، لان وجود مرجع واحد في بيان حقائق الاسلام لايتعارض مع وجود المراجع الاخـــرين لاسيما و انه لم يذكر القرآن في حديث ((اهل بيتي كالنجوم))، بينما يمثّل القرآن الكريم اهم ســـند للمسلمين.

٢. ان هذا الحديث ((موضوع)) و((مكذوب)) من ناحية السند لدى الكثير من عظماء اهل السنة، او مشكوك على الاقل.

ومن الذين صرّحوا بهذا المعنى ((احمد بن حنبل)) احد الائمة الاربعة لاهل السنة، و ((وابن حزم))، و ((ابو ابراهيم المزني))، احد اصحاب الشافعي و ((الحافظ البزاز)) و ((الدار قطـــني)) و((الـــذهبي)) وطائفة أخرى، حيث يخرجنا نقل كلام كلٍ منهم عن إطار البحث التفسيري، ولكـــن بإمكـــانكم مراجعة ((خلاصة كتاب عبقات الانوار))بغية الاطلاع الواسع على جميع هذه الاقوال [٢].

٣. إن مضمون هذا الحديث لايتناسب مع المعايير المنطقية، فإننا نعلم أن اختلافات شديدة قد وقعت بين اصحاب رسول اللّه (ص) (الاصحاب بالمعنى الشامل للكلمة تعني جميع الـــذين ادركـــوه (ص) وكانوا الى جانبه)، وقد اريقت دماء كثيرة بسبب هذه الاختلافات و وقعت حروب رهيبـــة، فـــأي منطق يرتضي لنا ان نعتبر فرقتين متخاصمتين وكل منهما متعطش بدم الآخر، أنوار هدايـــة، ونخيّـــر الناس بأن لافرق بالنسبة لكم في أن تلتحقوا بعسكر امير المؤمنين (ع) او بعســـكر معاويـــة؟ اي: إن

---

١. جامع الاصول، ج ٩، ص ٤١٠.

٢. خلاصة العبقات، ج٣، ص ١٢٤ الى ١٦٧ (وفي هذا الكتاب بيّن ضعف سند هذا الحديث عن اكثر من ثلاثين من علماء اهل السنة مع شرح لأحوالهم).

الامر سيّان للقوم في حرب الجمل سواء كانوا مع علي (ع) او مع طلحة و الزبير هداية ويأخذون بايديكم الى الجنة؟.

فلا عقل يقبل مثل هذا المنطق، والنبي (ص) أسمى وارفع من أن ينسب اليه مثل هذا.

إن القرائن تبرهن على ان حكام ((بني امية)) ومن لفّ لفيفهم قد ابتدعوا هذا الحديث ونسبوه الى النبي (ص) من اجل ترسيخ دعائمهم او اضعاف معنى حديث النجوم و التقليل من اهمية اهل البيت (ع)، ليفهموا اهل الشام أن لو كانت حكومة علي (ع) على الحق ومشعل هداية، فإن حكومة معاوية كذلك بحكم كونه من اصحاب رسول اللّه، فلا فرق في أن تكونوا مع هذا او مع ذاك واللّه العالم بحقائق الامور.

الخلاصة

١- إن حديث الثقلين يتضمن معاني هامة منها أن أهل البيت(ع) لا ينفصلان عن كتاب الله و هذا يدل على عصمتهم و بالتالي وجوب طاعتهم مطلقاً من دون قيد أو شرط.

٢- حديث الثقلين يدل بوضوح على أن وجود العترة الطاهرة ممتدّ إلى كافة العصور و لا يخلو زمان من وجود إمام مفترض الطاعة.

٣- لقد ورد في قليل من الروايات « وسنتي» بدل « و عترتي أهل بيتي» و لا يعتد بهذا القليل من الروايات مقابل النقل المتواتر للصيغة التي تتضمن العترة الطاهرة.

٤- من الأحاديث المشهورة في أهل البيت في كتب الفريقين هو قوله(ص): « مثَل اهل بيتي فيكم كمثَل سفينة نوح مَن رَكِبها نجا ومَن تخلّف عنها هلَك ».

٥- إن حديث سفينة نوح يدل على أن الأمة تلاقي بعد رسول الله شدائد عظيمة و لا منجى لها إلا بمتابعة أهل البيت(ع).

٦- يتضمن حديث سفينة نوح عصمة أهل البيت و أن شرط نجاة المسلمين هو ايمانهم بمقامهم و الاعتراف بحقهم و لا يكفي مجرد حبهم.

٧- من الأحاديث المشهورة في المصادر المعتبرة لدى المسلمين، قوله:(ص):«النجوم أمان لأهل الارض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف» وقد صحح سنده الحاكم النيشابوري.

٨- يدل حديث النجوم على أن أهل البيت هم منقذوا الأمة من الضلال و التيه كما أن نجوم السماء مصدر الهداية للمسافرين.

٩- كما أن النجوم تصد الشياطين من الصعود إلى السماوات كذلك كذلك أهل البيت (ع) يحولون دون الانحراف و التشويه لدين الله و كتابه.

١٠- إن أهل البيت يستمر وجودهم في الأمة إلى نهاية الكون كما أن نجوم السماء باقية كذلك و لا بد من عصمتهم حتى يصح كونهم أمانا في كل وقت.

١١- إن حديث: «أصحابي بمنزلة النجوم في السما فأيما أخذتم به اهتديتم »لا ينطبق مع واقع الصحابة لصدور الفسق من بعضهم وكثرة الاختلاف و القتال بينهم فهو موضوع مكذوب.

بسمه تعالى

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ١١

الولاية والامامة العامة في السنة (٢)

بكالوريوس

المقدمة

إن حديث الإمامة و زعامة الأمة الاسلامية من المفاهيم التي حظيت بعناية كبيرة في الكتاب العزيز و السنة النبوية و قد مرّت جملة من الايات و الروايات في هذا الباب. و في هذا الدرس نتابع الموضوع من خلال التفاصيل التي كشفتها لنا السنة النبوية عن تحديد الائمة و عددهم و ذلك بمراجعة المصادر المعتمدة و الموثوقة لدى المسلمين كصحيح مسلم و ... . فنتعرف على حديث الائمة الاثني عشر و مفاده و نقرأ الاحاديث التي تتضمن المفهوم التالي: «إن الأرض لا تخلو من حجّة» و ندرس علاقتها بمفهوم الامامة و الولاية.

المحتوى العلمي

٤- حديث «الأئمّة الأثنى عشر»

الحديث الآخر الذي يكشف عن منزلة أهل البيت (عليهم السلام) في الولاية والإمامة بشكل عام، وبإمكانه الاجابة عن الكثير من الأسئلة التي ترد بهذا الصدد، هو ذلك الحديث الذي يذكر أنّ الأئمّة اثنى عشر و هو من أشهر الأحاديث، وقد نقل في أكثر كتب الصحاح،

وفي البداية نتّجه نحو سند الحديث، ومن ثَم نتطرق إلى مضمونه:

روي هذا الحديث عن جملة من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذ تنتهي أكثر الأسانيد إلى «جابر بن سمرة»، ثم إلى «عبد الله بن مسعود» و«عبد الله بن عمر»، و«عبد الله بن عمرو بن العاص»، و«عبد الملك بن عمير»، و«أبي الجلد»، و«أبي جحيفة» (وهم سبعة أشخاص على الأقل)، إلاّ أنّ حفّاظ الحديث والذين نقلوه في كتبهم بلغوا العشرات، والآن نلفت انتباهكم إلى جانب من هذه الاخبار:

١- روي في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة أنّه قال: «سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله)يقول: «**لايزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة- ثم قال كلمة لم أفهمها ! فقلت لأبي: ما قال؟ فقال: كلّهم من قريش**»[١].

وينقل في هذا الكتاب بسند آخر عن جابر، وجاء: «**لايزال هذا الأمر**» بدلاً عن «**لايزال هذا الدين عزيزاً**»، وجاء في تعبير ثالث وبسند آخر: «**لايزال هذا الدين عزيزاً منيعاً**».

١. صحيح مسلم، ج٣، ص ١٤٥٣.

ويروى عن عامر بن سعد بن أبي وقاص بتعبير رابع: إنني كتبت إلى جابر بن سمرة أن اكتب لي الأخبار التي سمعتها من رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فكتب لي: سمعت رسول الله يقول: «**لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة، أو يكون عليكم اثنى عشر خليفة كلّهم من قريش**».

وسمعت أيضا: «**عصيبة من المسلمين يفتتحون بيت أبيض، بيت كسرى أو آل كسرى**».

وسمعته يقول أيضا: «**إنّ بين يدي الساعة كذّابين فاحذروهم**» [١].

وعن طريق آخر جاء في صحيح مسلم نفسه عن جابر: «**لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة**»، وفي آخر هذا الحديث تلاحظ أيضاً جملة «**كلهم من قريش**» [٢].

٢- جاء هذا الحديث في صحيح البخاري وبعبارات مشابهة، يقول جابر: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول:

«**يكون اثنى عشر أميراً فقال كلمة لم اسمعه، فقال أبي إنّه قال: كلهم من قريش**» [٣].

٣- وذكر هذا المعنى في صحيح الترمذي أيضاً مع شيء من الاختلاف، ويقول الترمذي بعد نقله: «**هذا حديث حسن صحيح**» [٤].

٤- كما جاء هذا الحديث في صحيح أبي داود أيضاً مع اختلاف بسيط، ويبرهن نمط الحديث على أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) أدلى به على الملأ العام، فقد جاء فيه أنّ النبي (صلى الله عليه وآله)حينما قال: «**لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة فكبّر الناس وضجّوا ثم قال كلمة خفية: كلهم من قريش**» [٥].

٥- ذكر هذا الحديث في مسند أحمد أيضاً وفي عدّة موارد، بحيث عدّ بعض المحققين في هذا الكتاب طرقه إلى جابر أربعةً وثلاثين طريقاً [٦].

وجاء عن «مسروق» أنّه قال: كنا جلوساً ليلة عند عبد الله بن مسعود يُقرئنا القرآن فسأله رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن هل سألتم رسول الله (صلى الله عليه وآله) كم يملك هذه الأُمّة من خليفة؟

---

١. صحيح مسلم، ج٣، ص ١٤٥٣.

٢. المصدر السابق.

٣. صحيح البخاري، ج ٣، الجزء ٩، ص ١٠١ (في الباب الذي أورده قبل باب اخراج الخصوم وأهل الريب).

٤. صحيح الترمذي، ج ٤، ص ٥٠١، باب ما جاء في الخلفاء، الحديث ٢٢٢٢٣.

٥. صحيح أبي داود، ج٤ ص ١٠٣.

٦. يراجع كتاب منتخب الأثر، ص ١٢ ; واحقاق الحق، ج١٣.

فقال عبد الله: ما سألني عن هذا أحد منذ قدمت العراق قبلك، قال: سألناه فقال: «**اثني عشر كعدّة نقباء بني اسرائيل**»[١].

ما نقلناه يتعلق بأشهر كتب السنة وأكثرها اعتباراً التي نقل فيها هذا الحديث عن طرق مختلفة، ومن بعدها جاء في كتب اُخرى أيضا، حيث نشير إلى أسماء بعضها تجنّباً للإطالة في الحديث، وبإمكانكم الحصول على مزيد من التفصيل في كتب «احقاق الحق»، و«فضائل الخمسة»، و«منتخب الأثر» وأمثاله.

مضمون حديث «الأئمّة (عليهم السلام) اثنى عشر»:

إنَّ التعابير التي جاءت في هذه الروايات متفاوتة، فقد عبّر في بعضها بـــ«**اثني عشر خليفة**» وفي بعض «**اثني عشر أميراً**» وفي بعض جرى الحديث عن ولاية وحكم اثني عشر رجلاً «**ما ولاهم اثنى عشر رجلاً**»، ولكن غالباً ما عبّر بـــ «**خليفة**»، وفي بعضها جاء التعبير أيضاً بالعدد فقط «**اثني عشر كعدة نقباء بني اسرائيل**»، كما عبّر في بعضها بـــ «**اثني عشرة قيّماً**».

ولكن من الواضح أنّها جميعاً تشير إلى مسألة الخلافة والولاية والحكومة، وبالتالي فهي واحدة.

ومن ناحية اُخرى فقد ورد في بعضها: «**لا يزال هذا الدين عزيزا منيعاً**»، وفي بعض: «**لا يزال أمر أمتي صالحاً**»، وفي بعض: «**لا يزال أمر هذه الامة ظاهراً**»، وفي بعض: «**ماضياً**» وفي بعض: «**لا يضرهم من خذلهم**».

وتعابير اُخرى من هذا القبيل حيث تشير جميعها إلى حقيقة واحدة وهي: صلاح أمر الأُمّة واقتدارهم وظفرهم و نجاتهم.

ومن جهة ثالثة تلاحظ جملة «**كلهم من قريش**» في أغلب هذه الروايات التي نقلت بأساليب مختلفة، ما عدا بعض الروايات مثل الرواية التي نقلها القندوزي الحنفي في ينابيع المودة، إذ ينقل في ذيل هذه الرواية عن كتاب «**مودة القربى**» عن «جابر بن سمرة» أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: «**كلهم من بني هاشم**» [٢].

وجاء في أغلب هذه الروايات أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) خفض صوته أثناء ذكره هذه الجملة، وصرح بها سرّاً، وهذا يدل بوضوح أنّ ثمّة أشخاص كانوا يعارضون أن يكون الخلفاء الاثنى

١. مسند أحمد، ج ١، ص ٣٩٨.

٢. ينابيع المودة، ص ٤٤٥، الباب ٧٧.

عشر لرسول الله(صلى الله عليه وآله) في قريش أو بني هاشم، ممّا أدّى إلى أن يصرّح النبي (صلى الله عليه وآله)بذلك بشكل سرّي!

على أيّة حال فإنّ تفسير هذا الحديث الشريف الذي ورد في المصادر المشهورة والمعتبرة ونظراً لاعتراف جميع علماء الإسلام به فإنّه واضح لأتباع أهل البيت (عليهم السلام)، وأنّهم لا يرون معنى له سوى الأئمّة الاثني عشر، إلاّ أنّ تفسيره بالنسبة لأتباع المذاهب الأُخرى أصبح عبارة عن مسألة غامضة ومعقّدة ومعضلة،بنحو يمكن معه القول بكل اطمئنان: إنّ أيّاً منهم لم يقدّم تفسيراً واضحاً له، والسرّ في ذلك معلوم، فالخلفاء الأوائل كانوا أربعة، وحكام بني امية كانوا أربعة عشر، وبلغ عدد حكام بني العباس سبعاً وثلاثين شخصاً.

وإنّ أيّاً منهم لم ينطبق عليه حديث «**الأئمّة اثنى عشر**»، كما أنّ الجمع والتمييز بينهم لن يحلّ المشكلة، إلاّ أن نلغي البعض ونقبل بالبعض الآخر وفقاً لميولنا، وننتخب اثني عشر منهم بمشقّة وعناء، وهذا أيضاً لاينسجم مع أي منطق.

من الأفضل لنا أن نضع زمام الحديث بيد «الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي» فهو يقول في الكتاب المعروف «**ينابيع المودة**»:

قال بعض المحققين: إنّ الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده (صلى الله عليه وآله) اثني عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة فبشرح الزمان وتعريف الكون والمكان علم أنّ مراد رسول الله(صلى الله عليه وآله)من حديثه هذا الأئمّة الاثني عشر من أهل بيته و عترته، إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه لقلّتهم عن اثني عشر ولا يمكن أن يحمله على الملوك الأموية لزيادتهم عن اثني عشر، ولظلمهم الفاحش– إلاّ عمر بن عبد العزيز– ولكونهم من غير بني هاشم، لأنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قال: كلهم من قريش في رواية عبد الملك عن جابر واخفاء صوته (صلى الله عليه وآله) في هذا القول يرجّح هذه الرواية لأنّهم لا يحسنون خلافة بني هاشم، ولا يمكن أن يحمله على الملوك العبّاسيين لزيادتهم على العدد المذكور ولقلة رعايتهم الآية: (قُلْ لا أَسْئَلُكُم عَليهِ أَجْراً اِلا المودَّةَ فِى القُربى). (الشورى / ٢٣)

وكذلك حديث الكساء، فلابدّ من أن يحمل هذا الحديث على الأئمّة الاثني عشر من أهل بيته وعترته (صلى الله عليه وآله) لأنّهم كانوا أعلم أهل زمانهم وأجلهم و أورعهم و أتقاهم وأعلاهم نسباً وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند الله [١].

١. ينابيع المودة، ص ٤٤٦، ملحق الباب ٧٧.

يقول الدكتور «محمد التيجاني السماوي» الذي كان من أهل السنة ثم اختار التشيع، في الكتاب الذي ألّفه حول سبب تشيّعه وأسماه «**كونوا مع الصادقين**» في عدّة جمل قصيرة ومفعمة بالمعاني: «هذه الأحاديث لا تصح ولا تستقيم إلاّ إذا فسّرناها على أئمّة أهل البيت الذين تقول بهم الشيعة الإمامية، وأهل السنّة والجماعة هم المطالَبون بحلّ هذا اللّغز إذ إنّ عدد الأئمّة الاثني عشر الذي أخرجوه في صحاحهم بقي حتى الآن لغزاً لا يجدون له جواباً»[١].

والعجيب أنّ البعض أرادوا تفسير هذا الحديث الشريف دون الاذعان لاعتقاد اتباع أهل البيت(عليهم السلام) في هذا المجال فتعرّضوا لعناء مدهش، فمن ناحية عدّوا « يزيد بن معاوية» من الاثني عشر الذين سما بهم الإسلام واصبح مقتدراً، ومن ناحية اُخرى ألغوا عدداً من الخلفاء وفقاً لرغبتهم.

وباعتقادنا أنّهم لو اختاروا السكوت لكان أفضل لهم من هذه التبريرات، والأعجب من ذلك كله التفسير الذي سمعناه في إحدى أسفارنا لحج بيت الله الحرام من أحد علماء مكة و في المسجد الحرام وهو أنّ الأئمّة الاثني عشر أولهم الخلفاء الأربعة وثمانية منهم سيظهرون في المستقبل !

بينما كل من يقرأ هذا الحديث يعرف أنّ المراد منه الوجود المتتابع للخلفاء الاثني عشر، والتعابير مثل: «**لا يزال هذا الدين منيعاً عزيزاً**»، أو «**لا يزال هذا الدين قائماً حتى تقوم الساعة**» تفيد هذا المعنى بجلاء وصراحة بأنّ سلسلة خلفاء النبي (صلى الله عليه وآله)الاثني عشر ستستمر إلى يوم القيامة.

ونختم هذا البحث بحديث عن الحافظ أبي نعيم الاصفهاني في كتاب «**حلية الأولياء**» فهو ينقل بسنده عن ابن عباس أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قال: «**منْ سرّهُ أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن غرسَها ربي، فليُوال علياً من بعدي، وليُوال وليَّه وليقتد بالائمة من بعدي فإنّهم عترتي**» [٢].

ملاحظة

وثّمة ملاحظة مهمّة هنا نشير إليها ونترك شرحها للبحوث اللاحقة، وهي ورود أسماء الأئمّة الاثني عشر كما يعتقد به اتباع مذهب أهل البيت في العديد من الروايات التي نقلت عن طريق السنّة والشيعة، وفي بعض طرق هذه الروايات تمّت الإشارة إلى اسم أولهم علي(عليه السلام) وآخرهم المهدي (عج) بصيغة أولهم علي وآخرهم المهدي، وفي بعضها أشير إلى ثالثهم أي الإمام الحسين (عليه السلام) بهذا الشكل الذي نقل أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أومأ إليه وقال:

«**هذا ابني إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمّة تسع**»[٣]، وهكذا اُشير إلى جميع الأئمّة الاثني عشر.

---

١. كونوا مع الصادقين، ص ١٤٦.

٢. حلية الاولياء، ج ١، ص ٨٦ (وفقاً لنقل الفضائل الخمسة من الصحاح الستة، ج٢، ص ٣٤).

٣. يقول المرحوم العلاّمة في كشف المراد (شرح تجريد الاعتقاد)، إنّ هذا الحديث روي بشكل متواتر عن النبي(صلى الله عليه وآلـه) كشف المراد، ص ٣١٤.

لا تخلو الأرض من حجّة:

من المسائل المهمّة التي يستند إليها في الروايات هي أنّ الأرض لا تخلو من مندوب عن الله تعالى، وقد تكرر هذه المضمون في الروايات المتواترة التي وصلتنا عن مصادر أهل البيت (عليهم السلام)، بأنّ الأرض لا تخلو من إمام أو نبي أو حجّة على العموم، وقد احتوى كتاب الكافي على بابين في هذا المجال، وروي في باب منهما تحت عنوان: «**إن الأرض لا تخلو من حجّة**»، ثلاثة عشر حديثاً عن الإمام الباقر (عليه السلام) والإمام الصادق (عليه السلام) والإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) وبعض الأئمّة، في الباب الآخر تحت عنوان: «**إنّه لو لم يبق في الأرض إلاّ رجلان لكان أحدهما الحجّة**»، ورويت فيه خمسة أحاديث بهذا المضمون[١]، حيث نشير فيما يلي إلى بعض هذه الأحاديث الواردة في كلا البابين.

نقرأ في أحد الأحاديث الواردة عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال: «**إنّ الأرض لا تخلو إلاّ و فيها إمام كيما إنْ زاد المؤمنون شيئاً ردَّهم وإن نقصوا شيئاً أتَمَّهُ لهم**» [٢].

ونقرأ أيضاً في حديث آخر عنه (عليه السلام): «**ان الله أجلُّ وأعظم من أن يَترك الأرضَ بغير امام عادل**»[٣]، بل ورد في بعض هذه الأحاديث أنّ الأرض إذا خلت من الإمام والحجة ساعة واحدة لتزلزلت الأرض وساخت بأهلها[٤].

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق (عليه السلام)أنّه قال: «**لو كان الناس رجلين لكان احدهما الإمام**»، «**وان آخر من يموت الإمام**»[٥].

بالاضافة إلى الأحاديث الثمانية عشر المذكورة فقد اُشير إلى هذا المعنى بصراحة في نهج البلاغة أيضا، ففي الكلمات المهمّة التي قالها الإمام علي (عليه السلام) لكميل بن زياد، يقول: «**اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً و إما خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته**» [٦].

---

١. اصول الكافي، ج١، ص ١٧٨ و١٧٩.

٢. المصدر السابق، ج١ ح ٢ من الباب الأول.

٣. المصدر السابق، ج١، ح ٦ من الباب الأول.

٤. المصدر السابق، ح ١١ و ١٢ و ١٣.

٥. المصدر السابق، ح ٣، (باب إنه لو لم يبق إلاّ رجلان احدهما الإمام).

٦. نهج البلاغة، الخطبة ١٤٧.

وقد نقل المرحوم العلاّمة المجلسي أيضاً في الجزء ٢٣ من بحار الأنوار في باب «الاضطرار إلى الحجة» ١١٨ حديثاً في هذا المجال وهذه الأحاديث الموجودة في اصول الكافي هي قسم منها، وقسم كثير اُضيف إليها من سائر الكتب[1].

بناءً على ذلك فإنّ قضية وجود حجة على الأرض في كل عصر تعتبر من الاُمور المسلَّم بها في مذهب أهل البيت (عليهم السلام)، إلى الحد الذي نقرأ في حديث للامام موسى بن جعفر (عليه السلام): «**إنّ الله لا يُخلي أرضهُ من حجة طرفةَ عين، إمّا ظاهر وإمّا باطن**» [2].

الإشارات القرآنية والمنطقية على وجوب الحجّة:

إنّ ما جاء في الروايات الآنفة الذكر يمكن تطبيقه مع الدليل العقلي أيضا، لأنّ «برهان اللطف» الذي ورد في مستهل البحث حول لزوم وجود الإمام أو النبي في كل عصر و زمان، وكذلك المفاسد المترتبة على فقدانه تصدق على ذلك في جميع الأحوال حتى لو كان سكان الكرة الأرضية شخصين فقط.

تقول قاعدة اللطف: إنّ الذي خلق الإنسان من أجل السعادة و التكامل، وألقى على عاتقه التكاليف، من الواجب أن يهييء مقدمات هداية الإنسان وتربيته، وأن يضع تحت تصرفه مستلزمات بلوغ هذا الهدف لأنّه لو لم يفعل هكذا فقد نقض الغرض، ومن المستحيل أن يفعل الله الحكيم هكذا.

لا شك في أنّ وجود العقل أو القادة العاديين لا يصون الإنسان من الأخطاء والزلات والمعاصي، وبتعبير آخر: إنّ علم الإنسان لايستطيع لوحده إرشاد الإنسان إلى غايته، أي طاعة الله والسعادة الأبدية، بل بالإضافة إلى ذلك فهو يحتاج إلى منْ يرتبط بالعلم الإلهي و المعصوم من الخطأ و الزلل و المعصية، ليتسنى له اتمام الحجة وتوضيح السبيل للناس بشكل تام.

إنّ هذا البرهان يصدق في كل عصر و زمان، ولكل مجتمع كبيراً كان أم صغيراً حتى و لو كان متكوناً من شخصين، وعليه فلو لم يكن في الأرض إلاّ شخصان فاحدهما النبي أو الإمام المعصوم.

على أيّة حال فكما قرأنا في الروايات الآنفة إنّ الله أجلُ من أنْ يكلّف الناس بلوغ مقام السعادة من دون أنْ يرشدهم إلى الطريق الصحيح الذي يخلو من الخطأ.

و يلاحظ في بعض آيات القرآن إشارات إلى هذا المعنى أيضا.

١. بحار الأنوار، ج ٢٣، من ص ١ إلى ٥٦.

٢. بحار الأنوار، ج٤٧، ص ٤١.

فالآية الكريمة: (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ). (الرعد / ٧) تدل على أنّ لكل قوم في كل عصر و زمان هادياً، (هاد بالمعنى الحقيقي للكلمة حيث يجسّد الهداية الكاملة والخالية من كل خطأ)، ومن هنا نقرأ في الحديث الوارد عن الإمام الباقر (عليه السلام)، أنه قال في تفسير هذه الآية: «... **وفي كلِّ زمان إمامٌ منّا يهديهم إلى ما جاء به رسول الله** (صلى الله عليه وآله)» [١].

والتعبير الذي جاء في نهج البلاغة يضمّ في ثناياه دليلاً منطقياً أيضا، وهو: أنّ أحد واجبات الإمام هو المحافظة على آثار النبوة والتعاليم الإلهيّة من كل تحريف، وبتعبير آخر: لو فرضنا أنّ كلَّ مَن على الأرض كفروا فلابدّ من وجود شخص يحافظ على تعاليم و آثار النبوة وينقلها إلى الأجيال القادمة التي تريد سلوك سبيل الهداية، وإلاّ فإنّ الحجج الإلهيّة تُمحى و تزول، وتنتهي الدلائل والبينات «**لئلا تبطل حجج الله وبيناته**».

وهنا نصل إلى خاتمة البحوث المتعلقة بالولاية العامة، و في الدرس التالي نتطرق إلى شروطها وخصائصها.

---

١. بحار الأنوار، ج٢٣، ص ٥، ح ٩.

الخلاصة

١- من الاحاديث الهامة التي تتحدث عن الامامة الالهية حديث الائمة الاثني عشر و الذي جاء بصيغ متقاربة كلها تصرح بعدد خلفاء النبي (ص) و هم اثني عشر.

٢- روي حديث الائمة الاثني عشر في صحيح مسلم و غيره من امهات الكتب و قد رواه من الصحابة ابن مسعود و ابن عمر و عبد الله بن عمرو بن العاص و اخرجه الكثير من الحفاظ.

٣- صحيح مسلم عن جابر بن سمرة أنّه قال: «سمعت رسول الله (ص)يقول: «لايزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة– ثم قال كلمة لم افهمها ! فقلت لأبي : ما قال؟ فقال : كلّهم من قريش».

٤- ان هذا العدد لا ينطبق على الخلفاء الاوائل لانهم اربعة و لا على بني امية لانهم اربعة عشر و لا بني العباس لانهم اكثر ايضا اضافة الى ما عرف بعضهم به من ظلم سافر و بغي و فساد.

٥- لا يبقى إلا القول بان الائمة هم علي(ع)و اولاده الاحد عشر الذين بلغوا قمة الايمان و التقوى و فاقوا جميع المسلمين فضلا وعلما.

٦- تحدثت بعض هذه الاخبار عن ولاية(ما ولاهم اثني عشر) و اخرى عن إمرة(اثني عشر اميرا) و اخرى عن خلافة(اثني عشر خليفة) و هي تصب في معنى واحد و هو خلافة النبي(ص).

٧- من المفاهيم ذات الصلة بالامامة هي الاخبار التي جاءت تصرح بان الارض لا تخلو من حجة ظاهرا او باطنا و قد تضافرت روايات اهل البيت (ع) بذلك.

٨- مما يعضد هذه الاخبار هو ما تقدم في دليل اللطف في وجوب بعثة النبي حيث ان الدليل يشمل ما اذا كان الحجة نبيا او اماماً.

٩- ان الله تعالى لما خلق الانسان فلابد ان يهييء له ما يقوده نحو سعادته و لما كان العقل بوحده قاصرا عن بلوغ الرشد و السعادة اقتضى اللطف الالهي ان يمدّ الانسان بحجة الهية .

بسمه تعالى

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ١٢

الشروط والصفات الخاصة بالإمام (١)

بكالوريوس

المقدمة

من الامور ذات الاهمية في مسألة الامامة هو علم الامام و أنه كيف يعلم بما يحتاج اليه في هداية الناس؟ و ما هي مصادر علمه؟ في هذا الدرس نسلّط الضوء على هذا الجانب في دراستنا لموضوع الامامة فنتعرف على خمسة مصادر تؤهّل الامام ليخلف النبي(ص) في قيادة الأمة الإسلامية و السير بها نحو ذروة الكمال و قمّة الرشد. و هذه المصادر هي علم الامام بكتاب الله و أسراره، ما ورثه الائمة من رسول الله (ص)، اتصال الامام بالملائكة، روح القدس و النور الالهي.

المحتوى العلمي

الشروط والصفات الخاصة بالإمام

تمهيد

نظراً للمسؤوليات الخطيرة الملقاة على عاتق الإمام وخليفة النبي (صلى الله عليه وآله)، فلابدّ بطبيعة الحال من أن تتوفر فيه شروط صعبة.

وتلك الشروط تشابه إلى حدٍ ما شروط و خصائص النبي (صلى الله عليه وآله) لأنّهما يسيران في طريق واحد، ويتحملان نوعاً واحداً من المسؤولية، فالنبي (صلى الله عليه وآله) يتقدم في المرحلة الأُولى والأئمّة يتابعونه في المراحل اللاحقة.

وكما تحدّثنا في بحث النبوّة، فالنبي و بحكم المسؤولية المهمّة الملقاة على عاتقه يجب أن يتمتع بعلم واسع في كل مجال، ليستطيع انقاذ البشر من أخطار الضلالة، ويهديهم في القضايا العقائدية والأخلاقية والأحكام والأنظمة الاجتماعية إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم وكمالهم، ويوضح الأحكام الإلهيّة بلا نقص أو زيادة.

أضف إلى هذا فلابدّ أن يتمتع باطلاع عن روح وجسم الإنسان، والمسائل النفسية والاجتماعية، وتاريخ المجتمع البشري، والخلاصة أن يتمتع بما يساعد على معرفة الناس الذين يحتاجون إلى التربية، بل و تمّ التوضيح في بحث علم الأنبياء وجوب تمتعهم بالعلم بما يخص وقائع المستقبل نوعاً ما، ليتسنّى لهم وضع الخطط الدقيقة و ذلك لشمولية رسالتهم.

وهذه الأُمور تصدق بالنسبة لأئمّة الحق وخلفاء الأنبياء أيضاً مع شيء من التفاوت لأنّهم يواصلون طريق الأنبياء وخطّهم، وكل ما يشرع به اُولئك يواصله هؤلاء، وكل ما أقامه الأنبياء يصونه و يكمله الأئمّة (عليهم السلام) فالشجيرات التي غرستها سواعد الأنبياء تسقى بسواعد الأئمّة الهداة(عليهم السلام).

ومن جهة اُخرى فالائمة الصالحون كالأنبياء يجب أن يوصلوا المعارف إلى الناس سالمة من الخطأ والزلل والانحراف، وإذا لم يكونوا معصومين لا تتحقق الغاية من وجودهم.

ومن ناحية ثالثة فالأنبياء وبمقتضى مقام القيادة في الدين و الدنيا لابدّ وأن يكونوا ذوي أخلاق فاضلة وصفات محمودة ظاهرية كانت أو باطنية لئلّا يتذمّر منهم الناس ولكي تثمر الأهداف من بعثتهم ولايعرض امرٌ ينقض الغاية.

هذا الأمر يصدق بحق الأئمّة (عليهم السلام) تماماً، فهم لا ينبغي عليهم التنزه عن أسباب التذمر فحسب، بل لابدّ من توفر الجاذبيات الأخلاقية لديهم بالقدر الكافي لجذب القلوب والعقول، وهنا لابدّ اولاً من البحث في علم الإمام.

علم الإمام

يشير القرآن الكريم إلى هذه المسألة في عدّة آيات:

فيقول تعالى في مكان: (وَإِذَا جَاءَهُم أَمْرٌ مِّنَ الاَمْنِ أَوِ الخَوْفِ اَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ اِلَى الرَّسُولِ وِإلَى اُولِي الاَمْرِ مِنْهُم لَعَلِمَهُ الَّذينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُم وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيطَانَ اِلّا قَلِيلاً). (النساء / ٨٣)

ويقول في آية اُخرى: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ اِنْ كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ). (النحل / ٤٣)

تدلّ الآية الاُولى على أنّ هناك اشخاصاً بين المسلمين كانوا يسلكون و بلا وعي منهم سبيل بثّ الشائعات التي يثيرها أعداء الإسلام أحياناً، فتارة يثيرون إشاعة الانتصار، واُخرى إشاعة الهزائم، أو سائر الإشاعات، وسبّب هذا الأمر الغفلة و الجهل، و قد يتسبّب في انهيار معنويات المسلمين، يقول القرآن على المسلمين أن يراجعوا النبي (صلى الله عليه وآله) أو اُولي الأمر في مثل هذه المسائل الاجتماعية المهمّة التي يجهلونها.

و اُولوا الأمر تعني أصحاب القرار، و من المسلم به أنّها لا تعني هنا القادة الحربيين، لأنّه تعالى يقول بعد ذلك ما معناه إنّ الذين يستنبطون الأحكام (أي الذين يبحثون القضايا من أصلها يمتلكون الاطلاع حول هذه الاُمور، وعلى الذين يجهلون، مراجعة هؤلاء)، فإنّ «**يستنبطونه**» من مادة «**نَبَطْ**» على وزن «**فَقَطْ**» وتعني في الأصل الماء الأول الذي يستخرجونه من البئر و يتفجّر من باطن الأرض، لذا يقال للحصول على الحقيقة من مختلف الأدلة و القرائن، استنباط.

و هذا التعبير صادق بحق العلماء فقط، لا قادة الجيش و لا الأمراء، من هنا فإنّه تعالى يكلّف المسلمين بالرجوع إلى العلماء و اُولي الأمر في المسائل الحساسة و المصيرية.

لكن ما المقصود هنا من «**اولي الأمر**»؟ ثمّة جدل بين المفسّرين أيضاً، فبعض فسّرها بمعنى اُمراء الجيش لاسيّما الجيش الذي فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله)، و بعضٌ بمعنى العلماء و الفقهاء، و بعضٌ فسّرها بالخلفاء الأربعة، و بعضٌ بمعنى أهل الحل و العقد (زعماء المجتمع)، و طائفة اعتبرتهم الأئمّة المعصومين (عليهم السلام).

والظاهر أنّ التفسير الأخير أكثر ملائمة من البقية، فقد ذكرت خصلتان لأُولي الأمر في ذيل الآية لا يمكن لهما أن تصدقا على غير المعصوم:

الأُولى: ما تضمّنت الاية من معنى بأنه لو ردّوه إلى اُولي الأمر لأرشدهم أولئك الذين يعلمون اُصول القضايا، و ظاهر هذا التعبير أنّ علمهم غير مختلط بالجهل و الشك، و هذا الأمر لا يصدق على غير المعصومين.

الثانية: هي أنّه تعالى يعدُّ وجود اُولي الأمر نوعاً من الفضل و الرحمة الإلهيّة حيث تحول طاعتهم دون اتباع الناس للشيطان: (وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَ رَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إلاَّ قَلِيلاً).

و من الواضح أنّ اتّباع المعصومين فقط هو الطريق الأمثل و الأصوب الذي بإمكانه الحؤول دون ضلال الإنسان و اتّباعه للشياطين، لأنّ غير المعصومين ربّما يزلّون و يقعون في الخطأ و المعصية و يصبحون أُلعوبة بيد الشيطان.

لهذا فقد فسّرت (اُولي الأمر) في هذه الآية في العديد من الروايات التي وصلتنا عن طرق أهل البيت (عليهم السلام) و أهل السنّة بمعنى الأئمّة المعصومين.

ففي رواية ذكرها المرحوم الطبرسي في مجمع البيان عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: «**هم الأئمّة المعصومون**» [١].

و نقرأ في الحديث الذي نقل في تفسير العياشي عن الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام): «**يعني آل محمد، و هم الذين يستنبطون من القرآن و يعرفون الحلال و الحرام و هم حجة الله على خلقه**» [٢].

و نقرأ في الحديث الآخر الذي نقل في «كمال الدين» للصدوق عن الإمام الباقر (عليه السلام): «**و منْ وضع ولاية الله و أهل استنباط علم الله في غير أهل الصفوة من بيوتات الأنبياء فقد خالف أمر الله**» [٣].

---

١. تفسير مجمع البيان، ج٣، ص ٨٢.

٢. تفسير كنز الدقائق، ج٣، ص ٤٨٦.

٣. المصدر السابق، ص ٤٨٦.

أمّا فيما يتعلق بالآية الثانية فهي توعز إلى الجميع بسؤال أهل الذكر عن الأُمور التي يجهلونها يقول اللّه سبحانه: (فاسأَلُوا اَهْلَ الذِّكرِ اِن كُنتُم لاتَعلَمُونَ).(النحل / ٤٣)

فممّا لا شك فيه أنّ الذكر هنا بمعنى العلم و الاطلاع، و أهل الذكر تشمل العلماء و المطّلعين بشكل عام، و على هذا الأساس فقد استدل بهذه الآية بشأن التقليد و رجوع الجاهل للعالم، إلاّ أنّ المصداق الكامل لها هم الذين يستلهمون علمهم من علم النبي(صلى الله عليه وآله) و الباري جلّ و علا، فعلمهم علم متزّه من الخطأ و الزلل، علمٌ مقترن بالعصمة، لهذا فقد فسّرت هذه الآية بأهل البيت (عليهم السلام) و الأئمّة المعصومين، ففي الرواية الواردة عن الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) في اجابته عندما سئل عن الآية قال: «**نحن أهل الذكر و نحن المسؤولون**» [١].

و الجدير بالذكر أنّ نفس هذا المطلب أو ما يقاربه قد نقل عن التفاسير الاثني عشر لأهل السنّة، (المراد من التفاسير الاثني عشر، تفسير «أبو يوسف» و«ابن حجر» و«مقاتل بن سليمان» و تفسير «وكيع بن جراح» و تفسير «يوسف بن موسى القطان» و تفسير «قتادة» و تفسير «حرب الطائي» و تفسير «السدي» و تفسير «مجاهد» و تفسير «مقاتل بن حيان» و تفسير «أبي صالح» و تفسير «محمد بن موسى الشيرازي»).

فقد روي في هذه التفاسير عن ابن عباس أنّ المراد من الآية ﴿**فاسألوا أهل الذكر**﴾ **هو محمد و علي و فاطمة و الحسن و الحسين** (عليهم السلام)، **هم أهل الذكر و العلم و العقل و البيان، وهم أهل بيت النبوّة**» [٢].

وملخص الكلام هو: أنه بالرغم من سعة مفهوم الآية، إلاّ أنّ نموذجها الكامل و الشامل لا يتصور إلاّ في الأئمّة المعصومين (عليهم السلام) المتزّه علمهم من الخطأ و الزلل، ومن هنا يتّضح عدم معارضة نزول الآية بشأن علامات الأنبياء السابقين، و التوراة، و الانجيل، و السؤال من علماء اليهود والنصارى، مع ما قيل في معنى هذه الآية.

ملاحظة

كما ذكرنا في مبحث علم الأنبياء في الجزء السابع من هذا الكتاب، فإنّ الأنبياء المكلّفين بهداية الناس في جميع الجوانب المادية و المعنوية، الذين تمتدّ حدود مسؤولياتهم إلى الجسم و الروح و الدنيا و الآخرة، يجب أن يكونوا على جانب كبير للغاية من العلم ليتسنّى لهم انجاز هذا الواجب على أحسن وجه.

---

١. تفسير البرهان، ج٢، ٣٦٩.

٢. احقاق الحق، ج٣، ص ٤٨٢.

و الأئمّة الذين هم خلفاء النبي يحظَون بهذا الحكم أيضاً، فلابدّ من امتلاكهم لعلم يتناسب مع واجبهم العظيم ليطمئن إليهم الناس ويسلّمونهم دينَهم.

ويجب أن يكون هذا العلم منزّهاً من الخطأ و العيب و الزلل، و إلاّ فإنّه لا يحظى بثقة الناس، و يسمح الناس لأنفسهم بتقديم بعض آرائهم على آراء النبي أو الإمام، باعتبار أنّ النبي و الإمام يخطئان أيضاً ولا ينبغي التسليم لهما مطلقاً، إذن فالثقة المطلقة تتبع عصمتهم.

يقول القرآن الكريم بشأن إمام بني اسرائيل «**طالوت**»: (اِنَّ اللَّهَ اصطَفَاهُ عَلَيْكُم وَ زادَهُ بَسطَةً فِى العِلمِ وَالجِسمِ). (البقرة / ٢٤٧)

من هنا يقول تعالى في مقابل مزاعم بني اسرائيل الذين كانوا يقولون: إنّ طالوت من أُسرة فقيرة و مجهولة، وأنّه خالي اليدين من مال الدنيا، أنّ الأساس الحقيقي للحكم الإلهي هو «العلم» و«القدرة» حيث وهبه الله منهما ما يكفيه و يؤهّله للقيادة.

و فيما يتعلّق بيوسف (عليه السلام) عندما يصف نفسه بالأهلية للتصدي لجانب من حكم مصر، أي إدارة بيت المال، فهو يستند إلى العلم و الأمانة: (قَالَ اجعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الاَرْضِ اِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ). (يوسف / ٥٥)

بل كما قلنا سابقاً بشأن علم الأنبياء لابدّ أن يتمتّعوا بجانب من علم الغيب على الأقل ليتسنى لهم القيام بواجبهم على أحسن وجه، و أنَّ الذي يصدق بحقّهم يصدق بحقّ الأئمّة أيضاً.

إنّ تكليفهم عالَمي أيضاً، فلابدّ أن يكونوا مطّلعين على أسرار العالم، و واجبهم مرتبط بالماضي و المستقبل، فكيف يمكنهم أداء رسالتهم جيداً إذا كانوا يجهلون الماضي و المستقبل، وأن يضعوا الخطط لجميع الناس؟

إنّ حدود رسالتهم تشمل ظاهر و باطن المجتمع، فمن المتعذّر إنجاز هذه الأُمور المهمّة بدون العلم بالغيب، وهذا ما ورد بتعبير لطيف للغاية في حديث الإمام الصادق(عليه السلام) يقول: «**مَنْ زعمَ أنّ الله يحتج بعبد في بلاده ثم يستر عنه جميع ما يحتاج إليه فقد افترى على الله**»[١].

نعم فالعلم بأسرار العالم حالياً و في الماضي و المستقبل هو في واقع الأمر السبيل إلى انجاز الرسالة المهمّة في هداية البشر و التحول إلى حجة لله تعالى.

ومختصر الكلام هو أنّ أول شرط للتصدي لمقام الإمامة هو العلم و الاطلاع و الإلمام بجميع العلوم الدينية، وحوائج الناس، وكل ما يلزم في أمر تعليم و تربية و هداية و إدارة المجتمع الإنساني، و من المستحيل أداء هذه المسؤولية بدون مثل هذا العلم.

---

١. بصائر الدرجات وفقاً لنقل بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١٣٧.

مصادر علم الأئمّة !

من الأُمور المهمّة الجديرة بالدقّة و الاهتمام فيما يتعلق بعلم الأئمّة المعصومين(عليهم السلام)، مصادر علم الأئمّة (عليهم السلام)، إذ من أين يحصل لهم هذا الاطلاع الواسع على أُمور الدين و الدنيا، و بالتسليم بأنّ الوحي لاينزل عليهم، وأنّ أبواب الوحي بعد وفاة خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله) قد أوصدت و إلى الأبد، فكيف يطّلعون على مسائل الشريعة و مصالح الإسلام و المسلمين و الحقائق المتعلقة بالماضي و المستقبل التي تعتبر ضرورية في أمر هداية الأُمة؟

من الممكن معرفة هذه المصادر جيداً من خلال الإشارات التي وردت في آيات القرآن و البيانات المفصّلة و الواسعة التي جاءت في الروايات.

إنّ هذه المصادر متنوعة و كثيرة نذكر بعضاً منها:

١ ـ العلم الكامل بكتاب الله

بنحو يُلمّون بمعرفة تفسيره و تأويله و باطنه و ظاهره و محكمه و متشابهه.

يقول القرآن الكريم: (وَيَقُولُ الَّذينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُم وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ). (الرعد / ٤٣)

يتضح من خلال هذه الآية أنّ هناك شخصاً لديه علم الكتاب جميعاً (انتبهوا إلى أنّ علم الكتاب قد جاء بشكل مطلق، وشامل لجميع العلوم المتعلقة بعلم الكتاب، على العكس ممّا ورد في الآية: (قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ اَنْ يَرْتَدَّ اِليكَ طَرْفُكَ).(النمل / ٤٠)

من المسلّم به أنّ كتاب الله معين لا يَنضب من العلوم، وأنّ العلم به مفتاح لجميع الأُمور، فعندما يستطيع «**آصف بن برخيا**» وزير سليمان بالقيام بهذا العمل المهم نتيجةً لعلمه ببعض الكتاب، و يأتي بعرش ملكة سبأ بطرفة عين من أقصى جنوب الجزيرة العربية (اليمن) إلى أقصى شمالها (الشام مركز حكومة سليمان)، فمن المسلّم به أنّ الذي عنده جميع علم الكتاب يستطيع القيام بأعمال أهمّ من ذلك بكثير، ولكن مَن الذي عنده علم الكتاب؟ يشير القرآن الكريم إلى ذلك إشارة غامضة.

فقال البعض: إنّ المراد هو الله تعالى (وعلى هذا سيكون عطف جملة «**عنده علم الكتاب**» عطفاً تفسيرياً، وهذا يخالف ظاهر الكلام).

و قال عدد من المفسرين: المراد منه هم علماء أهل الكتاب و أشخاص كسلمان، وعبد الله بن سلام الذين كانوا قد شاهدوا علامات النبي (صلى الله عليه وآله) في الكتب السماوية السابقة و يشهدون بحقانيته (صلى الله عليه وآله).

إلاّ أنّ أغلب المفسّرين نقلوا في كتبهم أنّ هذه الآية إشارة إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام) و أئمّة الهدى(عليهم السلام).

يروي المفسّر الشهير القرطبي في تفسير هذه الآية عن عبد الله بن عطاء: قلت لأبي جعفر علي بن الحسين (عليه السلام): إنّ الناس يظنون أنّ الذي عنده علم الكتاب هو عبد الله بن سلام، فقال: «**إنّما ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه**»، هو علي بن أبي طالب فقط، وكذلك قال محمد بن الحنفية ذلك[١].

والجدير بالذكر أنّ هذه السورة (سورة الرعد) نزلت في مكة و الحال أنّ عبد الله بن سلام و سلمان الفارسي و سائر علماء أهل الكتاب أسلموا في المدينة.

و قد ورد هذا الكلام عن سعيد بن جبير أيضاً عندما سئل: هل أنّ «مَنْ عنده علم الكتاب» هو عبد الله بن سلام؟ قال: «كيف يكون هو و هذه السورة مكية»[٢]؟

كما ينقل الشيخ سليمان القندوزي الحنفي[٣] في «ينابيع المودة» عن «الثعلبي» و«ابن المغازلي» عن «عبد الله بن عطاء»: كنت مع محمد الباقر (عليه السلام) في المسجد و رأيت ولد عبدالله بن سلام فقلت: هذا ابنُ منْ عنده علم الكتاب، فقال: هذه الآية بحق علي بن أبي طالب(عليه السلام) [٤].

وقد رويت في نفس الكتاب رواية أُخرى عن عطية العوفي عن «أبي سعيد الخدري» قال: سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن آية (الذي عنده علم من الكتاب)، فقال (صلى الله عليه وآله): **هو وزير أخي سليمان**، ثم سألته عن آية «قل كفى بالله شهيداً بيني و بينكم و منْ عنده علم الكتاب»، فقال (صلى الله عليه وآله): **ذاك أخي علي بن أبي طالب** (عليه السلام) [٥].

ونقرأ أيضاً في رواية أُخرى عن ابن عباس أنّه قال: (مَنْ عنده علم الكتاب) إنّما هو عليّ(عليه السلام)، لقد كان عالماً بالتفسير و التأويل و الناسخ و المنسوخ [٦].

وملخص الكلام هو أنه لا يمكن تفسير هذه الآية بعلماء أهل الكتاب أبداً، بسبب نزول هذه السورة (الرعد) في مكة، و هؤلاء أسلموا بعد الهجرة في المدينة، واستناداً إلى الروايات الآنفة فهي بحق عليّ (عليه السلام) و من بعده تشمل (سائر الأئمّة المعصومين (عليهم السلام)).

نعم، فهذا العلم الواسع بالقرآن الكريم و أسراره، و دقائقة، و ظاهره و باطنه، هو أحد المصادر الرئيسة لعلم الأئمّة المعصومين (عليهم السلام) [٧].

---

١. تفسير القرطبي، ج٥، ص ٣٥٦٥.

٢. تفسير در المنثور، ج ٤، ص ٦٩.

٣.«قندوز»، مدينة في شمال أفغانستان نسب إليها هذا العالم السنّي.

٤. ينابيع المودة، ص ١٠٢.

٥. المصدر السابق، ص ١٠٣.

٦. ينابيع المودة، ص ١٠٤.

٧. وردت عن أهل البيت (عليهم السلام) روايات عديدة في هذا المجال، فللمزيد من الاطلاع راجعوا تفسير كنز الـــدقائق، ج٦، ص ٤٨٠ و تفسير البرهان ذيل الآية مورد البحث.

و من شواهد هذا المعنى قول الآية الكريمة: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ اِلّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ). (آل عمران / ٧)

وللتوضيح: ثمّة جدل بين المفسرين بأنّ هل «**الرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ**» معطوفة على «**الله**» أي ليس هنالك من يعلم تأويل القرآن سوى الله «و الراسخون في العلم»، أم أنّها مطلع جملة مستقلّة؟ وعليه فإنّ مفهوم الآية يكون هكذا: لا يعلم تأويل القرآن غير الله، أمّا الراسخون في العلم فيقولون: و إن كنّا لا نعلم تأويل الآيات المتشابهة، إلاّ أننا نُسلِّم أمامها».

وما يؤيد المعنى الأول هو **أولاً**: من المستبعَد أن تكون في القرآن أسرار لا يعلمها إلاّ الله فقط، فالقرآن نزل لتربية الناس و هدايتهم، ولا معنى في أن تكون في هذا الكتاب آيات و جملٌ لا يعلم مقصودها إلاّ الله تعالى.

ثانياً: كما يقول المفسّر الكبير «الطبرسي» في «مجمع البيان»: لا يوجد بين المفسّرين من يقول: إنّ الآية الفلانية لايعلم معناها إلاّ الله، بل إنّهم يسعون دائماً لكشف أسرار الآيات بطرق مختلفة، منها أحاديث المعصومين (عليهم السلام)، و في الواقع إنّ هذا الكلام يناقض إجماع المفسرين.

ثالثاً: إذا كان المقصود هو التسليم بدون علم فيجب أن يقال: «الراسخون في الإيمان، لا الراسخون في العلم»، فالذي لا يعرف شيئاً كيف يمكن تسميته راسخاً في العلم؟

رابعاً: جاء في عدّة روايات أنّ «الراسخون في العلم، يعلمون تأويل القرآن» وهذا دليلٌ على أنّ هذه العبارة عطف على لفظ الجلالة «**الله**».

فنقرأ في حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال: «**الراسخون في العلم أميرالمؤمنين و الأئمّة من بعده**»[١].

وجاء في رواية اُخرى عنه (عليه السلام) أنّه قال: **نحن الراسخون في العلم و نحن نعلم تأويله**» [٢].

ونقرأ في رواية اُخرى أيضاً، أنّ الإمام الباقر (عليه السلام) (أو الإمام الصادق (عليه السلام)) قال في تفسير الآية: (وَمَا يَعلَمُ تَأوِيلَهُ إلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى العِلمِ): «**فرسول الله أفضل الراسخين في العلم، قد علّمه الله عزّ وجلّ جميع ما أُنزل عليه من التتريل و التأويل، و ما كان الله ليُنزل عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله، و أوصيائه من بعده يعلمونه كلّه**»[٣].

١. اصول الكافي، ج ١، ص ٢١٣، ح ٣.

٢. المصدر السابق، ح ١.

٣. المصدر السابق، ح ٢.

و هنالك روايات عديدة أُخرى بهذا الصدد تؤيّد هذا المعنى [١].

من خلال البراهين الأربعة التي ذكرناها آنفاً، و كل برهان منها يكفي لإثبات الغرض، فلا يبقى شك في أنّ عبارة «**والراسخون في العلم**» معطوفة على «**الله**» ومعناها علمهم بالتأويل و باطن الكتاب.

و الجدير بالذكر أنّ التعبير بـــ «**الراسخون في العلم**» جاء مرّتين في القرآن الكريم، فمرة جاء في الآية محلّ البحث (سورة آل عمران ٧)، و مرّة في سورة النساء حيث يقول تعالى بعد أنّ ذم أفعال أهل الكتاب (اليهود والنصارى) القبيحة المتمثّلة بأكل الربا ونهب أموال الناس: (لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ اِلَيكَ وَ مَا أُنزِلَ مِن قَبلِكَ).(النساء / ١٦٢)

ويبدو أنّ الذين ذكروا «عبدالله بن سلام» و أمثاله ممن أسلم من علماء أهل الكتاب، في تفسير الراسخين في العلم يقصدون هذه الآية ١٦٢ من سورة النساء، لا الآية ٧ من سورة آل عمران، لأنّ الآية التي تتحدث حول علماء أهل الكتاب الآية الأُولى، أمّا الآية التي هي محل بحثنا (الآية ٧ من سورة آل عمران) فلا علاقة لها بقضية أهل الكتاب، (تأملوا جيداً).

كما تتضح هنا نكتة مهمّة أُخرى وهي: ما ورد في خطبة الأشباح في نهج البلاغة حيث يقول (عليه السلام): «**واعلمْ أنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم الله عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب**» [٢].

و ربّما يكون إشارة إلى آية سورة النساء أيضاً، حيث تتحدّث عن تسليم بعض علماء أهل الكتاب و المؤمنين بلا قيد أو شرط أمام القرآن و سائر الكتب السماوية، لا الآية من سورة آل عمران (تأملوا جيداً كذلك).

وملخص الكلام أنّ ظاهر الآية ٧ من سورة آل عمران تقول: إنّ الله و الراسخين في العلم يعلمون تأويل القرآن، و نظراً إلى أنّ المقصود من الراسخين في العلم هم النبي (صلى الله عليه وآله)و الأئمّة المعصومون (عليهم السلام) بالدرجة الأُولى، إذن يُعرف أحد مصادر علمهم و هو القرآن الكريم و تأويله و تفسيره و ظاهره و باطنه.

و نختتم هذا الحديث بإشارة أُخرى إلى آيات القرآن الكريم فنقرأ في الآية: (بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ اُوتُوا العِلْمَ). (العنكبوت / ٤٩)

---

١. للمزيد من التوضيح، يراجع كتاب جامع الأحاديث، ج١، ص ٢٧; و تفسير كنز الدقائق، ص ٤٢ ــ ٤٥; و اُصول الكافي، ج١، ص ٤١٥.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٩١ (خطبة الأشباح).

ففي مصادر أهل البيت(عليهم السلام) تلاحظ روايات كثيرة تفسّر«**الذين اوتوا العلم**» في هذه الآية بالأئمّة المعصومين بعد النبي (صلى الله عليه وآله).

وللمزيد من الاطلاع راجعوا بحار الأنوار و تفسير البرهان [١].

٢ ـ الوراثة من النبى (صلى الله عليه وآله)

المصدر الثاني من مصادر علوم الأئمّة المعصومين (عليهم السلام) هو الوراثة من النبي (صلى الله عليه وآله)، بمعنى أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قد علَّم عليّاً (عليه السلام) جميع العلوم و شرائع الإسلام، و استناداً إلى بعض الروايات فإنّ علياً (عليه السلام) قد كتب ذلك في كتاب بخطّ يده و انتقل هذا العلم إلى أولاده أي الأئمّة المعصومين (عليهم السلام) الواحد تلو الآخر.

أو بتعبير آخر كما ورد في الروايات إنّ النبي (صلى الله عليه وآله) علّمَ علياً (عليه السلام) ألف باب من العلم ينفتح من كل باب ألف باب.

وقد احتوى كتاب الكافي على روايات عديدة في هذا المجال، منها ما نقرأه في حديث عن أبي بصير حيث يقول: سألت الإمام الصادق (عليه السلام) إنّ شيعتكم يقولون: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) علَّم علياً (عليه السلام) باباً من العلم ينفتح منه ألف باب، قال الإمام (عليه السلام): «**علّم رسول الله علياً ألف باب يفتح من كل باب ألف باب**».

ثم قال (عليه السلام): «**يا أبا بصير!إن عندنا الجامعة... قلت وما الجامعة؟ قال: صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله** (صلى الله عليه وآله) **وإملائه، من فَلْق فيه، وخطّ علي بيمينه، فيها كل حلال وحرام، وكل شيء يحتاج الناس إليه حتى الارش من الخدش**» [٢].

والجدير بالذكر أنّه قد وردت روايات لا حصر لها في أشهر كتب السنة و الشيعة حول الحديث المعروف بــ «**مدينة العلم**» ومن جملة رواة هذا الحديث «ابن عباس» و«جابر بن عبد الله» و«عبد الله بن عمر» و«علي (عليه السلام)».

ومن الذين نقلوا هذا الحديث في كتبهم «الحاكم النيسابوري» في «المستدرك»، و«أبو بكر النيشابوري» في «تاريخ بغداد» و«ابن المغازلي» في «مناقب أمير المؤمنين(عليه السلام)»، والكنجي

---

١. بحار الأنوار، ج٢٣، ص ١٨٨ ــ ٢٠٨; و تفسير البرهان، ج٣، ص ٢٥٤ ــ ٢٥٦ (لقد روي في هذين الكتابين مـا يقـارب عشرين حديثاً بهذا الصدد).

٢. اصول الكافي، ج١، ص ٢٣٩.

في «كفاية الطالب» و«الحمويني» في «فرائد السمطين» و«الذهبي» في «ميزان الاعتدال» و«القندوزي» في «ينابيع المودة» و« النبهاني» في «الفتح الكبير» وطائفة أُخرى[١].

ونقرأ أيضاً في عدّة روايات بصريح القول أنّ أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) كانوا يقولون ما ننقله بإمكانك أن تنقله عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، لأننا سمعنا كل ذلك عن أجدادنا عن رسول الله(صلى الله عليه وآله)!.

فقد سأل أحد أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام): ربّما نسمع حديثاً منك، ثم نشك في هل أننا سمعناه منك أم من أبيك؟

فقال (عليه السلام): «**ما سمعته منّي فاروِه عن أبي، وما سمعته من أبي فاروِه عن رسول الله** (صلى الله عليه وآله) »[٢].

ويقول في مكان آخر أيضا: «**حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين** (عليه السلام)**وحديث أمير المؤمنين** (عليه السلام) **حديث رسول الله** (صلى الله عليه وآله)**وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ**» [٣].

وجاء عنه (عليه السلام) في رواية أُخرى حيث قال بصريح العبارة: «**مهما اجبتك فيه بشيء فهو من رسول الله لسنا نقول برأينا من شيء**»[٤].

٣ ـ الاتصال بالملائكة

من مصادر علم الأئمّة، اتصالهم بالملائكة، لا بمعنى أنّهم كانوا من الأنبياء و الرسل، فإنّنا نعلم أنّ نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله) كان خاتم الأنبياء و الرسل، و بوفاته انقطع الوحي، بل إنّهم كانوا كـــ «**الخضر**» و«**ذي القرنين**» و«**مريم**»، حيث كانوا على اتصال بالملائكة بناءً على ظاهر آيات القرآن، و كانت الحقائق تلقى في قلوبهم من خلال عالم الغيب.

جاء عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنّه قال: «**إنّ علياً كان مُحدَّثاً**»؟ وعندما طلبوا منه (عليه السلام)معرفة من يُحدِّثه قال: يُحدِّثه ملك، و لما سألوه: هل كان نبيّاً؟ فأومأ بيده بالنفي و الانكار،

---

١. للمزيد من الاطلاع راجعوا احقاق الحق، ج٥، ص ٤٦٨ ــــ ٥٠١ وللاطلاع على مصادر هذا الحديث في كتب الشيعة راجعوا كتاب جامع الأحاديث، الطبعة القديمة، ص ١٦ وما بعده.

٢. جامع الأحاديث، ج١، ص ١٧، ح ٤، باب حجية فتوى الأئمّة.

٣. المصدر السابق، ح ١.

٤. المصدر السابق، ح ٧ (وتوجد أحاديث أُخرى أيضاً بهذا الصدد في نفس الكتاب).

ثم أضاف: **كصاحب سليمان**، أو **كصاحب موسى**، أو **كذي القرنين**[١]، (هناك روايات عديدة أيضاً بهذا المجال)[٢].

٤ ـ إلقاء روح القدس

المصدر الرابع لعلم الأئمّة هو فيض روح القدس.

وتوضيح ذلك: إنّ الحديث قد تكرر في آيات القرآن عن تأييد «**روح القدس**» فقد ورد ثلاث مرات بشأن المسيح (عليه السلام)، (البقرة / ٨٧ و ٢٥٣ والمائدة / ١١٠) و مرّة واحدة بشأن النبي (صلى الله عليه وآله) (البقرة / ١١٠).

فمن هو أو ما هو «**روح القدس**»؟ ثمّة جدل كثير بين المفسرين، فقد فسّره جماعة من المفسرين بـــ«**جبرائيل**»، و فسّر بالروح المقدسة الطاهرة للمسيح (عليه السلام)، أو بمعنى الانجيل الذي اُنزل عليه، و تارة قالوا: إنّ المراد هو اسم الله الأعظم الذي كان المسيح يحيي به الموتى[٣].

و لكن يستفاد من تعابير القرآن الكريم، و كذا مختلف الروايات، أنّ روح القدس له عدّة معان و ربّما يحمل معنىً خاصاً في كل مكان، ففي احدى آيات القرآن الكريم: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ﴾. (النحل / ١٠٢) الظاهر أنه «**جبرئيل**» الذي كان ينزل بالقرآن على النبي (صلى الله عليه وآله) من قِبل الله تعالى.

لكن يبدو أنّه يحمل مفهوماً آخر في الموارد الثلاثة الاُخرى والتي جميعها بحق المسيح(عليه السلام)، فالتعبير «**إذ أيّدتك بروح القدس**» أو «**وأيّدْناه بروح القدس**» يدل على أنّه إشارة إلى الروح التي كانت ترافق المسيح (عليه السلام) و تؤيّده و تسدّده.

و يفهم من الروايات التي وردت في مصادر أهل البيت (عليهم السلام) أنّ روح القدس هي الروح التي كانت مع الرسل و الأنبياء و المعصومين (عليهم السلام) دائماً، و كانت تنقل إليهم الامدادات الغيبية في مختلف الحالات، بل يستفاد من الروايات العديدة التي وردت في مصادر السنّة أيضا، أنّهم كانوا يصفون الكلام أو الشعر ذي المغزى الذي يصدر عن شخصٍ ما بأنه «كان هذا بتأييدٍ من روح القدس».

---

١. اصول الكافي، ج١، ص ٢٧١.

٢. المصدر السابق.

٣. جاءت هذه المعاني الأربعة في تفسير كنز الدقائق، ج٢، ص ٧٨، ولكن في بعض التفاسير المعروفة ذكر التفسير الأول فقط، واكتفى في تفسير الكبير بذكر ثلاثة معان وهي، جبرئيل، والانجيل، والاسم الأعظم (تفسير الكبير، ج٣، ص ١٧٧).

و من هذا الكلام ما نقرأه في الرواية الواردة في تفسير الدر المنثور أنّ النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله) قال بحق الشاعر الإسلامي المعروف «حسان بن ثابت»: «**اللّهم أيّد حساناً بروح القدس كما دافع عن نبيّه**»[١].

ونقرأ بشأن شاعر أهل البيت المعروف «الكميت بن زيد الأسدي» أنّ الإمام الباقر(عليه السلام)قال له: كما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لحسان بن ثابت، «**لن يزال معك روح القدس ما ذَبَبْتَ عنّا**»[٢].

و ورد في رواية اُخرى أنّ الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) بكى كثيراً عندما أنشده الشاعر دعبل الخزاعي بعض أبيات قصيدته المعروفة «**مدارس آيات**» ثم قال له: «**نطق روح القدس على لسانك بهذين البيتين**»[٣].

من هنا يتضح جيدا أنّ «**روح القدس**» روح معينة تعين الإنسان أثناء ادائه للاعمال المعنوية الإلهيّة، وبطبيعة الحال فإنّها متفاوتة بتفاوت مراتب الأشخاص، فهي لدى الأنبياء و الأئمّة المعصومين تكون فعّالة و تعمل بشكل استثنائي و أكثر وضوحاً، و لدى الآخرين تكون وفقاً لقابليّاتهم و إن كنّا نفتقد العلم بماهيتها و تفاصيلها.

وجاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرّبونَ).(الواقعة / ١٠ ــ ١١)

فقال: «**فالسابقون هم رسل الله**(عليهم السلام)**وخاصة الله من خلقه، جعل فيهم خمسة أرواح، أيّدهم بروح القدس فبه عرفوا الأشياء...**»[٤].

وجاء في رواية اُخرى عن الإمام الباقر (عليه السلام) بهذا الصدد حيث قال بعد تعداده للأرواح الخمسة الموجودة لدى الأنبياء و الأوصياء: «**فبروح القدس.. عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى**»[٥].

---

١. تفسير درّ المنثور، ج ١، ص ٨٧ (ذيل الآية ٨٧ من سورة البقرة) و جاء في صحيح مسلم، ج٤، ص ١٩ و٣٢ باب فضائل حسان بن ثابت ما يشبه هذا المضمون.

٢. سفينة البحار، ج٢، ص ٤٩٥٤.

٣. كشف الغمة، ج٣، ص ١١٨; واعلام الورى، ص ٣٣١، وذانك البيتان هما،

خروج إمام لا محالة خارج ... يقوم على اسم الله و البركات

يميز فيّنا كلَّ حق و باطل ... و يجزي على النعماء والنقمات

٤. اصول الكافي، ج١، ص ٢٧١.

٥. المصدر السابق، ص ٢٧٢.

و هناك روايات كثيرة اُخرى بهذا المجال في اُصول الكافي و سائر الكتب، حيث لا يسع المجال لشرحها هنا.

نعم فالإمداد الإلهي عن طريق روح القدس مصدر آخر من مصادر علم المعصومين(عليهم السلام).

٥ ـ النور الإلهي

المصدر الخامس الذي يمكن ذكره لعلوم الأئمّة هو ما ورد في العديد من الروايات في اُصول الكافي، منها ما يقوله «حسن بن راشد»: سمعت الإمام الصادق (عليه السلام)يقول: «... **فاذا مضى الإمام الذي كان قبله رفع لهذا منار من نور ينظر به إلى أعمال الخلائق فبهذا يحتج الله على خلقه**»[١].

و ورد في بعض الروايات أيضاً التعبير بــ«**عمود من نور**»[٢]، إلاّ أنّه غالباً ما جاء تعبير «**منار من نور**»، و بالطبع ليس هنالك تباين كثير بين هذين التعبيرين.

وللمزيد من الاطلاع راجعوا بحار الأنوار، ج٦، ص ١٣٢، إذ ينقل المرحوم العلاّمة المجلسي ست عشرة رواية بهذا الصدد، و كذلك وردت روايات عديدة في هذا المجال في باب «**عرض الأعمال**» (ج٢٣، ص ٣٣٣ و ما بعدها).

يستفاد من مجموع ما قيل أنّ مصادر علم الأئمّة المعصومين(عليهم السلام) متعددة و متنوعة، ويأتي علمهم بجميع معاني القرآن الكريم بالدرجة الاُولى، وفي الدرجة الثانية تأتي العلوم التي يرثونها عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ويليها التسديد و التأييد الإلهي، و الالهامات القلبية و الاتصال بالملائكة و عالم الغيب.

و من فيض هذه المصادر يقتبس الأئمّة المعصومون علوماً و معارف كثيرة ليتسنى لهم إنجاز مهمّتهم التي تتجسّد في المحافظة على الإسلام و القرآن و سنّة النبي (صلى الله عليه وآله) و هداية الخلق نحو الخالق، و تربية النفوس و إقامة الحدود و تدبير الاُمور على أحسن وجه.

و الملاحظة الاُخرى الجديرة بالاهتمام هي أنّه يستفاد من بعض الروايات أنّ أرواح الأئمّة (عليهم السلام) تستلهم كل ليلة جمعة علوماً و معارف جديدة بصدد القضايا المستجدّة، و ذلك من قبِل الله تعالى (لينسجموا مع متطلّبات الاُمّة الإسلامية).

منها ما نقرأه في الرواية الواردة عن الإمام الصادق (عليه السلام) حيث قال: «**إنّ لنا في كل ليلة جمعة سروراً**».

يقول الراوي فقلت: **زادك الله وما ذاك؟**

---

١. اصول الكافي، ج١، ص ٣٨٧، ح ٢.

٢. المصدر السابق، ح ٤.

قال (عليه السلام): «**إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول الله العرش و وافى الأئمّة معه، فلا تُرَّدُ أرواحنا إلى أبداننا إلاّ بعلم مستفاد، و لولا ذلك لأنفدنا**» [1].

و تشاهد روايات عديدة في هذا البحث بهذا الصدد أيضاً يطول شرحها هنا.

نظراً إلى ما ذكرناه في هذا الفصل يتضح أنّ مصادر علم الأئمّة ليست أمراً بسيطا، فالمصادر التي يمتلكونها هي التي تميّزهم عن سائر الناس، وتُعينهم في أدائهم للمسؤوليات المهمّة التي يتحمّلونها في المحافظة على الإسلام و تعاليم القرآن و هداية العباد.

الخلاصة

١– بما أن رسالة النبي هي هداية الناس الى ذروة الكمال فلا بدّ من توفره على علم واسع في جميع ما يحتاج اليه في مسؤليته الخطيرة وهذا الشرط يجب في الإمام أيضا لانه يسير على خطّ النبي.

٢– كما تتحتم العصمة في الانبياء حتى يوثَق بما يقولونه من أخبار السماء كذلك تجب عصمة الامام، و كما أن النبي يتحلّى بأسمى الفضائل الاخلاقية لمكانته القيادية فكذلك الامام.

٣– من الآيات التي تتحدث عن علم الامام قوله تعالى ﴿ولو ردّوه إلى الرسول و إلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ و أنسب تفسير لأولي الأمر هم الائمة المعصومون.

٤– مما يشهد بكون أولي الامر هم الائمة المعصومين هو أن الآية تقول بأن الرجوع إليهم يؤدي الى الرشد و يمنع من الوقوع في الخطأ و هذا لا يتناسب إلا مع العصمة.

٥– قوله تعالى ﴿فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾تتمثل بشكل كامل في الائمة المعصومين المترهين من الخطأ و الزلل و في ذلك روايات عن طرق الشيعة و السنّة.

٦– إن الامام في سبيل إنجاز مهمّته الخطيرة لا بد و أن يتوفر على جانب من العلم بالامور الغائبة من أمور المستقبل و الماضي حتى يتسنّى له ان يمارس هداية الناس في اطار خطّة شاملة متكاملة.

٧– من مصادر علم الامام هو علمه الكامل بكتاب الله تعالى ظاهره و باطنه،يقول تعالى ﴿قل كفى بالله شهيدا بيني و بينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ وفي الاخبار أنه علي بن أبي طالب و ولده.

٨– لا يمكن تفسير الآية السابقة بعلماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام لأن السورة مكيّة و هؤلاء أسلموا في المدينة.

٩– مما يدل على علم الامام بتأويل القرآن و بواطنه قوله ﴿و ما يعلم تأويله إلا الله و الراسخون في العلم﴾ وذلك بناءا على كون الراسخين في العلم عطفاً على الله و هو الصحيح.

---

١. اصول الكافي، ج١، ص ٢٥٤ (باب في أنّ الأئمّة (عليهم السلام) يزدادون في ليلة الجمعة).

١٠- لو كان قوله ﴿و الراسخون في العلم﴾ جملة مستقلة لزم ان يتضمن القرآن الكريم اسراراً لايعلمها الا الله و هذا لا يتناسب و هداية الناس و لزم أن يقول والراسخون في الايمان لا العلم.

١١- المصدر الثاني لعلم الامام ما ورثه الائمة عن رسول الله (ص) من علم كامل بأحكام الشريعة و أسرارها كما في روايات عديدة بان«علّم رسول الله عليّاً ألف باب يفتح من كل باب ألف باب».

١٢- اتصال الامام بالملائكة هو المصدر الثالث لعلمه حيث إن الامام و إن لم يكن يتلقّى الوحي كنبي لكنّه محدّث يتلقى الغيب من الملَك كمريم و الخضر و ذي القرنين عليهم السلام.

١٣- المصدر الرابع لعلم الامام هو روح القدس و هي روح قد ترافق الانسان في بعض اعماله الالهية فهي تمد الامام بالعلم و المعرفة في مواطن الحاجة و تسدده بتسديد من الله تعالى.

بسمه تعالى

جامعة المصطفى المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ١٣

الشروط والصفات الخاصة بالإمام (٢)

بكالوريوس

المقدمة

بعد ما ثبت أن الامام يقوم بنفس الدور الذي يقوم به النبي(ص) فيأتي دور الحديث عن عصمة الامام، هل الامام معصوم من ارتكاب الذنب؟ ما هي دلائل عصمة الامام؟ ما هو مدلول آية التطهير و من هم أهل البيت؟ و اخيراً هل تتنافى العصمة و اختيار الأنسان؟ هذه محاور سوف نسلّط الضوء عليها في هذا الدرس كما نلمح الى طرق تعيين الامام و أن الامام لا يتمّ تعيينه و تنصيبه الا من قِبل الله تعالى.

المحتوى العلمي

عصمة الأئمّة (عليهم السلام)

تمهيد:

التوقّي من الخطأ و السهو والمعصية شرطٌ آخر من الشروط العامة للأئمّة المعصومين، وفي الحقيقة إنّ القرائن كافّة التي تدل على عصمة الأنبياء(عليهم السلام) تدل على عصمة الأئمّة(عليهم السلام)أيضاً، لأنّ مسؤوليتهم تتشابه إلى حد كبير.

صحيح أنّ النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) هو الواضع لأُسس الشريعة و هو يتّصل بعالم الوحي، أمّا الأئمّة فبالرغم من عدم نزول الوحي عليهم فهم بمثابة الامتداد لوجود النبي (صلى الله عليه وآله) وهم حماة و حرّاس الشريعة، لأنّهم يتبعون أثر النبي (صلى الله عليه وآله) في هداية الناس، والدفاع عن الأحكام والحدود الإلهيّة و جميع ما يتعلق بالشريعة، من هنا فهم يشتركون في الكثير من الصفات و يتشابهون فيما بينهم.

بناءً على ذلك فإنّ جميع الأدلة الرئيسة التي ذكرناها في بحث عصمة الأنبياء تصدق فيما يتعلق بالائمّة أيضاً.

بعد هذه اللمحة المختصرة نرجع إلى بعض آيات القرآن الواردة بهذا الصدد و نبدأ بالكلام من القرآن:

١- (اِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجسَ اَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً). (الأحزاب / ٣٣)

في البحوث السابقة وأثناء تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة، قرأنا ما يتعلق بعظمة مقام الإمامة و الولاية في قصة إبراهيم (عليه السلام) حيث إنّ الله تبارك و تعالى قد أخضع هذا النبي العظيم إلى العديد من الاختبارات المهمّة، و لما خرج منها ظافراً قال له: (اِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ اِمَاماً) فالإمامة تعني الهيمنة على الجسم و الروح، و تربية النفوس و المجتمعات البشرية).

وعندما سأل إبراهيم (عليه السلام) هذا المقام لبعض ذريته و أبنائه، جوبِه بالرد الإلهي المشروط، فقال تعالى: (لاَ يَنَالُ عَهدِى الظَّالِمِينَ)، أي أنّ الرهط الطاهر و المعصوم من أبنائك يستحقّون هذا المقام فقط .

وقد تبيّن في تلك البحوث كيف أنّ هذا المقطع من الآية دليل على عصمة الأئمّة، و أنّ الذين أمضوا عمرهم في طريق الكفر و الشرك من ناحية الاعتقادات، أو من ناحية أعمالهم حيث ارتكبوا الظلم بحق أنفسهم أو الآخرين، لا يستحقون هذا المقام، لأنّ الظلم بالمعنى الشامل للكلمة يشمل الظلم و الشرك و الكفر و الانحرافات العقائدية، و كذلك جميع أشكال التجاوز على الآخرين، و ظلم النفس عن طريق ارتكاب المعصية.

وحيث إنّ هذه البحوث قد جاءت هناك بشكل مفصّل و مستفيض فلا نرى حاجة للتكرار، و عليه فقد وضع القرآن الكريم الركيزة الأساسية لشرط عصمة الأئمّة في هذه الآية الكريمة.

و الآن نعود إلى آية التطهير و بحث مسألة العصمة الواردة في هذه الآية:

صحيح أنّ هذه الآية تتوسط الآيات المتعلقة بنساء النبي (صلى الله عليه وآله) إلاّ أنّها تحمل نغمة مختلفة عنها، و تشير إلى معنى آخر، فجميع الآيات التي سبقتها و تلتها جاءت بضمير «جمع المؤنث» بينما جاءت الآية محل البحث بضمائر «جمع المذكر»!

ففي مستهلّ هذه الآية خاطب تعالى نساء النبي (صلى الله عليه وآله) و أمرهنّ بالمكوث في بيوتهن، و أن لا يخرجن بين الناس كما كان سائداً في الجاهلية، و يحافظن على معايير العفة، وأن يقمن الصلاة و يؤتين الزكاة و يُطعن الله و رسوله (وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَتَبَرَّجنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَاَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَاَطِعنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ). (الاحزاب / ٣٣)

فجميع الضمائر الستة التي وردت في هذا المقطع من الآية هي على صورة جمع المؤنث (**تأملوا جيداً**).

ثم يتبدّل لحن الآية، و يقول: (اِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذهِبَ عَنْكُم الرِّجسَ اَهلَ البَيتِ وَيُطهرِّكُم تَطهِيراً).

و قد استخدم في هذا المقطع من الآية ضميرين للجمع المذكّر(عنكم و يطهّركم).

صحيح أنّ مطلع و نهاية كل آية يهدفان الى امر واحد، إلاّ أنّ هذا الكلام يجري في المكان الذي لا تتوفر فيه قرينة على الخلاف، و على هذا فالذين رأوا أنّ هذا الجانب من الآية ناظرٌ إلى نساء النبي (صلى الله عليه وآله) أيضاً فقد نطقوا خلافاً لظاهر الآية و القرينة التي فيها، أي تباين الضمائر.

بالإضافة إلى ذلك نمتلك روايات عديدة فيما يتعلق بهذه الآية حيث نقلها أكابر علماء المسلمين سواء الشيعة أم السنّة عن النبي (صلى الله عليه وآله) و جاءت بشكل و آخر في أشهر كتب الفريقين التي تحظى بقبولهم.

هذه الروايات بأجمعها تفيد أنّ المخاطب في هذه الآية هو النبي (صلى الله عليه وآله) و علي و فاطمة و الحسن و الحسين (عليهم السلام) (لا نساء النبي) كما سيأتي بالتفصيل فيما بعد.

و لكن قبل الدخول في البحث لابدّ من التطرق إلى تفسير العبارات:

إنّ التعبير بـــ«**إنّما**» الذي عادةً ما يُستعمل للحصر دليل على أنّ الموهبة الواردة في هذه الآية تخصّ آل النبي (صلى الله عليه وآله) ولا تشمل غيرهم.

و عبارة «**يريد**» إشارة إلى إرادة الله التكوينية، أي أنّ الله تعالى شاء من خلال أمر تكويني أن يطهّركم ويحفظكم من كل قذارة، لا الإرادة التشريعية، فالإرادة التشريعية تعني تكليفهم بصيانة أنفسهم و تطهيرها، ونحن نعلم أنّ هذا التكليف لا يختص بآل الرسول(صلى الله عليه وآله)بل إنّ المسلمين جميعاً مكلّفون بتطهير أنفسهم.

ربّما يتصور أنّ الإرادة التكوينية تفرض نوعاً من الجبر، و في هذه الحالة لن تكون العصمة فضيلة و فخراً.

وللاجابة على هذا التسائل نقول بايجاز: إنّ المعصومين يمتلكون نوعين من القابلية «قابلية ذاتية موهوبة» و«قابلية اكتسابية من خلال أعمالهم و ملكاتهم الداخلية»، و من مجموع هاتين القابليتين اللتين لا تخلو إحداهما على أقل تقدير من صبغة اختيارية، يعمل المعصومون لتحصيل هذا المقام السامي، و بتعبير آخر فإنّ المشيئة الإلهيّة توفّر الأرضية للتوفيق من أجل بلوغ هذا المقام الشامخ، و استثمار هذا التوفيق يتعلق بإرادتهم (تأملوا جيداً).

فترك الذنب بالنسبة لهم محال عادي لا عقلي، فمثلاً، محال عاديٌّ أن يصطحب إنسان عالم و مؤمن الخمرَ إلى المسجد و يضعه بين صفوف الجماعة، إلاّ أنّه من المسلم به أنّ هذا الأمر ليس محالاً عقلي، و لا يتعارض مع كون هذا الفعل اختيارياً، أو على سبيل المثال، إنّ الإنسان العاقل لا يخرج إلى الزقاق و الشارع عارياً كما ولدته اُمّه أبداً، فالقيام بهذا العمل ليس محالاً بالنسبة له، بل مستوى تفكيره و معرفته لا يسمح له بالقيام بمثل هذا الفعل و إن كان فعله و تركه باختياره.

و هكذا حالة ارتكاب الذنوب بالنسبة للأنبياء و الأئمّة، صحيح أنّ العصمة من الألطاف الإلهيّة، بَيدَ أنّ الألطاف الإلهيّة تخضع لحساب، كما يقول القرآن الكريم بشأن إبراهيم (عليه السلام): لن تنال منزلة الإمامة ما لم تفلح في الابتلاءات الإلهيّة (وَإِذ ابْتَلى ابْرَاهِيمَ رَبُّه بِكَلِمات...) [١].(البقرة / ١٢٤)

وأمّا كلمة «**الرجس**» فتعني لغةً، الشيء القذر سواء من ناحية كونه قذراً و مقززاً لطبع الإنسان، أو بحكم العقل، أو الشرع، أو جميع ذلك.

---

١. للمزيد من الايضاح في مجال أنّ العصمة لا تتنافى و اختيارية أفعال المعصومين راجعوا، ج ٧، ص ١٥٥ و ما بعدها من هذا التفسير.

من هنا فبعد أن يفسّر «الراغب» في «المفردات» الرجس بأنّه الشيء القذر، يذكر له أربع حالات (نفس الحالات الاربع التي ذكرت أعلاه من ناحية طبع الإنسان، أو العقل، أو الشرع، أو جميعها)، و إذا ما فسّر الرجس في بعض تعابير العلماء بالذنب أو «الشرك» أو «العقيدة الباطلة» أو «البخل و الحسد» فهو في الحقيقة بيان لمصاديق من هذا المفهوم الواسع الشامل.

على أيّة حال، نظراً لمجيء «الف و لام الجنس» في بداية هذه الكلمة «**الرجس**» و التي تفيد العموم، يكون مفهوم الآية: إنّ الله شاء أن يُبعد كل أنواع الرجس عنهم.

وفي عبارة: «**ويطهّركم تطهيرا**»، فبما أنّ «**التطهير**» تعني التزكية فهي تمثّل تأكيداً آخر على قضية نفي الرجس و كافة الاقذار التي وردت في العبارة السابقة، و كلمة «**تطهيراً**» التي هي بعنوان مفعول مطلق فهي تأكيد آخر على هذا المعنى.

والنتيجة: هي أنّ الله تعالى شاء و بمختلف التأكيدات أن يُطهّر ويُنزّه آل النبي (صلى الله عليه وآله) من كل أشكال القذارة و الرجس، و من المسلّم أنّه يشمل النبي (صلى الله عليه وآله)بالمرتبة الأُولى باعتباره صاحب الدار و من ثم البقيّة، و الآن لنعرف من هم أهل البيت؟

مَنْ هم أهل البيت؟

رأى بعض من مفسري أهل السنّة أنّ ذلك يعني نساء النبي (صلى الله عليه وآله)، ولكن كما قلنا فإنّ تغيير سياق الآية، و تبديل الضمائر من «جمع المؤنث» فيما قبل و بعد هذه الآية إلى «جمع المذكر» دليل بَيّنٌ على أنّ لهذه العبارة مضموناً منفصلاً، وأنّ المراد منها أمر آخر، أليس الله حكيماً و القرآن في أعلى مراتب الفصاحة و البلاغة و جميع عباراته تخضع للحساب؟

و طائفة اُخرى من المفسّرين خصتّها بالنبي و علي و فاطمة و الحسن و الحسين (عليهم السلام)، و الروايات الكثيرة الواردة في مصادر أهل السنّة و الشيعة و التي نشير إلى بعضها لاحقاً شاهدٌ على هذا المعنى.

و بسبب وجود هذه الروايات ربّما ذكر الذين لا يحصرون الآية بهؤلاء العظماء، معنىً واسعاً لها بحيث يشملهم و يشمل نساء النبي (صلى الله عليه وآله) و هذا تفسير ثالث للآية.

أمّا الروايات التي تدل على اختصاص الآية بالنبي (صلى الله عليه وآله) و علي (عليه السلام) و سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء(عليها السلام) و ابنيهما الحسن و الحسين(عليهما السلام) فهي و كما أشرنا كثيرة للغاية، منها ثماني عشرة رواية، نقلت خمس منها في تفسير «**الدر المنثور**» عن اُم سلمة، و ثلاث عن أبي سعيد الخدري، و واحدة عن عائشة، و واحدة عن انس، و اثنتان عن ابن عباس، و

اثنتان عن أبي الحمراء، و واحدة عن وائلة بن الاسقع، و واحدة عن سعد، و واحدة عن الضحاك بن مزاحم، و واحدة عن زيد بن الأرقم[١].

و يحصي المرحوم العلاّمة الطباطبائي في تفسير «الميزان» الروايات التي وردت بهذا الصدد و هي تربو على سبعين رواية و يقول: و هي روايات جمّة تزيد على سبعين حديثاً يربو ما ورد منها من طرق أهل السنّة على ما ورد منها من طرق الشيعة، و يضيف رواة آخرين سوى الذين ذكرناهم أعلاه (الرواة الذين ذكرت رواياتهم في غير تفسير الدر المنثور).

و ذكر البعض أنّ عدد الروايات و الكتب التي نقلت فيها بلغ المئات و لا يُستبعد أن يكون كذلك.

و هنا نذكر طائفة من هذه الروايات فقط مع ذكر مصادرها ليتبيّن قول الواحدي في «**أسباب النزول**»: **أنّ الآية نزلت في النبي** (صلى الله عليه وآله) **وعلي و فاطمة و الحسن و الحسين** (عليهم السلام)**خاصة لايشاركهم فيها غيرهم**[٢].

ويمكن اختصار هذه الروايات في أربعة اقسام:

١- الروايات التي نقلت عن بعض نساء النبي (صلى الله عليه وآله) تقول بصريح التعبير: عندما كان النبي(صلى الله عليه وآله) يتحدث عن هذه الآية سألناه هل نحن منهم؟ فقال: «**لا و لكنكم على خير**».

منها ما يرويه الثعلبي في تفسيره عن «ام سلمة» زوجة النبي (صلى الله عليه وآله) أنّ النبي كان في بيتها و جاءته فاطمة(عليها السلام) بالطعام، فقال لها (صلى الله عليه وآله): «**ادع لي بعلك وابنيك**» فجاؤوا فتناولوا الطعام ثم نشر (صلى الله عليه وآله) عليهم الكساء و قال: **اللّهم هؤلاء أهل بيتي و عترتي فأَذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا**، و نزلت آية (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ**...) فقلت يارسول الله و أنا معكم؟! فقال: «**إنّكِ على خير**»[٣].

و كذلك الثعلبي و هو من العلماء المعروفين لدى أهل السنّة الذي عاش في القرن الرابع و أوائل القرن الخامس، و تفسيره الكبير معروف، يروي عن عائشة زوجة النبي (صلى الله عليه وآله)ما يلي: عندما سئلت عن حرب الجمل و دورها في تلك الحرب المدمّرة، قالت (بتأسف): لقد كان تقديراً إلهياً ! وعندما سئلت عن علي (عليه السلام) قالت:

---

١. تفسير در المنثور، ج٥، ص١٩٦ و١٩٩.

٢. تفسير الميزان، ج ١٦، ص٣١١.

٣. ذكر الطبرسي في مجمع البيان في ذيل الآية مورد البحث، و الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل، ج٢، ص٥٦، الحديث أعلاه.

«تسألني عن أحبّ الناس كان إلى رسول الله، و زوج أحب الناس كان إلى رسول الله، لقد رأيت علياً و فاطمة و حسنا وحسيناً و جمع رسول الله (صلى الله عليه وآله) **بثوب عليهم، ثم قال: اللّهم هؤلاء أهل بيتي و حامتي فأذهب عنهم الرجس و طهِّرهم تطهيرا. قالت: فقلت يارسول الله أنا من أهلك؟ قال: تنحي فإنّك إلى خير»**[١].

فمثل هذه الروايات تؤكّد بصراحة أنّ نساء النبي (صلى الله عليه وآله) لم يكنّ من أهل البيت في هذه الآية.

٢- وردت قصّة حديث الكساء في روايات كثيرة للغاية و بتعابير مختلفة و المضمون المشترك لها جميعاً هو أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) دعا علياً(عليه السلام) و فاطمة و الحسن و الحسين (عليهم السلام) أو أنّهم حضروا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو أنّه غطّاهم بالكساء أو بقماش، وقال: إلهي هؤلاء أهل بيتي فأَذهب عنهم الرجس، فنزلت الآية: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيتِ ويُطَهِّرَكُم تَطْهِيراً).

والجدير بالاهتمام أنّ هذا الحديث روي في صحيح مسلم عن «عائشة»، وكذلك نقله الحاكم في «المستدرك»، و البيهقي في «السنن»، و ابن جرير في «تفسيره»، و السيوطي في «الدر المنثور»[٢].

و أورده الحاكم الحسكاني في شواهد التتريل أيضا [٣]، كما نقل هذا الحديث في صحيح «الترمذي» مراراً، ففي موضع رواه عن «عمرو بن أبي سلمة» و في موضع آخر عن «ام سلمة»[٤].

و الملاحظة الأُخرى هي أنّ «الفخر الرازي» يضيف في ذيل آية المباهلة (سورة آل عمران، الآية ٦١) بعد نقله لهذا الحديث (حديث الكساء):

و اعلم أنّ هذه الرواية كالمتّفق على صحّتها بين أهل التفسير و الحديث[٥].

كما يجدر ذكر هذه الملاحظة و هي: أنّ الإمام «أحمد بن حنبل» أورد هذا الحديث في مسنده بطرق مختلفة[٦].

---

١. تفسير مجمع البيان، ذيل الآية محل البحث.

٢. صحيح مسلم، ج٤، ص ١٨٨٣، ح ٢٤٢٤ (باب فضائل أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله)).

٣. شواهد التتريل، ج٢،ص ٣٣، ح ٣٧٦.

٤. صحيح الترمذي، ج٥، ص ٦٩٩، ح ٣٨٧١ (باب فضل فاطمة).

٥. تفسير الكبير، ج٨،١٠٥ ص ٨٠.

٦. مسند أحمد، ج١، ص ٣٣٠ و ج٤، ص ١٠٧ وج٦، ص ٢٩٢ (نقلاً عن فضائل الخمسة، ج١، ص ٢٧٦ وما بعدها).

٣- نقرأ في جانب آخر من الروايات العديدة و الكثيرة أيضاً أن النبي (صلى الله عليه وآله)و بعد نزول آية التطهير كان أثناء ذهابه لصلاة الصبح يمرّ على دار فاطمة(عليها السلام) و لعدّة أشهر (في بعضها ستة أشهر، و في بعضها ثمانية أو تسعة أشهر) و ينادي: «**الصلاة يا أهل البيت ! إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيتِ وِيُطَهِّرَكُم تَطهِيراً**».

و روي هذا الحديث في «شواهد التنزيل» للمفسر الشهير «الحاكم الحسكاني» عن «انس بن مالك»[1].

و جاء في نفس الكتاب رواية اُخرى عن «أبي الحمراء» يذكر فيها أنّ المدّة كانت «سبعة أشهر».

و رويت هذه الواقعة أيضاً في نفس الكتاب عن «أبي سعيد الخدري» ذاكراً أنّ المدّة كانت «ثمانية أشهر» [2].

إنّ الاختلاف في هذه التعابير أمر طبيعي، فربّما شاهد أنس هذا الأمر لمدّة ستة أشهر، و أبو سعيد الخدري لمدّة ثمانية أشهر، و أبو الحمراء لمدّة سبعة أشهر و ابن عباس تسعة أشهر [3].

فكل منهم نقل ما رآه، فلا تضارب بين كلامهم.

على أيّة حال، فاستمرار هذه الحالة و تكرار هذا الكلام خلال تلك الفترة الطويلة من قِبل النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) كان أمراً مخططاً له، فهو كان يريد أن يُبيّن بوضوح أنّ المراد من «أهل البيت» هم أهل هذه الدار فقط، لئلا يبقى شك بالنسبة لأي شخص في المستقبل، وليعلم الجميع أنّ هذه الآية نزلت بحق هذه الزمرة فقط، و العجيب أنّ القضية بالرغم من هذا التكرار و التأكيد بقيت غامضة بالنسبة للبعض.لاسيّما و أنّه لم يكن باب دار مفتوحا على مسجد النبي (صلى الله عليه وآله) إلا دار النبي(صلى الله عليه وآله) و دار علي (عليه السلام)، (فقد أمر النبي (صلى الله عليه وآله) بإغلاق جميع الأبواب التي كانت تفتح على المسجد ماعدا هاتين البابين).

و يذكر أنّ الكثير من الناس طالما سمعوا هذا الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)أثناء الصلاة، و بعد هذا التأكيد و الإثبات أليس من المدهش أن يصرّ بعض المفسرين على سعة مفهوم الآية لتشمل نساء النبي (صلى الله عليه وآله) أيضا، مع ما أوردناه سابقاً من حديث عائشة زوجة النبي(صلى الله عليه وآله)و استنادا إلى شهادة التاريخ حيث إنّها لم تَدعْ شيئاً من ذكر فضائلها و تفاصيل حياتها مع

١. شواهد التنزيل، ج٢، ص ١١ و ١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و٩٢ (انتبهوا إلى أنّ شواهد التنزيل نقل هذه الرواية بطرق عديدة).

٢. شواهد التنزيل، ج٢، ص ٢٨ ; واحقاق الحق، ج٢، ص ٥٠٣ إلى ٥٤٨.

٣. تفسير در المنثور، ج٥، ص ١٩٩.

النبي(صلى الله عليه وآله)، فهي بالرغم من ذلك كله، لم تر نفسها مشمولة بهذه الآية، بل تقول: إنّ النبي قال لي: «**لستِ منهم**»!

٤- الروايات العديدة المروية عن الصحابي المعروف أبي سعيد الخدري التي أشارت الى آية التطهير تقول بصراحة: نزلت في خمسة: في رسول الله و علي و فاطمة و الحسن و الحسين (عليهم السلام) [١].

و ملخص الحديث هو: إنّ الروايات التي وردت في المصادر الإسلامية بشأن آية التطهير واختصاصها بالنبي و علي و فاطمة و الحسن و الحسين من الكثرة بحيث يجعلها في صف الروايات المتواترة، و لا يبقى فيها أدنى شك من هذه الناحية، حيث إنّ صاحب شرح إحقاق الحق ينقلها عن ما يربو على سبعين مصدراً من مصادر أهل السنة (بالإضافة إلى المصادر المعروفة لدى أتباع أهل البيت) و يقول: «لو أحصينا كافة هذه المصادر لتجاوزت الألف»[٢]!.

أجوبة على عدّة أسئلة:

نظراً إلى أنّ الآية الآنفة الذكر التي تواترت الروايات في المصادر الإسلامية المعروفة في تفسيرها، تعدّ كرامة عظيمة لأئمّة أهل البيت (عليهم السلام) يمكن اعتبارها دليلاً على حقانية خَطِّهم، وقد تشبث بعض العلماء و أخذوا كالعادة بالبحث عن إشكالات أشبه ما تكون باختلاق المبرّرات بعيداً عن الانتقاد العلمي، بينما أيقنت طائفة اُخرى بالآية و الروايات بشجاعة، و إن ظلّوا أتباعاً لطريقة أهل السنّة من الناحية الاُصولية، و فيما يلي بعض الانتقادات:

١- المراد من أهل البيت هم الساكنون في بيت النبي (صلى الله عليه وآله)، لأنّ البيت يعني الدار المسكونة، وسكنةُ بيت النبي (صلى الله عليه وآله) هم نساؤه، و ليس الآخرين، و إذا ما جاء الضمير على صورة ضمير المذكر فالسبب يعود إلى أنّ لفظ «**الاهل**» مذكر، وإذا ما جاء البيت بصيغة المفرد ل الجمع، بينم نساء النبي(صلى الله عليه وآله) كنّ يسكنّ في بيوت عديدة، فذلك بسبب أنّ النبي(صلى الله عليه وآله)كان واحداً، فذكر بيته بصفة الواحد أيضاً، و الخلاصة أنّ الآية ناظرة إلى نساء النبي(صلى الله عليه وآله)فقط.

لقد اتضحت الاجابة جيداً على هذا السؤال أو التبرير من خلال الأبحاث السابقة، و آثار التكلّف أثناء الدفاع عن هذا الرأي مشهودة تماما، فلو كان المقصود من (الأهل) نساء النبي(صلى الله عليه وآله) يكون ظاهر اللفظ «مفردا مذكرا» ومعناه «جمع مؤنث»، بينما لم يذكر في الآية لا «المفرد المذكر» ولا «الجمع المؤنث» بل جاء بصيغة «الجمع المذكر».

---

١. وردت في شواهد التنزيل أربع روايات بهذا الصدد، ج٢ من ص ٢٤ ٢٧ (ح ٦٥٩ و٦٦٠ و٦٦١ و٦٦٤).

٢. اقتباساً من احقاق الحق، ج ٢، ص ٥٠٢ إلى ٥٦٣.

كما أنّ التعبير بـــ«**البيت**» جاء بصيغة المفرد خلافاً لمطلع الآية الذي جاء بصيغة الجمع، فمن المتعذر أن تكون عبارة: «وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ» من أجل شخص النبي (صلى الله عليه وآله)، لأنّ النبي(صلى الله عليه وآله) لم يكن يمتلك بيتاً مستقلاً، فقد كان بيته هي البيوت التي كانت تعيش فيها زوجاته.

على هذا الأساس فلا سبيل سوى أن يكون المقصود من البيت هنا بيت القرابة و الارتباط النسَبي بالنبي (صلى الله عليه وآله)، لا بيت السكنى كما في التعبير المتداول و المعتاد عليه.

بالإضافة إلى كل هذا فعلى فرض قبولنا بهذه الآراء البعيدة عن الواقع، فهل يمكن التغاضي عن روايات بهذه السعة و الكثرة و الصراحة و هى التي تحصر أهل البيت (عليهم السلام)بخمسة أشخاص؟ أم نعتبرها روايات ضعيفة السند؟ فلو لم تكن هذه الروايات متواترة و قوية، فليس لدينا إذن حديث متواتر و صحيح، و لو كانت هذه الروايات خالية من الصراحة، فأيّ رواية صريحة في مضمونها؟!

و الأدهى من ذلك كله ما نقل عن «عكرمة» قوله: من شاء باهلتُه أنّها نزلت في نساء النبي(صلى الله عليه وآله) [١]، ونقل عنه في تعبير آخر: **إنّ عكرمة كان ينادي في السوق أنّ قوله تعالى ﴿إنّما يريد الله...﴾ نزل في نساء النبي** (صلى الله عليه وآله) [٢].

إنّه لمدهش حقا، فهل يمكن إثبات المسائل العلمية و الاستدلالية بالمباهلة و الصراخ في الأسواق، و هو أمر يمتلك جميع هذه الأدلة و الشواهد و القرائن، إذ يقوم النبي (صلى الله عليه وآله)ببسط الكساء على خمسة أشخاص و يشخِّصهم بدقّة و يخاطبهم، حتى إنّه لم يسمح لـــ«أم سلمة» و«عائشة» بالدخول تحته، و أخذ يكرّر هذه العبارة أمام دار فاطمة(عليها السلام) لمدة ستة أشهر أو ثمانية أشهر أو تسعة أشهر، دالاً على أنّ المراد بهذه الآية هو أنتم، و إنّ كلمة «**إنّما**» التي تدل على الحصر واضحة للعيان.

و النبي (صلى الله عليه وآله) إنّما يريد بهذا التأكيد ازالة جميع اشكال الشبهات، بَيدَ أنّ عكرمة يريد من خلال الدوافع التي يعلمها جيداً أن يثبت بالمباهلة غير ذلك رافعاً عقيرته في الأسواق ضد ذلك!.

إنَّ حماس و اندفاع عكرمة وراء المباهلة النادرة و القليلة الحصول في الأبحاث العلمية، و كذا مناداته في الأسواق التي هي من النوادر في القضايا العلمية أيضا، بحدّ ذاته دليلٌ على أنّ هناك أمراً وراء ذلك، و أنّ وراء هذا القيل و القال تكمن أسرارٌ اُخرى، فهل كان مكلّفاً بإنكار هذه الفضيلة الإلهيّة العظيمة ارضاءً لسلاطين زمانه، و أن ينبري للتصدي لأحاديث النبي (صلى الله عليه وآله) بهذه الصلافة؟!

---

١. تفسير روح المعاني، ج٢٢، ص ١٢.

٢. المصدر السابق، ص ١٣.

٢– السؤال الآخر هو: إذا كان المراد هو تلك الأنوار المقدّسة الخمسة، فما هي مترلة سائر ائمة أهل البيت (عليهم السلام)؟

والجواب هو: أنّ الذين كانوا يعاصرون ذلك الوقت هم أولئك الخمسة، و الآخرون جاءوا فيما بعد، و ورثوا تلك الصفات عن النبي (صلى الله عليه وآله) و آبائهم (عليهم السلام).

٣– كما تمّ التلميح آنفاً إلى أنّ المراد من الإرادة في (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ)، الإرادة التكوينية، لا التشريعية، و بتعبير آخر ليس المراد هو أنّ الله أمركم بالابتعاد عن المعصية، لأنّ هذا الأمر الإلهي يعمّ المسلمين جميعاً و لا يخصُ أصحاب الكساء فقط.

يتضح ممّا تقدم أنّ الإرادة التكوينية و المشيئة الإلهيّة قضت بتطهيرهم، و المحافظة عليهم من كل ذنب، و صيانتهم من شر الشيطان و الأهواء النفسية، و نحن نعلم أنّ مشيئة الله غير قابلة للتخلّف، و ما تفوّه به البعض من أنّ إرادة الله قابلة للتخلف يمثّل غاية الجهل و الغباء، فمن الذي يستطيع الحيلولة دون مشيئة الله، إلاّ أن تكون مشيئة الله متعلقة بشرط و لم يحصل ذلك الشرط؟ و نحن نعلم أنّ الإرادة في الآية أعلاه مطلقة، و ليست مشروطة بشرط أبدا.

و ممّا قاله البعض: إنّ هذا الكلام يستدعي أن يكون صحابة النبي (صلى الله عليه وآله)معصومين لاسيّما الذين شاركوا في معركة بدر، حيث قال تعالى بحقّهم:

(وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُم وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيكُم لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ) [١]. (المائدة / ٦)

و ممّا يبعث على الأسف هو عند اضطرام نار التعصب فإنّها تلتهم كل شيء و تحوّله إلى رماد، و بالأساس فإننا نفتقد في القرآن الكريم مثل هذه الآية بشأن معركة بدر، و ما نزل بشأن معركة بدر هو:(وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيطَانِ). (الانفال / ١١)

وظاهر هذه الآية تتعلق بترول المطر (في معركة بدر) واستثمار المسلمين له للغسل و الوضوء، و لا ترتبط ببحثنا أبدا، إلاّ أنّ هذا الأخ المتعصّب حذف مطلع الآية و جاء بعبارة «ليطهّركم» فقط، و عدّها دليلاً على طهارة و قداسة الصحابة كافّة.

و بالطبع فإنّ عبارة: (وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُم وَلِيُتِمَّ نِعمَتَهُ عَلَيكُم لَعَلَّكم تَشكُرُونَ) لم تأتِ بشأن أصحاب بدر، بل جاءت في ذيل آية الوضوء و الغسل و التيمم، و واضح أنّها تشير إلى الطهارة التي تحصل من هذه المطهّرات الثلاثة، فكيف يصادرها هذا المفسّر الشهير من هناك و يذهب بها إلى ميدان بدر، و يصادر أمراً يخص الغسل و التيمم و يقحمه في موضوع بحث العصمة؟ إنّه أمرٌ غامض!.

---

١. تفسير روح المعاني، ج٢٢، ص ١٧، (ذيل الآية ٣٣ من سورة الأحزاب).

و يثار هنا سؤال آخر و هو: إذا كانت الآية دليلاً على عصمة هؤلاء العظماء، فلماذا جاءت «**يريد**» بصيغة «**الفعل المضارع**» إذن؟

فإن كانوا معصومين فلماذا يقول: «**يريد الله**» فهل إنّ تحصيل الحاصل ممكن؟ لماذا لم يقل «**أراد الله بصيغة الفعل الماضي**»؟[1].

لو كان قائل هذا الكلام يبحث التعبير بـــ«يريد» في آيات القرآن الكريم بدقّة و تمعُّن لما تفوَّه بمثل هذا الكلام، لأنّ هذه الكلمة طالما استعملت في الكثير من آيات القرآن الكريم بشأن الأُمور المتعلقة بالإرادة المستمرة من الماضي و حتى الآن، و من الآن إلى المستقبل، و بتعبير آخر: إنّ هذه العبارة غالباً ما تستعمل للدلالة على استمرار و ثبات المشيئة على شيء ما في الماضي والحاضر و المستقبل، و يمكن ملاحظة صدق هذا الكلام في الآيات التالية:

(وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلعَالَمِينَ). (آل عمران / ١٠٨)

(يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ اليُسرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ). (البقرة / ١٨٥)

(يُرِيدُ اللَّهُ اَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ). (النساء / ٢٨)

و بديهي أنّ مفهوم هذه الآيات ليس هو أنّ الله أراد ظلماً في السابق، وكان يريد بكم العسر قبل ذلك، أو أنّه لم يُرِدْ سابقاً التخفيف عنكم و اليوم فعل هكذا، بل إنّ مفاد هذه الآيات جميعها هو أنّه أراد هكذا في الماضي و الحاضر و في المستقبل.

و كذلك قال تعالى بشأن الشيطان: (وَ يُرِيدُ الشَّيطَانُ أَنْ يُضِلَّهُم ضَلاَلاً بَعِيداً). (النساء / ٦٠)

و(اِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيطَانُ اَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَداوَةَ وَ البَغضَاءَ فِى الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ). (المائدة / ٩١)

و يقول عن الانسان:(بَلْ يُرِيدُ إِلانسَانُ لِيَفْجُرَ اَمَامَهُ). (القيامة / ٥)

يتضح جلياً من خلال هذه الآيات بيان الإرادة المستمرة للشيطان في الماضي و الحاضر و المستقبل لإغواء الناس، و ذلك بخلق العداوة و البغضاء عن طريق الخمر و القمار، و كذا مفهوم الآية الثالثة، و هو: أنّ الإنسان الجاحد يريد أن يكون متحرراً على الدوام و يرتكب الذنب، لذا فهو ينكر القيامة.

هنالك آيات كثيرة في القرآن تتابع هذا الموضوع، غير هذه الآيات الستّ التي تبيّن أنّ استعمال كلمة «يريد» بنحو الاستمرارية يشمل الأزمنة الثلاثة.

على هذا الأساس فمفهوم الآية الكريمة: (اِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِجْسَ)، هو تعلُّق الإرادة الإلهيّة المستمرة بطهارة و قداسة و عصمة أصحاب الكساء.

١. تفسير روح المعاني، ج٢٢، ص١٧.

شبهات حول العصمة:

تثار عدّة أسئلة فيما يتعلق بعصمة الأنبياء و الأئمّة المعصومين (عليهم السلام) أهمها هو أنه أليست العصمة صفة إجبارية؟ فاذا كانت العصمة موهبة إلهيّة تمنح فقط إلى هؤلاء، و ليس بمقدور الأنبياء و الأئمّة المعصومين (عليهم السلام) ارتكاب الذنب، أو أنّ الله يحول دون عوامل الذنب بشكل حازم، فما الفضيلة و الفخر في ذلك؟

إنّ إثارة هذه الشبهة سببه عدم التمعُّن بأُصول عصمة المعصومين (عليهم السلام)، فهم لم يلتفتوا إلى أنّ هذه «التقوى الراسخة» تنبع من «إيمانهم القوي و علمهم و معرفتهم الخارقة» التي يكون جانب منها اكتسابياً و الآخر هبة، فمثلاً: إنّ الإنسان الذي يبلغ درجة عالية في الطب، يستحيل أن يشرب ماءً ملوّثاً بالجراثيم، بينما ربّما يفعل الإنسان الأُمّي هذا الأمر، إنّ امتناع الطبيب عن شرب الماء الملوث كان باختياره، فهو يستطيع شرب ذلك الماء، إلاّ أنّ إيمانه و معرفته بعواقب الأمر تحول دون ذلك، فهو شبيه المعصوم في حرّية إرادته ازاء القيام بهذا العمل[١].

السؤال الآخر هو: أنّ الأئمّة اعترفوا بالخطأ و الذنب من خلال كلماتهم، فكيف يمكن اعتبارهم معصومين؟ ففي أدعيتهم يسألون الله أن يغفر لهم ذنوبهم، و هذا بحدّ ذاته دليل على عدم عصمتهم.

يقول أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الخطبة ٢١٦ من نهج البلاغة: «**إنّي لستُ في نفسي بفوق أن اخطيء ولا آمن ذلك من فعلي إلاّ أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك بي منّي**»[٢].

ويثار نظير هذا الاعتراض بشأن الكثير من الآيات المتعلقة بقصص الأنبياء في القرآن الكريم أيضا،ولابدّ من الإشارة إلى بعض النقاط بشكل مختصر:

١– في الكثير من الحالات كان الأئمّة (عليهم السلام) يتحدّثون لتعليم الناس باعتبارهم الأُسوة، و أنّ أقوالهم كانت تحمل طابعاً تعليمياً، و اللطيف أنّ تفسير روح المعاني و بعد إثارة هذا الاعتراض بشأن علي (عليه السلام) يأتي بهذا الجواب، ثم يقول: و قصد الكلام كما في بعض الأدعية النبوية بعيد[٣] فلماذا لا يكون مستبعداً في كلام النبي (صلى الله عليه وآله) بينما يستبعد في كلام علي(عليه السلام). إنّ هذا لا يدلّ إلاّ على تعصب هذا المفسّر المعروف.

---

١. للمزيد من الايضاح راجعوا ج ٧، ص ١٥٥– ١٦٠ من هذا التفسير.

٢. يصرُ الآلوسي في تفسيره، ذيل آية التطهير اصراراً عجيباً في انكار أنّ مفهوم الآية يتعلق بعصمة أهل البيت (عليهم السلام) و يــثير هذه الشُبهة (تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ١٧).

٣. تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ١٨.

٢- كان الغرض في بعض الحالات هو أنّهم (عليهم السلام) يريدون أن يقولوا: إنّنا لا نملك شيئاً بدون الاعتماد على اللطف الإلهي، و هذه هي عطاياه و مواهبه و فيوضاته التي تجعلنا معصومين، و بتعبير آخر إنّ ما نُقل عن علي (عليه السلام) في العبارة يعاكس ما يقوله المشككون تماماً فهو يدل على عصمته بالاعتماد على الألطاف الإلهيّة، فالإمام يقول: لست معصوماً عن الخطأ «بدون اللطف الإلهي»، و هذه الموهبة ليست سوى لطف إلهي، أو وفقاً للتعبير الذي ورد في سورة يوسف ليس إلاّ.

٣- في الكثير من الأُمور التي وردت في الآيات أو الأدعية باعتبارها ذنباً، فهي ليست سوى ترك الأولى، و مصداق للقول المعروف: «**حسنات الأبرار سيئات المقرّبين**».

و هذه النكتة جديرة بالذكر أيضاً و هي أنّ المراد من ترك الأولى ليس ترك عمل واجب، أو ارتكاب محرم أو مكروه، بل المراد الفعل المباح أو المستحب في قبال عمل أكثر استحباباً منه، و واضح أنّ ترك المستحب الأولى و الإتيان بمستحب آخر ليس في فعله خلافاً، إلاّ أنّه ترك للأولى، و هذا الفعل بالنسبة للآخرين لا يعتبر خلافاً فحسب، بل إنّ أداء المستحب بحد ذاته يعدُّ فضيلة، و ربّما يؤدّي إلى اللوم بالنسبة إلى المقربين لدى الله تعالى.

فالصلاة المقبولة من شخص عادي، تعدّ تركاً للأولى بالنسبة للعالم الكبير، و صلاة ذلك العالم لا تليق بالمعصوم، للمزيد من التوضيح راجعوا الجزء السابع من نفحات القرآن.

خصائص الأئمّة (عليهم السلام)

كما تكررت الإشارة فإنّ رسالة الأئمّة المعصومين (عليهم السلام) تشبه و تنسجم مع رسالة الأنبياء في الكثير من الحالات، سوى أنّ الوحي لايترل عليهم، و لم يضعوا الحجر الأساس للدين، بل واصلوا خط الأنبياء، من هنا فإنّ أكثر الصفات اللازمة فيهم تطابق صفات الأنبياء، و لابدّ للقادة الالهيين و الأئمّة المعصومين (عليهم السلام)بالاضافة إلى تمتّعهم بـــ«العلم» و«العصمة» أن يتمتعوا بالصفات التالية:

١- **الصدق**: فلو لم تتوفر لديهم هذه الصفة لم يحصل الاطمئنان و الثقة اللازم توفرها من أجل اقامة العلاقات المعنوية بين الأتباع و القادة.

٢- **الالتزام بالعهود و المواثيق**: لأنّ جانباً عظيماً من دعوتهم يقوم على أساس الوعود التي يعدون الناس بها، فإن لم يكونوا «صادقي الوعد» تنهار ركائز ثقة العامة بهم.

٣- **الأمانة في المحافظة على الودائع و الأحكام الإلهيّة و ابلاغها**: حيث إنّها تمثل إحدى دعائم الثقة و الإعتماد.

٤- **المحبة و الحرص الفائق تجاه الناس:** فلو لم تتوفر هذه الميزة، فمن المستحيل أن يبدي الناس تحمّلاً للعناء و المشقات في قيادة المجتمع لاسيما الجهلة و المعاندون.

٥- **الاخلاص و التجرد التام و قطع الأمل عن كل أجر مادي:**و إلاّ ستفقد الدعوة و القيادة جاذبيتها.

٦- **الاحسان و التفضل بحق الأصدقاء بل و حتى الأعداء:** و هي من مظاهر رحمانية الله و رحيميته و سبب في إقامة الارتباط المعنوي بين القيادة و المجتمع.

٧- **الشجاعة الفائقة و عدم الخشية إلاّ من الله تعالى،** التي يعدّها القرآن الكريم ميزة أساسية للذين «يبلغون رسالات الله»، لأنّها السرّ الحقيقي وراء النجاح، و بدونها لا يتقدم العمل في مجال القيادة.

٨- **التوكُّل المطلق على الله:** فغالباً ما يبقى القائد الرباني وحيداً فريداً و يعزله عن الآخرين الفساد الذي يسود البيئة، فلو لم يكن متوكّلاً على الله فمن المتعذر عليه مواصلة طريقه.

٩- **الرفق و حسن الخلق:** هي الميزة الأُخرى التي وردت في القرآن الكريم بشأن النبي (صلى الله عليه وآله)، و في الحقيقة لابدّ لكل قائد إلهي (سواء كان نبياً أو إماماً) أن يتمتع بها، و إلاّ فإنّ الخشونة و الغلظة و الاتصاف بــكون الزعيم«**فظا غليظ القلب**» يؤدّي إلى تفرّق الناس و عقم أهداف القائد الإلهي.

١٠- **النجاح في الامتحانات القاسية:** حيث يعتبر القرآن الكريم إعطاء منصب الإمامة لإبراهيم (عليه السلام) بسبب نجاحه في اجتياز الامتحان و الإبتلاء و تحمّله المشاق.

و في واقع الأمر يجب على المعصومين أن يخرجوا من الامتحانات القاسية ظافرين، ليكونوا مؤهلين لقيادة المؤمنين جسماً و روحاً و ظاهراً و باطنا.

لقد وردت هذه المواضيع بشكل مفصّل و مستند إلى آيات القرآن الكريم في بحث الصفات العامة للأنبياء في الجزء السابع من نفحات القرآن.

الله هو الذي يُعيِّن الإمام:

يستنتج من مجموع الأبحاث التي جرت بشأن صفات الإمام و تشبيهه بالأنبياء في الكثير من الحالات أنّ الأئمّة المعصومين (عليهم السلام) هم أوصياء الأنبياء و يجب أن يكون تعيينهم من قِبل الله تعالى.

و بتعبير آخر: ليس لــ «انتخاب الأُمّة» دور في هذا المجال و لا «إجماع الأُمّة» أو «**التنصيب**» من قبل أشخاص عاديين، لأنّ الصفات اللازمة في الإمام لا يعلمها إلاّ الله تعالى، و أهمها «**العصمة**»، و«**العلم الخاص**»، حيث يتعذر على الإمام التحليق في سماء الإمامة و الزعامة بدون هذين الجناحين!

فمَن الذي يعلم أنّ فلاناً معصوم عن الذنب والخطأ، و أنّ هيمنة علمه على جميع مسائل التشريع و حياة البشر مسُلَّمة و ثابتة؟

إنّ تشخيص سائر الصفات الخاصة بالإمام التي ذكرت آنفاً، متعذّر على أغلب الناس، و ربّما جميعهم.

من هنا يستفاد جيداً أنّ لا سبيل لتعيين الإمام سوى التنصيب الإلهي، و هذا «**التنصيب**» يثبت من خلال ثلاثة طرق:

الأول: عن طريق النبي (صلى الله عليه وآله) أو الإمام المعصوم السابق الذي يعيّن خليفته بأمر الله تعالى و يعرِّفه لجميع الناس، و في الحقيقة إنّه في هذه القضية يمثّل الواسطة في نقل الأمر الإلهي إلى الناس.

الثاني: عن طريق مشاهدة «المعجزات» كما مر ذكره في بحث النبوة، أي خرق العادة، و هو خارج عن طاقة البشر، و هو مترافق مع التحدي و دعوة الآخرين بالإتيان بمثلها إن لم يذعنوا.

غاية الأمر إنّ التحدي في قضية «النبوة» يأتي في مجالها و في قضية «الإمامة» في مجال الإمامة، أو بتعبير أكثر بساطة: إنّ الذي يدّعي الإمامة يقوم بخرق العادة و الفعل الخارج عن طاقة أي إنسان تأكيداً على ادّعائه الإمامة.

ومن المسلَّم به أنّ خرقاً للعادة كهذا يعطى له من قبل الله تعالى، ومن المحال أن يمنح الله الحكيم و العالم بالسرائر هذه الوسيلة للذي يدّعي الإمامة زوراً و بهتاناً.

الثالث: الطريق الثالث هنا هو كالذي مرّ في بحث النبوة، و هو جمع القرائن، أي مجموعة الصفات و الأفعال و الخصائص المتوفّرة لدى شخص ما بحيث يتيقّن الإنسان من

خلال مشاهدتها أنّه إمام معصوم و قائد إلهي، فيتظافر علمه و معرفته مع المزايا الأخلاقية والصفات الإنسانية و الأفعال و الأقوال و السلوكيات ليثبت بكل يقين أنّه إمام معصوم و خليفة للنبي(صلى الله عليه وآله).

راجعوا تفصيل هذه المسألة في الجزء السابع من نفحات القرآن في بحوث «النبوة والقرآن».

الخلاصة

١- بما أن الائمة هم امتداد للنبوة و يقومون بحراسة دين الله من كل خطر يتوجه اليه فان العصمة كما تكون شرط في النبوة كذلك في الامامة.

٢- من الآيات التي تتحدث عن عصمة الائمة هي قوله تعالى:﴿ إنما يريد الله لِيُذهب عنكم الرِجسَ أهل البيت و يطهّركم تطهيرا﴾.

٣- آية التطهير لا تحمل على نساء النبي لأن الضمائر في صدر الآية كلها لجمع المؤنث لكن هذا المقطع منها يتميز بنغمة خاصة و الضمير فيه للجمع المذكر.

٤- تتضمن آية التطهير الحصر (إنما) ما يعني اختصاص أهل البيت بموهبة خاصة كما أن لفظة «يريد» تدل على ارادة الله التكوينية لأن إرادة الله التشريعية لا تخص الائمة (ع).

٥- إرادة الله التكوينية لتطهير أهل البيت لا تتعارض مع الاختيار لأن لهم قابليات ذاتية(علمهم بنتائج الذنب) تجعل ارتكاب المعصية منهم يستحيل عادة و إن كان ممكن عقلاً.

٦- الرجس في اللغة يعني كون الشيء قذراً و مقززاً إما عند الطبع او الشرع او العقل، و الالف و اللام هنا تفيد بأن كل انواع الرجس أبعده الله عنهم.

٧- أهل البيت في آيةالتطهير ليسوا نساء النبي لوضوح التغيير في سياق الآية من خطاب المؤنث الى المذكر و لأن اخبار كثيرة وردت تنص على اختصاص فاطمة و علي و الحسنين (ع) بهذه الفضيلة.

٨- مما يؤكد اختصاص أهل البيت بعلي و فاطمة و الحسنين حديث الكساء المشهور في كتب الفريقين حيث يصرّح النبي(ص) فيه بأن:« إلهي هؤلاء أهل بيتي فأَذهب عنهم الرجس».

٩- قد يقال إن البيت هو مكان السكن و أهل البيت هم نساء النبي و انما ذكّر الضمير لأن «اهل»مذكر و إنما جاء البيت مفرداً مع أن نساء النبي كنّ في بيوت عدة فباعتبار أن النبي واحد.

١٠- هذا القول لا يستقيم لأن الضمير لم يأت بشكل مفرد مذكر و انما جاء بصورة جمع المذكر و هذا لا ينطبق على التأويل المذكور.

١١- كون «يريد»بلفظ المضارع لا يعني أنهم لم يكونوا معصومين قبل نزول الآية و انما يستخدم القرآن الكريم «يريد» في مواطن كثيرة بمعنى ثبات الشيء و استمراره في الماضي و المضارع و الحال.

١٢- العصمة لا تنافي الاختيار لأن امتناع المعصومين عن الذنب كان لاجل علمهم اليقيني بمغبّات المعصية كما أن تعبيرهم بالذنب احياناً كان ذا طابعاً تعليمياً او أنه للتضرع أمام الله تعالى.

١٣- نظراً لرسالة الامام القيادية فهو يتحلى بأسمى الفضائل كالشجاعة و الاخلاص و الصدق و الوفاء و الرفق و المحبّة تجاه الخلق و....

١٤- إن الامام لا يتعين إلا من قِبل الله تعالى لقصور الناس عن تشخيص المعصوم و بالتالي فقد يتم تعيينه من قِبل النبي او الامام السابق و قد يكون بإظهار معجزة و أخرى بالقرائن القطعية.

بسمه تعالى

جامعة المصطفى (ص) المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ١٤

الولاية التكوينية للأنبياء و الأئمّة (عليهم السلام)

بكالوريوس

المقدمة

من الشؤون التي يتصف بها النبي و الامام الى جانب العصمة و العلم الالهي، هي الولاية التكوينية و هي تعني أن الله تعالى يمنح بعض عباده التصرف في الكون و نظام العالم على نحو خرق العادة، كل ذلك بإذنه و مشيئته و هذه الولاية على انواع و اقسام فمنها ما ثبت وجودها لغير الله تعالى و منها ما اختص و تفرّد بها. في هذا الدرس نتعرف على هذه الاقسام و نتطرق الى الايات القرآنية و الروايات التي تتحدث عن هذه الموهبة الالهية.

المحتوى العلمي

الولاية التكوينية للأنبياء و الأئمّة (عليهم السلام)

تمهيد:

نحن نعلم أنّ الولاية على نحوين:

١– الولاية التشريعية.

٢– الولاية التكوينية.

المراد من الولاية التشريعية هو الحكم و الاشراف القانوني و الإلهي الذي يكون تارة بشكل محدود كولاية الأب و الجد على الصغير ، و تارة بشكل واسع و شامل كولاية الحاكم الإسلامي على كافة القضايا المتعلقة بـــ«**الحكومة**» و«**إدارة شؤون الأمّة الإسلامية**».

أمّا المراد من الولاية التكوينية، فهي: قدرة الإنسان على التصرف في عالم الخلق و التكوين بأمر الله و إذنه، و الإتيان بأفعال خارقة للعادة و النواميس الطبيعية لعالم الأسباب ، فمثلاً يبريء المريض الذي لا علاج له بإذن الله، و ذلك من خلال الهيمنة و النفوذ الذي وهبه الله تعالى له ، أو يحيي الموتى ، و أعمال اُخرى من هذا القبيل ، و كل أشكال التصرف المعنوي غير الاعتيادي في أرواح و أجسام البشر ، و هذا النوع يشمل الطبيعة أيضا.

و ربّما تكون لـــ«**الولاية التكوينية**» أربع حالات بعضها «مقبولة» و بعضها « غير مقبولة ».

١– «الولاية في أمر الخلقة و خلق العالم»:يعني أنّ الله تبارك و تعالى يمنح عبداً من عباده أو ملكاً من ملائكته قدرة خلق العوالم أو محوها من الوجود ، و من المسلَّم به أنّ هذا الأمر ليس مستحيلاً ، لأنّ الله على كل شيء قدير و قادرٌ على منح أي نحو من القدرة لأي إنسان ، بَيدَ أنّ آيات القرآن تؤكّد في كل المواضع على أنّ خلق عالم الوجود و السموات و الأرضين و الجن و الانس و الملائكة و النباتات و الحيوانات و الجبال و البحار قد حصل بقدرة الله جلّ وعلا ، لا عن طريق عباده الخاصين أو ملائكته ، لذا فقد نسب الخلق إليه في جميع الأحوال ، و لم ينسب هذا الأمر إلى غيره

«بنحو واسع» في أي موضع أبدا ، و عليه فإنّ خالق السموات و الأرضين و النبات و الحيوان و الإنسان هو الله وحده.

٢– «**الولاية التكوينية في ايصال الفيض**»: بمعنى أنّ كل إمداد و رحمة و بركة و قدرة من قِبل الله تعالى تصل إلى عباده أو سائر الكائنات في عالم الوجود بواسطة أولياء الله و خاصة عباده ، كمياه الشرب بالنسبة للبيوت في مدينةٍما التي تمرّ من خلال الأُنبوب الرئيس و هذا الأُنبوب الكبير يستلم المياه من مصدرها و يوصلها إلى جميع النقاط ، و يعبر عنه بـــ«**الواسطة في الفيض**».

و هذا المعنى ليس محالاً أيضاً من الناحية العقلية ، و يشاهد نموذجه في العالم الصغير، أي جسم الإنسان حيث يتم توزيع المواد الغذائية على الخلايا كافّة عن طريق شريان القلب ، فما المانع من ذلك في العالم الكبير أيضا؟

و لكن ممّا لا شك فيه أنّ إثباته بحاجة إلى دليل مقنع ، و إذا ما ثبت فهو بإذن الله تعالى.

٣– «**الولاية التكوينية في حدود معينة**»: كإحياء الموتى و شفاء المرضى الذين يستحيل علاجهم و نحو ذلك.

و قد وردت نماذج من هذا النوع من الولاية بشأن بعض الأنبياء في القرآن الكريم بصراحة حيث سيشار إليها لاحقا ، و الروايات الإسلامية شاهد على ذلك أيضا ، من هنا فإنّ هذا الفرع من الولاية التكوينية ليس ممكناً من ناحية العقل فحسب ، بل هنالك أدلة نقلية على تحققه أيضا.

٤– «**الولاية التي تعني الدعاء من أجل تحقيق المطالب**»: و يأتي ذلك بقدرة الله تعالى ، فإنّ النبي (صلى الله عليه وآله) أو الإمام المعصوم يدعو فيتحقق ما طلبه من الله تعالى.

و هذا المعنى ليس فيه أي محذور عقلي و لا نقلي، و إنّ الآيات و الروايات مليئة بنماذج منه ، بل ربّما لا يمكن اطلاق اسم الولاية التكوينية عليه لأنّ استجابة دعائه تأتي من قِبل الله تعالى.

و يشاهد في الكثير من الآيات إشارات إلى الـــ «**الاسم الأعظم**» الذي كان لدى الأنبياء و الأئمّة(عليهم السلام) أو بعض أولياء الله (من غير الأنبياء و الأئمّة)، و من خلاله كانوا يستطيعون التصرف بعالم التكوين.

و بغض النظر عن المراد من «**الاسم الأعظم**»– الذي بحثناه بشكل مفصّل في بحث صفات الله– فإنّ مثل هذه الروايات ربما تكون ناظرة إلى القسم الثالث من الولاية التكوينية و تنطبق عليه بشكل تام.

بهذه الإشارة نعود إلى بعض آيات القرآن في هذا المجال أي«**الولاية التكوينية**»:

١– (وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَالتَّوراةَ وَالإنجِيلَ * وَرَسُولاً اِلَى بَنِي اِسْرائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَة مِّن رَّبِّكُم اَنِّى اَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيْرِ فَاَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَاُبرِىءُ الاَكْمَهَ وَالاَبْرَصَ

وَاُحْيِ المَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَاُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرونَ فِي بُيُوتِكُم اِنَّ فِي ذَلِكَ لاَيَةً لَّكُمْ اِنْ كُنْتُم مُّؤمِنِينَ). (آل عمران / ٤٨– ٤٩)

٢– (فَسَخَّرنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيثُ اَصَابَ). (ص / ٣٦)

٣– (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَاب اَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرتَدَّ اِليكَ طَرْفُكَ فَلَمّا رَآهُ مُستَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذا مِنْ فَضْلِ رَبّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ اَكفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ). (النمل / ٤٠)

في الآية الأُولى يدور الحديث أولاً عن الألطاف الإلهيّة بحق عيسى (عليه السلام) حيث يقول تعالى:(وَ يُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَ الحِكمَةَ وَ التَّورَاةَ وَ الإِنجِيلَ).

ثم بعثه كرسول إلى بني اسرائيل ، (وَ رَسُولا اِلَى بَنِى اسرائِيلَ) ، و من ثم يشرح كلام المسيح (عليه السلام) في إثبات حقانيته و بيان معاجزه التي تمّ بيانها في خمس مراحل:

يقول في الأُولى:: (أَنِّى قَدْ جِئتكُمُ بِآيَة مِّن رَبِّكُمْ أَنِّى اَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ فَاَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذنِ اللَّهِ).

و في الثانية و الثالثة: (وَأُبرِىءُ الاَكمَهَ وَالاَبرَصَ).

و الرابعة: (وَ أُحْيِ المَوتَى بِإِذنِ اللَّهِ).

و الخامسة: (وَاُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدَّخِرونَ فِي بُيُوتِكُم اِنَّ فِي ذَلِكَ لاَيَةً لَّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ).

إنّ التمعُّن في مضمون هذه الآيات و التفاوت في التعابير المستعملة فيها ، يوضح هذه المسألة وهي: أنّ المسيح (عليه السلام) ينسب خلق الطير من الطين إلى الله تعالى ، بينما في الأقسام الثلاثة الأُخرى ينسب (شفاء الأعمى، و الأبرص، و إحياء الموتى) إلى نفسه ، و لكن باذن الله و أمره ، و هذا هو المقصود من الولاية التكوينية، حيث إنّ الله تعالى قد يمنح مثل هذه القدرة للانسان بحيث يؤثر في عالم الخلق و الطبيعة بأمره ، و يخرق الأسباب الطبيعية ، فيحيي الميت و يشفي المرضى الذين يستحيل علاجهم.

هذا نموذجٌ من الولاية التكوينية التي وهبها الله تبارك وتعالى لعبده المسيح (عليه السلام) ، و لامانع أو حائل ابداً دون اعطاء مثل ذلك لسائر الأنبياء أو الأئمّة المعصومين (عليهم السلام).

و إذا قال قائلٌ: إنّ مقصود هذه الآية هو أنّ المسيح (عليه السلام) كان يدعو فيبرىء الله المريضَ ، أو يحيى الميت ، فقد نطق بما يخالف ظاهر الآية ، لأنّ الآية تقول بوضوح: (بِإِذنِ اللهِ)أي إنني أفعل و لكن تحقيق الفعل بإذن الله ، و ليس هنالك من دليل لترك هذا و البحث عن معنى يخالف الظاهر.

بل ليس هنالك مانع أيضاً في مرحلة خلق الطير من أنْ يلقي الله تعالى هذا الأثر في فم عيسى (عليه السلام) فيكون القيام بمثل هذا العمل بإذن الله ، بَيدَ أنّ بعض المفسرين لم يقتنعوا بهذا المعنى و قالوا:

إنّ خلق الطير مستندٌ إلى الله مباشرة ، و لعلّ هذا القول يأتي لئلّا يدعي الجهلاء اُلوهية المسيح ، لأنّ أمر الخلقة متعلقٌ به وحده:

و ورد شبيه هذا المعنى أيضاً في سورة المائدة ، غاية الأمر أنّ الخطاب صادر من قِبل الله تعالى للمسيح (عليه السلام) لا على لسان المسيح (عليه السلام)، فيقول تعالى:

(وَ اِذْ تَخلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيراً بِاِذْنِى وَتُبرِىءُ الاَكْمَهَ وَالأبرَصَ بِإِذْنِى وَ اِذْ تُخْرِجُ المَوتَى بِإِذْنِى). (المائدة / ١١٠)

و الملفت للنظر هو أنّ اختلاف التعبير الذي كان في سورة آل عمران ظاهرٌ بدقّة هنا أيضاً، أي لم تُنسب مسألة الخلق و خلق الطير إلى المسيح (عليه السلام) ، و لكن نُسبَ إليه احياء الموتى و شفاء المرضى و العمي الذين يستحيل علاجهم، و إنْ جاء التعبير بإذن الله في كل ذلك.

و ملخص الكلام أنّ هذه الآيات تثبت بأنَّ الولاية التكوينية لعيسى (عليه السلام) هي في نطاق خاص ، و ليس هنالك دليلٌ على اختصاصها المطلق بالمسيح (عليه السلام) ، و يمكن أن تصدق بحق سائر الأنبياء أو الأئمّة المعصومين(عليهم السلام) بمقتضى أنّ: «**حُكم الأمثال في ما يجوز و ما لا يجوز واحدٌ**».

و في الآية الثانية يتحدّث تعالى عن تسخير الرياح لسليمان (عليه السلام) و يقول: (فَسَخَّرنَا لَهُ الرِّيحَ تَجرِى بِأَمرِهِ رُخَاءً حَيثُ اَصَابَ).

و يستفاد من هذه الآية و الآيات التي تليها أنّه و كما أنّ الشياطين كانت تُنفِّذ أمر سليمان و تنجزُ له أعمالاً مهمّةً في البر و البحر ، فإنّ الريح كانت تُنفِّذ أمره أيضا ، و كانت تتحرك حيث يأمرها ، و هذا الأمر ليس سوى مصداق للولاية التكوينية في هذا الجانب من الموجودات.

و ورد نظير هذا المعنى أيضاً في سورة الأنبياء ، و الحديث هنا عن أمر سليمان(عليه السلام)على العواصف، إذ يقول تعالى: (وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجرِى بِأَمرِهِ اِلَى الاَرضِ الَّتِى بَارَكنَا فِيهَا).(الانبياء / ٨١)

و هذا الاحتمال واردٌ أيضاً فيما جاء في قصة موسى (عليه السلام) في البقرة،(الآية ٦٠) من ضرب الحجر و انبثاق عين الماء فيه بإذن الله ، و كذا ضربُ البحر بالعصى ، حيث يقول تعالى: (فَاَوْحَيْنَا اِلَى مُوسَى اَنِ اضْرِبْ بِّعَصَاكَ البَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْق كَالطَّودِ العَظِيمِ). (الشعراء / ٦٣)

و كل ذلك كان من قبيل الولاية التكوينية أيضاً.

و الخلاصة هو أنّه في جميع الحالات التي يمنح فيها الله تعالى لأحد عباده الخاصين القدرة و القوة للنفوذ في عالم الخلق و الطبيعة ، يحصل لذلك العبد نوعُ من الولاية التكوينية.

و الحديث في الآية الثالثة عن التصرف التكويني لشخص من المقرّبين لسليمان و من خاصّته ، بَيدَ أنّ اسمه لم يأت في القرآن سوى بوصف (الذي عنده علمٌ من الكتاب) ، فعندما خاطب سليمان(عليه السلام) أصحابه و خاصته: (قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُم يَأتِينِي بِعَرشِهَا قَبلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسلِمِينَ * قَالَ عِفرِيْتٌ مِّنَ الجِنِّ أَنَا آتِيْكَ بِهِ قَبْلَ اَنْ تَقومَ مِن مَّقامِكَ) ثم يضيف: (قالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَابِ اَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ اَنْ يَرتَدَّ اِلَيكَ طَرفُكَ).

و بطبيعة الحال إنّ هذا لم يكن ادّعاءً فحسب ، بل إنّه نفّذ وعده ، إذ نقرأ في سياق الآية: (فَلَمّا رَآهُ مُستَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى).

وهنا بحوث كثيرة:

مَن ذلك الذي كان عنده علمٌ من الكتاب؟ فالمعروف و المشهور أنّه كان وزير سليمان (عليه السلام)، (**آصف بن برخيا**) الذي يقال إنّه كان ابن اُخته ، و طبقاً لما ورد في الرواية في تفسير العياشي في جواب الإمام محمد بن علي الجواد (عليه السلام) ليحيى بن الأكثم فإنّ «**آصف**» كان وصي و خليفة سليمان (عليه السلام) ، و كان نبيّاً ، و كان سليمان (عليه السلام) يريد بهذا العمل تعريف العامة بمكانته و منزلته ، و إلاّ فإنّه كان يمتلك القدرة على هذا العمل من باب أولى [١].

و قد احتمل البعض أيضاً أنّ هذا الشخص كان سليمان نفسه[٢]، إلاّ أنه لا ينسجم و ظاهر الآية.

و احتمل البعض أنّه كان رجلاً من بني اسرائيل ، حيث لايتعارض هذا مع التفسير الذي يقول إنّه كان آصف بن برخيا، لأنّه و حسب الظاهر كان من بني اسرائيل، على أيّة حال فالذي يحظى باهتمامنا هنا ليس شخصاً بعينه، بل الغرض هو أنّ أحد اولياء الله كانت له القدرة في التصرف في عالم التكوين و عالم الأسباب من خلال امتلاكة لـ«**علم من الكتاب**» أو معرفة الاسم الأعظم ، أو أي شيء آخر ، و أن ينقل عرش ملكة سبأ من اقصى جنوب شبه الجزيرة العربية إلى أقصى شمالها خلال طرفة عين ، و لا يخفى أنّ هذا الأمر ممكنٌ لسائر أولياء الله لاسيّما الأنبياء و الأئمّة المعصومين (عليهم السلام).

و قد ورد في بعض الروايات عن الإمام الباقر (عليه السلام):

«إنّ اسم الله الأعظم على ثلاثة و سبعين حرفاً و إنّما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه و بين سرير بلقيس حتى تناول السرير بيده ثم عادت الأرض كما كانت

---

١. تفسير نور الثقلين ، ج٤ ، ص٩١ ، ح ٧٧ كما نقل هذا المعنى بصريح القول في تفسير الدر المنثور عن ابن عباس و آخرين بـــأنّ القائل كان آصف بن برخيا حيث كان الاسم الآخر له «اتمليخا»، (تفسير در المنثور ، ج٥ ، ص١٠٩).

٢. نقل هذا الاحتمال في تفسير الميزان، ج ١٥ ، ص٣٦٣ واشكَل عليه.

أسرع من طرفة عين و نحن عندنا من الاسم الأعظم اثنان و سبعون حرفاً و حرف واحد عند الله تعالى استأثر به في علم الغيب عنده ، و لا حول و لا قوة إلاّ بالله العلي العظيم» [1] .

و نقل هذا المعنى أيضاً في روايات اُخرى عن الإمام الباقر (عليه السلام) و الإمام الصادق (عليه السلام)و بعض أئمّة أهل البيت (عليهم السلام).

و يستفاد بوضوح ممّا مرّ من الآيات أنّ الولاية التكوينية أمرٌ ممكنٌ و جدير بالقبول في نظر القرآن الكريم.

الولاية التكوينية فى الأحاديث الإسلامية:

كثيراً ما نصادف في الروايات الإسلامية إشارات عن المعجزات التي حصلت في إطار الولاية التكوينية ، و توضيح ذلك أنّ المعجزات لها أقسام و أنواع فبعضها يحصل بدعاء النبي (صلى الله عليه وآله) أو الإمام المعصوم فقط ، وبعضٌ يحصل بطلب الناس منهم و بإذن الله ، و بعضها يحصل عن طريقهم و بفعلهم ، أي أنّ بعض المعجزات يحصل من خلال تصرفهم و مقامهم الروحي و المعنوي و بإذن الله ، بحيث لا يمثّل سوى الولاية التكوينية التي نتحدث عنها الآن.

و هذه الحالات كثيرةٌ للغاية، و فيما يلي نشير إلى بعض النماذج منها:

١- ورد نموذج ظريف منها في نهج البلاغة في الخطبة القاصعة- حيث يقولُ (عليه السلام)«**و لقد كنتُ معه** (صلى الله عليه وآله) **لّما أتاه الملأ من قريش فقالوا له: يا محمد إنّك ادّعيت عظيماً لم يدّعه آباؤك و لا أحد من بيتك ، و نحن نسألك أمراً إنْ أنت أجبتنا إليه و أريتناه علِمنا أنّك نبيٌ و رسول ، و إن لم تفعل علِمنا أنّك ساحرٌ كذاب**».

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله):«**وما تسألون**» قالوا: تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها و تقف بين يديك ، فقال (صلى الله عليه وآله): «**إنّ الله على كلّ شيء قدير ، فإنْ فعل الله لكم ذلك ، أتؤمنون و تشهدون بالحقّ**»؟ قالوا: نعم ، قال: «**فاني ساُريكم ما تطلبون و إنّي لأعلم أنّكم لا تفيئون إلى خير ، و إنّ فيكم من يطرحُ في القليب ومنْ يحزّبُ الأحزاب**»، ثم قال (صلى الله عليه وآله): «**يا أيّتها الشجرة إنْ كنت تؤمنين بالله و اليوم الآخر ، و تعلمين أنّي رسول الله فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يديّ بإذن الله** ».

---

١. اصول الكافي ، ج١ ص٢٣٠ استناداً إلى نقل تفسير البرهان ، ج٣ ، ص٢٠٣ ، ح١.

فو الذي بعثه بالحق (لانقلعت) بعروقها و جاءت و لها دويٌ شديد و قصف كقصف أجنحة الطير حتى وقفت بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) مرفرفة ، و ألقت بغصنها الأعلى على رسول الله (صلى الله عليه وآله) و ببعض أغصانها على منكبي ، و كنت عن يمينه (صلى الله عليه وآله).

فلما نظر القوم إلى ذلك قالوا علواً واستكباراً: فَمُرْها فليأتك نصفها، و يبقى نصفها ، فأمرها بذلك فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال و أشدّه دويّاً فكادت تلتفّ برسول الله (صلى الله عليه وآله) !

فقالوا– كفراً وعتواً: فمرْ هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان ، فأمره (صلى الله عليه وآله) فرجعَ ، فقلت أنا: «**لا إله إلاّ الله، إنّي أول مؤمن بك يا رسول الله ، و أول منْ أقرّ بأنّ الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقاً بنبوتك و إجلالاً لكلمتك**».

فقال القوم كلهم: بل ساحرٌ كذاب عجيب السحر ، خفيفٌ فيه ، و هل يصدّقك في أمرك إلاّ مثل هذا «**يعنونني**»؟

«**وإنّي لَمِن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم ، سيماهم سيما الصديقين ، وكلامهم كلام الأبرار ، عمّارُ الليل و منار النهار ، متمسكون بحبل القرآن ، يحيون سنن الله و سنن رسوله ، لا يستكبرون و لا يعلون ، و لا يغلون و لا يفسدون ، قلوبهم في الجنان و أجسادهم في العمل**» [١].

تأملوا تعابير هذه الخطبة قليلا ، فإنّها تثبت أنّ هذا الأمر الخارق للعادة حدث بنفوذ و تصرف النبي (صلى الله عليه وآله) في التكوين ، و عليه فما ورد في ذيل هذه العبارة: «**إنّ الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى**» ، هو أمر الله و إذنه و القدرة التي قد وهبها لنبيّه(ص) لمثل هذا التصرف ، كما ورد التعبير بـــ «**إذن الله**» في بداية هذه الكلمة.

بناءً على ذلك ، فالتعابير مثل: مُرْ ليحدث كذا أو كذا ، و كلام رسول الله (صلى الله عليه وآله) أيّتها الشجرة افعلي كذا و كذا، كلها أدلة على ولاية النبي (صلى الله عليه وآله) و نفوذه التكويني.

٢– يروي المرحوم العلاّمة المجلسي في كتاب بحار الأنوار عن سلمان الفارسي: لما قدم النبي (صلى الله عليه وآله) المدينة تعلق الناس بزمام الناقة ، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): ياقوم دعوا الناقة فهي مأمورة ، فعلى باب من بركت فأنا عنده (و هذا أفضل طريق للخلاص من كل اختلاف و تفرقة).

فأطلقوا زمامها و هي تهف في السير حتى دخلت المدينة، فبركت على باب أبي أيوب الأنصاري ، و لم يكن في المدينة أفقر منه ، فانقطعت قلوب الناس حسرةً على مفارقة النبي (صلى الله عليه وآله) ،

---

١. بحار الأنوار ، ج٤١ ص٢٣٧ (مع الاختصار).

فنادى أبو أيوب: «**يا أُمّاه افتحي الباب، فقد قدم سيد البشر ، و أكرم ربيعة و مضر ، محمد المصطفى و الرسول المجتبى**».

فخرجت و فتحت الباب و كانت عمياء ، فقالت: «واحسرتاه ليت كانت لي عين أبصر بها وجه سيدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) في المدينة»، وضع (صلى الله عليه وآله) كفّه على وجه أُمّ أبي أيوب فانفتحت عيناها (ربّما يراد في وضع اليد الإشارة باليد ، أو وضع اليد فوق قطعة قماش) [١].

٣- كما وردت هذه الرواية أيضاً في الكتب المشهورة لدى الشيعة و السنة وهي أنه لما لم يأت النصر على يد بعض امراء الجيش في معركة خيبر ، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «**سأعطي الراية غداً إلى رجل يحبُّ الله و رسولهُ ويحبّهُ الله و رسولهُ ، يفتح الله على يديه ، ثم ارسل على عليّ وكان أرمد ، فحضر فبصق في عينيه فبرأت ، ثم سلّمه الراية و فتح خيبر**» [٢].

تفيد هذه الرواية المشهورة أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) أبرء عيني علي (عليه السلام) من خلال ولايته التكوينية بإذن الله ــــ.

٤- و جاء في تاريخ أمير المؤمنين (عليه السلام) أيضاً «**مُدّ الفرات في عهد علي** (عليه السلام) **فأقبل إليه الناس، فقالوا: يا أمير المؤمنين نحن نخاف الغرق لأنّ في الفرات قد جاء من الماء ما لم ير مثله و قد امتلأت جنبتاه فالله الله ، فركب أمير المؤمنين** (عليه السلام) **و الناس معه و حوله يميناً و شمالاً ٠٠٠٠ حتى انتهى إلى الفرات و هو يزخر بأمواجه، فوقف و الناس ينظرون فتكلّم بالعبرانية كلاماً فنقص الفرات ذراع ، فقال: حسبكم؟ قالوا: زدنا**» [٣].

فهل هذا الفعل سوى تصرفٍ تكويني بإذن الله؟

٥- ونقرأ في تاريخه (عليه السلام) أيضاً أنّه و أثناء مروره قرب الكوفه جاءه قوم من اليهود، وقالوا: «انت الامام علي بن ابي طالب؟ فقال: أناذاك، فقالوا: لنا صخرة مذكورة في كتبنا عليها اسم ستة من الأنبياء ، و نحن نطلب الصخرة.... فسار القوم خلف أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى أنّ استبطن بهم البر و اذا بجبل من رمل عظيم فقال (عليه السلام) للريح: أيّتها الريح انسفي الرمل عن الصخرة بحق اسم الله الأعظم فما كان إلاّ ساعة حتى نسفت الريح الرمل وظهرت الصخرة...» [٤]

---

١. نهج البلاغة ، الخطبة ١٩٢ (القاصعة).

٢. بحار الأنوار ، ج١٩ ، ص١٢١.

٣. لقد أورد ابن الأثير هذه الرواية في الكامل بالتفصيل (ج٢ ، ص٢١٩)؛ و كذا ابن هشام في السـيرة النبويـة ج٣ ، ص٣٤٩؛ و العلاّمة المجلسي في بحار الأنوار ج٢١ ، ص٢٩٨ ، ح ٣٠.

٤. احقاق الحق للتستري ج ٨ ص ٧٣٣

وهذا نموذج آخر من النفوذ و التأثير على عالم التكوين.

و قد وردت نماذج اُخرى في الكثير من كتب التاريخ و التفسير، و الحديث، و مختلف المصادر الإسلامية للشيعة و السنّة، حيث يحتاج ذكر كلها إلى تدوين كتاب مستقل.

إنّ هذه الآيات و الروايات تؤكّد أنّ أولياء الله سواء من الأنبياء أو الأئمّة المعصومين (عليهم السلام)كانوا يتمتعون بقدرة بأمر الله و إذنه، بحيث كانوا يستطيعون التصرف في عالم التكوين من خلال ما وهبهم الله تعالى من إذن في حالات معينة ، و هذا ما نُعبّر عنه بالولاية التكوينية.

و بطبيعة الحال ، فإنَّ الولاية التكوينية لها تفرّعات اُخرى أيضا ، منها التأثير في القلوب المستعدة لقبول الحق عن طريق الألطاف المعنوية و الروحية ، و تربية و هداية النفوس المؤهّلة من خلال التأثير الروحي فيها ، حيث تتوفر أمثلة كثيرة لذلك في التاريخ الإسلامي.

و غالباً ما كان يحصل لكثير من الأشخاص تحولٌ و تغيرٌ مفاجيءٌ ، بنحو لا ينسجم مع الموازين و المعايير الطبيعية ، و ذلك بمجرّد حضورهم عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو الإمام المعصوم (عليه السلام)، و بالتالي يستقيم سلوكهم في الحياة على أثره.

إنّ هذا التحول و التغير المفاجيء و الخارق للعادة يحصل أيضاً نتيجة لـــ «**الولاية التكوينية**» و التاثير في النفوس المؤهّلة.

الخلاصة

١– من شؤون الامام هي الولاية ، و الولاية على قسمين التكوينية و التشريعية.

٢– المراد من الولاية التشريعية هي الحكم و الاشراف الالهي و هو قد يتمثل في نطاق محدود كولاية الاب على ولده و قد يكون في نطاق اوسع كولاية الحاكم الاسلامي على جميع شؤون المجتمع.

٣– الولاية التكوينية هي القدرة على التصرف الخارق للعادة في العالم كإحياء الموتى و... بإذن من الله تعالى.

٤– الولاية التكوينية على اربعة اقسام:الولاية في امر الخلق، الولاية في ايصال الفيض ، الولاية في امور محدودة(كإحياء الموتى)، استجابة الدعاء.

٥– لم يكن شيء من الاقسام الاربع بمستحيل عندما يكون بإذن الله لكن لم يثبت القسم الاول لأحد لكن أثبت القرآن بصراحة النوع الثالث و الرابع لبعض الانبياء و الاولياء.

٦– ورد في سورتي ال عمران و المائدة ما يثبت النوع الثالث من الولاية التكوينية لعيسى (ع) كإحياء الموتى و شفاء المرضى.

٧– يتحدث القرآن الكريم في آيات اخرى عن تسخير الشياطين و الرياح لسليمان (ع) و قضايا اخرى من هذا القبيل و كلها تصب في الولاية التكوينية.

٨– تضافرت الاحاديث في اثبات نماذج من الولاية التكوينية لأنبياء الله و أوليائه و منها خبر انقلاع الشجرة بأمر من رسول الله (ص) و مثولها بين يديه.

٩– من فروع الولاية التكوينية التصرف في قلوب الناس و ارواحهم فكم من شخص تحولت نفسه و روحه فجأة عندما حضر بين يدي رسول الله (ص).

بسمه تعالى

جامعة المصطفى المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ١٥

الولاية والإمامة الخاصة (١)

بكالوريوس

المقدمة

بعد ما تعرّفنا على معنى الولاية من خلال الآيات القرآنية و الروايات، يبقى السؤال مطروحاً بأنه مَن هو الولي بعد رسول الله (ص) و ماذا في الكتاب العزيز عن هذا الموضوع؟ للاجابة على هذا التسائل نتطرق في هذا الدرس إلى بعض الآيات و الروايات التي تتحدث بشكل صريح او غير صريح عن خلافة رسول الله (ص) فندرس آية التبليغ و واقعة غديرخم و نُمعن النظر في قوله(ص): «من كنت مولاه فعلي مولاه» و نسرّح النظر في سند الحديث و نتبيّن مدلوله و مضمونه و اخيراً نأتي على ذكر الاشكالات التي أوردها البعض على دلالة هذه الآية و الحديث على ولاية على بن ابي طالب عليه السلام و نجيب عنها.

المحتوى العلمي

الولاية و الإمامة الخاصة

تمهيد:

بعد الفراغ من البحوث العامة في «**الإمامة العامة**» جاء دور الكلام في بحث الإمامة الخاصة، حيث سيكون البحث في معرفة الإمام المعصوم و الوصي بعد النبي (صلى الله عليه وآله)، مُستعينين بمختلف المصادر الإسلامية، و النصوص الواردة في القرآن، و الروايات الموثوقة في هذا البحث.

كما نستعين بأسلوب جمع القرائن الذي هو أحد أهم الأساليب لمعرفة الأنبياء و الأئمّة المعصومين (عليهم السلام)، و نسأل الله تعالى أن يأخذ بأيدينا و قلمنا و بياننا إلى ما هو حقٌّ، و يبعدنا عن كلّ خلاف و انحراف.

في البداية نيمّم وجوهنا صوب آيات القرآن الكريم لنرى ما ورد من آيات بصدد الإمامة الخاصة.

حيث يمكن تقسيم هذه الآيات إلى قسمين:

١- الآيات التي تهتم بمسألة الإمامة بشكل مباشر و تبحث فيها بجلاء.

٢- الآيات التي تبحث هذه المسألة بشكل غير مباشر.

و بالرغم من كثرة الآيات في كلا القسمين، فإنّنا سننتخب مجموعة من الآيات و ذلك لمزيد من التوضيح، و من ثم نشرع بالبحث.

ففي القسم الأول نناقش الآيات التالية:

١- آية التبليغ و واقعة الغدير.

٢- آية الولاية.

٣- آية أُولي الأمر.

٤– آية الصادقين.

٥– آية القربى.

و في القسم الثاني نتجه نحو آيات الفضائل، و هذه الآيات لا تطرح مسألة الخلافة و الولاية بشكل مباشر، إلاّ أنّها تثبت الفضائل بحق أمير المؤمنين (عليه السلام)، حيث تصفه بأنّه أفضل اُمّة محمد (صلى الله عليه وآله)، و أسمى شخصية بعد النبي (صلى الله عليه وآله)، مع إلحاق مقدمة عقلية واضحة (**ترجيح المرجوح على الراجح قبيح**) حيث نستنتج عدم وجود شخص أليق و أجدر منه لقيادة الأمة بعد النبي (صلى الله عليه وآله).

و هذه الآيات كثيرة للغاية حيث تجري الإشارة إلى ٣٢ آية، من بينها:

١– آية المباهلة. ٢– آية خير البرية. ٣– آية ليلة المبيت. ٤– آية الحكمة. ٥– آيات سورة هل اتى. ٦– آيات مقدمة سورة براءة، ٧– آية سقاية الحاجّ. ٨– آية صالح المؤمنين. ٩– آية الوزارة. ١٠ و ١١ــ آيات سورة الاحزاب. ١٢– آية البينة و الشاهد. ١٣– آية الصدّيقين. ١٤– آية النور. ١٥– آية الانذار. ١٦– آية مرج البحرين. ١٧– آية النجوى. ١٨– آية «السابقون». ١٩ آية أذن واعية. ٢٠– آية المحبّة. ٢١– آية «المنافقين»، ٢٢ آية الايذاء. ٢٣ آية الانفاق. ٢٤– آية المحبّة. ٢٥– آية المسؤولين.

القسم الأول:الآيات التى تهتم بمسألة الإمامة بشكل مباشر

١– آية التبليغ

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَاأُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ واللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَيَهْدِى القَوْمَ الكَافِرِينَ). (المائدة / ٦٧)

شأن النزول:

جاء في الكثير من كتب علماء السنّة (**و كافة كتب الشيعة المعروفة**) سواءً التفسير أو الحديث أو التاريخ، أنّ الآية أعلاه نزلت بحق علي (عليه السلام).

و روى هذه الروايات جمعٌ كثير من الصحابة، منهم «**أبو سعيد الخدري، و زيد بن أرقم، و جابر بن عبد الله الأنصاري، و ابن عباس، و البراء بن عازب، و حذيفة، و أبو هريرة، و ابن مسعود، و عامر بن أبي ليلى**»، و جاء في رواياتهم أنّ هذه الآية نزلت بشأن علي (عليه السلام)و واقعة يوم الغدير.

و اللطيف أنّ بعض هذه الروايات نُقلت بطرق متعددة منها:

رواية أبي سعيد الخدري عن أحد عشر طريقا.

رواية ابن عباس عن أحد عشر طريقاً أيضا.

و رواية البراء بن عازب نُقلت عن ثلاثة طرق.

و من بين الذين أوردوا هذه الروايات (**بشكل واسع أو بالاجمال**) في كتبهم، العلماء المعروفون المدرجة أسماؤهم فيما يلي:

«أبو الحسن الواحدي النيشابوري في أسباب النزول ص١٥٠.

«ابن عساكر الشافعي نقلاً عن «الدر المنثور»، ج ٢، ص ٢٩٨.

«الفخر الرازي في التفسير الكبير ج٣، ص٦٣٦.

«أبو اسحاق الحمويني في «فرائد السمطين» (مخطوط).

«ابن الصباغ المالكي في «الفصول المهمّة» ص ٢٧.

«جلال الدين السيوطي في «الدر المنثور» ج ٢، ص ٢٩٨.

«القاضي الشوكاني في «فتح القدير» ج ٣، ص ٥٧.

«شهاب الدين الالوسي الشافعي في «روح المعاني» ج ٦، ص ١٧٢.

«الشيخ سليمان القندوزي الحنفي في «ينابيع المودّة» ص ١٢٠.

«بدر الدين الحنفي في عمدة القاري في «شرح صحيح البخاري» ج ٨، ص٥٨٤.

«الشيخ محمد عبدة المصري في تفسير المنار ج٦، ص٤٦٣.

«الحافظ ابن مردويه (المتوفي عام ٤١٨هــ.ق) (على ضوء نقل السيوطي في الدر المنثور) و كثيرٌ غيرهم.

و بالطبع لاينبغي نسيان أنّ بعض هؤلاء العلماء مع أهم ينقلون الرواية و شأن النزول فإنّهم يمرّون بها مرور الكرام للأسباب التي سنشير إليها لاحقا، أو يبادرون إلى نقده، حيث سنتطرق إلى بحث أقوالهم بشكل دقيق في البحوث القادمة إن شاء الله.

حادثة الغدير:

اتضح من البحث السابق و بشكل إجمالي أنّ هذه الآية و على ضوء الشواهد التي لا تحصى قد نزلت بحق علي (عليه السلام)، و أنّ الروايات التي نقلت في الكتب المعروفة لأهل السنّة فضلاً عن كتب الشيعة أكثر من أن يستطيع أحدٌ إنكارها.

و بالإضافة إلى الروايات أعلاه، فلدينا روايات اُخرى تفيد بصريح القول أنّ هذه الآية وردت أثناء واقعة الغدير و خطبة النبي (صلى الله عليه وآله) في التعريف بعلي (عليه السلام) على أنّه الوصي و الولي،

و عددها يربو على الروايات السابقة، حتى أنّ المحقق الكبير العلاّمة «الأميني» ينقل في كتاب الغدير، حديث الغدير عن ١١٠ من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالاسناد و الوثائق الحيّة، و كذلك عن ٨٤ من التابعين و٣٦٠ من مشاهير علماء المسلمين و مؤلفيهم.

إنّ كلّ من يلقي نظرةً على مجموعة هذه الأسانيد و الوثائق يدرك بأنّ حديث الغدير من أكثر الروايات الإسلامية جزماً، و هو مصداق واضح للحديث المتواتر، و من يشك في تواتره، فعليه أن لا يؤمن بايّ حديث متواتر.

و حيث إنّ الولوج في هذا البحث بنحو واسع يخرجنا عن اُسلوبنا في هذا الكتاب، فنكتفي بهذا القدر بشأن اسناد الرواية و شأن نزول هذه الآية، و نتطرق إلى مضمون الرواية، و نرشد من يريد المزيد من المطالعة حول إسناد الرواية إلى الكتب التالية:

١- كتاب الغدير، ج١.

٢- احقاق الحق، تأليف العلاّمة الكبير القاضي «نور الله التستري» مع شرح مفصل لآية الله النجفي، ج ٢ و ٣ و ١٤ و ٢٠.

٣- المراجعات للمرحوم السيّد «شرف الدين العاملي».

٤- عبقات الأنوار للعالم الكبير «ميرحامد حسين الهندي» (من الأفضل مراجعة خلاصة العبقات، ج ٧ و ٨ و ٩).

٥- دلائل الصدق، تأليف العالم الكبير المرحوم «المظفر»، ج ٢.

مضمون روايات الغدير:

و هنا نأتي بقصة الغدير بشكل مختصر كما يستفاد من مجموع الروايات أعلاه، (**و طبعاً فإنّ هذه الواقعة قد وردت في بعض الروايات بشكل مفصّل و مطوّل، و في بعضها بشكل مختصر و قصير، و في بعضها اُشير إلى جانب من هذه القصة و في البعض إلى جانب آخر، و منها جميعاً يستفاد ما يلي**):

في السنّة الأخيرة من حياة النبي (صلى الله عليه وآله) اُقيمت مراسم حجة الوداع بكل جلال بمشاركة النبي (صلى الله عليه وآله)، و كانت الأفئدة تمتلئ بالمعنويات و لم تزل اشعاعات هذه اللذة المعنوية و هذه العبادة العظيمة تنعكس في النفوس.

و كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذين كان عددهم كثيراً للغاية لا تسعهم أنفسهم نتيجة لإدراكهم هذا الفيض و السعادة العظيمة [1].

---

١. ذكر البعض أنّ عدد الذين كانوا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) ٩٠ ألف، والبعض ١١٢ ألف، وبعضٌ ١٢٠ ألف، وبعضٌ ١٢٤ ألف.

و لم يكن أهل المدينة وحدهم الذين يرافقون رسول الله (صلى الله عليه وآله) في هذا السفر، بل كان المسلمون من مختلف بقاع الجزيرة العربية برفقته (صلى الله عليه وآله) لنيل هذا الفخر التاريخي العظيم.

و كانت شمس الحجاز تضفي على الجبال و الأودية حرارة لا تطاق، إلاّ أنّ حلاوة هذا السفر المعنوي النادر كانت تيسِّر كل شيء، و قد اقترب الظهر، و أخذت منطقة الجحفة، و صحراء «**غدير خم**» الجافة الرمضاء تبدو للعيان.

و من هذا المكان الذي يتشعب إلى أربعة طرق يفرق أهل الحجاز، فطريق يتجه إلى الشمال نحو المدينة، و طريق إلى الشرق نحو العراق، و طريق إلى الغرب نحو مصر، و طريق إلى الجنوب نحو اليمن، و هنا يجب أن تُطرح آخر المستجّدات في هذا السفر، و يتفرق المسلمون بعد استلامهم لآخر حكم و هو في واقع الأمر كان خط النهاية في الواجبات الناجحة للنبي (صلى الله عليه وآله).

كان ذلك في يوم الخميس من السنة العاشرة للهجرة، و قد مضت ثمانية ايام على عيد الأضحى، و فجأة صدر الأمر من الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى الذين معه بالتوقف، و نادى المسلمون بأعلى أصواتهم أصحابَهم الذين تقدموا الركب بالتوقف و العودة، و امهلوا المتأخرين حتى يصلوا، و زالت الشمس و صدح صوت مؤذن رسول الله(صلى الله عليه وآله) بالأذان: **الله أكبر**، داعياً الناس إلى صلاة الظهر، و سرعان ما استعد الناس للصلاة، إلاّ أنّ حرارة الجو كانت إلى الحد الذي اُجبر البعض على أنّ يغطي رجليه بقسم من ازاره و يستر رأسه بالقسم الآخر، و إلاّ فإنّ حصى الصحراء و أشعة الشمس ستحرق أرجلهم و رؤوسهم.

فلا خيمة في الصحراء، و لا خضرة، و لا نبات، و لا شجرة، سوى بعض الأشجار البرّية الجرداء التي تقاوم حرارة الصحراء، و التي لاذ بها البعض، و وضعوا قطعة من القماش على إحداها و جعلوها ظلاً لرسول الله (صلى الله عليه وآله)، إلاّ أنّ الرياح اللاهبة تهب تحتها و تلفها بحرارة الشمس المحرقة.

و انتهت صلاة الظهر، و عزم المسلمون على اللجوء إلى خيامهم الصغيرة التي كانوا يحملونها معهم، بَيدَ أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) أوعز لهم بالاستعداد لسماع بلاغ إلهي جديد يُوضح ضمن خطبة مفصلة، و لم يكن بمقدور البعيدين عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) رؤية وجهه الملكوتي وسط زحام الناس، لذا فقد صنعوا له منبراً من أربعة من أحداج الإبل، فارتقاهُ النبي (صلى الله عليه وآله)، و في البداية حمد الله و اثنى عليه و استعاذ به، ثم خاطب الناس قائلاً:

«**أيّها الناس: يوشك أن اُدعى فأُجيب. أنا مسؤول، و أنتم مسؤولون. فكيف تشهدون بحقي؟**

فصاح الناس: نشهد أنّك قد بلّغت و نصحت و جاهدت فجزاك الله خيرا، ثم قال: **ألستم تشهدون أن لا إله إلاّ الله، و أنّي رسول الله إليكم، و أنّ البعث حق، و أنّ الله يبعث من في القبور؟!**

فقالوا: نشهد بذلك، قال: **اللّهم اشهد.**

ثم قال: **أيّها الناس أتسمعوني؟** قالوا: نعم، ثم عمّ السكوت الصحراء فلم يسمع إلاّ صوت الريح، فقال (صلى الله عليه وآله): **فانظروا ماذا صنعتم بالثقلين من بعدي؟**

فقال رجل من بين القوم: ما هذان الثقلان يا رسول الله؟!

قال (صلى الله عليه وآله): **أمّا الثقل الأكبر فهو كتاب الله حبل ممدود من الله إليكم، طرفه بيد الله و الطرف الآخر بأيديكم، فلا تدَعوه، و أمّا الثقل الأصغر فهم عترتي و قد أخبرني اللطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فلا تقدموهما فتهلكوا و لا تتأخروا عنهما فتهلكوا.**

و نظر الناس إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) و هو يلتفت حوله، و كأنّه يبحث عن أحد، و لما وقعت عيناه على علي (عليه السلام) التفت إليه و أخذ بيده و رفعها حتى بان بياض ابطيهما، و شاهدهما جميع القوم، و عرفوا أنّه ذلك الفارس المقدام، و هنا ارتفع صوت النبي (صلى الله عليه وآله)، و قال: **أيّها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟** قالو: الله و رسوله أعلم، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): **الله مولاي، و أنا مولى المؤمنين و أولى منهم بأنفسهم،** ثم قال: **فمن كنت مولاه فعلي مولاه،** و كرر هذا الكلام ثلاث مرات، و كما قال أرباب الحديث: إنّه كرّره أربع، ثم رفع رأسه نحو السماء، و قال:

اللّهم والِ من والاه و عاد من عاداه، و أحبّ من أحبّه و أبغض من أبغضه و انصر من نصره و اخذل من خذله و أَدر الحق معه حيث دار.

ثم قال(صلى الله عليه وآله): **ألا فليبلّغ الشاهدُ الغائبَ** ».

هنا انتهت خطبة الرسول (صلى الله عليه وآله) و كان العرق يتصبب من النبي(صلى الله عليه وآله) و جميع من حضر، و ما زال الناس لم يتفرقوا من ذلك المكان حتى نزل عليه الوحي و قرأ هذه الآية على رسول الله(صلى الله عليه وآله): (اليومَ اكملتُ لكُم دينَكُم وَأَتْمَمْتُ عَليكم نِعمتي).

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «**الله أكبر، الله أكبر على إكمال الدين و إتمام النعمة و رضى الربّ برسالتي و الولاية لعلي من بعدي**».

في هذه الأثناء عمّ الناس النشاط و الحركة، و أخذوا يهنئون علياً (عليه السلام) بهذا المقام، و كان من الذين هنّأوه، أبو بكر و عمر حيث نطقا بهذه العبارة أمام أعين الحاضرين:

«**بخٍ، بخٍ لك يا ابن أبي طالب أصبحت و أمسيت مولاي و مولى كل مؤمن و مؤمنة**».

أثناء ذلك قال ابن عباس: «**و الله إنّه عهد سيبقى في أعناقهم**»، و استأذن النبيّ (صلى الله عليه وآله)الشاعر المعروف «حسان بن ثابت» لينشد شعراً بهذه المناسبة، ثم استهل قصيدته المعروفة:

يناديهمُ يومَ الغدير نبيُّهم بُخمٍّ و أسمِعْ بالرسول مناديا
فقال فمن مولاكُمُ ونبيُّكمْ؟ فقالوا و لم يُبدو هناك التعاميا
إلهكَ مولانا و أنت نبيُّنا و لم تلقَ منّا في الولاية عاصيا
فقال له قم ياعليُّ فإنني رضيتُكَ من بعدي إماماً و هاديا
فمن كنت مولاهُ فهذا وليُّهُ فكونوا له أتباعَ صِدق مَواليا
هناك دعا اللّهُمَّ والِ وليَّهُ و كُن للذي عادى علياً مُعاديا[١]

دراسة و تحليل حول آية التبليغ:

لو تغاضينا عن جميع الروايات الواردة بشأن نزول الآية الآنفة الذكر، و كذا الروايات الواردة حول واقعة الغدير، و أمعنا النظر بمضمون الآية نفسها و ما تلاها من الآيات، نستطيع من خلال عمق هذه الآيات اتخاذ موقف ازاء مسألة خلافة النبي (صلى الله عليه وآله).

و التوضيح: أنّ الآية المذكورة باختلاف التعابير التي وردت فيها تؤكّد على أنّها ناظرة إلى قضية ذي ثلاث مزايا مهمّة:

١- إنّها قضية تحظى بأهمّيّة فائقة من وجهة نظر الإسلام إلى الحد الذي يؤمَر النبي(صلى الله عليه وآله)بإبلاغها و إن لم يفعل فما بلّغ رسالة الله! و بتعبير آخر فقد كانت أمراً مرادفاً لقضية النبوة، فإن لم يؤدّها تبقى رسالة النبي (صلى الله عليه وآله) ناقصة!

و من البديهي أنّهُ ليس المراد أنّ هذا أمرٌ الهيٌّ عاد و كل أمر إلهي لا يبلّغ لم تبلّغ رسالة الله، فهذا الكلام من قبيل توضيح الواضح و غني عن البيان، بينما ظاهر الآية هو أنّ القضية المشار إليها تحظى باهتمام خاص من حيث إنّها خلاصة الرسالة و النبوة.

٢- إنّ هذه القضية لا تتعلق بالصلاة و الصوم و الحج و الزكاة و ما شابه ذلك من قواعد تعاليم الإسلام، لأنّها من آيات سورة المائدة، و نحن نعلم أنّ سورة المائدة هي آخر سورة نزلت على النبي

١. روى هذا الشعر جماعة من كبار علماء السنة منهم، الحافظ «أبو نعيم الاصفهاني»، و الحافظ «أبو سعيد السجستاني»، و«الخوارزمي المالكي»، و الحافظ «أبو عبد الله المرزباني»، و«الكنجي الشافعي»، و«جلال الدين السيوطي»، و«سبط بن الجوزي»، و«صدر الدين الحموي».

(صلى الله عليه وآله) (أو من أواخر السور) أي في أواخر عمر النبي (صلى الله عليه وآله) المبارك حيث كان قد تمّ بيان كافة الأركان المهمّة للاسلام[1].

٣- إنّ عبارات الآية تدلل على أنّ القضية المقصودة من الآية كانت مسألة قد اتخذ البعض ازاءها موقفاً متصلباً، و لربّما تعرضت حياة النبي (صلى الله عليه وآله) إلى الخطر بسببه، من هنا أعلن الباري تعالى دعمه الخاص لنبيه في هذا الصدد و قال: (وَاللَّهُ يَعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ).

ثم يؤكّد تعالى في نهاية الآية: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهدِى القَومَ الكَافِرِينَ).

وهذه العبارة بحد ذاتها دليل على المواقف السلبية لبعض المخالفين.

إنَّ مجموع هذه الأُمور الثلاثة التي تستنتج من الآية تؤكّد على أنّ المراد منها ليس إلاّ ابلاغ خلافة و وصاية النبي(صلى الله عليه وآله).

نعم، فمثل هذا الأمر يمكن أن يحظى بالبحث و التمعن في أواخر حياة النبي (صلى الله عليه وآله)، و ليس سائر دعائم الإسلام التي كانت قد بُنيت آنذاك، و مثل هذا الأمر باستطاعته أن يكون مرادفاً للنبوة و مماثلاً له، و لو طرح هذا الامر من قبل فربّما أثيرت الاعتراضات و حدثت أخطار و مشاكل.

إنّ أي تفسير آخر يعطى لهذه الآية عدا ما يتعلق بالولاية و الإمامة و الخلافة، لا ينسجم معه.

فلو طالعتم جميع كلمات المفسّرين الذين أرادوا صرف مضمون الآية إلى قضايا اُخرى، لم يستطع أي منهم أن يُشير إلى الأمر الذي تؤكّد عليه الآية، و هذا ما حدا بهم إلى أنّ يتوقّفوا عن تفسيره.

نقاط حول الواقعة

١- معنى الولاية و المولى في حديث الغدير

لقد اطلعنا على حديث الغدير المتواتر بشكل إجمالي، و العبارة المشهورة التي جاءت عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في جميع الكتب و هي: «**من كنتُ مولاه فعليٌ مولاه**» توضح الكثير من الحقائق، و إن أصرّ كثيرٌ من كتاب أهل السنّة على تفسير كلمة «**المولى**» بمعنى الصديق و المحبّ و الناصر، لأنّ هذا أحد المعاني المعروفة لــ«**المولى**».

و نحن نسلّم بأنّ إحدى معاني «**المولى**» الصديق والمحب والناصر، إلاّ أنّ ثمّة قرائن عديدة تثبت أنّ المولى في الحديث أعلاه تعني «**الولي و المشرف و القائد**» و هي كما يلي بإيجاز:

---

١. يقول الفخر الرازي في ذيل هذه الآية، قال أصحاب الآثار إنّه لما نزلت هذه الآية على النبي (صلى الله عليه وآله) لم يعمّر بعد نزولها إلاّ أحداً وثمانين يوماً، أو اثنين و ثمانين يوماً، التفسير الكبير، ج ١١، ص١٣٩ ; و جاء في تفسير المنار أيضاً و بعض الكتب الأُخرى أنّ سورة المائدة جميعها نزلت في حجة الوداع (تفسير المنار، ج٦،ص ١١٦) و بالطبع فقد نقل البعض بشأن عدد الأيّام أعلاه، أقل من ذلك.

١– إنّ قضية محبّة علي (عليه السلام) مع جميع المؤمنين لم تكن أمراً خفياً وسرياً ومعقداً، بحيث يحتاج إلى هذا التأكيد و الايضاح، و بحاجة إلى إيقاف ذلك الركب العظيم وسط الصحراء القاحلة الساخنة و القاء خطبة عليهم لأخذ الاقرارات من ذلك الجمع.

فالقرآن يقول بصريح القول: (إنَّمَا الْمُؤمِنُونَ إخوَةٌ). (الحجرات / ١٠)

وفي موضع آخر يقول: (وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعضُهُمْ اَوْلِيَاءُ بَعْض). (التوبة / ٧١)

و الخلاصة: إنّ الأُخوّة الإسلامية و مودّة المسلمين مع بعضهم من أكثر المسائل الإسلامية بداهة، حيث كانت موجودة منذ انطلاقة الإسلام، و طالما أكّد عليها النبيُّ (صلى الله عليه وآله)مراراً بالإضافة إلى عدم كونها مسألة تحتاج إلى بيان بهذا الأُسلوب الحاد في الآية، و أن يشعر النبي (صلى الله عليه وآله) بالخطر من البوح بها (**تأملوا جيداً**).

٢– إنّ عبارة: «**أَلَسْت اولى بكم من انفسكم**» الواردة في الكثير من الروايات لا تتناسب أبداً مع بيان مودّة عادية، بل إنّه يريد القول إنّ تلك الأولوية و الصلاحيات الثابتة لي تجاهكم و كوني نبيّكم و إمامكم و قائدكم، فإنّ كل ذلك ثابت لعلي (عليه السلام) و أنّ أي تفسير لهذه العبارة غير ما قلنا فهو بعيد عن الانصاف و الواقعية، لاسيما مع الأخذ بنظر الاعتبار جملة «**من أنفسكم**» في (**أنا أولى بكم من أنفسكم**).

٣– التهاني التي قدّمها من حضر في هذه الواقعة التاريخية لعلي(عليه السلام)، لاسيما التهاني التي قدمها أبو بكر و عمر، إذ إنّها تبرهن على أنّ القضية لم تكن سوى تعيينه للخلافة التي تستحق التبريك و التهاني، فالاعلان عن المودة الثابتة لدى كل المسلمين بشكل عام لايحتاج إلى تهنئة.

جاء في مسند الإمام أحمد أنّ عمر، قال لعلي بعد خطبة النبي (صلى الله عليه وآله): «**هنيئاً لك يا ابن أبي طالب أصبحت و أمسيت مولى كل مؤمن و مؤمنة**» [١].

و نقرأُ في العبارة التي ذكرها الفخر الرازي في ذيل الآية: (يَا أَيُّها الرَسُولُ بلِّغْ مَا أُنزِلَ اِلَيكَ)إنّ عمر قال: «**هنيئاً لك أصبحت مولاي و مولى كل مؤمن و مومنة، و بهذا فإنّ عمر يعده مولاه و مولى المؤمنين جميعاً**».

و في تاريخ بغداد جاءت الرواية بهذا الشكل: «**بخ بخ لك يا ابن أبي طالب! أصبحت مولاي و مولى كل مسلم**» [٢].

١. مسند أحمد، ج٤، ص٢٨١ (على ضوء نقل الفضائل الخمسة، ج١ ص٤٣٢).

٢. تاريخ بغداد، ج٧، ص٢٩٠.

و جاء في «**فيض القدير**»، و«**الصواعق**»، أنّ أبا بكر وعمر باركا لعلي بالقول: «**أمسيت يا ابن أبي طالب مولى كل مؤمن و مؤمن**» [١].

و من نافلة القول: إنّ المودّة العادية بين المؤمنين ليست لها مثل هذه المراسيم، و هذا لا ينسجم إلاّ مع معنى الولاية التي يفيد الخلافة.

٤- إنّ الشعر الذي نقلناه آنفاً عن «**حسان بن ثابت**» بذلك المضمون و المحتوى الرفيع، و تلك العبارات الصريحة و الجلية شاهد آخر على هذا الادّعاء، و تشير إلى هذه القضية بما فيه الكفاية (راجعوا تلك الأبيات مرة أخرى).

٢- آيات أخرى في القرآن تؤيد حديث الغدير

روى كثيرٌ من المفسرين و رواة الحديث في ذيل الآيات الأُولى من سورة المعارج:

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَاب وَاقِع * لِلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ). (المعارج/١ ٣)

سبب النزول و خلاصته:

إنّ النبي (صلى الله عليه وآله) عيَّن علياً خليفة يوم غديرخم و قال بحقه: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**»، فما لبث أن انتشر الخبر، فجاء «**النعمان بن الحارث الفهري**»- (و كان من المنافقين) [٢] إلى النبي(صلى الله عليه وآله) و قال: لقد أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلاّ الله و أنّك محمد رسول الله، فشهدنا، ثم أمرتنا بالجهاد و الحج و الصلاة و الزكاة فقبلنا، فلم ترض بكل ذلك، حتى أقمت هذا الفتى «**مشيراً إلى علي**(عليه السلام) **خليفة لك، و قلت: مَنْ كنتُ مولاه فعليٌ مولاه فهل هذا منك أم من الله**»؟ قال النبي (صلى الله عليه وآله): «**و الله الذي لا معبود سواه إنّه من الله**»، فالتفت إليه «**النعمان بن الحارث**»، و قال: «**إلهي إن كان هذا حقاً منك فأنزل علينا حجارة من السماء**».

و فجأةً نزلت حجارة من السماء على رأسه و قتلته فنزلت آية (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَاب وَاقِع).

ما ورد أعلاه يطابق الرواية التي نقلت في مجمع البيان عن أبي القاسم الحسكاني [٣] و قد نقل هذا المضمون الكثير من مفسري أهل السنّة و رواة الأحاديث مع شيء من الاختلاف، مثل: القرطبي في تفسيرهِ المعروف [٤]، و الآلوسي في تفسير روح المعاني [٥]، و أبو اسحاق الثعلبي في تفسيره [٦].

---

١. فيض القدير، ج٦، ص٢١٧ ; الصواعق، ص١٠٧.

٢. جاء في بعض الروايات أنّه «الحارث بن النعمان» و في بعضها «النضر بن الحارث».

٣. تفسير مجمع البيان، ج ٩ و ١٠، ص ٣٥٢.

٤. الجامع لأحكام القرآن، ج١٠، ص٦٧٥٧.

٥. تفسير روح المعاني، ج ٢٩، ص ٥٢.

٦. وفقاً لنقل نور الابصار للشبلنجي، ص ٧١.

و ينقل العلاّمة الأميني هذه الرواية في كتاب الغدير عن ثلاثين من علماء السنة (**مع ذكر المصدر ونص العبارة**)، منها السيرة الحلبية، «**فرائد السمطين» للحمويني، و «درر السمطين» للشيخ محمد الزرندي، و «السراج المنير» لشمس الدين الشافعي، و «شرح الجامع الصغير» للسيوطي، و «تفسير غريب القرآن» للحافظ أبو عبيد الهروي، و «تفسير شفاء الصدور» لأبي بكر النقاش الموصلي، و كتب اُخرى**.

و قد أورد بعض المفسرين أو المحدِّثين الذين يُقرّون بفضائل علي (عليه السلام) على مضض، إشكالات مختلفة على سبب النزول هذا، أهمها الإشكالات الأربعة التالية التي أوردها صاحب تفسير المنار و آخرون بعد ذكرهم لهذه الرواية:

الإشكال الأول: إنّ سورة المعارج مكية، و لا تتناسب مع واقعة غدير خم.

والجواب: إنّ كون السورة مكية لا يعتبر دليلاً على أنّ جميع آياتها نزلت في مكة، فلدينا العديد من سور القرآن الكريم التي تُدعى بالمكية و كتبت في جميع المصاحف على أنّها مكية، بيد أنّ عدداً من آياتها نزلت في المدينة، و كذا العكس، فعلى سبيل المثال أنّ سورة العنكبوت من السور المكية، و الحال أنّ آياتها العشر الاُولى نزلت في المدينة، على ضوء قول الطبري في تفسيرهِ المعروف، و القرطبي في تفسيره و آخرين من العلماء [١].

أو سورة الكهف المعروفة بأنّها مكية بينما نزلت آياتها السبع الاُولى في المدينة استناداً لتفسير «**القرطبي**»، و «**الاتقان**» للسيوطي، و تفاسير عديدة [٢].

و هكذا فهنالك سورٌ عُدَّت بأنّها مدنية بينما نزلت آيات منها في مكة، مثل سورة «**المجادلة**» فهي مدنية كما هو معروف، إلاّ أنّ الآيات العشر الاُولى منها نزلت في مكة، طبقاً لتصريح بعض المفسرين [٣].

و موجز الكلام أنّه توجد حالات كثيرة بأن تذكر سورة على أنّها مكية أو مدنية، و يكتب عليها في التفاسير و المصاحف هذا الاسم إلاّ أنّ جانباً من آياتها قد نزل في موضع آخر.

و عليه فلا مانع أبداً من أن تكون سورة المعارج هكذا أيضا.

الاشكال الثاني: جاء في هذا الحديث أنّ الحارث بن النعمان جاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله) في الأبطح، و نحن نعلم أنّ الأبطح اسم لوادي مكة، و لا تتلائم مع نزول الآية بعد واقعة الغدير بين مكة و المدينة.

---

١. تفسير جامع البيان، ج٢٠، ص٨٦ ; وتفسير القرطبي ج١٣، ص٣٢٣.

٢. للمزيد من الاطلاع على الموضوع، راجعوا الغدير، ج ١، ص٣٥٦، و ٢٥٧.

٣. تفسير أبي السعود الذي كتب على هامش تفسير الرازي، ج ٨ ص ١٤٨; والسراج المنير، ج٤، ص٣١٠.

الجواب: أولاً: إنّ عبارة الأبطح في بعض الروايات فقط لا في جميعها، و ثانيا: إنّ «**الابطح و البطحاء**» تعني الأرض الرملية التي يجري فيها السيل، و هنالك مناطق في المدينة و سائر المناطق يطلق عليها اسم الأبطح أو البطحاء أيضا، و اللطيف أنّه قد اُشير إليها مراراً في الشعر العربي.

منها: الشعر المعروف الذي أنشده «**شهاب الدين**» المشهور بـــ «**حيص بيص**» في رثائه لأهل البيت (عليهم السلام)، عن لسانهم في مخاطبة قاتليهم:

ملكنا فكان العفو منّا سجية — فلما ملكتم سال بالدم أبطحُ
و حلّلتم قتل الاسارى وطالما — غدونا عن الاسرى نعفُّ ونصفحُ

و من الواضح أنّ مقاتل أهل البيت (عليهم السلام) كانت على الأغلب في العراق و كربلاء و الكوفة و المدينة، و ما أُريق دمٌ في أبطح مكة أبدا، نعم استشهد بعض أهل البيت (عليهم السلام)في واقعة «**الفخ**» التي تبعد عن مكة ما يقرب من فرسخين، و الحال أنّ الأبطح يجاور مكة [١].

و شاعرٌ آخر يرثي الإمام الحسين (عليه السلام) سيد الشهداء قائلا:

و تئنُّ نفسي للربوعِ و قد غدا — بيت النبيِّ مقطّع الاطنابِ
بيتٌ لآلِ المصطفى في كربلا — ضربوه بين اباطح و روابي

و ثّمة أشعار اُخرى كثيرة ورد فيها تعبير «**الأبطح**» أو«**الأباطح**» لا تعني منطقة خاصة في مكة.

و ملخّص الكلام، صحيح أنّ أحد معاني الأبطح هو بقعة في مكة، إلاّ أنّ معنى و مفهوم و مصداق الأبطح لا ينحصر بتلك البقعة.

٣- كيفية ارتباط هذه الآية بما قبلها و بعدها

إنّ بعض المفسرين و من أجل مجانبة الحقيقة الكامنة في هذه الآية توسّل بمبرر آخر و هو: إنّ سياق الآيات السابقة و اللاحقة بشأن أهل الكتاب لا تنسجم مع قضية الولاية و الخلافة و الإمامة، و لا تتناسب هذه الاثنينية مع بلاغة و فصاحة القرآن [٢].

إلاّ أنّ كافة المطلعين على كيفية جمع آيات القرآن يعرفون أنّ آيات القرآن نزلت تدريجياً و بمناسبات مختلفة، من هنا فكثيراً ما تتحدث سورةٌ ما حول قضايا مختلفة، فجانبٌ منها يتحدث عن الغزوة الفلانية، و الجانب الآخر حول الحكم و التشريع الإسلامي الفلاني، و جانبٌ يخاطب المنافقين، و آخر يخاطب المؤمنين، فمثلاً لو طالعنا سورة النور لوجدناها تحتوي على جوانب متعددة، كلٌ منها ناظرٌ إلى موضوع، بدءً من التوحيد و المعاد و مروراً بتنفيذ حدّ الزنا و قصة «**الافك**»، و القضايا

---

١. الغدير، ج١، ص٢٥٥.
٢. تفسير المنار، ج٦، ص٤٦٦.

المتعلقة بالمنافقين، و الحجاب، و غيرها، (**و كذلك سائر السور الطوال إلى حد ما**)، بالرغم من وجود ارتباط عام بين مجموعة اجزاء السورة.

و السر وراء هذا التنوع في المحتوى ما قيل: إنّ القرآن نزل تدريجياً و حسب المتطلبات و الضرورات و في مختلف الأحداث، و ليس على هيئة كتاب كلاسيكي أبداً بحيث يتابع موضوعاً معدّاً سلفاً، على هذا الأساس لا مانع على الاطلاق من أن تنزل مقاطع من سورة المائدة بشأن أهل الكتاب، و مقاطع منها في واقعة الغدير، بالطبع فمن وجهة النظر العامة إنّهما يرتبطان معاً إذ إنّ تعيين خليفة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) يترك أثره على قضايا أهل الكتاب أيضا، لأنّه سيؤدّي إلى يأسهم من انهيار الإسلام برحيل النبي (صلى الله عليه وآله).

٤- لماذا لم يحتج الإمام على (عليه السلام) بحديث الغدير؟

إنَّ البعض الآخر من اللاهثين وراء التبريرات يقول: إذا كان حديث الغدير يتمتع بهذه العظمة و الواقعية فلماذا لم يحتج به علي (عليه السلام) و أهل بيته و أصحابهُ و محبّوه عند الحاجة؟ ألم يكن من الأفضل أن يستندوا إلى مثل هذه الوثيقة المهمّة من أجل إثبات خلافة علي (عليه السلام)؟!

إنّ هذا الإشكال شأنه شأن سائر الإشكالات فهو ناتج عن عدم الاطلاع الكافي على كتب الحديث و التاريخ و التفسير، فلقد رويت أحاديث عديدة في كتب علماء السنّة أنّ عليا (عليه السلام)أو الأئمّة أو أنصارهم قد احتجوا بحديث الغدير، و المدهش هو: كيف غابت عن أنظار المشككين؟.

منها ما ينقله «**الخطيب الخوارزمي الحنفي**» في كتابه «**المناقب**» عن «**عامر بن وائلة**» **قال: كنت مع علي** (عليه السلام) **يوم الشورى و سمعته يقول لهم**: «**لاحتجّن عليكم بما لايستطيع عربيكم و لا عجميكم تغيير ذلك، ثم قال: أنشدكم الله أيّها النفر جميعاً أفيكم أحد وحّد الله قبلي؟.... فانشدكم بالله هل فيكم أحدٌ قال له رسول الله** (صلى الله عليه وآله): **مَن كنتُ مولاه فعليٌ مولاه اللهمَّ والِ مَن والاه و عاد من عاداه و انصر من نصره ليبلغ الشاهد الغايب، غيري**» [١].

و نقل هذه الرواية الحمويني في فرائد السمطين في الباب ٥٨، و ابن حاتم في درر النظم، و ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة.

كما روى ابن حجر في الصواعق هذا المضمون عن الدار قطني [٢].

و في كتاب الغدير ذكر بحث شامل و بمصادر واسعة حول «**مناشدة**» أمير المؤمنين (عليه السلام)في مواطن عديدة، منها أيّام عثمان، و إبان خلافته،و يوم الجمل، و مرّة أُخرى في الكوفة يوم صفين،

---

١. المناقب، ص ٢١٧.

٢. الغدير، ج ١، ص١٦١.

بالإضافة إلى المواضع الستة عشر الأُخرى المنقولة من احتجاجات فاطمة (عليها السلام)، و الإمام الحسن (عليه السلام)، و الإمام الحسين (عليه السلام)، و جماعة من الصحابة و غيرهم، التي تحكي عن المعلومات الواسعة لهذا الكاتب الكبير من ناحية، و من ناحية آخرى تبرهن على أنّ الاحتجاج بهذا الحديث كان موضع اهتمام على مدى القرون المختلفة، بالرغم من سعي السياسات الخاصة التي كانت مهيمنة على هذه القضية في التقليل من أهمّيّتها قدر الإمكان.

و نظراً إلى أنّ الغور في هذه البحوث الواسعة يخرجنا عن الهدف الذي نبتغيه، فإنّنا نكتفي بهذا المقدار و نحيل الراغبين إلى هذا المصدر [١] و سائر المراجع.

الخلاصة

١–كما تناولت الايات المباركة الامامة العامة كذلك تطرق آيات عديدة في الكتاب العزيز الى موضوع الامامة الخاصة وهي على صنفين: ذات المضمون الصريح و ذات المضمون غير الصريح.

٢–من الآيات التي تتحدث عن الامامة بعد رسول الله (ص) بشكل مباشر هي آية التبليغ و آية الولاية و آية الصادقين و آية اولي الأمر و آية اولي القربى.

٣–هناك عدد كبير من الآيات القرآنية تحدثت عن الإمامة بشكل غير صريح و ذلك بذكر الفضائل الخاصة بأهل البيت منها آية المباهلة و آية التطهير و آية خير البرية و آيات سورة هل اتى و....

٤–روى عدد كبير من الصحابة و التابعين و أئمة التاريخ و التفسير و الحديث نزول قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَاأُنزِلَ اِلَيكَ مِن رَّبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ في علي(ع).

٥–خلاصة ما جرى في واقعة الغدير هو ان النبي(ص) بعد رجوعه من حجة الوداع (وقد رافقه جمّ غفير من المسلمين) رفع يد علي بن ابي طالب و نادى:«من كنت مولاه فعلي مولاه».

٦–لقد رافق هذا الحدث الكبير نزول آية التبليغ و قوله تعالى: ﴿ اليومَ اكملتُ لكُم دينَكُم وَأَتْمَمْتُ عَليكم نِعمتي ﴾.

٧–تركز آية التبليغ على امور:١–موضوعها في غاية الأهمية (فما بلّغت رسالته)٢–لا تتحدث عن حكم شرعي لانها في اواخر حياة النبي(ص)٣–خطر المعارضة(والله يعصمك من الناس).

٨–لو أمعنّا النظر في هذه الامور الثلاث يتّضح بجلاء أن الآية لا تتحدث إلا عن الخلافة و الامامة بعد رسول الله (ص).

---

١. المصدر السابق، ص١٥٩– ٢١٣.

٩- « المولى »تعني الامام و الولي و القائد لا المحب و الناصر لان المودة ثابتة بين كل المؤمنين كما ان التهاني التي قدمت لعلي(ع) لا تتناسب مع اعلان مجرد محبة و مودة.

١٠-من الايات التي تعضد نزول آية التبليغ في ولاية علي(ع) مطلع سورة المعارج (١-٣) حيث انكر احد المنافقين ولاية علي فترلت عليه حجارة من السماء و قتلته، روى ذلك كبار المفسرين.

١١- اشكل على آية التبليغ بأن الآيات السابقة و اللاحقة تتحدث عن احكام أهل الكتاب و لا صلة بين الامرين.

١٢-الجواب هو ان هذا الامر متكرر في سور كثيرة حيث تتناول كل مجموعة من الايات موضوعاً معيناً مضافا الى ان خلافة الرسول(ص) يوجب يأس اهل الكتاب من القضاء على الاسلام.

١٣-قيل ان الآية لو كانت في ولاية علي(ع) فلماذا لم يحتج بها علي(ع) على المسلمين و الجواب ان مصادر المسلمين حافلة بمواطن احتجاج على و اهل بيته (ع) بهذه الواقعة.

بسمه تعالى

جامعة المصطفى ﷺ المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ١٦

الولاية والإمامة الخاصة (٢)

بكالوريوس

المقدمة

متابعة لموضوع الامامة في القرآن الكريم نتناول في هذا الدرس آية اخرى من كتاب الله العزيز و هي قوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة/٥٥). فما هو معنى الولاية هنا و ما صلتها بالامامة؟ فيم نزلت هذه الآية و من هو المتصدق أثناء ركوعه؟ ما مدى دلالة هذه الآية و ما هي الاشكالات الواردة على دلالتها؟ هذه هي محاور نتعرف عليها في هذا الدرس و نناقش الاقوال على ضوء الكتاب و السنة و التاريخ.

المحتوى العلمي

آية الولاية

الآية الأُخرى التي تعقب قضية الإمامة الخاصة، تقول:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ). (المائدة/ ٥٥)

سبب النزول:

روى الكثير من المفسرين و المحدّثين في سبب نزول هذه الأية أنّها نزلت بحقّ عليّ (عليه السلام).

فقد نقل السيوطي في «**الدر المنثور**» عن ابن عباس: إنّ علياً كان راكعاً و إذا سائل فأعطاه خاتمه، فسأله النبي (صلى الله عليه وآله) من الذي أعطاك هذا الخاتم؟ فأَومأ إلى علي(عليه السلام) و قال: ذلك الراكع، فنزلت آية: (إنّما وليكم الله...)[١].

و في الكتاب نفسه رويت روايات عديدة بنفس المضمون عن «**ابن عباس**»، و«**سلمة بن كهيل**» و عن علي (عليه السلام) نفسه[٢].

و روي المعنى نفسه في كتاب «**أسباب النزول**» للواحدي عن «**جابر بن عبد الله**»، و كذا عن «**ابن عباس**»[٣].

يقول المفسر الشهير «**جارالله الزمخشري**» في كتاب «**الكشاف**»: «**إنّها نزلت في علي** (عليه السلام) **حين سأله سائل و هو راكع في صلاته فطرح له خاتمه**»[٤]، و ينقل الفخر الرازي في تفسيره

---

١. تفسير در المنثور، ج٢، ص٢٩٣.

٢. المصدر السابق.

٣. أسباب النزول، ص١٤٨.

٤. تفسير الكشاف، ج١، ص٦٤٩.

عن «**عبد الله بن سلام**»: **لما نزلت هذه الآية، قلت: يا رسول الله أنا رأيت علياً تصدّق بخاتمه على محتاج و هو راكع فنحن نتولاه.**

كما و يروى عن أبي ذر قوله: **صليت مع رسول الله** (صلى الله عليه وآله) **يوماً صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده إلى السماء و قال: اللّهم اشهد أني سألت في مسجد رسول الله** (صلى الله عليه وآله)**فما أعطاني أحد شيئا، و علي** (عليه السلام) **كان راكعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى و كان فيها خاتم، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم بمرأى النبي** (صلى الله عليه وآله)**فقال:** «**اللّهم إنّ أخي موسى سألك فقال: رب اشرح لي صدري– و أشركه في أمري فأنزلت قرآنا ناطقاً** «**سنشدُّ عضدك بأخيك و نجعل لكما سلطانا** » **فترلت الآية**[١].

و بطبيعة الحال فإنّ للفخر الرازي وكالعادة شبهات على كيفية دلالة هذه الآية على الإمامة حيث سنشير إليها لاحقا.

و يروي الطبري أيضاً في تفسيره روايات عديدة في ذيل هذه الآية و سبب نزولها، إذ تفيد أكثرها أنّ هذه الآية نزلت بحق علي (عليه السلام)[٢].

و أوردت طائفة أُخرى هذه الرواية بعبارات مختلفة في حق علي (عليه السلام)، منها في كتر العمال ج٦، ص٣١٩ حيث ينقل هذه الرواية عن ابن عباس.

كما ينقل «الحاكم الحسكاني» الحنفي النيشابوري من علماء القرن الخامس المعروفين في «**شواهد التتريل**» بخمسة طرق عن «**ابن عباس**»، **و اثنين عن** «**انس بن مالك**»، **و مثلهما عن** «**محمد بن الحنفية**»، **و واحد عن** «**عطاء بن السائب**»، **و مثله عن** «**عبد الملك بن جريح المكي**» عن النبي (صلى الله عليه وآله) آية «**إنّما وليكم الله**» نزلت بحق علي (عليه السلام)عندما تصدق بخاتمه و هو راكع[٣].

و نقل المرحوم العلاّمة الأميني هذه الرواية و نزول هذه الآية بحق علي (عليه السلام) عن كثير من كتب السنّة فقارب العشرين كتاباً (**مع ذكر دقيق لمصادرها و وثائقها**)، و بإمكان الراغبين مراجعة ذلك الكتاب للمزيد من الاطلاع[٤].

---

١. تفسير الكبير، ج١٢، ص٢٦.

٢. تفسير جامع البيان، ج٦، ص١٨٦.

٣. للمزيد من الاطلاع على الطرق المذكورة، راجعوا شواهد التتريل ص١٦١– ١٦٨.

٤. الغدير، ج٢، ص ٥٢ و ٥٣.

و نقل هذا المعنى في كتاب احقاق الحق عن كثير من الكتب[١].

و الأمر اللطيف الآخر هو أنّ شاعر الرسول (صلى الله عليه وآله) المعروف «حسان بن ثابت» أورد هذه القضية في شعره على أنّها مسألة تاريخية مُسلّم بها.

فهو يقول في شعره مخاطباً علياً (عليه السلام):

و أنت الذي أعطيتَ إذ كنتَ راكعاً زكاةً فدتكَ النفس ياخير راكعِ

فانزل فيك الله خير ولاية وَ بَيّنها في محكمات الشرائعِ[٢]

و نقرأ في القصيدة الأُخرى التي رواها «**سبط بن الجوزي**» عن «**حسان**»:

منْ ذا بخاتمه تَصدَّقَ راكعاً و اسرَّها في نفسه اسرار**!**[٣]

و موجز القول: إنّ نزول هذه الآية بحق علي (عليه السلام) ليس بالأمر الذي يُشكك أو يرتاب فيه حتى أنّ مؤلف «**منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**»، يقول: لقد نقلت روايات «**متظافرة**» بل متواترة عن طرق أهل السنّة و أتباع مذهب أهل البيت (عليهم السلام)بهذا الصدد. و المهم هو تبيين كيفية دلالتها على الولاية و خلافة النبي (صلى الله عليه وآله).

كيفية دلالة الآية على الخلافة:

لقد استند في الآية المذكورة على مفهوم كلمة «**الولي**»، و ذكر الإمام علي(عليه السلام)على أنّه ولي المسلمين، صحيح أنّ لكلمة الولي معانيَ عديدة كما أشرنا إليها آنفاً، فتارة تعني الناصر و الصديق، و اُخرى جاءت بمعنى المتصرّف و الحاكم المشرف و كما يقول الراغب: إنّ أصلها بمعنى أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما ثم يضيف: «**الولاية**» بكسر الواو بمعنى «**النصرة**» و«**الولاية**» بفتح الواو تعني تولي الأمر[٤].

---

١. احقاق الحق، ج٢، ص٣٩٩– ٤٠٧.

٢. روي شعر حسان بن ثابت في كثير من الكتب باختلاف بسيط، منها في تفسير روح المعاني، وكفاية الطالب للكنجي الشافعي وكتب اُخرى.

٣. تذكرة الخواص، ص١٠، ونقله الكنجي الشافعي أيضاً في كفاية الطالب ص١٢٣ وعد قائليه بعدة شعراء.

٤. مفردات الراغب، مادة (ولي) وذكر البعض ٢٧ معنى للمولى (الغدير، ج١، ص٣٦٢) إلاّ أنّ اصول معانيها ذانك المعنيان و البقيّة ترجع إليهم.

أمّا القرينة الموجودة في الآية فهي تدلّ على أنّ «**الولي**» هنا تعني المتولي و المشرف و صاحب الخيار لأنّها لو كانت تعني الناصر و الصديق و المعين لشملت المؤمنين جميعا، كما نقرأ في الآية: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْض). (التوبة / ٧١)

بَيدَ أنّ الولاية في آية البحث اعتبرت منحصرة في حالة خاصة بذلك المتصدق في ركوعه، و كلمة «**إنّما**» التي تفيد الحصر جاءت معها (**تأملوا جيداً**).

إنّ هذا التعبير يجعلنا نتيقن بأنّ «**الولاية**» في الآية الآنفة الذكر لا تعني الصداقة و النصرة (**و كذا سائر المعاني المشابهة و القريبة لهذا المعنى**)، و على هذا الأساس فلا مجال إلاّ أن تكون بمعنى المتولّي و صاحب الأمر المشرف، الذي توازي ولايته ولاية الله و النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله).

و الآية التالية: (وَمَنْ يَتولَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ و الَّذِينَ آمَنُوا فَإنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُونَ).

و حقيقة هذه الآية أنّها تتمّة لمضمون الآية المذكورة، و تلاحظ فيها قرينة اُخرى على تفسير الولاية بمعنى تولي الأمر و الاشراف، لأنّ التعبير بـــ «**حزب الله**» و انتصارهم على الأعداء يتعلق بإقامة حكومة إسلامية لا على أساس الصداقة العادية، و هذا يفيد أنّ كلمة الولي في الآية تعني المشرف و الحاكم و الماسك بزمام اُمور الإسلام و المسلمين، لانّ معنى «**الحزب**» هو ضربٌ من التنظيم و التضامن الاجتماعي من أجل تأمين اهداف مشتركة.

شبهات واعتراضات:

إنّ دلالة الآية على الإمامة و الخلافة- كما رأينا واضحةٌ، ولو كانت هذه الآية قد نزلت بحق الآخرين ربّما لم يجرِ حولها أدنى جدال! و لكن لكونها قد نزلت بحق علي (عليه السلام)و لا تنسجم مع الغاية الناشئة عن الطائفية، فقد أصرّ البعض على إيراد الشبهات على صدر الآية و ذيلها و سبب نزولها و دلالتها من كل جانب.

و يمكن تصنيف هذه الشبهات إلى صنفين: فبعضها ذات صبغة علمية ظاهراً فيجب الرد عليها بصورة علمية، إلاّ أنّ البعض يستند إلى ما يُستَشَهدُ بهِ، و كذلك وجود المبررات حسب زعم مثيريها فينبغي أيضاً بحثها و نقدها بشكل إجمالي:

١- الشبهة الاُولى التي تعتبر من الصنف الأول هي أنّ الضمائر و الأسماء الموصولة التي في الآية جاءت بصيغة ضمير الجمع، مثل «**الذين آمنوا**» و«**الذين يقيمون الصلاة**» و«**يوتون الزكاة**» و«**هم راكعون**» فكيف والحالة هذه تنطبق على فرد واحد.

فالآية تقول: إنّ أولياءكم هم الذين يتمتعون بهذه المزايا أي علي بن أبي طالب (عليه السلام).

و الجواب: بالنظر إلى سبب نزول الآية الذي نقل بشكل مستفيض بل متواتر في كتب الشيعة و السنّة لم يبق مجال للشكّ في أنّها ناظرةٌ إلى شخص واحد، و بتعبير آخر: إنّ الروايات و التاريخ الإسلامي يشهد بأنّ التصدق على السائل في حال الركوع يختص بعلي (عليه السلام) لأنّ القائم بالتصدّق واحد، و لم تقم به مجموعة، من هنا لابدّ من القول: إنّ التعبير بصيغة الجمع جاء من أجل احترام و تعظيم منزلة ذلك الشخص.

و كثيراً ما يُشاهد في الأدب العربي أنّ لفظ الجمع جاء تعبيراً عن المفرد، فمثلاً جاءت كلمة «**نسائنا**» في آية المباهلة بصورة الجمع، بينما المقصود منها فاطمة الزهراء (عليها السلام)فقط طبقاً لصريح سبب النزول، و في نفس الآية جاءت كلمة «**أنفسنا**» بصيغة الجمع، و الحال أنّ الجميع يسلّمون بأنّ لا أحد شارك في المباهلة غير النبي (صلى الله عليه وآله) و علي (عليه السلام)، و جاء في القرآن أيضاً في قصة «**غزوة حمراء الأسد**»: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (آل عمران / ١٧٣)

وهنا ذكر الناطق بهذا الكلام كلمة «**الناس**» التي تفيد الجمع بينما جاء في التاريخ أنّ القائل ليس سوى «**نعيم بن مسعود**».

و جاء أيضاً بشأن نزول الآية: (فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ...). (المائدة / ٥٢)

إذ نعلم هنا أنّها نزلت بشأن «**عبد الله بن أبي**»، و الحال أنّ الضمائر هنا جاءت بصيغة الجمع.

كما أنّ الخطاب في الآية الأُولى من سورة الممتحنة عامٌ بينما نزلت بشأن رجل يدعى «**حاطب بن أبي بلتعة**»، و في الآية التالية جاء الضمير بصيغة الجمع أيضاً: (يَقُولُونَ لَئِنْ رَّجَعنا إِلَى الَمدِينَةِ...) بينما كان القائل هو «**عبد الله بن أُبي**. (المنافقون / ٨)

و كذلك في الآية: (الَّذِينَ يُنفقُونَ اَمْوَالَهُمْ بِالَّليلِ وَ النَّهَارِ). (البقرة / ٢٧٤)

التي نزلت في حق علي (عليه السلام)طبقاً للكثير من الروايات، بينما ضمائرها جميعاً جاءت بصيغة الجميع.و جاءت الآية ٢١٥ من سورة البقرة المتعلقة بالسؤال عن الأشياء التي يجب أن ينفقوها: (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ) بصيغة الجمع بينما كان السائل هو شخص يدعى «**عمرو بن الجموح**»[١].

---

١. للمزيد من الاطلاع على مصادر هذه الروايات، يراجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ٢١٥ من سورة البقرة.

و لكن ما السبب في أن يأتي الكلام بصيغة الجمع في هذه الحالات مع أنّ المراد شخص واحد؟ ربّما يكون سببه في بعض الحالات، الاحترام، و في بعضها إشارة إلى مؤازرة الآخرين لذلك الشخص، و بالتمعّن في الحالات أعلاه يمكن تمييز حالات الاحترام عن حالات المؤازرة.

فضلاً عن كل ذلك فنحن نعلم أنّ ضمير الجمع «**المتكلم مع الغير**» قد استخدم في آيات القرآن في حالات لا حصر لها أثناء حديث الله عن نفسه، مع أنّ ذاته المقدّسة لا نظير لها في الوحدانية و التفرد، و هو «**أحد واحد**» من جميع الجوانب، و هذا مردّه إلى أنّ العظيم يمتلك جنوداً مطيعين و ممثّلين لأوامره في أداء ما يشاء، و هذا يؤدّي إلى استخدام ضمير الجمع مع كونه مفردا، و بتعبير آخر إنّ ضمير الجمع هذا دليلٌ على عظمته و سموّ مقامه.

٣– الشبهة الثانيه هي أنّ من المُسلَّم به أنّ عليا (عليه السلام) لم تكن له ولاية بمعنى الحكم و قيادة المسلمين في عصر النبي (صلى الله عليه وآله)، فكيف يتعين تفسير الآية هكذا؟ الجواب عن هذا السؤال واضح، فكثيراً ما شاهدنا خلال التعابير اليومية بأنّ يطلق اسم أو عنوان على أشخاص مرشحين أو منتخبين لذلك المنصب و إن لم يمارسوا العمل به بعد، أو بتعبير آخر: إنّهم يتمتعون بذلك المقام بالقوة لا بالفعل.

فمثلاً يقوم إنسان في حياته بتعيين شخص ما «**وصياً**» له، و بالرغم من كونه حياً فإننا نقول: إنّ فلاناً وصيّه أو القيِّم على أطفاله.

فإطلاق الوصي و الخليفة على علي (عليه السلام) في عهد النبي(صلى الله عليه وآله) كان من هذا القبيل أيضا، حيث اختاره النبي (صلى الله عليه وآله) في حياته لهذا الأمر بإذن من الله، و أثبت له الخلافة بعد رحيله.

و يلاحظ هذا المعنى أيضاً في الآية الكريمة إذ يطلب زكريا من الله تعالى: (هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً). (مريم / ٥)فاستجاب الله دعائه و وهب له يحيى، و من المسلم به أنّ يحيى لم يكن خليفته و وليه و وارثه في حياته، بل عُيّنَ لما بعد حياته.

و يشاهد نظير هذا الكلام في واقعة «**يوم الانذار**» (**اليوم الذي جمع به النبي** (صلى الله عليه وآله)**أقرباءَه ليدعوهم إلى الإسلام للمرة الأُولى**)، فطبقاً لما ذكره «**المؤرخون**» الإسلاميون سواء من السنّة أو الشيعة، أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) أومأ إلى علي (صلى الله عليه وآله) في ذلك اليوم و قال: «**إن هذا أخي و وصيي و خليفتي فيكم فاسمعوا له و اطيعوه**»[١].

١. روى هذا الحديث الكثير من علماء السنّة مثل، ابن أبي جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي والثعلبي والطبري، وأورد ابن الأثير هذا الكلام في ج٢ من كتاب الكامل، وكذلك «أبو الفداء» في الجزء الأول من تاريخه، وجماعة آخرون (للمزيد من الاطلاع انتظروا البحوث الآتية).

فهل يتسبب التعبير أعلاه في خلق مشكلة في عهد النبي (صلى الله عليه وآله)؟

فلا شكّ في أنّ الجواب سيكون بالنفي، فالتعبير بالولي في آية البحث هو كما أشرنا إليه.

أمّا شبهات الفريق الثاني (**التبريرات**) فهي عديدة أيضاً منه:

١- قولهم: أي زكاة واجبة كانت متعلقة بذمة علي (عليه السلام) و هو الذي لم يكن يجمع لنفسه من مال الدنيا أي شيء؟ و إذا كان المراد الصدقة المستحبة فلا يقال لها زكاة؟

الجواب، أولا: إنّ موارد إطلاق الزكاة في القرآن الكريم على الزكاة المستحبة كثيرة، فكثيراً ماورد في العديد من السور المكية اسم «**الزكاة**» و المراد منها الزكاة المستحبة، إذ إنّ وجوبها كان بعد هجرة النبي (صلى الله عليه وآله) إلى المدينة.

و الآيات ٣ من سورة النمل، و٣٩ من سورة هود، و٤ من سورة لقمان من جملة الموارد التي جاءت فيها كلمة الزكاة، و نظراً لكون هذه السور مكية فإنّ المراد هو الزكاة المستحبة.

ثانيا: صحيح أنّ علي(عليه السلام) لم يدّخر من مال الدنيا إلاّ أنّه كانت تأتيه حصة من بيت المال، و من المتيقن أنّه كان يمتلك وارداً بسيطاً من مجهوده أيضا، و إنّ الخاتم المذكور من الفضة و الظاهر أنّه كان رخيصا، على هذا الأساس فإنّ تعلق هذا القدر من الزكاة البسيطة به (عليه السلام) ليس مستبعداً أبدا، و إنّ المبالغة بما قالوه بشأن قيمة ذلك الخاتم لا أساس لها من الصحة على الاطلاق.

ثالثاً: ألا يتعارض الانتباه إلى السائل مع حضور القلب في الصلاة و الاستغراق في مناجاة الخالق جل وعلا مع القول السائد عنه: (**حتى عرف بأنّ نصلاً وقع في رجله فأخرجوه أثناء الصلاة و لم يُحسّ**)[١] فكيف يتسنى له الانتباه إلى السائل أثناء الصلاة؟!

الجواب: إنّ الذي يورد هذا الإشكال غافل عن سماع صوت السائل و مساعدته فما قام به عليٌّ(عليه السلام) لا يعتبر توجها إلى غير الله، أو إلى الذات أو الاُمور الدنيوية، بل إنّه في واقع الأمر توجّه إلى الله.

فقد كان القلب المقدس لعلي (عليه السلام) يشعر بالسائلين، و يستجيب لندائهم فقد مزج عمله العبادي هذا بعبادة اُخرى، و تصدق أثناء الصلاة، و كلاهما كان لله و في سبيله.

و مثل هذا الإشكال في الحقيقة إشكال على القرآن الكريم، لأنّ الله تعالى قد امتدح في هذه الآية اعطاء الزكاة أثناء الركوع، و لو كان هذا العمل دليلاً على الغفلة عن ذكر الله فلا ينبغي أن يستند إليها كصفة سامية و فائقة الأهمّية.

---

١. نص الرواية هكذا، روي أنّه وقع نصلٌ في رجله فلم يُتَمكن من اخراجه فقالت فاطمة (عليها السلام) أخرجوه في حال صلاته فإنّه لا يحسّ بما يجري عليه حينئذ فأُخرج وهو في صلاته (المحجة البيضاء، ج١، ص ٣٩٨- احقاق الحق، ج٢، ص٤١٤).

فهؤلاء المتعصبون يريدون في الواقع انكار فضل علي (عليه السلام) فيُشكلون على الله عزّ وجلّ.

انتبهوا هنا إلى كلام الرازي فهو يقول: «**و هو أنّ اللائق بعلي** (عليه السلام) **أن يكون مستغرق القلب بذكر الله حال ما يكون في الصلاة، و الظاهر أنّ من كان كذلك فانّه لا يتفرغ لاستماع كلام الغير و لفهمه**»[١].

علينا أن نسأل الفخر الرازي أنه إذا كان هذا العمل خلافاً لآداب الصلاة و حضور القلب، فلماذا اثنى عليه الباري جلّ وعلا، و اعتبر ولاية المؤمنين حقيقة بمثل هذا الشخص؟!

على أيّة حال، فلا مجال للشك في أنّ سماع صوت المحتاج و الاستجابة له في حال الصلاة عبادة مضاعفة حصلت في آن واحد، و علينا أن نعوذ بالله من التعصب الذي يبعدنا عن الحقائق.

٣- ومن جملة التبريرات التي طرحت هنا بصيغة إشكال هو: إنّ التصدق بالخاتم على السائل فعل كثير و يتعارض مع الصلاة!.

ليس هناك ما يدعو للعجب، فعندما يريد الإنسان أن لا يذعن للواقع فإنّه يصطنع التبريرات ليحاجج بها، و هو على يقين بأنَّ تبريراته واهية؟!

والجواب، أولا: إنّ عملية اخراج الخاتم تّمت باشارة بسيطة و على ضوء جميع الفتاوى فإنّ هذا العمل لايعتبر فعلاً كثيراً و لا يوجب الإشكال في الصلاة، لا سيما إذا أشار الإمام(عليه السلام)إشارة بسيطة، و السائل اخرجه بنفسه.

ثانيا: لقد صرح الفقهاء بأنّ حتى قتل الحيوان اللادغ مثل «**العقرب**» أثناء الصلاة، أو رفع الطفل أثناء الصلاة، أو حساب عدد الركعات عن طريق الحصى، بل و حتى غسل جانب من اللباس أو اليد إذا تنجست أثناء الصلاة، لايضر بالصلاة، بينما يعتبر اعطاء الخاتم للسائل أو اخراجه أبسط من ذلك بكثير. يقول المبررون: من اين جاء علي (عليه السلام) بذلك الخاتم النفيس؟ و ألم يكن التختم به إسرافا؟

الجواب: من الذي قال: إنَّ ذلك الخاتم كان نفيسا، ولماذا نصغي ونصدّق بمثل ذلك الهراء الفارغ، و نسير رويداً رويداً نحو إنكار آية قرآنية؟

لقد ورد في رواية واحدة مرسلة و ضعيفة أنّ قيمة ذلك الخاتم كانت تعادل خراج الشام! حيث من المسلم به أنّها أكثر شبِهاً بالخرافة لا بالحقيقة، ولعلها جعلت من قبل الذين وضعوها بقصد التقليل من قيمة هذه الفضيلة العظيمة.

---

١. التفسير الكبير، ج١٢، ص٣٠.

إنَّ في مثل هذه الحالات ليس المهم أن ينفق فيها بل المهم هو أنّ الإنسان نفسه محتاج إلى الشيء و يغضُّ الطرف عنه في سبيل الله، و يكون هذا الفعل مقروناً بغاية الاخلاص في النيّة.

فعندما تنزل سورة كاملة في القرآن و هي (**سورة هل أتى**) بسبب اعطاء بضعة اقراص من الخبز (**وفي حالة من الجوع طبعاً**) إلى المسكين واليتيم والأسير في سبيل الله، فما العجب في أن تنزل آية بشأن التصدق بخاتم على فقير أثناء الصلاة.

وأمثال هذه الشبهات التي يؤدّي التطرق إلى ذكرها والرد عليها إلى ضياع الوقت.

الخلاصة

١–من الآيات التي تدل على الامامة قوله تعالى (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ). (المائدة / ٥٥).

٢–لقد روى عدد كثير من العلماء و المفسرين نزول هذه الاية المباركة في علي(ع) حيث تصدّق على سائل بخاتمه و هو راكع في الصلاة.

٣–تدلّ الآية على الامامة لأن الولي تارة يعني الناصر و أخرى يعني المتصرف و المشرف و لكن الآية تتضمن الحصر(إنما) بينما المعنى الاول عام بين المسلمين فيتعيّن المعنى الثاني في الآية.

٤–مما يؤيد المعنى المذكور، هي الآية التالية: (وَمَنْ يَتَولَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُونَ) فهي تتحدث عن تكوّن قوة تنظيمية عند المسلمين و هي لا تتأتى دون حكم و قيادة.

٥–أُشكِل على مدلول الآية بأن الضمائر جائت بشكل جمع فكيف تنطبق الآية على شخص واحد و هو علي (ع) و الجواب هو أن هذا الاسلوب (ضمير الجمع بدل المفرد)مستعمل في آيات كثيرة.

٦–قيل إن عليّا لم تكن له ولاية و قيادة في زمن النبي(ص) فكيف يمكن تطبيق الآية؟ و الجواب أن ذلك باعتبار المستقبل و بعد رحيل النبي(ص) و هذا الاسلوب متداول في اللغة كثيراً.

٧–قيل إن عليّا لم يكن في ذمّته زكاة واجبة و إذا كان عطائه للسائل صدقة مستحبة فهي لا يقال لها زكاة و الجواب: إن إطلاق الزكاة على الصدقات المستحبة مما ورد في القرآن الكريم.

٨–قيل إن انتباه الانسان الى كلام الغير اثناء الصلاة يتنافى و استغراقه في العبادة و الجواب ان هؤلاء أشكلوا على كتاب الله لأن الآية تتحدث عن هذا الفعل كفضيلة سامية.

٩–لا تنافي بين التوجه إلى الله و الانتباه إلى مسألة مسكين لم يجد من يتصدّق عليه في مسجد رسول الله(ص) فالامام علي(ع) جمع بين الاثنين و لذلك أثنى عليه رب العزة.

بسمه تعالى

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ١٧

الولاية والإمامة الخاصة (٣)

بكالوريوس

المقدمة

نتابع الحديث في دراسة مفهوم الامامة في منظور القرآن الكريم فنقف على آية اخرى في هذا الباب و هي قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ اَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الاَمْرِ مِنكُمْ﴾ و هذه الاية و إن كنا قد درسنا مدلولها في السابق لكن في هذا الدرس نقرأ الروايات و الاخبار التي تؤكّد نزول الآية المباركة في علي و أولاده عليهم السلام، كما و نتعرض الى الاشكالات التي ذكرها بعض بداعي التعصب و العناد و نجيب عنها، ثم نأتي على الآيتين المباركتين: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ و ﴿قُلْ لا أَسأَلُكُم عَلَيهِ اَجراً إلا المَوَدَّةَ فِى القُربَى﴾ فنعرف فيمَ نزلتا و ما مدلولهما.

المحتوى العلمي

آية أُولى الأمر

يقول تعالى في الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ اَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الاَمْرِ مِنكُمْ). (النساء / ٥٩)

في بحث الولاية العامة كان لنا كلام مفصل حول معنى هذه الآية ومن هم المقصودون فيه، و كما جرت الإشارة إليه فإنّ الأمر بالطاعة المطلقة لــ «**أُولي الأمر**» إلى جانب رسول الله (صلى الله عليه وآله) دليل على أنّ «**اولي الأمر**» تشمل الذين هم في منزلة رسول الله (صلى الله عليه وآله) أي أوصيائه المعصومين، لأنّه من المتعذر الطاعة المطلقة لغير المعصومين (عليهم السلام).

و بالمناسبة فإنّ جميع الاحتمالات التي قيلت في تفسير «**أُولي الأمر**» قد بحثت، و رأينا عدم وجود دلالة و معنى صحيح لها إلاّ في الإمام المعصوم.

إنّ ما يجب أن نضيفه على ذلك هنا في بحث الولاية الخاصة، هو «خلافة علي(عليه السلام)»، و هو بحث أكثر تفصيلاً حول الروايات التي وردت في المصادر الإسلامية المعروفة (**لاسيما مصادر أهل السنة المشهورة**) في دلالة هذه الآية على علي (عليه السلام).

نقل المفسر المعروف «**الحاكم الحسكاني**» الحنفي النيشابوري خمسَ روايات في ذيل هذه الآية حيث دلّت فيها جميعاً صفة «**أُولي الأمر**» على علي (عليه السلام) (كمصداق جلي).

ففي الرواية الأُولى ينقل عنه (عليه السلام) لما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): **شركائي الذين قرنهم الله بنفسه و بي وأنزل فيهم** (ياأيّها الذين آمنوا اطيعوا الله و اطيعوا الرسول)الآية... قلت: **يانبي الله من هم؟ قال: أنت أولهم** [١].

و في الرواية الثانية ينقل عن المفسر المعروف «**مجاهد**» أنّ هذه الآية نزلت بحق أمير المؤمنين (عليه السلام) حينما خلفه على المدينة (**عندما توجه إلى معركة تبوك**).

و في الرواية الثالثة ينقل هذا المعنى عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام)، و في الرواية الرابعة ينقل عن «**سعد بن أبي وقاص**»، قوله:«**لما نزل رسول الله** (صلى الله عليه وآله) **لحقه علي** (عليه السلام) **يحمل سلاح ; فقال: يا رسول الله خلفتني عنك و لم اتخلف عن غزوة قبلها و قد أرجف المنافقون بي أنّك خلفتني لما استثقلتني!!! قال سعد: فسمعت رسول الله** (صلى الله عليه وآله) **يقول: ياعلي أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي فارجع اخلفني في أهلي و أهلك** ».

و روي عنهُ (عليه السلام) نفس هذا المعنى في الرواية الخامسة[٢].

و في تفسير «**البحر المحيط**» تأليف «**أبي حيان الأندلسي المغربي**» و من بين ما نقل حول معنى أولي الأمر، ينقل عن مقاتل و ميمون و الكلبي (**و ثلاثتهم من المفسرين**): أنّ المراد منها اُمراء السرايا أو أئمة أهل البيت (عليهم السلام) [٣].

ثم آثار المومأ إليه شبهتين على نزول الآية بحق علي (عليه السلام):

الأُولى: أنّ علياً (عليه السلام) كان واحدا، و الحال أنّ «**اُولي الأمر**» صيغة جمع.

و الأُخرى: أنّ ظاهر هذه الآية هو أنّ الناس أمروا بأن يطيعوا اُولي الأمر أثناء وجود رسول الله (صلى الله عليه وآله) بينما لم يكن علي (عليه السلام) إماماً في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)[٤].

و كان قد طرح ما يشابه هذه الشبهات و الإشكالات في آية الولاية، و قد تطرقنا إلى الاجابة عنها بوضوح هناك، فمن ناحية قلنا، كثيراً ما يحدث للأشخاص و هم على قيد الحياة، بأن يقولون أو

---

١. سنذكر مصادر هذه الروايات عند الانتهاء من الروايات الخمس.

٢. هذه الأحاديث الخمسة أوردها صاحب شواهد التنزيل، ج١، ص ١٤٨– ١٥١.

٣. البحر المحيط، ج٣، ص ٢٧٨.

٤. المصدر السابق، ص ٢٧٩.

يكتبون: إنّ فلاناً وصييّ، وعليه أن يفعل كذا و كذا، و على أولادي اتباعه، و معنى ذلك هو أن يتعهد القيام بهذه الأعمال بعد ممات الموصي.

و إنّ قضية «**الجمع**» أيضاً كما قلنا لا تتسبب في خلق مشكلة على الاطلاق، فكثيراً ما يطلق الجمع على المفرد في القرآن و غيره من النثر و الشعر، و في الواقع إنّ «**أُولي الأمر**» هنا تفيد الجمع و تشمل جميع الأئمّة المعصومين، و إن كان في كل زمان إمام و معصوم واحد، إلاّ أنّهم سيكونون جمعاً في النهاية.

للمزيد من التفصيل بصدد الرد على هذين الإشكالين راجعوا ذيل آية الولاية.

و الجدير بالذكر هو أنّ فريقاً آخر نقل روايات في شأن نزول هذه الآية غير «**الحاكم الحسكاني**» في «**شواهد التنزيل**»إذ يقولون: إنّها ناظرة إلى خلافة علي (عليه السلام). منهم العالم الشهير «**أبو بكر بن المؤمن الشيرازي**» الذي ينقل في رسالة الاعتقاد (**على ضوء نقل المناقب للكاشي**) عن ابن عباس: إنّ الآية المذكورة نزلت بحق علي (عليه السلام) عندما توجّه الرسول الى غزوة تبوك و أبقى علياً في المدينة، فقال له علي (عليه السلام): «**أتخلفني على النساء و الصبيان؟**»، فقال له الرسول (صلى الله عليه وآله): «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى حين قال: اخلفني في قومي و اصلح، فقال عز وجل و اولي الأمر منكم**»[١].

يروي صاحب كتاب «**ينابيع المودة**» الشيخ سليمان الحنفي القندوزي في كتابه عن كتاب «**المناقب**» عن سليم بن قيس الهلالي: إنّ رجلاً جاء إلى علي (عليه السلام) و سأله: أرني أدنى ما يكون العبد مؤمنا، و أدنى مايكون به العبد كافرا، و أدنى ما يكون به العبد ضالاً؟ فقال له(عليه السلام): «**قد سألت فافهم الجواب....... و أمّا أدنى ما يكون العبد به ضالاً أن لا يعرف حجّة الله تبارك وتعالى و شاهده على عباده الذي أمر الله عزّ وجلّ عباده بطاعته و فرض ولايته**»، قلت: يا أمير المؤمنين صِفهم لي؟

قال: «**الذين قرنهم الله تعالى بنفسه و نبيه فقال**: (يَاَأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ و أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُوْلِى الْأمرِ مِنْكُمْ)» [٢].

إنّ هذه الرواية شاهد على أنّ اُولي الأمر حجج الله و المنصوبون بإذنه.

---

١. احقاق الحق، ج٣، ص ٤٢٥.

٢. ينابيع المودة، ص ١١٦.

و وردت عشرات الروايات في تفسير البرهان عن مصادر أهل البيت (عليهم السلام) في ذيل الآية كلها تقول: إنّ الآية المذكورة نزلت بحق علي (عليه السلام) أو بحقه و سائر أئمّة أهل البيت (عليهم السلام)، بل و في بعض هذه الروايات جاءت اسماء الأئمّة الاثنى عشر واحداً واحداً[۱].

آية الصادقين

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ). (التوبة / ۱۱۹)

لقد تحدثنا عن تفسير هذه الآية بالتفصيل في بحث الولاية العامة، و ما يحتاج الى توضيح أكثر هنا هو شرح الروايات الكثيرة التي طبّقت الآية على علي (عليه السلام) أو جميع أهل البيت (عليهم السلام)فمثلا:

۱- يروي المفسر المعروف «**السيوطي**» في «**الدر المنثور**» عن ابن عباس في تفسير الآية: (اتقوا الله و كونوا مع الصادقين...)، أنّه قال: «**مع علي بن أبي طالب** (عليه السلام) ».

و نقل شبيه هذا المعنى كل من «**الخوارزمي**» في «**المناقب**»، و«**الزرندي**» في «**درر السمطين**»، و«**عبد الله الشافعي**»في «**المناقب**»، و«**الحاكم الحسكاني**» في «**شواهد التنزيل**»، مع فارق أنّ بعضها يعبّر بـــ «**هو علي بن أبي طالب**»، و بعضها بـــ «**علي بن أبي طالب خاصة**»، و بعض رواها «**مع علي و أصحاب علي**»[۲].

۲- يروي «**الحافظ سليمان القندوزي الحنفي**» في «**ينابيع المودة**» عن سلمان الفارسي: لّما نزلت آية (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله و كونوا مع الصادقين)، **قال سلمان: يارسول الله هذه عامة أم خاصة؟**

قال النبي (صلى الله عليه وآله): «**أمّا المأمورون فعامة الناس، و أمّا الصادقون فخاصة، أخي علي و أوصياؤه من بعده إلى يوم القيامة**»[۳].

۳- يروي «**الحاكم الحسكاني**» في «**شواهد التنزيل**» عن عبد الله بن عمر في ذيل عبارة «**و كونوا مع الصادقين**» قوله: «**يعني محمداً و أهل بيته**(عليهم السلام)» [٤].

---

۱. تفسير البرهان، ج۱، ص ۳۸۱- ۳۸۷.

۲. المناقب، ص ۱۸۹ ; درر السمطين، ص ۹۱; المناقب لعبد الله الشافعي، ص ١٥٤; شواهد التنزيل، ج۱، ص ۲۵۹.

۳. ينابيع المودة، ص ۱۱۵.

٤. شواهد التنزيل، ج۱، ص ۲٦۲.

٤- روى جماعة من كبار أهل السنّة مثل «**العلاّمة الحمويني**» في «**فرائد السمطين**» و«**الشيخ أبو الحسن الكازروني**» في «**شرف النبي**» عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في ذيل هذه الآية قوله: «**مع آل محمد، أو مع محمد و آله، أو مع محمد و علي**» حيث إنّ معناها جميعاً متقارب[1].

و لم يقتصر العظماء الذين نقلوا الرواية على الأشخاص الذين ذكرناهم.

و هذا الأمر يحظى بالأهميّة أيضاً حيث يأمر الله تعالى المؤمنين أن يكونوا دوماً مع الصادقين، فهو حكم مطلق بلا قيد أو شرط، و هذا المعنى لايتحقق أبداً إلاّ بشأن المعصومين(عليهم السلام)، لأنّ غير المعصوم ربما يخطيء، و في هذه الحالة فانَّ الشخص الذي يمكن الوقوف إلى جانبه و اتباعه دائماً لن يكون إلاّ من المعصومين، و عليه فالمراد من الصادقين في هذه الآية ليس كل صادق، بل الصادقون الذين لا سبيل للكذب إليهم لا عمداً و لا سهواً- مع هذا فالعجب من بعض مفسري أهل السنّة المعروفين كالآلوسي في تفسير روح المعاني مثلا، فبعد ذكره لبعض الأخبار التي تفسّر الصادقين في هذه الآية بعلي(عليه السلام)، يضيف: إنّ الشيعة قد استدلوا بها على أَحقّية علي (عليه السلام)، ثم يقول: إنّه استدلالٌ باطل و يمرّ منها بدون أن يأتي بدليل واحد على مزاعمه.

إنَّ مثل هذه المواقف تدلّ على أنّه إلى أي حد يستطيع حجاب التعصب من الحيلولة دون اشعاع نور الفكر، و يسلب حرية التفكير حتى من العلماء.

و في المقابل يبرّر اُناس متحرّرو التفكير كالدكتور محمد التيجاني الذي شخّص طريقه في ظل هذه الآية و الآيات المعنيّة، و أظهر إيمانه بعلي (عليه السلام) و سائر ائمة أهل البيت (عليهم السلام)بشجاعة فائقة، و ألّف كتاباً ظريفاً و لطيفاً للغاية في هذا المجال اسماه (**لاكون مع الصادقين**)، و قد ترك هذا الكتاب أثراً عجيباً في نفوس الكثير من المسلمين.

آية القربى

يخاطب تعالى النبي (صلى الله عليه وآله) قائلاً في الآية: (قُلْ لا أَسأَلُكُم عَلَيهِ اَجراً إِلا المَوَدَّةَ فِي القُربَى). (الشورى / ٢٣)

إنّ المراد من «**القربى**» في هذه الآية، حسب ما قاله جميع مفسري الشيعة و طائفة من مفسري السنّة: هم قرابة النبي (صلى الله عليه وآله).

---

١. للمزيد من الاطلاع، راجعوا احقاق الحق، ج١٤، ص ٢٧٤ و ٢٧٥; و الغدير، ج٢، ص ٢٧٧; و احقاق الحق، ج٣، ص ٢٩٦ و مابعدها، وج ١٤، ص ٢٧٠- ٢٧٧.

و في قبال هذا التفسير ذكرت احتمالات و تفاسير اُخرى يبدو أنّ الدافع الحقيقي لها هو التقليل من أهمّية الإمامة و خلافة النبي (صلى الله عليه وآله) و التقليل من شأن أهل البيت (عليهم السلام)، منها التفاسير الثلاثة الآتية:

١- المراد من اجر و ثواب الرسالة هو حبّ الاُمور التي تدعوكم إلى القرب من الله، و عليه فإنّ «**القربى**» هي الاُمور التي تؤدي إلى القرب من الله تعالى، و من الواضح أنّ هذا التفسير لايتلائم و ظاهر الآية على الاطلاق، لأنّ المهم فيما يتعلق بالصلاة و الصوم و الجهاد و نحو ذلك من عوامل القرب الإلهي هو العمل بها لا مودتها و محبتها، فالتعبير بالمودة لا يتناسب و هذه القضية بأي شكل من الأشكال، إلاّ أن يكون هنالك شخص بين مخاطبي النبي (صلى الله عليه وآله) لم يحب هذه الاُمور حتى الذين كانوا يقصرون في عملهم، منهم مَنْ كانوا يحبون هذه الاُمور بحكم تعلقهم بالله و القرآن، و إن لم يكونوا يعملون.

فضلاً عن جميع ذلك، فـ«**القربى**» تعنى: القرب و الدنو لا «**المقرّب**»، لذا فإنّها جاءت في جميع الحالات التي استخدمت فيها هذه الكلمة في القرآن الكريم (١٥ مرة بالاضافة الى هذه الآية التي هي مورد بحثنا) بمعنى الأشخاص الذين يتمتعون بالقرابة (**و أساساً ذوي القربى النسبية**).

فلماذا و لأي سبب تفسّر آية البحث خلافاً لجميع حالات استعمال القرآن و المفهوم اللغوي لهذه الكلمة؟ هل هنالك دافع غير ما أشير إليه آنفاً؟!

الجدير بالاهتمام أنّ الكثير من أرباب اللغة قد صرّحوا بأنّ القربى، أو ذي القربى تعني قرابة النسب، فيقول صاحب مقاييس اللغة: «فلان ذو قرابتي و هو من يقرب منك رحماً»، ثم يضيف: «القربى: القرابة) أي أنّ كلاهما بمعنى واحد و جاء في لسان العرب: «**والقرابة والقربى: الدنو في النسب**».

٢- وقال البعض الآخر: إنّ المقصود هو ايها المسلمون أحبّوا قرباكم كأجر للرسالة، و الحال أنّ مودّة قرباهم لا علاقة لها بالرسالة.

عجبٌ، كيف تُتْرك محبّة قربى رسول الله (صلى الله عليه وآله) التي هي انسب معنى هنا، و تطرح مودة قرباهم على أنّها أجر الرسالة؟!

٣- و قال بعض من المفسرين: إنّ المقصود هو احفظوا قرابتي منكم كأجر للرسالة، و حيث إنّ لي قرابة سببية أو نسبية مع الكثير من قبائلكم فلا تؤذوني.

إنّ هذا التفسير هو أسوء تفسير لهذه الآية، لأنّ أجر الرسالة مطلوب من الذين تقبّلوا رسالته فقط، و لا يعني أولئك الذين يؤذون النبي (صلى الله عليه وآله)، و أمّا إذا كان المراد أعداؤه الذين يؤذونه، فأولئك لم يتقبّلوا رسالته أبدا، ناهيك عن أجرهم و احسانهم! فكيف يمكن أن يقول إنّ أجري أن لا تؤذوني لقرابتي منكم.

النقطة الأساسية فيما يخص الآية هي أنّ القرآن الكريم من ناحية ينقل عن الكثير من الأنبياء أنّهم كانوا يقولون بصريح القول (وَ مَا أَسْأَلُكُم عَلَيهِ مِنْ أَجر اِنْ أَجرِىَ إلا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ) [١].

و من ناحية اُخرى تقول الآية فيما يتعلق بالنبي (صلى الله عليه وآله): (قُلْ لاَ اَسأَلُكُمْ عَليهِ أَجْراً إلا المَوَدّةَ فِى القُربَى).

و من ناحية ثالثة: نقرأ بشأن النبي (صلى الله عليه وآله) في الآية: (قُلْ مَا أَسأَلُكُمْ عَلَيهِ مِنْ أَجرِ إلا مَنْ شَاءَ اَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً). (الفرقان / ٥٧)

و من ناحية رابعة جاء بشأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الآية: (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجر فَهُوَ لَكُم إِنْ أَجرِىَ إلا عَلَى اللَّهِ). (سبأ / ٤٧)

من خلال جمع هذه الآيات الأربعة مع بعضها يمكن الاستنتاج جيداً أنّ النبي(صلى الله عليه وآله)شأنه شأن بقية الأنبياء لم يطلب أجراً لشخصه من الناس، بل إنّ في مودة قرباه مرضاة الله، و هو امر يصب في صالح هؤلاء تماما، لأنّ هذه المودة نافذة في الإمامة و خلافة النبي (صلى الله عليه وآله)و استمرار لخط قيادة رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الأمة، و هداية الناس في ظلها (**تأملوا جيداً**).

نعم فحيثما فسرنا هذه الآيات الأربع بهذا الشكل لم تبق فيها نقطة غموض و تعقيد و اشكال، و إلاّ فسيشاهد تضاد فيما بينها من ناحية، و من ناحية اُخرى نضطر إلى تفاسير طويلة و عريضة لا تتلائم و ظاهر الآيات بأي شكل من الأشكال.

و لكن بما أنّ هذا التفسير لا يروق لبعض من المفسرين، لأنّه لايتفق مع حكمهم المسبق فقد تركوه، فتارة قالوا: إنّ طلب الأجر لا يتلائم و مقام النبي (صلى الله عليه وآله)، و على هذا الأساس فآية (إلا المَوَدَّةَ فِى القُربَىَ) يجب اعتبارها استثناءً منقطعاً، و تارة قالوا: إنّ هذه الآية لاتتفق بالآية: (قُل مَا اَسأَلُكُم عَلَيهِ مِن اَجر وَ مَا اَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ). (ص / ٨٦)

و تارة يتورطون في تبريرات معقّدة.

إنّ هذه الحقيقة تتضح أكثر فيما لو رجعنا إلى الروايات الواردة عن رسول الله(صلى الله عليه وآله)، في شرح وتفسير هذه الآية و نضعها إلى جانب هذه الآيات.

من مجموع الروايات الواردة في تفسير الآية نستنتج مايلي:

لا شك أنّ آيّة البحث ناظرة إلى قضية الإمامة و الخلافة حيث يمكن اعتبارها أجراً للرسالة، الأجر الذي يقرّب الناس إلى الله، و تعود فائدته إليهم.

---

١. بالتسلسل، الآية ١٠٩ و١٢٧ و١٤٥ و١٦٤ و١٨٠ من سورة الشعراء.

و ممّا قيل آنفا يتضح الرد على بعض المفسرين الذين طالما يتخذون موقفاً ملؤه العصبية ازاء الآيات المتعلقة بالإمامة.

يقول «**الآلوسي**» في «**روح المعاني**» في تفسير هذه الآية: «و من الشيعة من أورد الآية في مقام الاستدلال على إمامة علي كرم اللّه تعالى وجهه. قال علي كرم اللّه تعالى وجهه: واجب المحبة و كل واجب المحبة واجب الطاعة و كل واجب الطاعة صاحب الإمامة. ينتج علي رضي اللّه تعالى عنه صاحب الإمامة و جعلوا الآية دليل الصغرى.» [1]

و لكن كما فهم من البحوث الآنفة فنحن لا نريد أبداً استغلال هذه الآية من خلال الصغرى و الكبرى الواهيتين، و الأمر المهم في الآية شيء آخر و هو أنّ مودة ذوي القربى عدّت أجراً للرسالة، و في الآيات الأخرى ذكر الاجر المذكور على أنّه وسيلة للتقرب من الله و في صالح الناس، و من مجموع ذلك تتضح مسألة الإمامة و الخلافة بالتفصيل الذي ورد أعلاه، و أحاديث النبي (صلى الله عليه وآله) التي يشار إليها سند لهذا الاستدلال.

آية القربى في الروايات الإسلامية:

نقلت روايات كثيرة في مصادر السنّة و الشيعة في ذيل هذه الآية: (قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُربى) حيث لها تأثير كبير في تفسير و تبيين مفهوم الآية، من جملتها الروايات الآتية:

ينقل «**الحاكم الحسكاني**» و هو من مشاهير علماء القرن الخامس الهجري في «**شواهد التنزيل**» عن «**سعيد بن جبير**» عن «**ابن عباس**» ما يلي:

«**لّما نزلت قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى، قالوا: يارسول الله من هؤلاء القربى الذين أمرنا الله بمودتهم؟ قال: علي و فاطمة و ولدهما**» [2].

و رويت في الكتاب نفسه عدّة روايات اُخرى بهذا المضمون بطرق مختلفة عن ابن عباس [3].

٢- و في رواية اُخرى في الكتاب نفسه يروي عن أبي اُمامة الباهلي أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قال: «**إنّ الله خلق الأنبياء من أشجار شتى، و خلقت و علي من شجرة واحدة، فأنا أصلها و علي فرعها، و فاطمة لقاحها و الحسن و الحسين ثمارها و أشياعنا أوراقها فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا و من زاغ هوى، و لو أنّ عبداً عبد الله بين الصفا و المروة ألف عام، ثم ألف عام، ثم**

---

١. تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ٣٠.

٢. شواهد التنزيل، ج٢، ص١٣٠.

٣. المصدر السابق، ص١٣١- ١٣٥.

ألف عام، حتى يصير كالشنّ البالى، ثم لم يدرك محبتنا أكبّه الله على منخريه في النار. ثم قرأ: «قل لا أسألكُم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى»[١].

٣- يروي «**السيوطي**» المفسر السنّي الشهير في الدر المنثور في ذيل الآية عن مجاهد عن ابن عباس أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قال في تفسير الآية: «﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً**﴾: **أن تحفظوني في أهل بيتي وتودّوهم بي**» [٢].

٤- يروي «**أحمد بن حنبل**» في «**فضائل الصحابة**» عن «**سعيد بن جبير**»: لما نزلت آية (قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى)، سأل القوم رسول الله: من هم قرباك الذين وجبت مودتهم علينا؟ قال: «**علي و فاطمة و ابناهما،و قالها ثلاثاً**» [٣].

و نقل القرطبي المعنى نفسه في تفسير الآية بشيء من الاختلاف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

٥- يروي «**الحافظ أبو نعيم الاصفهاني**» **في** «**حلية الأولياء**» **عن** «**جابر**»: أنّ أعرابياً جاء لرسول الله (صلى الله عليه وآله)و قال: **يامحمد أعرض عليّ الإسلام، فقال**: «**تشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له و أنّ محمداً عبده و رسوله، قال تسألني عليه أجرا؟ قال: لا، إلاّ المودة في القربى، قال: قرباي أو قرباك؟ قال: قرباي، قال: هات اُبايعك، فعلى من لا يحبّك و لا يحب قرباك لعنة الله، قال** (صلى الله عليه وآله): **آمين**» [٤].

٦- و يروي المفسر المعروف «**ابن جرير الطبري**» أيضاً في ذيل هذه الآية عن ابن جبير أنّه قال: «**هي قربى رسول الله** (صلى الله عليه وآله)».

٧- يروي «**الحاكم**» في «**مستدرك الصحيحين**» عن علي بن الحسين (عليه السلام) لّما قتل علي (عليه السلام)خطب الحسن بن علي (عليه السلام) وممّا قاله في خطبته أنّه عرف نفسه حتى بلغ هذه العبارة: «**إنا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم على كل مسلم فقال تبارك و تعالى لنبيه** صلى الله عليه [و آله] وسلم: **قل لا اسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى**» [٥].

كما نقل هذه الرواية فريقٌ من مشاهير أهل السنّة، منهم محبّ الدين الطبري في الذخائر (**ص ١٣٨**) و ابن حجر في صواعقه الصفحة ١٠١، و السيوطي في الدر المنثور ذيل آية البحث.

---

١. شواهد التنزيل، ص١٤١.

٢. تفسير در المنثور، ج٦، ص٧.

٣. احقاق الحق، ج٣، ص ٢.

٤. حلية الأولياء، ج٣، ص ٢٠١.

٥. مستدرك الصحيحين، ج ٣، ص ١٧٢.

٨– يروي المفسر المعروف أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في جامع البيان عن أبي الديلم:
لما جيء بعلي بن الحسين (عليه السلام) أسيراً إلى الشام فأوقفوه عند باب دمشق، فقام رجل من أهل الشام و قال: الحمد لله الذي قتلكم و استأصلكم و قطع قرني الفتنة، فقال له علي بن الحسين (عليه السلام): أَقرأت القرآن ياشيخ؟ قال: نعم، فقال (عليه السلام) أقرات آل حم؟ قال: قرأتُ القرآن و لم أقرء آل حم، قال (عليه السلام) أما قرأت: (قل لا أسألكم علية أجراً إلاّ المودة في القربى)، فقال: و إنّكم لأنتم هم؟ قال(عليه السلام): «نعم!» [١].

٩– يروي «**ابن حجر**» في «**الصواعق المحرقة**» عن علي (عليه السلام) أنّه قال: «**فينا آل حم آية، لا يحفظ مودتنا إلاّ كل مؤمن ثمّ قرأ: قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى**» [٢].

و ورد نظير هذا المعنى أيضاً في كتز العمال [٣].

و يستفاد جيداً من هذه الرواية أنّ المراد من «**القربى**» في آية البحث هم قربى الرسول (صلى الله عليه وآله).

و المقصود من آل حم مجموعة السور التي جاءت حم في مطلعها و هي عبارة عن السور السبع التالية: المؤمن، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية و الاحقاف، و آية البحث في واحدة منها [٤].

١٠– نقل الزمخشري في الكشاف، و كذا الفخر الرازي في التفسير الكبير، و القرطبي في تفسيره حديثاً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في ذيل هذه الآية الكريمة تكشف عن أهميّة مودة آل محمد (صلى الله عليه وآله) بنحو مدهش، و نحن هنا ننقل نصّ الحديث عن تفسير الكشاف، إذ يقول:
وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه (و آله) و سلم: من مات على حب آل محمد مات شهيدا، ألا و من مات على حب آل محمد مات مغفورا له، ألا و من مات على حب آل محمد مات تائبا، ألا و من مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الإيمان، ألا و من مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر و نكير، ألا و من مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها ألا و من مات على حب آل محمد فتح له فى قبره بابان إلى الجنة، ألا و من مات على حب آل محمد جعل اللّه قبره مزارا لملائكة الرحمن، ألا و من مات على حب آل محمد مات على السنة و الجماعة، ألا و من مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا

---

١. تفسير جامع البيان، ج٢٥، ص١٦.

٢. الصواعق المحرقة، ص١٠١.

٣. كتز العمال، ج١، ص١١٨.

٤. يراجع هامش تفسير مجمع البيان، ج٧ و ٨، ص٥١٢ مطلع سورة المؤمن.

بين عينيه آيس من رحمة اللّه، ألا و من مات على بغض آل محمد مات كافرا، ألا و من مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة. [١]

والمدهش أنّه جاء في بعض حواشي تفسير الكشاف التي دونت من قبل بعض المتعصبين بعد نقل هذا الحديث الشريف: **و آثار الوضع عليه لائحة!**.

و لكن ما الدليل على وضعه و في أي موضع من هذا الحديث يلوح أثر هذا الوضع؟ لم يوضّح ذلك، سوى أنّ عظمة شأن آل محمّد (صلى الله عليه وآله) التي تمّ بيانها في هذا الحديث النبوي الشريف لاتتفق و الحكم المسبق للبعض، و لعلهم كانوا يرون عظمة آل محمّد (صلى الله عليه وآله) للمرة الأُولى بهذا المستوى الراقي في هذا الحديث النبوي الشريف، و قد نقل ذلك الحديث القديم ثلاثة من كبار المفسرين الذين يعتقدون به و تقبلوه بقبول حسن و لم يوردوا عليه مؤاخذه.

هذا في الوقت الذي يقول الفخر الرازي في ذيل هذا الحديث: و إن كان في معنى «**آل**» جدل و اختلاف، ولكن «**لا شك أنّ فاطمة و علياً و الحسن و الحسين كان التعلّق بينهم و بين رسول الله أشدّ التعلقات و هذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل**».

ويقيم «**الفخر الرازي**» أيضاً شواهد و قرائن كثيرة على هذا المعنى بأنّ علياً و فاطمة و الحسن و الحسين (عليهم السلام) داخلون في هذه الآية [٢].

يتبيّن ممّا قيل آنفاً أنّ بعض الروايات التي نقلت في ذيل هذه الآية و التي تقول: «**إنّ المخاطب فيها هم كفار قريش، و المراد هو أن لا تنسوا قرابتي منكم و لاتؤذوني لقرابتي منكم**» لا يمكن قبوله، و يحتمل أنّ وُضّاع الحديث قد نقلوا مثل هذا الأمر، للتقليل من أهميّة منزلة أهل البيت (عليهم السلام)، لأنّ مثل هذا الخطاب لكفار قريش يتعارض تماماً مع مفهوم الآية، فمن المستحيل أن يقول النبي (صلى الله عليه وآله) لهم لا أسألكم أجراً سوى أن لا تنسوا قرابتي منكم و هم غير موقنين إطلاقاً برسالة النبي (صلى الله عليه وآله) فضلاً عن رغبتهم في اعطائه الأجر.

خلاصة القول، إنّ أولئك الذين تمسكوا بهذه الرواية و لكنهم يقطعون علاقة الآية بأهل البيت (عليهم السلام) هم في الحقيقة ينكرون مضمون الآية لأنّ طلب أجر الرسالة من منكريها فارغ عن المعنى تماماً.

---

١. تفسير الكشاف، ج٤، ص٢٢٠ و ٢٢١ ; تفسير الكبير، ج٢٧، ص١٦٥ و١٦٦; تفسير القرطبي، ج٨، ص ٥٨٤٣.

٢. للمزيد من الاطلاع راجعوا تفسير الكبير، ج٢٧، ص١٦٦ و ١٦٧.

و نختتم هذا البحث بأبيات من الشعر حيث ذكرها الفخر الرازي و الآلوسي في «**التفسير الكبير**» و«**روح المعاني**» في ذيل هذه الآية ليكون ختاماً مباركاً لهذا البحث و يكون «**ختامه مسكاً**».

و هذا الشعر هو للإمام الشافعي المعروف باعتقاده الراسخ بأهل البيت (عليهم السلام)إذ يقول:

يا راكباً قف بالُمحصب من منى و اهتف بساكن خيفها و الناهض
سَحراً إذا فاض الحجيج إلى مِنى فيضاً كَمُلْتَطَمِ الفرات الفائضِ
إن كان رفضاً حبُّ آل محمّد فليشهد الثقلان انّي رافضي [١]

جعلنا الله من محبي آل محمّد (صلى الله عليه وآله) الذين نصلي عليهم في صلاتنا و بدون ذلك لا تقبل صلاتنا، اللّهم اجعل هذه المحبّة مقدّمة لمعرفة «**مقام ولايتهم**» كي لانتصور أنّ قضية بهذه الأهمّيّة طرحت على أنّها مودة عادية، ثم اجعل هذه المعرفة سبيلاً لاتباع مذهبهم.

الخلاصة

١–سبق و أن تطرّقنا الى قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ اَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الاَمْرِ مِنكُمْ﴾ و اتضح أن الامر بالطاعة المطلقة لأولي الأمر يلازم عصمتهم من كل خطأ.

٢–وردت اخبار كثيرة عن النبي(ص) تؤكّد أن أولي الأمر هم أهل بيته و على رأسهم علي بن أبي طالب(ع)،كقوله(ص) لعلي(ع) لما سأل عن أولي الامر:« أنت أوّلهم».

٣–أشكل البعض بأن اولي الامر جمع و علي شخص واحد و الجواب أن هذا الاسلوب متّبع في اللغة كثيراً و في نفس القرآن الكريم و ذلك إما للتعظيم او لغيره من الدواعي.

٤–قيل إن عليّاً لم يكن قائداً في زمن النبي (ص) فكيف تجب طاعته؟ و الجواب: أن ذلك بملاحظة المستقبل أي بعد رحيل النبي(ص) و هو استعمال شائع في اللغة ايضاً.

٥– من الآيات التي تحدّثت عن الامامة قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فقد وردت أخبار كثيرة جدّاً تؤكّد نزولها في علي و اولاده(ع).

٦–إن هذه الآية تدلّ بوضوح أن الذين أُمِرنا بمعيّتهم، صادقون في كل احوالهم لأنه لا يوجد قيد لصدقهم فهم بعيدون عن الكذب عمداً او سهواً و هذا لا يتحقق إلا في المعصوم.

٧–من الايات التي صرّحت بفضل أهل البيت قوله تعالى:﴿ قُلْ لا أَسأَلُكُم عَلَيهِ اَجراً إلا المَوَدَّةَ فِى القُربَى﴾ حيث جعلت أجر رسالة النبي(ص) هي مودة أهل بيته(ع)

---

١. تفسير الكبير، ج٢٧، ص١٦٦ ; وتفسير روح المعاني، ج٢٥، ص٣٢.

٨-تجشّم البعض في إبعاد الآية عن معناها فقال:« المراد من القربى الاعمال المقربة» و في قول آخر «المراد اقرباء المسلمين و...» و هي اقوال لا تتناغم و صريح الآية المباركة.

٩-الملفت للنظر في الآية أنه أمر النبي(ص) بأن لا يطلب من الناس اجراً و في موطن آخر يصرّح القرآن الكريم بأن كل أجر سأله النبي(ص) فهو للناس فالنتيجة أن مودة القربى نفعه للناس أيضاً.

١٠-روى الحاكم الحسكاني:«لمّا نزلت قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى، قالوا يا رسول الله من هؤلاء القربى الذين أمرنا الله بمودّتهم؟ قال: علي و فاطمة و ولدهما» و في ذلك اخبار كثيرة.

بسمه تعالى

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ١٨

آيات الفضائل (١)

بكالوريوس

المقدمة

متابعة لما ورد في القرآن الكريم من فضائل خصت أمير المؤمنين علياً عليه السلام دون المسلمين نريد أن نقف في هذا الدرس على آية اخرى و هي قوله تعالى ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ اَبْنَاءَنَا وَاَبْنَاءَكُم وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُم وَاَنْفُسَنَا وَاَنْفُسَكُم ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَذِبِينَ﴾. و هي معروفة بآية المباهلة، فمَن هم أبناء رسول الله (ص) الذين تتحدث عنهم الآية؟ و مَن المراد بـــ «نسائنا» و اخيراً من هو نفس النبي(ص)؟ في هذا الدرس نسلط الضوء على هذه المحاور و نجيب عنها من خلال السنة النبوية و الروايات الموثوقة لدى المسلمين.

المحتوى العلمي

آيات الفضائل

تمهيد:

كما أسلفنا سابقاً، إننا في هذه البحوث لانتقصّى الآيات القرآنية التي تحدثت، مباشرة عن قضية الخلافة و الولاية، بل نبحث في الآيات التي ورد فيها ذكر لفضائل على بن أبي طالب(عليه السلام) و التي بمجموعها توضح زوايا هذه القضية لمن فاتهم الاطلاع عليها، و جميع هذه الآيات تشير إلى أن أمر الإمام على(عليه السلام) مستثنىً عن الآخرين، و مع وجود علي بن أبي طالب في هذه الأمة فإنّ الإمامة و الخلافة لاتناط أمورها بغيره.

بعبارة اُخرى: إنَّ من خلال حوار بين الإنسان و عقله يمكن استنتاج مسألة الإمامة و الخلافة منها، و ذلك بأن الله الحكيم لا يجعل «**المفضول**» حاكماً و قائداً على الأفضل، بل و حتى عقلاء الدنيا فإنّهم يوجهون اللوم و التأنيب لمن يقوم بعمل كهذا، و يعتبرون فعله هذا دليلاً على ضعف إدارته و عدم تدبيره لأنّه جعل الأفضل تابعاً لمن هو أدنى منه.

إنّ هذه الآيات من الكثرة بحيث إنّ بعض العلماء ألّفوا كتباً مستقلة بهذه المسألة، إلاّ أننا اخترنا من بينها آيات تضم مفاهيم واضحة، كما أنّها تنسجم و اختصار الكتاب.

و هنا نتجه نحو المصادر المعروفة لدى أهل السنة و نختزل الكلام عما ورد في مصادر أتباع مذهب أهل البيت (عليهم السلام) لئلا يتصور أحد أنّ أتباع هذا المذهب قد نطقوا بشيء بدافع التعصب.

و على أيّة حال فإنّ هذه الآيات كثيرة، و قد اخترنا منها ٢٤ آية.

١- آية المباهلة

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ اَبْنَاءَنَا وَ اَبْنَاءَكُم وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُم وَ اَنْفُسَنَا وَ اَنْفُسَكُم ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلى الْكَذِبِينَ). (آل عمران / ٦١)

هنا ينبغي توضيح بعض الأُمور:

الاول: مضمون الآية.

الثاني: مَن الذين ذكرهم الروايات التي جاءت في المصادر الإسلامية المعروفة في تفسير هذه الآية؟

الثالث: كيفية الاستدلال بهذه الآية على أفضلية علي و فاطمة و الحسن و الحسين (عليهم السلام).

الرابع: الرد على بعض الشبهات فيما يتعلق بهذه الآية.

مضمون آية المباهلة:

تدلُّ الآية أعلاه بالإضافة إلى الآيات التي نزلت قبلها و بعدها أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) في مواجهة النصارى و إصرارهم في التمسك بعقائدهم المحرفة كزعمهم بأُلوهية عيسى (عليه السلام)مثلاً، و عدم جدوى المنطق و الاستدلال ازاء عنادهم، كان لابدّ له (عليه السلام)من التضرع و أن يسلك طريق المباهلة، و يثبت صدق كلامه من خلال هذا الطريق المعنوي، أي يباهلهم ليتبين الصّادق من الكاذب !

و المباهلة في الأصل من مادة «**بَهْل» على وزن (أَهْل)** و تعني الترك، من هنا فعندما يتركون الحيوان لحاله و لا يلفون ثداياه في كيس خاص لمنع وليده من الرضاعة يقولون له: «**باهل**»، و«**الابتهال**» في الدعاء تعني التضرع وايكال الأمر إلى الله تعالى.

و تارة فسّروا هذه الكلمة بمعنى «**الهلاك و اللعن و الطرد من الله**»، و ذلك أيضاً بسبب ترك العبد و ايكاله إلى نفسه و الخروج عن ظل لطف الله سبحانه.

هذا بالنسبة الى الأصل اللغوي، أمّا من ناحية «**المفهوم المتداول**» الذي أشير إليه في الآية، فالمباهلة هي الملاعنة بين شخصين، من هنا فعندما لاتجدي الاستدلالات المنطقية، و يجتمع الذين يدور بينهم جدال بشأن مسألة دينية مهمّة و يتضرعون إلى الله سائلين منه أن يفضح الكاذب و يعاقبه،يقال لفعلهم المباهلة و هو ما فعله النبي (صلى الله عليه وآله) في مواجهة نصارى نجران، حيث أُشير إليه في الآية.

و من خلال ما ذكر نلقي نظرة على تفسير هذه الآية:

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ اَبنَاءَنَا وَ اَبنَاءَكُم وَ نسَاءَنَا وَ نسَاءَكُم وَ اَنْفُسَنا وَ اَنْفُسَكُم ثُمَّ نَبتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الكَذِبِينَ).

لا شك أنّ هذه الواقعة التاريخية قد حصلت و لم يستطع أحد انكارها، و مفادها: أنّ النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) اختار نفراً و اصطحبهم معه للمباهلة.

جاء في الروايات الإسلامية التي نقلها المفسرون و المحدثون: لما نزلت الآية أعلاه اقترح النبي (صلى الله عليه وآله) على نصارى نجران المباهلة، فطلب زعماء النصارى من النبي (صلى الله عليه وآله)مهلة يوم واحد ليتشاوروا في الأمر، فقال لهم حبرهم:

«**انظروا محمّداً في غد فإن غدا بولده و أهله فاحذروا مباهلته، و إن غدا بأصحابه فباهلوه فإنّه على غير شيء فلما كان الغد جاء النبي** (صلى الله عليه وآله) **آخذاً بيد علي و الحسن و الحسين بين يديه يمشيان و فاطمة تمشي خلفه، و خرج النصارى يقدمهم أسقفهم، فلما رأى النبي** (صلى الله عليه وآله)**قد أقبل بمن معه سأل عنهم فقيل له: هذا ابن عمه و زوج ابنته و أحب الخلق إليه، و هذان ابنا بنته من علي** (عليه السلام)، **و هذه الجارية بنته فاطمة أعزّ الناس عليه و أقربهم إلى قلبه، و تقدم رسول الله فجثا على ركبتيه قال الأسقف جثا و الله كما جثا الأنبياء للمباهلة، فرجع و لم يقدم على المباهلة، فقال الأسقف: يا أبا القاسم إنا لا نباهلك و لكن نصالحك**» [١].

و جاء هذا المضمون أيضاً باختلافات طفيفة لا تضر بأصل القضية في الكثير من التفاسير الأُخرى، مثل **تفسير الفخر الرازي (ج٨، ص١٠)؛ و القرطبي (ج٢، ص١٣٤٦)؛ و روح البيان (ج٢، ص٤٤)؛ و روح المعاني(ج٣، ص١٨٨)؛ و البحر المحيط (ج٢، ص٤٧٢)؛ و تفسير البيضاوي (ذيل آية البحث) و تفاسير أخرى.**

و الآن لنرى كتب الحديث، ماذا تقول:

المباهلة فى أقوال المحدثين:

وردت روايات كثيرة تعدّ موثوقة و معتبرة في مصادر أهل السنّة و مصادر أهل البيت (عليهم السلام)حيث تفيد بصريح القول: إنّ آية المباهلة نزلت بحق علي و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السلام منها:

١- روي في صحيح مسلم في كتاب «**فضائل الصحابة**» في باب فضائل علي بن أبي طالب (عليه السلام) عن سعد بن أبي وقاص أنّ معاوية قال لسعد:« ما منعك أن تسبّ أبا تراب؟ قال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم، فلن أسبّهُ لئن تكون لي واحدة منهن أحبّ الي من حمر النعم »، ثم أخذ يذكر قصة حديث المنزلة في (**معركة تبوك**) و قصة اعطاء الراية

---

١. تفسير مجمع البيان، ج١ و٢، ص ٤٥٢ مع شيء من الاختصار.

لعلي (عليه السلام) إبان معركة خيبر، ثم يضيف: و لما نزلت هذه الآية (قل تعالوا ندع ابناءنا و ابناءكم)**دعا رسول الله** صلى الله عليه (وآله) وسلم **علياً و فاطمة و حسناً و حسيناً فقال**: **اللّهم هؤلاء أهلي** [١].

روى هذا الحديث جماعة آخرون من عظماء أهل السنّة مثل الترمذي في صحيحه [٢].

فبعد نقله يضيف. يقول أبو عيسى: إنّه حديث حسن و صحيح و غريب (**لعل غرابته تكمن في عدم اتفاقه مع حكمه المسبق المليء بالتعصب**).

و أحمد بن حنبل في مسنده [٣] و البيهقي في السنن الكبرى [٤] و السيوطي في الدر المنثور [٥].

٢- و في موضع آخر من صحيح الترمذي أيضاً نقل الحديث عن سعد بن أبي وقاص: «إنّه لما نزلت آية المباهلة دعا النبي (صلى الله عليه وآله) علياً و فاطمة و الحسن و الحسين (عليهم السلام) و قال: **اللّهم هؤلاء أهلي** [٦].

و الرواية نفسها نقلها الحاكم في «**مستدرك الصحيحين**»، و أخيراً يقول: هذا حديث صحيح موافق لمعايير الشيخين [٧]كما نقله البيهقي أيضاً في السنن الكبرى [٨].

٣- يروي السيوطي في «**الدر المنثور**» عن «**الحاكم**»، و«**ابن مردويه**» و«**أبي نعيم**» في «**الدلائل**»، عن «**جابر بن عبد الله الأنصاري**»: لما عزم النبي (صلى الله عليه وآله) على مباهلة النصارى، أخذ في اليوم التالي بيد علي و فاطمة و الحسن و الحسين (عليهم السلام) و أتى بهم إلى المباهله، لكنهم لم يباهلوا، ثم يضيف جابر: إنّ آية (تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم...) نزلت بحق هؤلاء [٩].يقول السيوطي: السيوطي: هذا حديث صحيح لدى «**الحاكم**».

---

١. صحيح مسلم، ج٤، ص١٨٧١، ح ٣٢، الباب ٤.

٢. صحيح الترمذي، ج٥، ص٦٣٨، ح ٣٧٣٢ (الباب ٢١ باب مناقب علي (عليه السلام)).

٣. مسند أحمد بن حنبل، ج١، ص١٨٥.

٤. السنن الكبرى، طبقاً لنقل الفضائل الخمسة، ح١، ص٢٩١.

٥. تفسير در المنثور، ذيل الآية ٦١ من سورة آل عمران.

٦. صحيح الترمذي، ج٥، ص٢٢٥ (الباب ٤، ح ٢٩٩٩).

٧. مستدرك الصحيحين، ج٣، ص١٥٠.

٨. السنن الكبرى، ج٧، ص٦٣.

٩. تفسير در المنثور، ج٢ ص٣٨ ذيل آية البحث (مع الاختصار).

٤– و يروى عن ابن عباس في كتاب الدر المنثور نفسه أنّ وفد نصارى نجران جاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله) و بعد تفصيله لقصة المباهلة و رجوع نصارى نجران يضيف: كان هذا لما خرج النبي (صلى الله عليه و آله) و كان معه علي و فاطمة و الحسن و الحسين (عليهم السلام) و قال لهم: **إن دعوت أنا فأمّنوا أنتم، فأبوا أن يلاعنوه و صالحوه على الجزية.**[١]

٥– و في نفس الكتاب يروي عن «**ابن جرير**» عن «العلباء بن أحمر اليشكري»، عندما نزلت آية قل تعالوا ندعُ ابناءنا ... و دعا النبي (صلى الله عليه وآله) بعلي و فاطمة و ابنيهما الحسن و الحسين (عليهم السلام) و اقترح على المخالفين المباهلة فأبوا [٢].

٦– يروي العلاّمة الطبري في تفسيره وبسنده عن «زيد بن علي» في تفسير هذه الآية: **كان النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين** [٣].

٧– و يروي في نفس الكتاب أيضاً بسنده عن السديّ في ذيل هذه الآية: **أخذ النبي بيد الحسن و الحسين و فاطمة و قال لعلي اتّبعنا** [٤].

٨– يقول العلاّمة «**أبو بكر الجصاص**» و هو من علماء القرن الرابع الهجري في كتاب «**أحكام القرآن**» في تعبير مفيد: إنّ رواة السير و نَقلةَ الأثر لم يختلفوا في أنّ النبي صلى الله عليه (وآله) وسلم، أخذ بيد الحسن و الحسين و علي و فاطمة رضي الله عنهم و دعا النصارى الذين حاجّوه إلى المباهلة[٥].

و على ضوء قول الجصاص فإنّ هذه القضية محل إجماع و اتفاق علماء الحديث و التاريخ جميعاً.

٩– يقول هذا العالم نفسه في كتاب آخر تحت عنوان «**معرفة علوم الحديث**» بعد ذكره لقصة المباهلة: **قال الحاكم و قد تواترت الأخبار في التفاسير عن عبد الله بن عباس و غيره انّ رسول الله** (صلى الله عليه وآله) **أخذ يوم المباهلة بيد عليّ و حسن و حسين و جعلوا فاطمة وراءهم ثم قال: هؤلاء أبناؤنا و أنفسنا و نساؤنا** [٦].

---

١. تفسير در المنثور، ج ٢، ص ٣٩.
٢. المصدر السابق.
٣. تفسير جامع البيان، ج٣، ص١٩٢ (وفقاً لنقل احقاق الحق، ج٣، ص٤٧).
٤. المصدر السابق.
٥. أحكام القرآن للجصاص، ج٣، ص١٤.
٦. معرفة علوم الحديث، ص ٥٠، (وفقاً لنقل احقاق الحق، ج٣، ص٤٨).

هذا جانبٌ فقط من الروايات المتعلقة بقصة المباهلة ونزول الآية بحق هؤلاء، و من الطبيعي أنّ اختلاف هذه الأحاديث في بعض الجزئيات مثلا إن كانت فاطمة مع النبي (صلى الله عليه وآله) أم أنّها جاءت خلفه، أم أنّ علي (عليه السلام) كان إلى جانب النبي (صلى الله عليه وآله) أم خلفه، لا يترك أثراً على أصل القضية، لأنَّ ثمّة اختلاف في نقل جزئيات و فروع و متعلقات الكثير من الوقائع التاريخية المسلم بها، مثل معركة بدر، و خيبر، و الأحزاب، و فتح مكة، و من النادر أن نستطيع العثور على واقعة تاريخية مهمّة تخلو من هذه الاختلافات في مثل هذه الأُمور الثانوية.

على أيّة حال فالروايات المذكورة و بشهادة جماعة من عظماء أهل السنة كثيرةٌ و مشهورة بحيث وصلت إلى حدّ التواتر، مع هذا فإنّ من العجب أن يقول صاحب تفسير المنار في ذيل هذه الآية: **قال الاستاذ الإمام: الروايات متفقة على أنّ النبي** (صلى الله عليه وسلم)**اختار للمباهلة علياً و فاطمة و ولديهما و يحملون كلمة** (نساءنا) **على فاطمة، و كلمة** (أنفسنا) **على علي فقط، و مصادر هذه الروايات الشيعة ! و مقصدهم منها معروفٌ !** [١].

وإنّه لمدهشٌ حقا، فعندما تتركز قاعدة الحكم المسبق و التعصبات الطائفية يتفوّه عالم معروفٌ كمؤلف كتاب المنار بكلام لا يخفى خواؤه على أحد، هل إنّ «**صحيح مسلم و صحيح الترمذي و مسند أحمد من مصادر الشيعة؟ و هل إنّ علماء الشيعة كتبوا سنن البيهقي، و الدر المنثور للسيوطي، و أحكام القرآن للجصاص، و تفسير الطبري، و مستدرك الحاكم**»؟

إنّ خطأً بهذا المستوى لا يحصل إلاّ نتيجة لحجاب التعصب.

فمن ناحية يقول المومأ إليه: إنّ الروايات التي نقلت هذا الحديث «**متفقٌ عليها**» و من ناحية أُخرى يضعها موضع التشكيك.

فاذا كانت كتب مثل صحيح مسلم، و الترمذي، و مسند أحمد، و ما شابهها بحيث يستطيع الشيعة وضع روايات و دسّها فيها بحيث تغدو متواترة، فأي قيمة تبقى لهذه الكتب؟ و كيف يتسنى قبول و لو حديث واحد منه؟

و في واقع الأمر إنّ مؤلف المنار بكلامه هذا أفقد اعتبار المصادر المعروفة لأهل السنّة، و سلب منها قيمتها بالكامل، نعم فهو أراد التنكر لفضيلة علي و فاطمة و ابنيهما (عليهم السلام) بَيدَ أنّه وجّه ضربة قاصمة لأصل المذهب السنّي !.

و الكلام الوحيد الذي يبقى هنا هو الشبهة التي آثارها صاحب المنار و آخرون حول «**ضمائر الجمع**» الموجودة في الآية، و سنتطرق إليها فيما بعد بشكل مفصّل.

---

١. تفسير المنار، ج٣، ص٣٢٢.

أهميّة المباهلة:

إنَّ أول أمر يثير الاهتمام في هذه الآية هو إمكانية طرح قضية المباهلة على أنّها دليلٌ جليٌّ على حقانية و صدق النبي (صلى الله عليه وآله) في مسألة ادّعائه للرسالة، لأنّه من المتعذر على الذي لا يملك إيماناً جازماً بصلته بالباري عز و جل أن يدخل مثل هذا الميدان، أي ليدعو معارضيه أن تعالوا ندعو الله أن يفضح الكاذب، و أنا أعطي عهداً على أنّ دعائي على أعدائي سيحصل بشكل عملي، و سترون نتيجة ذلك !

و من المسلَّم به أنّ دخول مثل هذا الميدان خطير للغاية، فلو لم يُستَجب الدعاء و لا يظهر أثرٌ من عقاب الخصوم، فلا تكون هناك نتيجة سوى فشل الداعي، و أي إنسان عاقل لا يدخل هذا الميدان ما لم يطمئن بالنتيجة.

من هنا نقرأ في الروايات الإسلامية: لما حضر النبي (صلى الله عليه وآله) إلى المباهلة استمهله نصارى نجران ليفكّروا في الأمر، و عندما رأوا أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) اصطحب معه الأشخاص الذين يمكن أن تستجاب دعوتهم، و حضر إلى المباهلة بعيداً عن المراسيم و الضجيج، اعتبروا ذلك دليلاً آخر على صدق دعوته فانصرفوا عن المباهلة، لئلا يصيبهم العذاب الإلهي.

فعندما رأوا أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) جاء بنفر قليل من خاصته و حامته و ابنائه الصغار و ابنته فاطمة (عليها السلام)، اضطربوا و ذعروا و أبوا المباهلة.

و من جهة أخرى فإنَّ هذه الآية سندٌ واضحٌ للمقام الشامخ لآل النبي (صلى الله عليه وآله)، علي و فاطمة و الحسن و الحسين (عليهم السلام)، لأنّ الآية فيها ثلاث كلمات، «**أنفسنا، و نساءَنا، و أبناءنا**»، و لا شك في أنّ المراد من «**أبنائنا**» الإمام الحسن و الحسين (عليه السلام) و لا اعتراض في ذلك أبداً، و لا تنطبق كلمة «**نساءنا**» على أحد سوى فاطمة (عليها السلام)، و أمّا كلمة «**أنفسنا**» فمن المتيقّن بأنّها ليست إشارة إلى شخص النبي (صلى الله عليه و آله)، لأنَّ الآية تقول:

ندعُ... و أنفسنا، فإن كان المراد هو النبيّ (صلى الله عليه و آله)، فإنّ دعوة الإنسان لنفسه لا معنى لها، بناءً على ذلك فلا يبقى سبيل إلاّ أنّ نقول:أنّ المراد هو علي (عليه السلام) فحسب.

و الملفت للنظر هو أنّ «الفخر الرازي» ينقل في ذيل هذه الآية عن «محمود بن الحسن الحمصي» و هو من علماء الشيعة، أنّه يثبّت من خلال هذه الآية أنّ علياً أفضل من الأنبياء و الصحابة أجمعين بعد النبيّ (صلى الله عليه وآله). فيقول: ليس المراد بقوله (وأنفسنا) نفس محمّد (صلى الله عليه وسلم)لأنّ الإنسان لا يدعو نفسه بل المراد به غيره، و أجمعوا على أنّ ذلك الغير كان علياً (رضي الله عنه) فدلّت الآية على أنّ نفس علي هي نفس محمّد، و لا يمكن أن يكون المراد منه أنّ هذه النفس هي عين تلك النفس، فالمراد أنّ هذه النفس مثل تلك النفس، و ذلك يقتضي الاستواء في جميع الوجوه....

ثمّ الإجماع دلّ على أنّ محمداً (عليه السلام) كان أفضل من سائر الأنبياء (عليهم السلام) فيلزم أن يكون علي أفضل من سائر الأنبياء فهذا وجه الاستدلال بظاهر هذه الآية، ثمّ قال: و يؤيد الاستدلال بهذه الآية الحديث المقبول عند الموافق و المخالف و هو قوله (عليه السلام):«**مَنْ أراد أن يرى آدم في علمه، و نوحاً في طاعته، و إبراهيم في خلته، و موسى في هيبته، و عيسى في صفوته، فلينظر إلى علي بن أبي طالب**».

ثمّ يضيف قائلاً: (و أمّا سائر الشيعة فقد كانوا قديماً و حديثاً يستدلون بهذه الآية على أنّ علياً (رضى الله عنه) أفضل من سائر الصحابة، و ذلك لأنّ الآية لما دلت على أنّ نفس علي (رضى الله عنه) مثل نفس محمّد(عليه السلام) إلاّ فيما خصّه الدليل و كان نفس محمّد أفضل من الصحابة فوجب أن يكون نفس علي أفضل أيضاً من سائر الصحابة) [١].

وبعد ايراده لهذا الدليل يمر الفخر الرازي مرّ الكرام ويكتفي في الجواب قائلاً: (إنّه كما انعقد الإجماع بين المسلمين على أنّ محمّد(عليه السلام) أفضل من علي، فكذلك انعقد الإجماع بينهم قبل ظهور هذا الإنسان، على أنّ النبيّ أفضل ممن ليس بنبيّ واجمعوا على أنّ علياً (رضي الله عنه) ما كان نبيّاً، فلزم القطع بأنّ ظاهر الآية كما أنّه مخصوص في حقّ محمّد(صلى الله عليه سلم)، فكذلك مخصوص في حقّ سائر الأنبياء (عليهم السلام) [٢].

تمعّنوا جيداً في كلام «الفخر الرازي» تجدوا بأنّه في واقع الأمر لا يمتلك جواباً لذلك الاستدلال القوي و المتين، و كأنّه يريد الكلام لملء الفراغ فحسب، و إلاّ فالقول بأفضلية كل نبي من الأنبياء على من هو غير نبي ليس محل جدال، لأنّ أفضلية جميع أنبياء الله على غيرهم مسلّم بها في الوحي فقط، و أمّا في غير الوحي فربّما يكون هناك عظماء أفضل من الأنبياء جميعاً ما عدا رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ولو غضضنا النظر عن هذا فإنّ الكلام حول أفضلية علي على سائر الأُمّة، و هذا الأمر لايحتاج إلى إثبات أفضليته (عليه السلام)على سائر الأنبياء (**تأملوا جيداً**).

على أيّة حال، فالفضيلة التي تستنتج من هذه الآية و الروايات المتواترة التي جاءت تعقيباً عليها تستطيع توضيح قضية خلافة النبيّ(صلى الله عليه وآله) لأنّ الله تعالى يأبى أن يكون الأفضل مأموماً و غير الأفضل إماماً، و أن يكون الذي هو كنفس النبيّ (صلى الله عليه وآله) تابعاً، و من سواه الذي يليه في المرتبة متبوعاً!!

---

١. التفسير الكبير، ج ٨، ص ٨١.

٢. تفسير الكبير، ج ٨، ص ٨١.

و في هذه القضية لا فرق في أن نرى الإمامة مشروطة بتعيين إلهي، كما نعتقد نحن أو عن طريق انتخاب الأُمّة، كما يعتقد أبناء السنّة، لأنّه في الحالة الأُولى من المحال أن يقدم الله تعالى «المفضول» على «الأفضل»، و في الحالة الثانية لا ينبغي للأُمّة أن تقدِم على فعل يخالف الحكمة، و لن يكون مقبولاً و مرضياً فيما أقدمت عليه.

مؤاخذاتهم على آية المباهلة:

المؤاخذة المعروفة هي التي أثارها صاحب المنار و الآخرون حول نزول الآية بحق أهل البيت (عليهم السلام)، و هي: كيف يتسنى أن يكون المراد من «**أبناءنا**» الحسن و الحسين(عليهما السلام) و الحال أنّ كلمة «**أبناء**» جمعٌ و لا يطلق الجمع على المثنّى؟ و أيضاً: كيف يمكن اطلاق كلمة «**نساءنا**» و هي تفيد الجمع، على السيدة فاطمة(عليها السلام) فقط؟

و كذا كيف يمكن أن يكون المراد من «**أنفسنا**» عليّاً وحده؟ إذ إنّ «**انفسنا**» صيغة جمع أيضاً، و علي (عليه السلام) كان واحداً.

الجواب:

في الرد على هذا السؤال نلفت انتباهكم إلى عدّة أُمور:

١- كما ذكر بالتفصيل فيما سبق فقد وصلتنا روايات كثيرة في العديد من المصادر الإسلامية المعتبرة و المعروفة سواء من الشيعة أو السنّة حول نزول هذه الآية بشأن أهل البيت، حيث صرّح فيها أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) لم يصطحب معه إلى المباهلة غير علي و فاطمة و الحسن و الحسين (عليهم السلام)، و هذا بذاته سيكون قرينة واضحة لتفسير الآية، فإننا نعلم أنّ من بين القرائن التي تفسّر آيات القرآن هي (**السنّة و سبب النزول القطعي**).

على هذا الأساس، فالمؤاخذة المذكورة لا تثير اهتمام الشيعة فحسب، بل يجب على علماء الإسلام جميعاً الرد عليها.

٢- إنّ اطلاق صيغة الجمع على «المفرد» أو «المثنى» ليس أمراً مستجداً، و كثيراً ما يشاهد هذا المعنى في القرآن و غيره من الأدب العربي و غير العربي.

و توضيح ذلك: أنه كثيراً ما يحصل عند تفصيل قانون ما، أو تنظيم وثيقة ما، ايراد الحكم بصيغة العموم أو الجمع، فمثلاً يدوّنون في الوثيقة أنّ: المسؤول على تنفيذها هم الموقّعون عليها و أبناؤهم، بينما ربّما يكون لأحد طرفيها ولدٌ واحدٌ أو ولَدَان، فهذا الموضوع لا يتعارض أبداً مع تنظيم القانون أو الوثيقة بصيغة «**الجمع**».

خلاصة الأمر لدينا مرحلتان: «**مرحلة ابرام العقد**»، و«**مرحلة التنفيذ**».

ففي مرحلة ابرام العقد تذكر الألفاظ بصيغة الجمع لكي تنطبق على كافة المصاديق، أمّا في مرحلة التنفيذ فربّما ينحصر المصداق بشخص واحد، و هذا الحصر في المصداق لا يتعارض و عمومية القضية.

و بعبارة اُخرى فقد كان النبيّ(صلى الله عليه وآله) مكلّفاً على ضوء العهد الذي كان أبرمه مع نصارى نجران أن يصطحب معه أبناءه و نساءه و الذين هم بمنزلة نفسه جميعاً إلى المباهلة، و لكن لم يكن مصداقاً لهؤلاء سوى ابنين و امرأة واحدة و رجل واحد.

و في القرآن الكريم لدينا موارد اُخرى عديدة بأن تأتي العبارة بصيغة الجمع إلاّ أنّ مصداقها يختص بشخص واحد لسبب ما، مثل الآية: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوهُمْ). (آل عمران / ١٧٣)

فالمراد في كلمة الناس في هذه الآية و على ضوء تصريح فريق من المفسّرين هو «**نعيم بن مسعود**» الذي كان قد أخذ الأموال من «**أبي سفيان**» لِيُرْعِبَ المسلمين من قوّة المشركين!

كما نقرأ في الآية: (لقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ اِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحنُ أَغْنِيَآءُ).(آل عمران / ١٨١)

فالمراد من «**الذين**» في الآية و بناءً على ما صرّح به بعض المفسّرين هو «**حي بن اخطب**» أو «**الفنحاص**»، و أحياناً يشاهد اطلاق كلمة الجمع على المفرد أيضاً من باب الإكبار، كما نقرأ بشأن إبراهيم: (إِنَّ إِبرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّـــلَّهِ). (النحل / ١٢٠)

فهنا اطلقت كلمة «**اُمّة**» و هي جمع على شخص واحد (و كان لنا بحث مفصّل أيضاً بهذا الصدد).

٣- يُستفاد من آية المباهلة أيضاً أنه يقال لأبناء البنت «**ابن**» على العكس ممّا كان شائعاً في الجاهلية حيث كانوا يعتبرون أبناء الابن فقط أبناءهم، و كانوا يقولون:

بنونا بنو أبنائنا، و بناتنا بنوهنّ أبناء الرجال الأباعدِ

فهذا النمط من التفكير كان وليداً لتلك السنّة الخاطئة حيث إنّهم لم يكونوا يرون أنّ الانثى عضو رئيس في المجتمع البشري، و يعدونهن أوعية لحمل الأولاد فقط.

كما يقول شاعرهم:

و إنّما امهات الناس أوعية مستودعاتٌ و للانساب آباءُ

بيدَ أنّ الإسلام قضى على هذا النمط من التفكير قضاءً مبرماً و اجرى حكم الابن على أبناء الولد و البنت على حدّ سواء.

و نقرأ في القرآن الكريم بشأن أبناء إبراهيم: (وَ مِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجزِى الُمحسنِينَ * وَ زَكَرِيَّا وَ يَحيَى وَ عِيسَى وَ إِليَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ). (الأنعام / ٨٥- ٨٤)

ففي هذه الآية عدّ المسيح من أبناء إبراهيم و الحال أنّه كان ابن من البنت.

و في الروايات الواردة عن طرق الشيعة و السنّة بحقّ الإمام الحسن و الإمام الحسين(عليهما السلام)كثيراً ما يلاحظ تكرار اطلاق كلمة «**ابن رسول الله**».

و نقرأ في الآيات المتعلّقة بالنساء اللواتي يحرم الزواج منهن: (و حلائل أبنائكم...)، فهذه المسألة من المسلّم بها بين فقهاء الإسلام حيث إنّ زوجات الأبناء و الأحفاد أولاداً كانوا أم بنات محرمات على الشخص و مشمولات بالآية أعلاه.

و من الأُمور الجديرة بالاهتمام بشأن آية المباهلة ما ورد في الرواية المشهورة أنّ المأمون العباسي سأل الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام): ما الدليل على خلافة جدك علي بن أبي طالب؟ قال: «**آية انفسنا**»، قال: «**لولا نسائنا**» قال: «**لولا أبنائنا**».

يقول العلاّمة الطباطبائي في تفسير هذه الجمل القصيرة:

أقول:قوله«**آية** «**أنفسنا**» يريد أن الله جعل نفس علي (عليه السلام) كنفس نبيّه (صلى الله عليه وآله)، وقوله: «**لولا نسائنا**» معناه: أنّ كلمة نسائنا في الآية دليل على أنّ المراد بالأنفس الرجال فلا فضيلة فيه حينئذ، وقوله: «**لولا أبنائنا**»، معناه: أنّ وجود أبنائنا فيها يدل على خلافه، فإنّ المراد بالأنفس لو كان هو الرجال لم يكن مورداً لذكر الأبناء»[1] (**تأملوا جيداً**).

و نُقلت هذه الحادثة في بحار الأنوار بنحو آخر، و الظاهر أنّ السؤال و جواب الإمام الرضا(عليه السلام) عنه كان في موضع آخر، تقول هذه الرواية: قال المأمون يوماً للرضا(عليه السلام): أخبرني بأكبر فضيلة لأمير المؤمنين(عليه السلام) يدل عليها القرآن، فقال له الرضا (عليه السلام): «**فضيلة في المباهلة، قال الله تعالى**: (فمن حاجك فيه...) **الآية، فدعا رسول الله**(صلى الله عليه وآله) **الحسن و الحسين**(عليهم السلام) **فكانا ابنيه، و دعا فاطمة**(عليها السلام) **فكانت في هذا الموضع نساءَه، و دعا أمير المؤمنين** (عليه السلام) **فكان نفسه بحكم الله عزّ وجلّ، فقد ثبت أنّه ليس أحد من خلق الله تعالى أجلَّ من رسول الله** (صلى الله عليه وآله)**و أفضل فوجب أن لا يكون أحد أفضل من نفس رسول الله** (صلى الله عليه وآله)**بحكم الله تعالى...**».

فقال له المأمون: هل بالإمكان أن يذكر الدعاء لمن هو نفسه، و يكون المراد نفسه في الحقيقة دون غيره فلا يكون لأميرالمؤمنين(عليه السلام) ما ذكرت من الفضل؟ قال (عليه السلام): «**ليس يصحّ ما ذكرت، و ذلك أنّ الداعي إنّما يكون داعياً لغيره، كما أنّ الآمر آمر لغيره، لم يدع رسول الله**

۱. تفسير الميزان، ج ۳، ص ۲۳۰.

(صلى الله عليه وآله) **رجلاً في المباهلة إلاّ أمير المؤمنين** (عليه السلام) **فقد ثبت أنّه نفسه التي عناها الله سبحانه في كتابه و جعل حكمة ذلك في تنزيله»**[1]

الخلاصة

١–دلت آيات كثيرة في القرآن الكريم على أفضلية أهل البيت (ع) و هي توضح بجلاء أن الامامة لا يستحقها من الأمة أحد دونهم لأنها فضائل نطق بها الوحي و اختصوا بها من بين المسلمين.

٢–من تلك الآيات قوله تعالى﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ اَبْنَاءَنَا وَاَبْنَاءَكُم وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُم وَاَنْفُسَنَا وَاَنْفُسَكُم ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلى الْكَذِبِينَ﴾.

٣–عندما أصرّ النصارى على عقائدهم الباطلة أُمر النبي(ص) بأن يباهلهم و المباهلة من البهل بمعنى الترك و لكن هنا تعني الملاعنة بأن يلعن كل من المتخاصمين الآخر ليفضح الله الكاذب.

٤–وردت روايات كثيرة تؤكد أن هذه الآية نزلت في علي و فاطمة و الحسنين (ع)، وكان اسقف النصارى قد قال لاصحابه انظروا محمّداً في غد فإن غدا بولده و أهله فاحذروا مباهلته.

٥–آية المباهلة تثبت من جهة مقام النبي(ص) حيث انه كان على يقين من أمره كما تدلّ على مقام آله (ع) للتعبير بالابناء عن الحسنين و نسائنا عن فاطمة و عبّرت عن علي بأنه نفس النبي(ص).

٦–انفسنا لا يمكن ان يكون المراد منه شخص النبي(ص) لانه لا معنى لدعوة الانسان لنفسه و من هنا يستفاد ان عليا افضل من سائر الانبياء كافة لانه نفس النبي الخاتم و سيد رسل الله (ص).

٧–ان شخصاً يكون بمثابة نفس النبي(ص) أحق و اليق بأن يخلف النبي(ص) في أمته لانه افضل المسلمين كافة و الافضل لا يتبع المفضول.

٨–مما اخذ على مدلول اية المباهلة هو ان الضمائر جمع و هي لا تنطبق على من حضروا المباهلة، و الجواب ان في اللغة كثيرا ما ورد الجمع بدل المفرد او المثنى و له في القرآن نظائر عديدة.

---

١. بحار الأنوار، ج ١٠، ص ٣٥٠، مع الاختصار.

بسمه تعالی

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ١٩

آيات الفضائل (٢)

بكالوريوس

المقدمة

إن هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم جائت لتنص على فضل علي(ع) و تميزه عن سائر المسلمين و من تلك الآيات قوله تعالى ﴿إنَّ الَّذينَ آمَنوُا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الَبرِيَّةِ ... رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ﴾. فماذا تقول الاخبار في خير البرية و من هو؟

المحتوى العلمي

٢- آية خير البرية

﴿إنَّ الَّذينَ آمَنوُا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الَبرِيَّةِ* جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجرِى مِنْ تَحتِهَا الاَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا اَبَداً رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ﴾. (البيّنة/٧– ٨)

في هذه الآيات وما قبلها ذكر الله تعالى «**خير**» و«**شر**» مخلوقاته، فهو يصف الكفار والمشركين وأهل الكتاب الذين يفكّرون بإطفاء نور الله من خلال مختلف الدسائس والمؤامرات، وهم ضالون ويجرّون الآخرين نحو الضلالة، بأنّهم شر البرية[١]، وفي المقابل وصف المؤمنين الذين اكتشفوا طريق الحقّ في ظل إيمانهم وكانوا ولا زالوا مصدراً للأعمال الصالحة، فبالاضافة إلى أنّهم مهتدون فهم نبراس هداية الآخرين، على أنّهم «**خير البرية**».

صحيح أنّ مفهوم الآية واسع وشامل، ولا يختص بشخص أو أشخاص معينين، ولكن تمت الإشارة في العديد من الروايات الإسلامية التي جاءت في مصادر الحديث لأهل السنّة والشيعة، إلى أشخاص يقفون في طليعة (خير البرية) وأفضل مخلوقات الله.

إنّ التمعن في مضمون هذه الروايات بإمكانه ايضاح الكثير من الحقائق التي يلفها الغموض لحد الآن بالنسبة للبعض. وأن يكون رداً على الكثير من الأباطيل النابعة عن الجهل.

وهنا نلفت انتباه القراء إلى جانب من هذه الروايات:

١– يروي المفسر المعروف «السيوطي» في الدر المنثور عن «ابن عساكر» عن «جابر بن عبد الله» في ذيل هذه الآية: كنّا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) وإذا بعلي قادم نحونا، ولّما وقعت عين رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليه، قال: «**والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم**

---

١. «البرية» من مادة «برء» وتعني الخلق، لذا يقال لله تعالى «الباري» بمعنى «الخالق» والمخلوقات برية، وقال البعض، إنّ «البرية» من «البري» وتعني «التراب» وبما أنّ المخلوقات برئت من التراب فيقال لها «برية»، وقال البعض أيضاً، إنّ «البرية» أخذت من «بريت القلم» ونظراً إلى أنّ المخلوقات تأتي إلى الوجود بأمر الله على أشكال مختلفة من حيث الهيئة والقامة كأنّهم يشبهون الأقلام المبراة في مصنع الخلق فيقال لها «برية» (يراجع تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧٢٣٥; ومفردات الراغب وسائر كتب اللغة).

القيامة، ونزلت (إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أُولئك هم خير البرية)، **فكان أصحاب النبي**(صلى الله عليه وآله) **إذا أقبل علي** (عليه السلام) **قالوا: جاءَ خَيرُ البَرِيّة»**[1].

وجاءت هذه الرواية بنفس المضمون، في «شواهد التنزيل» للحاكم الحسكاني[2].

٢- ونقرأ في رواية أُخرى عن ابن عباس: لما نزلت آية: (إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية)، قال النبيّ(صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام): «**هو أنت وشيعتك، تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين ويأتي عدوّك غضباناً مقمحين**»[3].

٣- جاء في رواية أُخرى عن «أبو بريدة»: لّما قرأ النبيّ(صلى الله عليه وآله) هذه الآية، التفت إلى علي(عليه السلام)وقال: «**هم أنت وشيعتك يا علي وميعاد ما بيني وبينك الحوض**»[4].

٤- جاء في تفسير الدر المنثور أنّ ابن مردوية يروي عن علي (عليه السلام) أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله)قال لي: «**ألم تسمع قول الله إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية، أنت وشيعتك وموعدي وموعدكم الحوض إذا جِئْتُ الأُمَمُ للحِسابِ تُدعَوْنَ غُراً محَجَلينَ**»[5].

٥- كما ورد في «شواهد التنزيل»: إن «**عطية الكوفي**» يقول: دخلنا على «جابر بن عبد الله الأنصاري» وقد سقط حاجباه على عينيه من الكبر فقلنا له: اخبرنا عن علي، فرفع حاجبيه بيده ثم قال: «**ذاك من خير البريَّة**»[6].

٦- يروي الكنجي الشافعي في كفاية الطالب عن عطاء: سألت عائشة عن علي (عليه السلام)فقالت: «**ذاك خير البشر لايشك فيه إلاّ كافر**»[7].

ونُقل في نفس الكتاب أيضاً عن «حذيفة» أنّه قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله)يقول: «**علي خير البشر، من أبى فقد كفر**»[8].

---

١. تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٣٧٩.

٢. شواهد التنزيل، ج ٢، ح ١١٣٩.

٣. شواهد التنزيل، ج٢، ص ٣٥٧، ح ١١٢٦; ونفس المضمون أورده ابن حجر في الصواعق، ص ٩٦; والشبلنجي في نور الابصار، ص ٧٠ و ١٠١ أيضاً.

٤. المصدر السابق، ص ٣٥٩، ح ١١٣٠.

٥. تفسير در المنثور، ج٦، ص ٣٧٩.

٦. شواهد التنزيل، ج٢، ص ٣٦٤، ح ١١٤٢.

٧. كفاية الطالب، ص ١١٨، طبعة الغري (على ضوء نقل احقاق الحق، ج٣، ص ٢٨٨).

٨. المصدر السابق.

بديهي أنّ هذه التعابير جميعها ناظرة إلى شخص علي (عليه السلام) بعد النبيّ(صلى الله عليه وآله)، أي أنّه أفضل الناس بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله).

والملفت للانتباه أن الآلوسي المفسر السنّي المعروف الذي يمتاز بتشدد خاص في الروايات الخاصة بفضائل علي(عليه السلام) (وطالما أشرنا إلى نماذج من ذلك في هذا الكتاب) وبعد بيانه لجانب مهم من الروايات الواردة عن النبيّ(صلى الله عليه وآله) في ذيل هذه الآية، يقول: «ليس معنى هذه الروايات أنّ هذه الآية تخص علياً (عليه السلام)وشيعته، وإن كانوا داخلين في هذه الآية ويقفون في الصفوف الأُولى بلا ريب.

ثمّ يقول: إنّ الإمامية وإن كانوا يعتبرون علياً (عليه السلام) أفضل من الأنبياء والملائكة، إلاّ أنّهم يفضلون النبيّ(صلى الله عليه وآله)عليه».

وخلاصة القول: إنّ جماعة كثيرة نقلت الروايات المتعلقة بـ«**خير البرية**» في المصادر الإسلامية المعروفة، وهي من أجلى الأدلة على افضلية علي (عليه السلام) على كافة المسلمين والصحابة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله).

هذا في الوقت الذي ركز أعداء علي (عليه السلام) وبسبب عدائهم له أبان عهد بني أُمية الأسود على كتمان فضائله، وَكَتَمَ شيعتُهُ فضائله بسبب خوفهم من أولئك المجرمين، إلاّ أنّ هذه الفضائل العظمى قد تجاوزت جميع هذه الحقب، وبعد كل هذه القرون والاعصار وصلت إلينا بأُعجوبة، وهذا لم يتحقق إلاّ باللطف الإلهيّ.

على أيّ حال، يستفاد من هذه الروايات بالإضافة إلى الآية الشريفة أمران هما:

١- أفضلية علي (عليه السلام) على جميع أصحاب النبيّ(صلى الله عليه وآله)، وحيث إنّ تقديم غير الأفضل على الأفضل فعل قبيح وغير مقبول، فلا يمكن تقديم غيره عليه، وعليه يجب أن يكون هو أول خليفة لرسول الله (صلى الله عليه وآله)، سواء كان التنصيب من الله- كما تعتقد الشيعة- أم من قبل الأُمّة حيث تعتقد به طائفة أُخرى.

٢- الأمر الآخر الذي نحصل عليه من هذه الروايات العديدة هو أن تسمية اتباع علي(عليه السلام)بـ«**الشيعة**» أمر ورد على لسان النبيّ(صلى الله عليه وآله) مراراً، والذين يعلنون عداءهم لهذه الصفة، ويتنفرون منها، وأحياناً يتخذون «الشين» فيها دليلاً على «**الشؤم**» و«**الشر**» هم في الواقع قد انبروا إلى معارضة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويعربون عن انزعاجهم لكلامه والعياذ بالله، ومن المسلّم به أنّ فعلهم صعب جدّاً فيما لو صرحوا بكلامهم هذا علانية، أليس الأفضل أن نقول: «إنّهم كانوا يجهلون هذه الروايات الواردة عن النبيّ(صلى الله عليه وآله)؟».

نعم، فلقب الشيعة لا يثير الازعاج، إنّه تاج فخر وضعه رسول الله (صلى الله عليه وآله) على رؤوس أتباع مذهب علي (عليه السلام)، طبقاً للكثير من الروايات، نسأل الله أن نكون أهلاً لهذا الفخر.

٣- آية ليلة المبيت

نقرأ في الآية: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشرِي نَفْسَهُ ابتغَاءَ مَرضاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بالعِبَادِ). (البقرة / ٢٠٧)

وردت روايات كثيرة في المصادر الإسلامية المعروفة في شأن نزول هذه الآية منها:

١- ينقل المفسر السنّي المعروف «الثعلبي» في تفسيره في شأن نزول هذه الآية مايلي:

«لما عزم النبي(صلى الله عليه وآله) على الهجرة إلى المدينة، ترك عليَّ بن أبي طالب (عليه السلام) في مكّة ليؤدّي الديون التي عليه والأمانات إلى اهلها، وأمرهُ ليلة خرج إلى الغار وقد احاط المشركون بالدار، أن ينام في فراشه (صلى الله عليه وآله) وقال له: اتشح ببردي الأخضر، ونم على فراشي فانّه لا يصل منهم إليك مكروه إن شاء الله، ففعل ذلك علي(عليه السلام) فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل إنّي آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر، فأيّكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختار كلاهما الحياة فأوحى الله تعالى إليهما: أَفلا كنتما مثل علي؟ آخيت بينه وبين محمّد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، إهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه، فنزلا فكان جبرائيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرائيل ينادي بخ بخ من مثلك يا علي بن أبي طالب يباهي الله تبارك وتعالى بك الملائكة فأنزل الله على رسوله (صلى الله عليه وآله) وهو متوجه إلى المدينة في شأن علي (عليه السلام): (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشرِي نَفْسَهُ ابتغَاءَ مَرضاتِ اللهِ)».

وقد نقل رواية الثعلبي هذه وبنفس التفصيل كل من الغزالي في إحياء العلوم (ج ٣، ص٢٣٨) والكنجي في كفاية الطالب (ص ١١٤)... وابن الصباغ المالكي في «الفصول المهمّة» (ص ٣٣) و«السبط بن الجوزي الحنفي» في «تذكرة الخواص » (ص ٢١) و«الشبلنجي» في «نور الابصار» (ص ٨٢) [١].

٢- ويروي الحاكم الحسكاني في «شواهد التنزيل» عن «أبو سعيد الخدري» هذا المضمون بشيء من التفاوت [٢].

١. الغدير، ج٢، ص٤٨.

٢. شواهد التنزيل، ج١، ص ١٩٦، ح ١٣٣.

٣- وفي نفس الكتاب «شواهد التتريل» يروي عن ابن عباس أنّ علياً (عليه السلام) كان أول من آمن برسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد خديجة وارتدى رداءه وبات في فراشه... (لكنه لم يشر إلى الآية الشريفة في هذه الرواية) [١].

٤- وفي نفس الكتاب أيضاً يروي هذا المعنى عن «عبد الله بن سليمان» (وفي نسخة عن عبد الله بن عباس) قال: «**أنام رسول الله** (صلى الله عليه وآله) **علياً على فراشه ليلة انطلق إلى الغار، فجاء أبو بكر يطلب رسول الله فأخبره علي أنّه قد انطلق، فأتبعه أبو بكر وباتت قريش تنظر علياً وجعلوا يرمونه، فلما أصبحوا إذا هم بعلي، فقالوا: أين محمّد؟ قال: لا علم لي به، فقالوا: قد أنكرنا تضورك كنّا نرمي محمّداً فلا يتضور وأنت تتضور، وفيه نزلت هذه الآية:** (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشـرِي نَفْسَهُ ابتغَاءَ مَرضاةِ اللهِ) [٢].

٥- يروي الحاكم النيسابوري في كتابه المعروف «مستدرك الصحيحين» عن ابن عباس أنّ علياً (عليه السلام) باع نفسه لله، وارتدى ثوب النبيّ(صلى الله عليه وآله) وبات في فراشه... وفي نهاية هذه الرواية يقول: هذا الحديث صحيح الاسناد و لم يخرجاه[٣].

٦- في نفس الكتاب يروي عن «حكيم بن جبير» عن «علي بن الحسين (عليه السلام): «**إنّ أول من شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله علي بن أبي طالب** (عليه السلام)» [٤].

ثمّ يضيف: لما أراد علي (عليه السلام) المبيت في فراش رسول الله(صلى الله عليه وآله)، كان يردد هذه الأبيات:

وقيتُ بنفسي خير منْ وطيء الحصى ... ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
رسول إله خاف أن يمكروا به ... فنجاه ذو الطول الإله من المكر
وبات رسول الله في الغار آمناً ... موقى وفي حفظ الإله وفي ستر
وبتُّ اراعيهم و لم يتهمونني ... وقد وطنت نفسي على القتل والأسر[٥]

وجاءت هذه الأبيات التي تعبّرُ عن التضحية والإيثار وفخر علي (عليه السلام) بهذا الأمر، في كتب أُخرى أيضاً.

---

١. المصدر السابق، ص ٩٨.
٢. شواهد التتريل، ج١، ص ١٠٠.
٣. مستدرك الصحيحين، ج٣، ص ٤.
٤. المصدر السابق.
٥. مستدرك الصحيحين: ج٣، ص٤.

٧- يقول «الطبري» المؤرخ المعروف بشأن هجرة النبيّ(صلى الله عليه وآلــه) واحاطــة المشــركين بداره(صلى الله عليه وآله): ثم جعلوا يطلّعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله (صلى الله عليه وآله)فيقولون: «والله إنّ هذا لمحمد نائم عليه بُردُه فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي عن الفراش فقالوا: والله لقد صدقنا الذي حدثنا فكان ممّا نزل في ذلك اليوم وما كانوا أجمعــوا لــه: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ....)» [١]. (الانفال / ٣٠)

٨- يروي «ابن الأثير» في «أُسد الغابة» في فضائل علي (عليه السلام): «لما أراد النبيّ(صلى الله عليه وآله)الهجرة، خلّف عليَّ بن أبي طالب بمكة لقضاء ديونه ورد الودائع التي كانت عنده، وأمره ليلــة خرج من الغار وقد أحاط به المشركون بالدار أن ينام على فراشه وقال: إِتَّشِحْ ببردي الحضــرمي- وبعدها نقل قصة ليلة المبيت وما أوحى الله إلى جبرائيل وميكائيل.. ثمّ قال: فأنزل الله عزّ وجلّ على رسوله وهو متوجه إلى المدينة في شأن علي: (وَمِنَ النَّاس مَن يَشرِي نَفْسَهُ ابتغَاءَ مَرضَاتِ اللَّهِ)» [٢].

٩- يروي «أحمد بن حنبل» أحد أئمّة أهل السنّة الأربعة في مسنده وهو من المصــادر الإســلامية المشهورة، عن ابن عباس في تفسير الآية: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ....) قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأَثبتوه بالوثائق- يريــدون النبيّ(صلى الله عليه وآله) وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأَطلَع الله نبيّه(صلى الله عليه وآله)على ذلك فبات علي (عليه السلام) على فراش النبيّ(صلى الله عليــه وآلــه) وخــرج النبيّ(صلى الله عليه وآله)حتى لحق بالغار» [٣].

و لم يشر الإمام أحمد إلى آية: (وَمِنَ النَّاس مَن يَشرِي نَفْسَهُ...)، إلاّ أنّه يتحدث عن آية: (وَإِذْ يَمْكُــرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...) التي وردت في واقعة ليلة المبيت أيضاً.

ولا تنحصر الروايات بما قيل: بل هناك روايات كثيرة أُخرى رويت في المصادر المعروفة بهذا الصدد، وللمزيد من الاطلاع بإمكانكم مراجعة كتب: احقاق الحق [٤]، وشواهد التنزيل [٥]، وفضائل الخمســة [٦]، الخمسة [٦]، والغدير [٧]، وتفسير البرهان [٨].

---

١. تاريخ الطبري، ج٢، ص١٠٠.
٢. أُسد الغابة، ج٤، ص٢٥.
٣. مسند أحمد، ج١، ص ٣٤٨.
٤. شواهد التنزيل، ج ١، ص ٩٦ وما بعدها.
٥. فضائل الخمسة، ج ٢، ص ٣٤٥ وما بعدها.
٦. الغدير، ج ٢، ص ٤٩ وما بعدها.
٧. الغدير، ج٢، ص ٤٩ ومابعدها.
٨. تفسير البرهان، ج١، ص ٢٠٦- ٢٠٧.

٤- آية الحكمة

(يُؤْتِي الِحكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً). (البقرة / ٢٦٩)

يروي الحاكم الحسكاني في «شواهد التنزيل» عن «الربيع بن الخيثم» أنّهم ذكروا عنده علياً، فقال: لم أرهم يجدون عليه في حكمه والله تعالى يقول: (يُؤْتِي الِحكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) [1].

وفي نفس الكتاب نُقلت عدّة روايات أُخرى بهذا المعنى أو ما يدانيه.

بالاضافة إلى أنّه يروي عن ابن عباس أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) قال: «**مَنْ أراد أن ينظر إلى إبراهيم في حلمه، وإلى نوح في حكمته، وإلى يوسف في اجتماعه، فلينظر إلى علي بن أبي طالب**» [2].

وفي موضع آخر يروي عن «أبي الحمراء»: كنّا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقدم علي(عليه السلام)نحونا، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): «**مَنْ سرّه أن ينظر إلى آدم في علمه، ونوح في فهمه، وإبراهيم في حُلمه فلينظر إلى علي بن أبي طالب**» [3].

ويروي عن «ابن عباس » أيضاً، كنت عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) فسئل عن علي(عليه السلام)فقال: «**قُسمت الحكمة عشرة أجزاء فأُعطي علي تسعة أجزاء وأُعطي الناس جزءً واحداً**» [4].

إنّ هذه العبارات تكشف بجلاء أن ليس هنالك من أحد من الأُمّة الإسلامية بعد النبيّ(صلى الله عليه وآله)يضاهي علياً (عليه السلام) في العلم والمعرفة والحكمة، وحيث إنّ أهم أركان الإمامة، العلم والحكمة فإنّه كان أجدر الناس للإمامة والخلافة بعد النبيّ(صلى الله عليه وآله).

جاء أيضاً في «صحيح الترمذي» أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) قال: «**أنا دار الحكمة وعلي بابها**» [5].

بابها» [5].

و من المسلّم به أنّ من أراد دخول البيت، عليه أن يدخل من الباب كما أمر بذلك القرآن الكريم: (وَأْتُوا البُيوتَ مِنْ أَبوابِها). (البقرة / ١٨٩)

---

١. شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٣٧، ح ١٤٧.

٢. المصدر السابق، ص ١٠٦، ح ١٤٧.

٣. المصدر السابق، ص ٧٩، ح ١١٦.

٤. المصدر السابق، ص ١٠٥، ح ١٤٦.

٥. صحيح الترمذي، ج ٥، ص ٦٣٧ (المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب، ح ٣٧٢٣).

وعليه فمن أراد الدخول إلى خزائن علم النبيّ(صلى الله عليه وآله) عليه المبادرة إلى علي(عليه السلام) وطلب مفتاح هذا الكتر منه.

الخلاصة

١–قوله تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الَبرِيَّةِ*... رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) هي آية اخرى تثبت مكانة أهل البيت (ع) المتفردة عند الله تعالى.

٢–روى السيوطي من أهل السنة أن النبي(ص) قال في علي(ص): «والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة، ونزلت ﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات اُولئك هم خير البرية﴾.

٣–وردت في المعنى المتقدم اخبار كثيرة و هي صريحة في أفضلية علي(ع) بعد النبي(ص) و في كثير منها جاء لفظ الشيعة على لسان النبي(ص).

٤–من المواطن التي يتضح فضل علي(ع) هو قوله تعالى نقرأ في الآية: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشرِى نَفْسَهُ ابتغَاءَ مَرضاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ). حيث بات في فراش النبي(ص) و فداه بنفسه.

٥–وردت اخبار كثيرة تؤكد نزول الاية المذكورة في علي(ع).

٦–فوردت اخبار كثيرة بأن عليا هو صاحب أعلى حكمة بعد رسول الله (ص) كقوله(ص): «قُسمت الحكمة عشرة أجزاء فأُعطي علي تسعة أجزاء وأُعطي الناس جزءً واحداً».

بسمه تعالى

جامعة المصطفى المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٢٠

آيات الفضائل (٣)

بكالوريوس

المقدمة

حفلت آيات الكتاب العزيز بذكر فضائل أهل البيت عليهم السلام و نحن في هذا الدرس نقف على فضيلة اخرى اثبتها كتاب الله تعالى لهذا البيت و هي آيات من سورة الانسان (هل اتى). نعم روى كثير من العلماء و المفسرين نزول ايات من هذه السورة المباركة في فضل علي و فاطمة و الحسنين عليهم السلام وهي تبدء من الآية ٥: (إِنَّ الاَبرَارَ يَشرَبُونَ مِنْ كَأْس كانَ مِزاجُها كَافُورًا) وتستمر حتّى الآية ٢٢ فتتحدث عن قوم تسميهم بالابرار و تبين عطائهم و انفاقهم في سبيل الله ثم تذكر النعم الالهية التي سوف ينعمون بها في الاخرة و عند ربهم.

المحتوى العلمي

آيات سورة هل اتى (الإنسان)

تعتبر سورة «**هل اتى**» سنداً آخر من الأَسانيد المهمّة لفضيلة علي(عليه السلام) وآل النبيّ(صلى الله عليه وآله)، و إنّ التمعن في مضمون هذه السورة و عباراتها، و كذا شأن النزول الذي ذُكر لها يزيل الغموض عن الكثير من القضايا.

صحيح أنّ آيات هذه السورة تعرض بحثاً عاماً، إلاّ أنّ سبع عشرة آية منها و التي تبدء من الآية ٥: ﴿إِنَّ الاَبرَارَ يَشرَبُونَ مِنْ كَأْس كانَ مِزاجُها كَافُورًا﴾ و تستمر حتّى الآية ٢٢، تتحدث عن نفر على أنّهم «**ابرار**»، بَيدَ أنّ شأن النزول و الروايات العديدة التي وردت في المصادر الإسلامية المعروفة، تكشف أنّ أتم و أكمل مصداق للأبرار في هذه الآية هم: علي، و فاطمة، و الحسن، و الحسين (عليهم السلام).

و الجدير بالاهتمام أنّ في هذه الآيات السبعة عشر ذكرت أنواع نعم الجنّة، و أفضلها و اسماها سواءً المعنوية أو المادية إذ أنّها تتحدث عن بساتين الجنّة، و عيون ماء الجنّة الطاهر، و الملابس، و الزينة، و الطعام، و الارائك و الأسِرَّة، و الوِلدان، و بالتالي النعم العظيمة و الملك العظيم، و النعمة الوحيدة التي لم تجرِ الإشارة إليها في ما بين هذه النعم هي الأزواج و حور الجنّة حيث يقول بعض العارفين بأسرار القرآن: إنّ هذا الأمر بمثابة الاحترام لسيدة الإسلام فاطمة الزهراء(عليها السلام).

و قليلاً ما تجتمع نعم الجنّة هذه و في أقصى درجاتها في سورة من سور القرآن الكريم، و هذا يبرهن على أنّ المراد من «**الأبرار**» هنا ليسوا اُناساً عاديين، بل أبرار و مطهرون و في غاية العظمة و القرب من الله.

و هذا الأمر جدير بالذكر أيضاً حيث ذكرت علامات لهؤلاء «**الأبرار**» إذ أنّها تكشف عن مترلتهم، يقول تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ويَخَافُونَ يَومًا كَانَ شَرُّهُ مُستَطِيراً * ويُطعِمُونَ الطَّعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً

وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّما نُطعِمُكُم لِوَجهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَّبِّنا يَوماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾. (الإنسان / ٧- ١٠)

أمّا شأن نزول هذه الآية: فيروي الزمخشري في تفسيره المعروف «الكشاف» عن ابن عباس: «انّ الحسن و الحسين مرضا فعادهما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن، لو نذرت على ولدك، فنذر علي و فاطمة و فضة جارية لهما إن بَرِئا ممّا بهما: أن يصوموا ثلاثة أيّام فشفيا و ما معهم شيء فاستقرض علي من شمعون الخيبري ثلاثة أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً و اختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا[١] فوقف عليهم سائل فقال: «السلام عليكم أهل بيت محمّد» مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنّة، فآثروه و باتوا لم يذوقوا إلاّ الماء، و أصبحوا صياماً فلما أمسوا و وضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم سائل يتيم فآثروه، و وقف عليهم أسير في الثالثة، ففعلوا مثل ذلك; فلما أصبحوا أخذ علي رضي الله عنه بيد الحسن والحسين و أقبلوا إلى رسول الله(صلى الله عليه وسلم) فلما أبصرهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع قال: ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم، و قام فانطلق معهم فراى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها و غارت عيناها فساءه ذلك، فنزل جبريل و قال: خذها يا محمد هنأك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة»[٢].

و يروي القرطبي هذا المعنى باختلاف قليل في تفسيره في ذيل آيات البحث، و ينقل أيضاً شعراً عن السائلين و عن سيدة الإسلام في هذا المجال[٣].

و نقل «الفخر الرازي» أيضاً في تفسيره نفس هذه القصة عن الواحدي في كتاب «الوسيط»، و الزمخشري في الكشاف، و لكنه يضيف في ذيلها:و هذه صيغة جمع فتتناول جميع الشاكرين و الأبرار، و مثل هذا لا يمكن تخصيصه بالشخص الواحد، لأن نظم السورة من أولها إلى هذا الموضع يقتضي أن يكون هذا بيانا لحال كل من كان من الأبرار و المطيعين، فلو جعلناه مختصا بشخص واحد لفسد نظم السورة و الثاني: أن الموصوفين بهذه الصفات مذكورون بصيغة الجمع كقوله: إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ... يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخافُونَ... وَ يُطْعِمُونَ [الإنسان: ٥، ٧، ٨] و هكذا إلى آخر الآيات فتخصيصه بجمع معنيين خلاف الظاهر، و لا ينكر دخول علي بن أبي طالب عليه السلام فيه، و لكنه أيضا داخل في جميع الآيات الدالة على شرح أحوال المطيعين، فكما أنه داخل فيها فكذا غيره من أتقياء

---

١. جاء نذر الحسن و الحسين (عليهما السلام) في رواية الجعفي طبقاً لنقل تفسير القرطبي (تفسير القرطبي، ج١٠، ص٦٩٢٢).

٢. تفسير الكشاف، ج٤، ص ٦٧٠ (ذيل آيات هذه السورة).

٣. تفسير القرطبي، ج١٠، ص٦٩٢٢.

الصحابة و التابعين داخل فيها، فحينئذ لا يبقى للتخصيص معنى ألبتة، اللهم إلا أن يقال: السورة نزلت عند صدور طاعة مخصوصة عنه، و لكنه قد ثبت في أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[١].

على أنّ الفخر الرازي كأنّه نسي هذ الأمر و هو أنّ شأن النزول يقول: إنّ هذه الآيات نزلت بحق علي، و فاطمة، و الحسن، و الحسين (عليهم السلام) لا في علي بن أبي طالب خاصةً لتقع مشكلة صيغة الجمع.

أضف إلى ذلك: أنّ المراد من شأن النزول ليس إلغاء «عمومية مفهوم الآية»، بل المراد هو أنّ هذه الآيات نزلت للمرة الأُولى بعد قيام هذه الأُسرة بتلك العبادة و الطاعة و الايثار، و هذه فضيلة عظيمة و منحة كبيرة أن تنزل هذه الآيات بعد أداء ذلك العمل.

و بتعبير آخر: إنّ علياً (عليه السلام) و أهل بيته المصداق السامي لهذه الآيات، بل يعدّون النموذج الكامل لها، لأنّ علة نزولها هو عملهم الطاهر، و من أراد انكار هذه الفضيلة العظمى إنّما يخادع نفسه.

و ينقل «الآلوسي» أيضاً هذه القصة بكاملها في «روح المعاني» عن ابن عباس، ومن ثمّ يضيف: و هذا الخبر مشهور بين القوم.

ثمّ يسعى و على ديدنه إلى التقليل منها أو إضعافها، و من أجل هذا الغرض يضيف بعد بيانه الأُمور بشأن اسناد هذه الرواية:« فاحتمال أصل النزول في الأمير «كرم الله وجهه» و فاطمة (رض) قائم و لا جزم بنفي و لا إثبات لتعارض الأخبار و لا يكاد يسلم المرجح عن قيل و قال... إذ دخولهما في الأبرار أمر جلي بل هو دخول أولى فهما هما و ماذا عسى يقول امرؤ فيهما سوى أنّ علياً مولى المؤمنين و وصي النبي و فاطمة البضعة الأحمدية و الجزء المحمدي و أمّا الحسنان فالروح و الريحان و سيدا شباب الجنان و ليس هذا من الرفض بشيء بل ما سواه عندي هو الغي[٢].

إلاّ أننا نقول: لو تغافلنا عن منقبة بهذه الشهرة فإنّ سائر الفضائل يكون مصيرها هكذا، و سيأتي اليوم الذي ستوضح أفضلية علي و فاطمة و الحسن و الحسين(عليهم السلام). فلماذا نتجاهل هذه الرواية المعروفة التي نقلها كبار المحدثين و المفسرين و التي لا معارض لها، و نسد على انفسنا طرق معرفة هؤلاء العظماء؟!

---

١. تفسير الكبير، ج٣، ص ٢٤٤.

٢. تفسير روح المعاني، ج٢٩، ص١٥٨.

يروي «السيوطي» العالم السني المعروف في تفسير «الدر المنثور» عن ابن مردويه عن ابن عباس انّ الآية (ويطعمون الطعام على حبّه....) نزلت بحق علي و فاطمة (عليهما السلام).

و أورد «الشبلنجي» أيضاً في «نور الابصار» قصة شأن النزول بكاملها[١]، و كذلك فريق آخر من كبار المفسّرين و المحدّثين.

«هل أتى» فى الشعر:

إنّ نزول هذه السورة بحق أهل البيت (عليهم السلام) جلي إلى الحد الذي أشار الكثير من الشعراء المعروفين إلى هذا المعنى في شعرهم، منها هذه الأبيات التي نقلت عن إمام الشافعية «**محمّد بن ادريس الشافعي**» في العديد من الكتب:

إلى مَ، إلى مَ، و حتى متى أُعاتَبُ في حبِّ هذا الفتى؟
وهلْ زُوجتْ فاطمٌ غيرهُ؟ و في غيره هل أتى، هل اتى؟[٢]

ينقل «ابن البطريق» و هو من علماء القرن السادس الهجري في كتاب «عمدة عيون صحاح الأخبار» عن تفسير ابن اسحاق الثعلبي، أنّه قال:

أنا مولى لفتى أُنزل فيه هل أتى[٣]

و يقول «محمّد بن طلحة الشافعي» أيضاً (من علماء القرن السابع) في كتاب «مطالب السؤال» بحق آل النبي(صلى الله عليه وآله):

هم العروة الوثقى لمعتصم بها مناقبهم جاءت بوحي و انزال
مناقبُ في الشورى و سورة هل اتى و في سورة الاحزاب يعرِفُها التالي[٤]

المراد من مناقب تلك العترة في سورة الشورى قوله تعالى: (قُلْ لا اَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ اَجْراً اِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى القُربَى).(الشورى / ٢٣)

و المراد من سورة الاحزاب الآية (اِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ اَهْلَ البَيتِ). (الأحزاب / ٣٣) و قصة سورة هل اتى معلومة أيضاً.

كما نقلت أشعار كثيرة أُخرى بهذا الصدد عن «طلائع» ابن رزيك (أبو الغارات) [٥].

---

١. نور الابصار، ص ٦٢.

٢. احقاق الحق، ج٣، ص ١٥٨; و علي في الكتاب و السنة، ج١،ص ٤٤٧.

٣. عمدة عيون صحاح الاخبار ; ص ٣٤٩.

٤. مطالب السؤال، ص ٨ (طبقا لنقل الغدير، ج٣، ص ١٠٩).

٥. يراجع كتاب علي في الكتاب و السنة، ج١، ص ٤٤٧.

المشكّكون و سورة هل أتى!

إنَّ كل مطّلع على كتب الحديث و التفسير و التاريخ للاخوة أهل السنّة يعرف جيداً حيثما يكون الحديث عن منقبة لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) و آل النبيّ(صلى الله عليه وآله) ينبري بعض المتعصبين من هنا و هناك و يثيرون الشبهات، و يسعون بشتى الذرائع اثارة المؤاخذات على سند و دلالة و مضمون ذلك الحديث، و يقللون من أهميّته، و إن كانت المؤاخذات ضعيفة و واهية، و كأنّهم قطعوا عهداً على أنفسهم على أنّ لا يتقبلوا أياً من هذه الفضائل، و إن تقبلوها فإنّها لا تتفق و حكمهم المسبق.

إنّ مطالعة كتب مثل تفسير «روح المعاني»، و«الفخر الرازي»، و«المنار»، و نحو ذلك شاهد على هذا الكلام بأنّ حكمهم العقائدي المسبق يقف حائلاً في جميع الأحوال أمام الاذعان لهذه الروايات، إلى الحد الذي يصاب الإنسان بالدهشة أحياناً بسبب المؤاخذات الواهية التي أثاروها على هذه الروايات.

بينما يتقبلون مناقب الآخرين برحابة صدر، و إن بدت عليها آثار الضعف، و مع هذا فقد افلتَ الكثير من الحالات من سيف انتقاداتهم و هي تكفي لإدراك الحقيقة.

على أيّة حال من الواجب هنا الإشارة إلى جانب مهم من تلك المؤاخذات:

١- إنّ هذه الفضيلة تصح في حالة نزول هذه السورة في المدينة و بعد ولادة الإمامين الحسن والحسين(عليهما السلام) و المشهور أنّ ولادة الإمام الحسن (عليه السلام) في السنّة الثالثة للهجرة، و ولادة الإمام الحسين (عليه السلام) في السنّة الرابعة للهجرة)، بينما يعتقد الكثيرون بأنَّ هذه السورة مكية، و عليه فإنّها لا تتفق و شأن النزول الآنف الذكر.

و لكن بناءً على قول المفسر السني المعروف القرطبي، فإنّ المشهور أنّ العلماء يعتقدون بأنّ هذه السورة مدنية (**و قال الجمهور مدنية**) [١].

و انضمت طائفة كثيرة إلى هذا الرأي أيضاً، منهم:

الحاكم الحسكاني إذ عدّ هذه السورة من السور المدنية حيث نزلت بعد سورة «الرحمن» و قبل سورة «الطلاق»، و الجدير بالاهتمام أنّ العالم المذكور نقل ثمانية روايات بهذا الصدد جرى التصريح فيها جميعاً بأنّ سورة «**هل اتى**» مدنية، و بعض هذه الروايات عن «ابن عباس»، و بعضها عن «عكرمة»، و«الحسن»، و بعضها عن آخرين.

---

١. تفسير القرطبي، ج١٠، ص ٦٩٠٩.

وقد قال في كلامه: إنّ بعض أعداء أهل البيت اعترضوا على سبب نزول هذه السورة، فقالوا: لقد اتفق علماء التفسير على أنّ هذه السورة مكية في حين أن قصتها وقعت في المدينة.

ثمّ يضيف: كيف يسوغ له دعوى الإجماع مع قول الأكثر أنّها مدنية[1].

و نقل في كتاب «**تاريخ القرآن**» لأبي عبد الله الزنجاني عن كتاب «نظم الدرر و تناسخ الآيات و السور»، عن جماعة من مشاهير أهل السنّة: إنّ سورة هل أتى مدنية[2].

و يروي «السيوطي» المفسر السنّي المعروف أيضاً في «**الدر المنثور**» المعنى نفسه عن ابن عباس بطرق مختلفة.

و في «**الاتقان للسيوطي**» نقل أيضاً عن «البيقهي» في «**دلائل النبوة**» عن عكرمة: إنّ سورة هل أتى مدنية[3].

بالإضافة إلى أنّ كافة الذين يرون أنّ شأن نزول هذه السورة في علي و فاطمة و الحسن و الحسين (عليهم السلام)،ـــ وهم جماعة كثيرة جرت الإشارة إليهم آنفا و كلّهم يشهدون على كون السورة مدنية.

فضلاً عن جميع ذلك، على فرض أنّ قسماً من هذه السورة مكي، و القسم المتعلق بنذر علي و أهل بيته مدني، فلا مانع من أن يكون قسم من السورة مكيّاً و الآخر مدنيّاً.

من هنا، فإنّ مؤلف تفسير «**روح البيان**» (البرسوئي الحنفي) بعد ذكره عن طائفة من كبار العلماء أنّ سورة «**هل اتى**» مدنية، إشارة إلى كلام الذين يرون أنّ بعض آياتها مكي و الآخر مدني، فيقول: على هذا الأساس يمكنك القول: (إنّ هذه السورة مكية و إن شئت قلت إنّها مدنية على أنّ الآيات المدنية في هذه السورة أكثر من الآيات المكية، فالظاهر أنّها تسمى مدنية لا مكية و نحن لا نشك في صحة القصة)[4].

من بين الأُمور التي اتخذها هذا المفسر و غيره من الواعين دليلاً على كون هذه السورة مدنية هو مجيء كلمة «**أسير**» فيها، و نحن نعلم أنّ لا وجود للأسير في مكة، و أنّ قضية الأسر و الأسير كانت بعد نزول حكم الجهاد في المدينة.

---

١. شواهد التنزيل، ج٢، ص ٣١٠– ٣١٥.

٢. تاريخ القرآن، ص ٥٥.

٣. تفسير الميزان، ج٢٠، ص ٢٢١.

٤. تفسير روح البيان، ج١٠، ص ٢٦٩.

يقول صاحب «**روح البيان**» في هذا المجال: «دل على ذلك أنّ الأسير إنّما كان في المدينة بعد آية القتال و الأمر بالجهاد»[١].

و المدهش أنّ المتزمتين الذين ليسوا على استعداد للتخلّي عن حكمهم المسبق بصدد الولاية و الخلافة خلقوا التبريرات لـــ «**الأسير**» هنا، حيث بالإمكان أن تكشف عن الحقائق، فقد قالوا: إنّ المراد من الاسير اسير زوجة**!** أو أسير الديون، و نحو ذلك...[٢].

و ينبغي التساؤل: لماذا نذهب وراء المجازيات، مع إمكانية تفسير الاسير بالمعنى الحقيقي؟

٢- كيف يتسنى حصر اللفظ العام للآية بأشخاص محددين؟

و لكن كما أسلفنا مراراً أنّ عمومية مفهوم الآيات لا يتعارض مع سبب النزول الخاص، و هذا يشاهد أيضاً في الكثير من آيات القرآن الكريم الأُخرى، حيث يكون مفهوم الآية عاماً و شاملاً، إلاّ أنّ سبب نزولها و هو مصداقها الكامل و السامي يكون مورداً خاصاً، و المثير للدهشة أنّ أحداً لم يتخذ عمومية مفهوم الآية في سائر الآيات الواردة في القرآن و سبب نزولها دليلاً على معارضة سبب النزول، إلاّ أنّ القضية هنا مختلفة**!!**

٣- المؤاخذة الأُخرى التي يثيرها المشككون هي: كيف يتمكن الإنسان من البقاء طاوياً ثلاثة أيّام و يفطر بماء فقط؟

بيدَ أنّ هذه المؤاخذة عجيبة، لأننا كثيراً ما رأينا و على امتداد حياتنا- أشخاصاً يمسكون عن الطعام من أجل العلاج، فبعضهم قد يمسك ثلاثة أيّام و هذا يسير، و تارة يمسكون لمدّة عشرة أيّام أو عشرين يوماً بل و حتى أربعين يوماً، أي أنّهم و على مدى اربعين يوماً لا يشربون سوى الماء فقط، و لا يتناولون طعاماً أبداً (حتى عصير الفواكه و الشاي)، و هذا الأمر حسب اعتقاد الأطباء الذين يعالجون المرضى عن طريق الصيام أدى إلى علاج الكثير من أمراضهم، حتى أنّ طبيباً مشهوراً غير مسلم يدعى «الكسي سوفورين» ألف كتاباً حول آثار الصيام لمدّة أربعين يوماً مع بيان دقيق لطرقه[٣].

و اعتبر بعض الكتّاب الصوم لأكثر من عشرين يوماً علاجاً لبعض الأمراض.

---

١. المصدر السابق.

٢. نقلت هذه الأقوال في البحر المحيط، ج٨، ص ٣٩٥ عن بعض المفسرين، إلاّ أنّ صاحب هذا الكتاب (أبو حيان الاندلسي) يرى أنّه يعني الاسير من الكفار.

٣. ترجم هذا الكتاب إلى العربية واسمه «التطبيب بالصوم».

إنّ الاضراب عن الطعام و منه «الاضراب عن الماء» متداول في عصرنا الراهن و أحياناً يتجاوز الأربعين يوماً.

و لكن لماذا يتعجب هؤلاء المشككون من الصوم لمدّة ثلاثة أيّام و الامساك عن الطعام و الافطار بالماء لوحده؟ أليس هدفهم هو تعطيل هذه الفضيلة العظمى بأي وسيلة متاحة؟

الخلاصة

١- من الايات التي نزلت بشأن اهل البيت (ع) هي سبعة عشر آية من سورة هل اتى حيث تتحدث هذه الايات عن الابرار و عباد الله الصالحين و ما لهم من نعم الهية عظيمة.

٢- الابرار عنوان عام لا يختص باهل البيت (ع) لكن النعم المتعددة التي ذكرت و اجتمعت في هذه السورة تكشف ان الافراد التي تتحدث عنهم السورة ليسوا اناساً عاديين و يؤيد ذلك شان نزولها.

٣- روى المفسرون ان الحسنين مرضا فاقترح النبي على علي ان ينذر لهما،فنذرعلي و فاطمة و شفي الحسنان، فصاموا ثلاثا ولكن تصدقوا بطعامهم في كل يوم فنزلت السورة في فضلهم.

٤- لا يرد هنا اشكال جمع الضمائر لأن الايات نزلت بحق علي و اهل بيته لكنها في نفس الوقت عامة فهم المصداق الاتم لها.

٥- وردت اشعار كثيرة من علماء السنة و الشيعة تؤكد نزول سورة هل اتى في علي و اهل بيته(ع).

٦- اشكل البعض ان السورة مكية بينما الحسنان (ع) ولدا بعد الهجرة؟ و الجواب ان عدد كبير من المفسرين ذهبوا الى انها مدنية على انه لا يبعد ان يكون قسم منها نزل في المدينة و الاخر في مكة.

٧- استغرب البعض انه كيف يمكن ان يبقى الانسان ثلاثة ايام من دون طعام؟ و الجواب ان في عصرنا هذا نشاهد الكثير ممن صام اكثر من ثلاثة و لم يتناول الا الماء.

بسمه تعالى

جامعة المصطفى المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٢١

آيات الفضائل (٤)

بكالوريوس

المقدمة

إن الكتاب العزيز حوى الكثير من مناقب أمير المؤمنين علي عليه السلام و من تلك المناقب أن النبي(ص) أمره بإبلاغ بعض الايات من سورة التوبة و ذلك بأمر من الله تعالى حيث امر النبي(ص) ابابكر اولاً ثم جاء جبرئيل و اخبره بأنه لا يليق لهذه المهمة إلا علي. و من تلك المناقب نزول قوله تعالى ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمارَةَ المسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَستَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ في فضله. في هذه الدرس نطّلع على هاتين القضيتين و المصادر التي روهما من كتب التفسير و التاريخ.

المحتوى العلمي

آيات مقدّمة سورة «البراءة» و آية «سقاية الحاجّ»

في سورة التوبة، و في موضعين منها نزلت آيات تتضمن مناقب عظيمة لأمير المؤمنين (عليه السلام) بلحاظ سبب نزولها و الروايات التي نقلها أغلب المفسرين و المؤرخين و المحدّثين.

الاولى: آيات مقدّمة سورة البراءة

و هي الآيات التي في مطلع هذه السورة –النازلة بشأن اعلان الحرب على المشركين الذين ينقضون العهد–، و قد اتفق كافة المفسرين و المؤرخين تقريباً على أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) و أثناء نزول هذه الآيات في السنة التاسعة للهجرة و التي تعلن فيها عن نقض العهد مع المشركين، اختار «أبا بكر» لابلاغ هذا الأمر إلى عامة الناس في مكة خلال الحج، و لكن لم يمض من الوقت شيء حتى استرجع الآيات منه و أعطاها لعلي (عليه السلام) و أمره بابلاغها إلى أهل مكة في مراسم الحج، و هكذا فعل.

و بالرغم من وجود جدل بين المحدثين و المفسرين و المؤرخين في تفرّعاتها، نشير هنا إلى جانب من هذه الروايات:

١- يروي أحمد بن حنبل الإمام السنّي المعروف في مسنده الذي هو أحد كتب الحديث المعروفة لدى السنة:عن ابي بكر انّ النبيّ(صلى الله عليه وسلم) بعثه ببراءة لأهل مكة، لا يحج بعد العام بالبيت مشرك و لا يطوف بالبيت عريان، و لا يدخل الجنة إلاّ نفس مسلمة، من كان بينه و بين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مدّة فأجله إلى مدّته، و الله بريء من المشركين و رسوله، قال: فسار بها ثلاثاً، ثم قال لعلي(رضي الله تعالى عنه): إلحقه فَرُدَّ عليَّ أبا بكر و بلغها أنت، قال: ففعل، قال: فلما قدم على النبي(صلى الله عليه وسلم)

أبو بكر قال: يارسول الله حدث فيّ شيء؟ قال: «**ما حدث فيك إلاّ خير و لكن اُمرت أن لا يبلغه إلاّ أنا أو رجل منّي**»[١].

و ينقل الترمذي في سننه المعروفة و هي من المصادر الرئيسة للحديث لدى أهل السنّة، هذه الرواية بتعبير آخر في بحث تفسير القرآن عن أنس بن مالك، قال: بعث النبيّ(صلى الله عليه وسلم) ببراءة مع أبي بكر، ثمّ دعاه فقال: «**لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلاّ رجلٌ من أهلي فدعا علياً فأعطاه إيّاها**»[٢].

ثمّ نقل الترمذي رواية اُخرى عن ابن عباس حول هذا الموضوع، و لكن أكثر تفصيلاً و بياناً[٣]، و اللطيف أنّه يقول بعد نهاية الحديثين، سواء عنه أم نقلاً عن الآخرين: **هذا حديث حسن غريب**، إلاّ أنّه لم يعبر بهذا بشأن غيرِهِ من الروايات سواء قبله أو بعده، و هذا بحدّ ذاته من الاُمور الغريبة، و كأن كل حديث يروي منقبة استثنائية بحق علي (عليه السلام) يعتبر غريباً بنظرهم.

٢- ينقل السيوطي في الدر المنثور عن «عبد الله بن أحمد بن حنبل» و«ابن مردويه» عن علي (رضي الله عنه): لما نزلت الآيات العشر الاُولى من سورة التوبة على النبيّ(صلى الله عليه وسلم)دعا أبا بكر رضي الله عنه ليأخذ هذه الآيات ويقرأها على أهل مكة; ثمّ دعاني فقال لي: أدرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب به إلى أهل مكة فاقرأه عليهم فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه، فرجع أبو بكر إلى النبي(صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله نزل فيّ شيء؟ قال: «**لا، و لكن جبرئيل جاءني فقال: لن يؤدّي عنك إلاّ أنت أو رجل منك**»[٤].

٣- و في نفس الكتاب يروي عن «أحمد» و«الترمذي» و«ابن مردويه» أيضاً عن «انس» بأنّه (صلى الله عليه وآله) بعث بآيات البراءة مع أبي بكر، ثمّ دعاه و قال: «**لا ينبغي لاحد أن يبلغ هذا إلاّ رجل من أهلي، فدعا علياً فأعطاها إيّاه**»[٥].

٤- و في الكتاب نفسه:« عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه و سلم بعث أبا بكر رضى الله عنه ببراءة إلى أهل مكة ثم بعث عليا رضى الله عنه على اثره فأخذها منه

١. مسند أحمد، ج١، ص ٣.

٢. سنن الترمذي، ج ٤، ص ٣٣٩، ح ٥٠٨٥.

٣. المصدر السابق، ح ٣٠٩١.

٤. تفسير در المنثور، ج٣، ص٢٠٩.

٥. تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٢٠٩.

فكان أبا بكر رضى الله عنه وجد في نفسه فقال النبي صلى الله عليه و سلم يا أبا بكر انه لا يؤدى عنى الا أنا أو رجل منى »[١].

٥- و يروي في الكتاب نفسه عن «أبي سعيد الخدري» الصحابي المعروف انه قال: بعث النبيّ(صلى الله عليه وسلم)بعث أبا بكر رضي الله عنه يؤدّي عنه براءة، فلما أرسله بعث إلى علي (رضي الله عنه) فقال: يا علي انّه لا يؤدّي عنّي إلاّ أنا أو أنت فحمله على ناقته العضباء فسار حتى لحق بأبي بكر رضي الله عن فأخذ منه براءة، فأتى أبو بكر النبي (صلى الله عليه وسلم) وقد دخله من ذلك مخافة أن يكون قد انزل فيه شيء، فلما أتاه قال: «مالي يا رسول الله؟ (و ساق الحديث) إلى أن ذكر قول النبيّ(صلى الله عليه وآله): «**لا يبلّغ عنّي غيري أو رجل منّي**»[٢].

٦- و في هذا الكتاب أيضاً يروي عن «أبي رافع» الصحابي المعروف انه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم أبا بكر رضي الله عنه ببراءة الى الموسم فاتى جبريل عليه السلام فقال: «**إنّه لن يؤدّيها عنك إلاّ أنت أو رجل منك**»[٣].

٧- ٨- روى الحاكم الحسكاني في «شواهد التنزيل» ما يقارب من اثنتي عشرة رواية بشأن هذا الموضوع عن أنس بن مالك، و ابن عباس، و سعد، و أبي سعيد الخدري، و أبي هريرة، و غيرهم حيث يطول المقام بذكرهم جميعاً، و بمقدور الراغبين الرجوع إلى الكتاب المذكور الذي هو في متناول الجميع من أجل المزيد من التحقيق[٤].

و روى جماعة كثيرة اُخرى أيضاً هذه الرواية بطرق مختلفة، فرواة هذا الحديث كثيرون إلى الحد الذي يقول المرحوم العلاّمة الأميني: «هذا الحديث أخرجه كثير من أئمّة الحديث و حفاظه بعدة طرق صحيحة يتأتى التواتر بأقل منها عند جمع من القوم ثم عدد ٧٣ نفراً منهم[٥] ثم يضيف: إنّ رواة هذا الحديث ينتهي أسانيدهم إلى جمع من الصحابة الأولين منهم علي(عليه السلام)، أبو بكر، جابر بن

---

١. المصدر السابق.

٢. المصدر السابق، ص ٢٣٠ (بشيء من الاختصار).

٣. المصدر السابق.

٤. شواهد التنزيل، ج١، ص ٢٣٢- ٢٤٣ (الحديث رقـم ٣٠٩ و٣١٠ و٣١١ و٣١٢ و٣١٤ و٣١٥ و٣١٦ و٣١٧ و٣١٨ و٣٢٣ و٣٢٤ و٣٢٥).

٥. للاطلاع على اسماء هؤلاء الـ ٧٣ شخصا راجعوا كتاب الغدير، ج٦، ص ٣٤١- ٣٨٨.

عبد الله الأنصاري، أنس بن مالك، أبو سعيد الخدري، سعد بن أبي وقاص، أبو هريرة، عبد الله بن عمر، حبش بن جنادة، عمران بن حصين، أبو ذر الغفاري»[١].

ونختم هذا البحث بشعر لـــ «شمس الدين المالكي» و هو من شعراء القرن الثامن الهجري المعروفين، يقول:

و أرسلهُ عنهُ الرسول مبلّغاً — و خصّ بهذا الأمر تخصيص مفردِ
و قال هل التبليغ عني ينبغي — لمن ليس من بيتي من القوم فاقتدي

النتيجة:

إنَّ هذه الرواية بهذه السعة في المصادر تعتبر أحد الأدلة الواضحة على أفضلية علي(عليه السلام)على غيره بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله)و اعتماده (صلى الله عليه وآله) عليه، و غاية قربه من الله تعالى، فهو يقول بصريح القول: «**أمرني جبرئيل الامين عن الله بأن يبلغ علي هذه الآيات**»، و قال (صلى الله عليه وآله): «**لن يؤدّي هذا الأمر إلاّ أنا أو رجل منّي**»، و أنّ علياً وحده المؤهل لأداء هذا العمل.

و بالنظر إلى أنّ: إلغاء العهود مع المشركين كان أحد أكثر المراحل حساسية في تاريخ الإسلام و يقتضي اطلاعاً و تدبيراً و شجاعة استثنائية و كان من الممكن أن يواجه ردود فعل قوية من قبل المعارضين أثناء مراسم الحج، فإنّ اختيار علي(عليه السلام) لهذه المهمّة كان أفضل دليل على أنّه أعلم الأُمّة و أشجعها وأكثرها تدبيراً، و من المسلّم به أنّ الذي يُختار لهذا الأمر أكثر أهلية و أجدر لخلافة النبيّ(صلى الله عليه وآله).

و الجدير بالاهتمام أنّ أبا بكر نفسه أدرك هذا الأمر أيضاً، و عند حضوره عند النبيّ(صلى الله عليه وآله) استفسر باضطراب: هل نزل شيء بحقي؟ فأجابه النبيّ(صلى الله عليه وآله) بان هذا العمل يؤدّيه شخص منّي!.

و هنا نلاحظ أنَّ المشككين بما امتلكوه من حكم مسبق بذلوا كل مابوسعهم من أجل التقليل من أهميّة هذه المنقبة، و تجاوزوا هذه المسألة بتحليلاتهم الواهية.

فمثلاً يقول «الآلوسي» في «روح المعاني»: «و قصارى ما في الخبر الدلالة على فضل الأمير كرم اللّه تعالى وجهه و قربه من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و المؤمن لا ينكر ذلك لكنه بمعزل عن اقتضائه التقدم بالخلافة على الصديق رضي اللّه تعالى عنه» ثمّ يضيف قائلاً: و قد ذكر بعض أهل السنّة نكتة في نصب أبي بكر أميراً للناس في حجهم و نصب الأمير «كرم الله وجهه» مبلغاً نقض

---

١. الغدير، ج٦، ص ٣٤١- ٣٤٨.

العهد في ذلك المحفل، وهي أنّ أبا بكر كان مظهراً لصفة الرحمة و الجمال، و علي (عليه السلام)هو أسد الله و مظهر جلاله ففوض إليه نقض عهد الكافرين الذي هو من آثار الجلال و صفات القهر فكانا عينين فوّارتين يفور من إحداهما صفة الجمال، و من الأُخرى صفة الجلال في ذلك الجمع العظيم الذي كان أنموذجاً للحشر و مورداً للمسلم و الكافر.

يقول الآلوسي بعد ذكره لهذا الكلام: «و لا يخفى حسنه لو لم يكن في البين تعليل النبي(صلى الله عليه و سلم)» [١].

و كما قال «الآلوسي» في كلامه الأخير فإنّ هذا التحليل «الشاعري» لا يتفق و قول النبيّ(صلى الله عليه وآله)، فهو يقول بصراحة: لقد أمرني جبرئيل عن الله أنّ هذا الأمر لايؤدّيه إلاّ أنا أو رجل منّي، أي رجل نظير للنبي (صلى الله عليه وآله) و يمتلك مواصفات خاصة و أقرب الناس إليه، و نحن نعلم أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) كان جامعاً لصفات الجمال و الجلال.

لماذا يصر هؤلاء الأُخوة على إغفال منقبة بهذه العظمة أو يحرفونها عن منحاها الحقيقي بتبريرات شاعرية، مخافة أن يستند إليها الشيعة و يثبتوا حقانية مذهبهم؟!

وننهي كلامنا هذا بالحديث الذي روي عن أبي ذر الغفاري في كتاب «مطالب السؤال»، فهو يقول: قال النبي(ص): «**علي منّي و أنا من علي و لا يؤدّي إلاّ أنا أو علي**»[٢].

الثانية: آية سقاية الحاج

نقرأ في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمارَةَ المسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبيلِ اللَّهِ لاَ يَستَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لاَ يَهدِى القَومَ الظَّالِمينَ ﴾.(التوبة / ١٩)

لقد أورد الحاكم الحسكاني الحنفي في «شواهد التنزيل» ما يربو على عشر روايات من طرق مختلفة في ذيل هذه الآية، تثبت أنّها نزلت بحق علي (عليه السلام).

ففي احدى هذه الروايات ينقل عن أنس بن مالك: قعد العباس بن عبد المطلب، و شيبة صاحب البيت يفتخران حتى أشرف عليهما علي بن أبي طالب فقال له العباس: على رسلك يا ابن أخي. فوقف له علي فقال له العباس: إن شيبة فاخرني فزعم أنه أشرف مني. قال: فماذا قلت [له] يا عمّاه قال: قلت له: أنا عم رسول الله و وصي أبيه و ساقي الحجيج أنا أشرف منك. فقال [علي]: لشيبة فما ذا قلت يا شيبة قال: قلت له: أنا أشرف منك، أنا أمين الله على بيته و خازنه أفلا ائتمنك عليه

---

١. تفسير روح المعاني، ج١٠، ص ٤٧.

٢. مطالب السؤال، ص ١٨ (على ضوء نقل الغدير، ج٦، ص٣٤٨).

كما ائتمني!! فقال لهما علي: اجعلا لي معكما فخرا. قالا: نعم. قال: فأنا أشرف منكما، أنا أول من آمن بالوعيد من ذكور هذه الأمة، و هاجر و جاهد. فانطلقوا ثلاثتهم إلى رسول الله (ص) فجثوا بين يديه فأخبر كل واحد منهم بمفخرته فما أجابهم رسول الله بشيء، فانصرفوا عنه فنزل الوحي بعد أيام فيهم فأرسل إليهم ثلاثتهم حتى أتوه فقرأ عليهم النبي (ص): أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ إلى آخر العشرة.[١].

و ورد هذا المضمون أيضاً بشيء من الاختلاف في بقيّة الروايات.

و جاء في بعضها: لما سمع العباس بنزول الآية قال ثلاثاً: «**إنا قد رضينا**».

و بالإضافة إلى «الحاكم الحسكاني» فقد نقل هذه الروايات أيضاً جمع غفير بعضهم بشكل مفصل و بعضهم على نحو الاختصار في كتبهم، منهم:

«الطبري» في تفسيره عن «أنس بن مالك»[٢].

«الواحدي» في «أسباب النزول»[٣].

«القرطبي» في تفسيره[٤].

«الفخر الرازي» في «التفسير الكبير»[٥].

«الخازن» في تفسير «الخازن»[٦].

«أبو البركات النسفي» في تفسيره[٧].

«ابن الصباغ المالكي» في «الفصول المهمّة»[٨].

و في تفسير «الدر المنثور» و هو تفسير يستند إلى أحاديث أهل السنّة نقل روايات كثيرة بشأن نزول هذه الآية بحق علي (عليه السلام)، و القصة الآنفة[٩].

---

١. شواهد التنزيل، ج١، ص ٢٤٩.

٢. تفسير جامع البيان، ج١٠، ص٥٩.

٣. أسباب النزول، ص ١٨٢.

٤. تفسير القرطبي، ج٨، ص ٩١.

٥. تفسير الكبير، ج٤، ص ٤٢٢.

٦. تفسير الخازن، ج٢، ص ٢٢١.

٧. تفسير أبو البركات، ج٢، ص ٢٢١.

٨. الفصول المهمّة، ص ١٢٣.

٩. تفسير در المنثور، ج٣، ص ٢١٨ و٢١٩.

و هنا يتبادر إلى الذهن سؤال و هو: أليس التفاخر أمرا منبوذا في الإسلام؟ فلِم يُقْدِم أمير المؤمنين (عليه السلام) على هذا الأمر؟

تتضح الاجابة عن هذا السؤال من خلال الالتفات إلى قضية واحدة و هي: إنّ الناس ربّما يقعون بالخطأ في تشخيص القيم، فيتركون القيمة الحقيقية و يتبعون الأُمور المتأخرة من ناحية القيمة، ففي مثل هذه الحالات لا مانع من الافتخار و التباهي من أجل توضيح الحقيقة، بل تعتبر واجباً في بعض الحالات، فمثلاً ربّما يفتخر شخص بنفسه في احدى المجالس قائلاً: إنني امتلك الثروة الفلانية، و آخر يقول: إنّ القصر الفلاني يعود لي، و يقول ثالث: كفاني فخراً أنني أمير بلدي!.

و ينبري شخص قد جلس هناك فيقول من أجل ابراز القيم الحقيقية:

بالرغم من افتقاري للمال و الثروة و المقام و الجاه إلاّ أنني افتخر بكوني حافظاً للقرآن فهذا الفعل لايعد قبيحاً بل هو درس بليغ.

الخلاصة

١– عندما نزلت ايات تعلن الحرب مع المشركين الذين نقضوا العهد مع المسلمين أمر النبي(ص) ابابكر ان يبلغ تلك الايات و لكن بعد فترة استرجعها و أمر عليّا بتلك المهمة .

٢– تعد هذه الواقعة منقبة كبيرة لأمير المؤمنين(ع) لأن أبابكر عندما سأل النبي(ص) عن السبب قال(ص): « اُمرت أن لا يبلغه إلاّ أنا أو رجل منّي».

٣– روي هذا الخبر في مصادر كثيرة من كتب المسلمين كمسند احمد و صحيح الترمذي والسيوطي في الدر المنثور و الحاكم الحسكاني و... .

٤– إن هذه الواقعة دليل واضح على أفضلية علي(ع) على غيره من الصحابة و أنه الأجدر لأداء مثل هذه المهمات الحساسة في تاريخ الاسلام.

٥– روى المؤرخون و المفسرون أن قوله تعالى﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الحَاجِّ وَعِمارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَستَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ نزلت في علي(ع).

٦– افتخر العباس على شيبة فقال انا عم النبي و انا ساقي الحجيج و قال شيبة انا امين بيت الله، فقال علي(ع) أنا أول من آمن وهاجر، فاخبروا النبي(ص) فنزل عليه الوحي ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ... .﴾

٧– إن التفاخر منبوذ في الاسلام و لكن قد يكون محبذا لأجل تكريس القيم الحقيقية وم إلغاء القيم الباطلة و ما قام به امير المؤمنين (ع) كان من هذا الباب.

بسمه تعالى

جامعة المصطفى المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٢٢

آيات الفضائل (٥)

بكالوريوس

المقدمة

حفلت آيات الكتاب العزيز بمناقب أهل البيت عليهم السلام و هي أوثق حجة لأفضلية علي و أولاده(ع) حيث إنه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لامن خلفه و في هذا الدرس نمرّ على آيات اخرى تشهد بفضل علي(ع) و قربه و منزلته السامية عند الله و عند رسوله فهو صالح المؤمنين و ظهير رسول الله و هو وزيره و شريك أمره و أخيرا هو الذي كتب الله النصرللمسلمين علي يديه.

المحتوى العلمي

آية «صالح المؤمنين»

نقرأ في القرآن الكريم، أنّ الباري جل و علا خاطب بعض نساء النبيّ (صلى الله عليه وآله) اللـــواتي ارتكبن مخالفة، قائلاً: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الملائِكَـــةُ بَعْدَ ذلَكَ ظَهِيرٌ﴾. (التحريم / ٤)

إنَّ عبارة «**صالح المؤمنين**» تشمل المؤمنين و الصالحين و الصادقين من أصحاب النبيّ(صلى الله عليـــه وآله)، و ليس الصحابة و الأنصار الذين عاصروه فحسب، بل هي تشمل المؤمنين و الصــالحين في سائر الدهور و الأعصار أيضاً، أولئك الذين يجاهدون لنصرة الإسلام و النبيّ(صلى الله عليه وآله) و رسالته بمختلف السبل.

بيدَ أنّ المهم هنا أنّ «**صالح المؤمنين**» فسرت في روايات عديدة بعلي (عليه السلام)، وتؤكد على أنّه أفضل و اكمل مصداق لهذه الآية، و نظراً لمجيئه جنباً إلى جنب جبرئيل يتجلى علوّ منزلته و أهميّة هذه الفضيلة جيداً.

نعم فقد كان علي (عليه السلام) أفضل نصير لرسول الله (صلى الله عليه وآله) مدى حياته بعد الله و جبرئيل الأمين، و عليه فمن يستحق أن يخلف النبيّ(صلى الله عليه وآله) غيره؟ ألا تدل هذه الروايات على أنّه كان أفضل الأُمّة، و أفضل الخلق بعد النبي(صلى الله عليه وآله)؟

و الآن لننظر في اسناد هذه الروايات و نتطرق إلى جانب منها الذي اقتطف بشكل عام من مصـــادر أهل السنّة:

ينقل «الحاكم الحسكاني» ثمانية عشر حديثاً! في ذيل هذه الآية من مختلف الطرق، بأنّ المـــراد مـــن «**صالح المؤمنين**» علي بن أبي طالب (عليه السلام)، منها: انّه يروي عن «أسماء بنت عميس» انهـــا تقول: سمعت النبيّ(ص) يقول: «**صالح المؤمنين علي بن أبي طالب**»[١].

١. شواهد التنزيل، ج٢، ص ٢٥٦، ح ٩٨٢.

و روي في الكتاب نفسه عن «ابن عباس» أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال بحق علي بن أبي طالب(عليه السلام): «**هو صالح المؤمنين**»[١].

و يروي عن «عمار بن ياسر» قوله: سمعت علي بن أبي طالب يقول دعاني رسول الله (ص) فقال: ألا أبشرك قلت: بلى يا رسول الله و ما زلت مبشرا بالخير. قال: قد أنزل الله فيك قرآنا. قلت: و ما هو يا رسول الله قال: قرنت بجبرئيل ثم قرأ «وَ جِبْرِيلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» فأنت و المؤمنون من بني أبيك الصالحون [٢].

و ينقل هذا المعنى أيضاً في رواية أُخرى عن «حذيفة».

و في رواية ينقل عن «ابن سيرين»، و في اُخرى عن «علي بن أبي طالب» نفسه، أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) قال: «**صالح المؤمنين، علي بن أبي طالب**»[٣].

كما نقل الكثير من المفسرين هذا الحديث في تفاسيرهم، منهم السيوطي في «الدر المنثور» في ذيل الآية عن «ابن عباس» و«أسماء بنت عميس».

و يقول «البرسوئي» في تفسير «روح البيان» عند نقله لهذه الأقوال في ذيل هذه الآية: «و عن مجاهد هو علي (رضي الله عنه) يقول الفقير: يؤيده قوله(عليه السلام): **يا علي أنت منّي بمنزلة هارون من موسى**». ثمّ ينقل آيات عديدة حيث اطلق الباري تعالى كلمة الصالحين في القرآن الكريم على كبار الأنبياء، و يستنتج بأنّه لّما كان علي(عليه السلام) بمنزلة نبي الله «**هارون**»، فهو جدير بصفة الصالحين[٤].

بالإضافة إلى أنّ هذه الرواية نقلت من قبل جماعة آخرين مثل «العسقلاني» في «فتح الباري»، و«ابن حجر» في «الصواعق»، و«علاء الدين المتقي» في «كنز العمال».

و خلاصة القول: إنّها منقبة عظيمة لا نظير لها إذ قرن الله تعالى صالح المؤمنين بجبرئيل، و مصداقها التام و الكامل على ضوء هذه الروايات علي بن أبي طالب(عليه السلام).

نعم، فقد كان جنباً إلى جنب النبيّ(صلى الله عليه وآله) في جميع مراحل حياته، و كان يعد نصيراً و ظهيراً له في الأحوال جميعاً، و هو اجدر من الجميع بخلافته (صلى الله عليه وآله).

---

١. المصدر السابق، ص ٢٥٨، ح ٩٨٧.

٢. المصدر السابق، ص ٢٥٩، ح ٩٨٩.

٣. المصدر السابق، ص ٢٥٥– ٢٦٣.

٤. تفسير روح البيان، ج١٠، ص ٥٣.

آية الوزارة

نقرأ في القرآن الكريم على لسان موسى (عليه السلام): (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهلِي * هـــــارُونَ أَخِي * اشدُدْ بِهِ اَزْرِي * وَاَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي). (طه / ٢٩– ٣٢)

فهذه الآيات تبين طلبات موسى (عليه السلام) في بداية بعثته.

في ذيل هذه الآيات نشاهد روايات عديدة أيضاً في مصادر أهل السنّة، مَفادُها أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) قد سأل الله ذلك من أجل تحقيق أهداف رسالته، مع فارق أنّه جعل اسم علي(عليه السلام)بدل اسم هارون، و فيما يلي تطالعون بعضاً من هذه الروايات:

١– روي في «شواهد التنزيل» عن «حذيفة بن اسيد» أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) أمسك بيد علي بن أبي طالب (عليه السلام) و قال: «**ابشرْ، و أبشر، انّ موسى دعا ربّه أن يجعل له وزيراً من أهله هارون، وإنّي أدعو ربّي أن يجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً أخي، أُشدْدُ بـــه ظهـــري وأُشـــركه في أمري**»[1].

٢– في رواية اُخرى، يروي عن «أسماء بنت عميس» تقول: سمعت رسول الله(ص)يقول: «**اللّهم إنّي أقول كما قال أخي موسى، اللّهم اجعل لي وزيراً من أهلي، علياً أخي، اشدد به أزري، و اشركه في أمري، الى [قوله] بصيراً**»[2].

بديهي أنّ المراد من الاشتراك في عمل النبيّ(صلى الله عليه وآله) لا تعني الشركة في النبوة، بل الشركة في أمر قيادة الاُمّة.

٣– و في رواية اُخرى، ينقل حديثاً عن «أنس بن مالك» ليس فيه إشـــارة إلى قصـــة موســـى(عليه السلام)، بل مطروح فيه مسألة الخلافة و الوزارة، فيقول: قال رسول الله (عليه السلام): «**إنّ خليلي و وزيري و خليفتي في أهلي، و خير من أترك بعدي، ينجز موعدي و يقضي ديني، علي بـــن أبي طالب**»[3].

٤– روي هذا الحديث باختلاف بسيط أيضاً عن سلمان الفارسي[4].

١. شواهد التنزيل، ج١، ص ٣٦٨، ح ٥١٠.

٢. المصدر السابق، ص ٣٧٠، ح ٥١١.

٣. شواهد التنزيل، ج ١، ص ٣٧٤، ح ٥١٦.

٤. المصدر السابق، ج١، ص ٧٧، ح ١١٥.

٥- و يروي الحافظ أبو نعيم الاصفهاني و هو من علماء القرن الخامس الهجري في كتاب «**مانزل من القرآن في علي**» ماتضمنهُ حديث «أسماء بنت عميس» عن «ابن عباس»، و في نهايته يقول ابن عباس: فسمعت منادياً ينادي: «**يا أحمد قد اُوتيت ما سألت**»[1].

٦- و ينقل «الفخر الرازي» في تفسيره الكبير هذه الرواية بمزيد من التفصيل عن «أبي ذر الغفاري» عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) فيذكر تصدّق علي (عليه السلام) بخاتمه...الى ان يقول: فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم بمرأى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: «**اللّهم إنّ أخي موسى سألك فقال: ربّ اشرح لي صدري (إلى قوله) و أشركه في أمري فانزلت قرآناً ناطقاً: «سنشد عضدك بأخيك و نجعل لكما سلطاناً»، اللّهم و أنا محمد نبيّك و صفيك فاشرح لي صدري و يسر لي أمري و اجعل لي وزيراً من أهلي علياً اُشدد به ظهري**»، قال أبو ذر: فو الله ما أتمّ رسول الله هذه الكلمة حتى نزل جبريل فقال: يا محمد اقرأ: (إنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ...) إلى آخرها[2].

إنّ إسناد و طرق هذه الرواية و الكتب التي رويت فيها من الكثرة بحيث لا يستوعبها هذا الموجز و قد اُشير إلى جانب منها فقط.

مضمون الآية و الروايات

تقول هذه الروايات بجلاء: إنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) دعا و استجاب له الله تعالى كما استجاب لموسى، و كان دعاؤه أن يجعل له وزيراً من أهله يشاركه في أمره، و يشدَّ به أزره، كما كان هارون لموسى (عليه السلام) تماماً.

و كما جرت الإشارة فإنّ من المسلَّم به ليس المراد من الشركة الاشتراك في أمر النبوة، إذ لا نبي بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله) الذي كان خاتم النبيين، و معلوم أيضاً ليس المراد المشاركة في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و الإرشاد، و تبليغ الرسالة فحسب، لأنّها تكليف المسلمين جميعاً، فيجب على الجميع الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و على الجميع كل حسب وسعه نشر الإسلام و هداية الآخرين.

على هذا الأساس، فالمراد مقام خاص غير النبوّة و التكليف العام بالأمر بالمعروف، و هل يمكن أن تكون هذه القضية سوى القيادة و الوزارة من قبل الباري عزّ وجلّ؟ و النتيجة المباشرة لهذا الأمر هي أنّه (عليه السلام) سيكون خليفة النبي(صلى الله عليه وآله).

---

١. ملحقات احقاق الحق، ج٢٠، ص ١٢٨.

٢. التفسير الكبير، ج١٢، ص ٢٦ (ذيل الآية ٥٥ من سورة المائدة).

و بعبارة أُخرى، ثمّة تكاليف لا تمثل واجب جميع الناس، و هي صيانة الرسالة الإلهيّة من كل تحريف و انحراف، و كذلك توضيح ما ليس يدركه الناس في مضمون الدين، و قيادة الأُمّة أثناء غياب النبي(صلى الله عليه وآله) و بعد رحيله، و المساعدة المؤثرة في تحقيق أهدافه، حيث تختصر جميعها في كلمة وزير[1].

و هذا ما سأله النبيّ(صلى الله عليه وآله) من الله بحق علي (عليه السلام)، و استجاب الله دعاءه.

و هنا يتضح الرد على وساوس بعض المفسرين الذين لايطيقون الاذعان لمثل هذه المناقب بحق علي (عليه السلام).

فهم يحاولون تفسير «الشركة في أمر النبيّ(صلى الله عليه وآله)» بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر[2]، و الحال أنّنا نعلم أنّها واجب المسلمين جميعاً، و لا تحتاج إلى تعيين وزير من قبل الله تعالى.

آيات سورة الاحزاب

هنالك آيات في سورة الأحزاب نزلت بحق علي (عليه السلام) على ضوء قول طائفة من المفسرين، أو أنّها ناظرة إلى تضحياته الفريدة من نوعها.

فنقرأ في قوله تعالى: ﴿مِن الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبدِيلاً﴾. (الاحزاب / ٢٣)

و يقول تعالى (أي بعد آيتين): (وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ القِتَالَ وَ كَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً). (الاحزاب / ٢٥)

نحن نعلم أنّ معركة الأحزاب كانت من أهم الغزوات في الإسلام، فهي كما يتضح من اسمها تعتبر صراع جميع أعداء الإسلام ضد المسلمين، و تظافرت كافة الفرق التي تعرضت مصالحها للخطر نتيجة لانتشار الدين الإسلامي، من أجل القضاء على الإسلام و رسول الله(صلى الله عليه وآله)، و لتطمئن قلوبهم إلى الأبد!.

فهناك سبع عشرة آية من سورة الأحزاب شرحت أحوال هذه المعركة، و قد توضحت فيها دقائق الأُمور و خفاياها، و قد فصلت أحوال مختلف فرق المسلمين في هذا المضمار بدقة و ظرافة.

لقد مرّت على المسلمين لحظات حرجة و خطيرة للغاية في هذه المعركة، فحشود العدو، و قلة الجيش الإسلامي في مقابلهم (ذكر المؤرخون عدد جيش الأحزاب بعشرة الآف رجل، و الجيش الإسلامي بثلاثة الآف رجل) بالإضافة إلى استعداد العدو من حيث المعدات الحربية و قلة عدّة المسلمين.

---

١. «الوزير» من مادة «وزر»، حيث إنّ الوزير يتحمل ثقل المسؤوليات المختلفة على عاتقه، فقد اطلقت هذه الكلمة عليه.

٢. تفسير روح المعاني، ج١٦، ص ١٨٥.

فالآيتان من ضمن هذه الآيات السبع عشرة.

و يروي صاحب «شواهد التنزيل» في ذيل الآية الأُولى بسنده عن علي (عليه السلام) قوله: «**فينا نزلت ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾، ثمّ قال: فأنا و الله المنتظر**»[١].

و يروي عن «عبد الله بن عباس» أيضاً انّ الآية ﴿مِّنَ الْمُؤمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ ناظرة إلى علي (عليه السلام) و حمزة و جعفر، و عبارة (وَ مِنْهُم مَّن يَنْتَظِرُ) إشارة إلى علي(عليه السلام) الذي كان ينتظر الشهادة في سبيل الله، «**فوالله لقد رُزق الشهادة**»[٢].

و روي هذا المعنى أيضاً في كل من «الصواعق المحرقة» لابن حجر، و«الفصول المهمّة» لابن الصباغ المالكي، و«الكشف والبيان» للنيسابوري[٣].

البحث فيما يتعلق بالآية الثانية أكثر اتساعاً من هذا، فقد قال الكثير من المحدثين و المفسرين: إنّ (كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ القِتَالَ...) إشارة إلى علي (عليه السلام) و ضربته المؤثرة التي وجهها لعمرو بن عبد ود و كفى المؤمنين قتال الكفار.

و من بين الذين رووا هذا المعنى هو «عبد الله بن مسعود»، فعندما كان يقرأ هذه الآية كان يقول في تفسيرها: «**و كفى الله المؤمنين القتال، بعلي بن أبي طالب**»[٤].

و يروي «الحاكم الحسكاني» عدّة أحاديث بهذا المضمون عن عبد الله بن مسعود[٥].

و يروي عن ابن عباس أيضاً أنّه لّما قرأ آية «**و كفى الله المؤمنين القتال**» قال: «**كفاهم الله القتال يوم الخندق بعلي بن أبي طالب، حين قتل عمرو بن عبد ود**»[٦].

كما روى عن حذيفة الصحابي المعروف حديثاً مفصّلاً حول نزال علي (عليه السلام)لعمرو بن عبد ود و قتله، ثمّ ينقل عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: «**أبشر يا علي! فلو وزن اليوم عملك بعمل أُمّة محمد لرجح عملك بعملهم و ذلك أنّه لم يبق بيت من بيوت المسلمين إلاّ و قد دخله عزٌ بقتل عمرو**»[٧].

١. شواهد التنزيل، ج٢، ص ١ و٢، ح ٦٢٧.

٢. المصدر السابق.

٣. علي في الكتاب والسنّة، ص ٢١٨.

٤. شواهد التنزيل، ج٢، ص ٣، ح ٦٢٩.

٥. المصدر السابق، ح ٦٣٠ و٦٣١ و٦٣٢.

٦. المصدر السابق، ص ٥، ح ٦٣٣.

٧. شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٧، ح ٦٣٤.

وينقل نفس المعنى عن «ابن حكيم» عن جده عن رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ينقل «السيوطي» في الدر المنثور عن «ابن أبي حاتم»، و«ابن مردويه»، و«ابن عساكر» عن «ابن مسعود» أنّه لما كان يقرأ هذه الآية، يقول (في شرحها): «**وكفى الله المؤمنين القتال بعلي بن أبي طالب**»[١].

ونقل هذا المعنى العلاّمة «الشيخ سليمان القندوزي» في «ينابيع المودة»[٢].

و نقل فريق آخر يطول المقام بذكر أسمائهم، هذا الحديث أيضاً.

و الجدير بالاهتمام أنّ مضمون هذه الآيات و من خلال الشرح المذكور هو أنّ علي(عليه السلام)كان السبب في انتصار المسلمين بإذن الله في ذلك الميدان الخطير للغاية، حيث كانت معركة الأحزاب السهم الأخير بيد العدو، و هي أصعب مؤامرات المشركين ضد الإسلام، نعم، فقد كان مجريا للإرادة الإلهيّة، و احد الأسباب المهمّة لانتصار المسلمين في هذه المعركة، فلا تشاهد هذه المنقبة لأي أحد من أُمّة محمد(صلى الله عليه وآله) سوى علي (عليه السلام).

ألا يستحق من يفوق عمله هذا عمل كافة أُمّة محمد (صلى الله عليه وآله)،خلافة النبيّ(صلى الله عليه وآله)؟!

سؤال: ربّما يقال هنا: إنّه قد جاء في الآية التي تشير بالإجمال إلى قصة معركة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيراً﴾. (الاحزاب / ٩)

طبقاً لهذه الآية، فأحد أسباب هزيمة الاحزاب كانت الريح العاصفة التي هبت عليهم، و السبب الآخر الجنود غير المرئيين (الملائكة)، و عليه فكيف يمكن القول: إنّ علياً (عليه السلام) كان سبب الانتصار؟

الجواب: هو أنّ الانتصار في معركة ما، ربّما تكون له عوامل متعددة كالعامل العسكري، و الطبيعي، و المعنوي، و غيرها، و ممّا لا شك فيه أنّ ثلاثة عوامل قد تظافرت في هذه المعركة بحيث لا يتسنّى انكار أي منها أبداً، و هي: مصرع عمرو بن عبد ود فارس الأحزاب على يد علي(عليه السلام)، و هبوب الرياح، و جيش الملائكة، ففي جميع الحالات التي تتظافر فيها عوامل عديدة في صنع حادث ما، يمكن نسبة ذلك الحادث إلى واحد منها أو إليها جميعاً.

---

١. تفسير در المنثور، ج٥، ص ١٩٢.

٢. ينابيع المودة، ص ٩٤.

الخلاصة

١- روي في مصادر المسلمين أن قوله تعالى﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾نزلت في علي(ع) و أنه صالح المؤمنين.

٢- «صالح المؤمنين» مفهوم عام يشمل كل من يناصر رسول الله(ص) في كل مصر و عصر و لكن المصداق الاكمل لهذا المعنى هو علي(ع)حيث لم يخذل النبي(ص) قط و لم يدخر جهدا في نصرته.

٣- روت المصادر أن النبي(ص) سأل ربه أن يكون عليا وزيره و شريكه في أمره و من يشد أزره.

٤- لو أمعنا النظر في هذا السؤال يتضح أن كون عليا شريك رسول الله (ص) ليست شركة في تبليغ الدين او الامر بالمعروف و النهي عن المنكر او... لأن تلك لا تخص عليّا فلم يبق سوى القيادة.

٥- من مناقب علي نزول قوله تعالى:﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبدِيلاً ﴾بحقه و ذلك في معركة الاحزاب.

٦- مرت على المسلمين لحظات خطيرة في حرب الاحزاب و لكن كتب الله لهم النصر و ذلك بسبب ضربة علي (ع) في مواجهة عمرو بن عبد ود و هزيمة الاعداء بعد مقتل عمرو.

٧- إن ضربة علي(ع) في يوم الاحزاب كان احد اسباب الانتصار كما أن هبوب الرياح و حضور الملائكة من قبل الله تعالى كانت من اسباب ذلك الانتصار العظيم.

بسمه تعالى

جامعة المصطفى المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٢٣

آيات الفضائل (٦)

بكالوريوس

المقدمة

متابعة في سيرنا في الايات التي نزلت في أهل البيت او تحدثت عن فضلهم نمر في هذا الدرس على آيات تكشف جانبا آخر من مناقب عترة النبي(ص) فهي تعرّف عليّا بانه الشاهد على صدق نبوة رسول الله (ص) و أنه هو الصديق الاكبر و هو النور الالهي و هو الذي لبى دعوة النبي في صغر سنه و أول من اسلم و صلى و هو البحر في العطاء و البركة.كل ذلك نزر من غزر او فيض من غيض.

المحتوى العلمي

آية البينة و الشاهد

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَة مِّنْ رَّبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَ رَحمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾. (هود / ١٧)

لقد أورد «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» روايات عديدة تناهز ال ١٦ رواية في ذيل هذه الآية تشهد بأنّ المراد من الشاهد في الآية أعلاه علي (عليه السلام) [١]، من ضمنها ما نقله عن «أنس بن مالك» في أنّ المراد من عبارة (أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيّنَة مِّن رَّبِّهِ...)، محمد(صلى الله عليه وآله)، و المراد من عبارة (وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنّهُ...)، علي بن أبي طالب. فهو كان لسان حال النبيّ (صلى الله عليه وآله) لأهل مكة في نقض العهد معهم».

و ينقل في رواية اُخرى عن «ابن عباس» أنّه قال في تفسير: «(وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنهُ...): هو علي خاصّة»[٢].

و ينقل عن زاذان (أحد أصحاب علي (عليه السلام)) عن علي (عليه السلام) أنّه قال: «**لو ثنيت لي الوسادة فجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم و بين أهل الانجيل بانجيلهم و بين أهل الزبور بزبورهم و بين أهل الفرقان بفرقانهم بقضاء يزهر يصعد إلى الله، و الله مانزلت آية في ليل أو نهار و لا سهل و لا جبل و لا بر و لا بحر إلاّ و قد عرفت أي ساعة نزلت و فيمن نزلت، و ما من قريش رجل جرى عليه المواسي إلاّ قد نزلت فيه آية من كتاب الله تسوقه إلى جنة أو تقوده إلى نار، فقال قائل: فما نزل فيك يا أمير المؤمنين؟ قال: (اَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَة مِّن رَّبِّهِ وَيَتلُوه شَاهِدٌ مِّنهُ) محمد**(صلى الله عليه وآله وسلم) **على بيّنة من ربّه و أنا الشاهد منه أتلو آثاره**»[٣].

١. شواهد التنزيل، ج١، ص ٢٨٠، ح ٣٨٣.

٢. المصدر السابق، ص ٣٦٩، ح ٣٨٧.

٣. شواهد التنزيل، ج١، ص ٢٨٠، ح ٣٨٤.

و أورد السيوطي في تفسير «الدر المنثور» أيضاً روايات عديدة في هذا الصدد، منها أنّه ينقل عن «ابن أبي حاتم»، و«ابن مردويه»، و«أبي نعيم» عن علي بن أبي طالب، أنّه قال: «ما من رجل من قريش إلاّ نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: أما تقرأ سورة هود: (أفمن كان على بيّنة من ربّه و يتلوه شاهد منه) رسول الله(صلى الله عليه وسلم) على بيّنة من ربّه، و أنا شاهد منه[1].

ثمّ أورد عدّة أحاديث بهذا المعنى[2].

و في تفسير «روح المعاني» و بعد نقله لرواية «ابن أبي حاتم»، و«ابن مردويه»، عن علي(عليه السلام) في أن نزول هذه الآية بحقه (عليه السلام)، يروي هذا المعنى أيضاً في حديث آخر عن رسول الله (صلى الله عليه و آله) أنّه قال: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَة مِّن رَّبِّهِ)، أنا، (وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنهُ) علي، ثم يقول: «و تعلق به بعض الشيعة في أن عليا كرم اللّه تعالى وجهه هو خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأن اللّه تعالى سمّاه شاهدا كما سمّى نبيه عليه الصلاة و السلام كذلك في قوله سبحانه: إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً [الفتح: ٨] و المراد شاهِداً على الأمة كما يشهد له عطف مُبَشِّراً وَ نَذِيراً عليه فينبغي أن يكون مقامه كرم اللّه تعالى وجهه بين الأمة كمقامه عليه الصلاة و السلام بينهم.

و حيث أخبر سبحانه أنه يتلوه أي يعقبه و يكون بعده دل على أنه خليفته، و أنت تعلم أن الخبر مما لايكاد يصح» و بعد ذلك ينقل رواية تفيد أنّ المراد من «الشاهد» زمان رسول الله (صلى الله عليه وآله)[3].

و قد توسل مفسّر المنار الذي لا يقل تعصباً عن الآلوسي في روح المعاني ازاء الشيعة و القضايا المتعلقة بإمامة علي(عليه السلام) بكل ما لديه في تفسير الآية و أوقع نفسه في عناء عجيب، فمن جملة مايقول: و يجوز أن تكون البيّنة على هذا علمه اليقيني الضروري بنبوّته كما تقدم، و يكون الشاهد الذي يتلوه منه القرآن و هو الأظهر عندي و روي عن.... (سعيد بن جبير): إنّ البيّنة القرآن و الشاهد جبريل (عليه السلام)... و يتلوه» من تلاوة القرآن لا من التلو و التبعية فهو الذي كان يقرأه على النبيّ (صلى الله عليه [وآله] و سلم) عند نزوله به و في الشاهد روايات اُخرى ضعيفة و منها أنّه علي [عليه السلام] يرويه الشيعة ويفسرونه بالإمامة.[4]

---

١. تفسير در المنثور، ج٣، ص ٣٢٤، (ذيل آية مورد البحث).

٢. المصدر السابق.

٣. تفسير روح المعاني، ج١٢، ص ٢٨.

٤. تفسير المنار، ج١٢، ص ٥٣.

و يا للأسف، فقد كانت الأحكام و الفرضيات المسبقة أهم حائل دون فهم آيات القرآن و الروايات الإسلامية المشهورة، و هنا ثمّة مسائل تحظى بالأهمّيّة، منها:

١- المدهش أن يقال حول الرواية التي تتمتع بهذه الطرق المختلفة في الكتب المشهورة لدى أهل السنّة إنّها رواية ينقلها الشيعة، ألم يشاهد مفسّر المنار هذه الروايات الواردة في «الدر المنثور» و«شواهد التنزيل» بل حتى «روح المعاني» بشأن تفسير الشاهد بعلي(عليه السلام)، و يدعي: إنّ هذه الرواية نقلها الشيعة فقط، أم يجب القول أنّ كل رواية تصب في صالح مذهب التشيع هي رواية شيعية، و إن رواها العشرات من رواة أهل السنّة؟!

٢- هناك طائفة من مفسري السنّة يؤمنون بأنّ المراد من الشاهد «لسان» النبيّ(صلى الله عليه وآله)(المعنى الذي لا يشاهد في أي موضع من القرآن).

بينما يعتبر صاحب المنار أنّها رواية ضعيفة، لعله التفت إلى هذه الحقيقة و هي أنّ تفسير «**الشاهد**» ب«لسان» النبي(صلى الله عليه وآله)، و كذا «**يتلوه**» ب «تلاوة القرآن» مليء بالتكلف.

فيصبح المعنى الإجمالي للآية: «أفمن كان يمتلك الدليل الواضح من ربّه و هو القرآن، و يتلوه لسانه و يشهد على ذلك... كمن ليس كذلك»، فمفهوم هذا القول هو: إنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله)شاهد على نفسه، فهل يمكن للمدعي أن يكون شاهداً على نفسه؟ أم يجب أن يكون الشاهد شخصاً آخر؟ ألم يأت النبيّ(صلى الله عليه وآله) بالقرآن، فكيف يكون لسان النبي(صلى الله عليه وآله) شاهد على القرآن؟ و هل أنّ لسان النبيّ(صلى الله عليه وآله) ليس منه؟ فكيف نجعلُ جزءً منه شاهداً عليه؟ إنّ الذي لا يريد الاعتراف بهذه الحقائق سيقع في هذه المتاهات.

٣- ما قيل من أنّ المراد من «**الشاهد**» هو «**جبرئيل**»، و الحال أنّ أيّاً من الناس لم يره و يجهل وجوده، فكيف يتفق و مفهوم الشهادة؟

فهل نحن مجبورون على إنشاد شعر نتورط في قافيته؟

٤- الأعجب ما يقوله الآلوسي في روح المعاني: المراد من «**البيّنة**» القرآن و«**الشاهد**» صفته الاعجازية.

و الحال أنّ كون القرآن «**بيّنة**» يكون من خلال اعجازه فحسب، و لا يعد القرآن «**بيّنة**» بدون صفاته الاعجازية، على هذا الأساس ستكون «**البيّنة**» و«**الشاهد**» واحداً، و هذا لا يتفق و مضمون الآية.

٥- إنّ تفسير «**البيّنة**» ب «العلم اليقيني الباطني لرسول الله (صلى الله عليه وآله)» بنبوته، و من ثمّ تفسير «**الشاهد**» بالقرآن الكريم من الغرائب أيضاً، فلابدّ أولاً من البحث عن معنى «**البيّنة**» في القرآن نفسه، فقد استعملت «**البيّنة**» في القرآن الكريم ١٩ مرة، و«**البينات**» و هي جمعها ٥٢ مرة،

و عادة ما جاءت بمعنى «**المعجزة**» أو «**الكتب السماوية و القرآن الكريم**» لا بمعنى العلم الباطني الفطري اللازم.

و عليه فلو أردنا تجاوز التكلفات، فالبيّنة في الآية المذكورة تعني القرآن الذي هو المعجزة الخالدة لنبي الإسلام(صلى الله عليه وآله)، و الشاهد شخص غير النبيّ(صلى الله عليه وآله) حيث يشهد على حقانيته(صلى الله عليه وآله)، أمّا الذين لا يرغبون في أن يفضي هذا التفسير إلى حقانية مذهب التشيع فهم على استعداد للخوض في كل أشكال التكلف من أجل نبذ هذا التفسير، لئلا يعاكس حكمهم المسبق الخط الصحيح.

آية الصدّيقين

(وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ اَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ). (الحديد / ١٩)

نقل في «شواهد التنزيل» عن «ابن أَبي ليلى» عن أبيه: قال رسول الله (ص): «**الصديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل ياسين، و حزبيل (حزقيل) مؤمن آل فرعون، وعلي بن أبي طالب الثالث و هو أفضلهم**»[١].

و ورد هذا الحديث أيضاً في كتاب «الفضائل» لأحمد بن حنبل، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم، و«المناقب» لابن المغازلي[٢].

و في نفس كتاب «شواهد التنزيل» نقل اربعة أحاديث اُخرى بهذا المعنى عن طرق اُخرى[٣].

و نقل الحديث الآنف الذكر في كتاب «ينابيع المودة» للشيخ سليمان القندوزي عن مسند أحمد، و أبي نعيم، و ابن المغازلي، و الموفق الخوارزمي، عن «أبي ليلى» و«أبي ايوب الأنصاري»، أنّهما قالا: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «**الصديقون ثلاثة، حبيب النجار وهو المؤمن الذي قال:يا قوم اتبعوا المرسلين، و حزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال:اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله و علي بن أبي طالب و هو أفضلهم**»[٤].

---

١. شواهد التنزيل، ج٢، ص ٢٢٣، ح ٩٣٨.

٢. تعليقات– وحواشي– المحمودي على شواهد التنزيل، ج٢، ص ٢٢٤.

٣. المصدر السابق، ح ٩٣٩ و٩٤٠ و٩٤١ و٩٤٢.

٤. ينابيع المودة، ص ١٢٤، الباب ٤٢.

و نقل هذا المعنى أيضاً في «كنز العمال» عن ابن عباس[١].

كما نقل «احقاق الحق» هذا الحديث عن كتب و طرق مختلفة[٢].

و بالرغم من أنّ هذه الروايات لا تتناول قضية الخلافة بصورة مباشرة، إلاّ أنّ إثبات صفة صديق الأُمّة لعلي(عليه السلام) ترجح كفة ميزانه فيما لو قيس مع غيره، حيث تكشف عن أهليته للخلافة أكثر ممّن سواه.

و المدهش أنّه و استناداً إلى هذه الروايات الكثيرة فإنّ علياً (عليه السلام) صدّيق هذه الأُمّة، إلاّ أنّ البعض منحوا هذا اللقب إلى الآخرين، حيث نقلوا في ذيل هذه الآية أنّ الصديقين ثمانية، منهم أبو بكر و علي (عليه السلام)، بَيدَ أنّ هذه الرواية ليست عن النبيّ(صلى الله عليه وآله)، فالروايات التي نقلت عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) تصف علياً (عليه السلام) بأنّه صدّيق هذه الأُمّة.

و يجدر ذكر هذا الأمر و هو أنّ عمومية مفهوم الآية لا تتعارض و هذه الروايات، فقد قلنا مراراً: إنّ مثل هذه الروايات ناظرة إلى الأكمل، أي أنّها تقول: إنّ أكمل مصداق ل«الصدّيق» في الأُمّة الإسلامية، هو علي (عليه السلام) الذي كان صادقاً إلى أبعد الحدود، و قد سبق رجال هذه الأُمّة إيماناً، و صدّق برسول الله (صلى الله عليه وآله)، و اطلق عليه النبي(صلى الله عليه وآله) لقب «الصديق».

و ستطالعون اُموراً كثيرة في هذا المضمار أيضاً في تفسير الآية اللاحقة.

آية النور

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ). (الحديد / ٢٨)

يروى في «شواهد التتريل» عن ابن عباس في تفسير هذه الآية، أنّ المراد من عبارة (يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ)، الحسن و الحسين (عليهما السلام) الذين وهبهما الله تعالى لعلي (عليه السلام)، و المراد من (وَ يَجْعَلْ لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)، علي بن أبي طالب (عليه السلام)(حيث إنّه نبراس الأُمّة الإسلامية و وسيلة هدايتها)[٣].

١. كنز العمال، ج١١، ص ٦٠١، ح ٣٢٨٩٧.

٢. احقاق الحق، ج٣، ص ٢٤٣.

٣. شواهد التتريل،ج٢، ص ٢٢٧، ح ٩٤٣.

إنّ «ابن عباس» لم يقل هذا اجتهاداً منه، ففي رواية اُخرى يروي في الكتاب نفسه بسنده عن «جابر بن عبد الله» عن النبيّ(صلى الله عليه وآله) أنّه قال في تفسير (يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ...): «الحسن و الحسين»، و قال في تفسير (وَ يَجْعَلْ لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ...): «علي بن أبي طالب (ع)» [١].

و يروي في الكتاب نفسه عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) أنّه قال في تفسير هذه الآية: «**من تمسك بولاية علي فله نور**» [٢]. (تأمّلوا جيداً).

و في تأييده لهذا المعنى يروي عن «أبي سعيد الخدري» أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: «**أما و الله لا يحب أهل بيتي عبد إلاّ أعطاه الله عزّ وجلّ نوراً حتى يرد عليَّ الحوض**» [٣].

و نقل في «كتر العمال» عن علي (عليه السلام) أنّه قال: «**أنا عبد الله و أخو رسوله و أنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلاّ كذّاب مفتر، و لقد صليت قبل الناس سبع سنين**» [٤].

مشيرا إلى أنَّهُ أول من آمن برسول الله (صلى الله عليه وآله) من الرجال، و عليه فإنّه الجدير بحمل لقب «الصديق الأكبر».

و في نفس الكتاب، نقل عن «معاذ بن عدوية» قوله: سمع علياً (عليه السلام) يقول على المنبر في البصرة: «**أنا الصديق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر و أسلمت قبل أن يسلم**» [٥].

على أيّة حال، فهذه منقبة من أفضل المناقب، و صاحبها أجدر من غيره بخلافة النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله).

لقد أورد العلاّمة الأميني(رحمه الله) في الجزء الثالث من الغدير بحثاً مطولاً بشأن إيمان علي(عليه السلام) بالنبي (صلى الله عليه وآله) على أنّه أول من آمن من الرجال، و ذكر مصادر كثيرة عن أشهر كتب علماء أهل السنة، حتى أنّه ذكر كثيرا من الشعر لشعراء الإسلام أيضاً كشاهد على ذلك [٦].

و سنخصص فصلاً كاملاً تحت عنوان «المسلم الأول»، و سيجري البحث عن الكثير من القضايا هناك «إن شاء الله».

---

١. المصدر السابق، ص ٢٢٨، ح ٩٤٤.

٢. شواهد التتريل، ج٢، ص ٢٢٨، ح ٩٤٦.

٣. المصدر السابق، ج٢، ص ٢٢٨، ح ٩٤٧.

٤. كتزل العمال، ج١٣، ص ١٢٢، ح ٣٦٣٨٩.

٥. المصدر السابق، ص ١٦٤، ح ٣٦٤٩٧.

٦. الغدير، ج٣، ص ٢٢١– ٢٤١.

آية الانذار

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقربينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ). (الشعراء / ٢١٤– ٢١٥)
إِنَّ هذه الآيات لها قصة معروفة حيث ذكرها جميع مؤرخي الإسلام تقريباً.

و في تفسير هذه الآية، تشاهد رواية معروفة لدى الخاص و العام كما يقول «الطبرسي» في «مجمع البيان»، و كذا قول «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل»،يقول «البراء بن عازب»: لمّا نزلت آية (وَ اَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقربينَ) جمع رسول الله (ص) بني عبد المطلب و هم يومئذ أربعون رجلاً، الرجل منهم يأكل المسنة، و يشرب العس، فأمر عليا برجل شاة فأدمها ثمّ قال: اُدنوا بسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا، ثم دعا بقعب من لبن فجرع منه جرعة ثم قال لهم: اشربوا بسم الله فشرب القوم حتى رووا، فبدرهم أبو لهب فقال: هذا ما اسحركم به الرجل. فسكت(ص) يومئذ فلم يتكلّم، ثم دعاهم من الغد على مثل من الطعام والشراب ثم أنذرهم رسول الله(ص)فقال: يا بني عبد المطلب إنّي أنا النذير إليكم من الله عزّ وجلّ و البشير بما لم يجئ به احد جئتكم بالدنيا و الاخرة فأسلموا و أطيعوني تهتدوا، و **من يؤاخيني (منكم) و يؤازرني و يكون وليي و وصيي بعدي و خليفتي في اهلي و يقضي ديني**؟. فسكت القوم. و أعادها ثلاثاً، كلّ ذلك يسكت القوم و يقول علي: أنا، فقال: أنت، فقام القوم و هم يقولون لأبي طالب: أطع ابنك فقد أمّره عليك[1]، نقل هذا الحديث في هوامش شواهد التنزيل عن «عبد الله بن عباس» و كذلك عن «أبي رافع».

و ينقل عن «خصائص النسائي» عن ربيعة بن ناجذ: أن رجلا قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين بم ورثت [ابن عمك] دون أعمامك! قال: جمع رسول الله صلى الله عليه و سلم بني عبد المطلب فصنع لهم مدا من الطعام فأكلوا حتى شبعوا و بقي الطعام كما هو كأنه لم يمس ثم دعا بغمر فشربوا حتى رووا و بقي الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب، فقال: يا بني عبد المطلب إني بعثت إليكم خاصة و إلى الناس عامة و قد رأيتم من هذه الآية ما قد رأيتم و أيكم يبايعني على أن يكون أخي و صاحبي و وارثي فلم يقم إليه أحد فقمت إليه و كنت أصغر القوم فقال: اجلس حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي ثم قال [علي] فبذلك ورثت ابن عمي دون عمي [2].

١. شواهد التنزيل، ج١، ص ٤٢٠ (مع الاختصار)؛ و تفسير مجمع البيان، ج٧ و٨، ص ٢٠٦.
٢. تعليقات شواهد التنزيل، ج١، ص ٤٢٣.

و قد نقل «الطبري» المؤرخ الشهير هذا الحديث أيضاً بالتفصيل، و ثم ذكر بأنّ النبيّ(صلى الله عليه و اله)أومأ الى علي عليه السلام و قال: «**إنّ هذا أخي و وصيي و خليفتي فيكم فاسمعوا له و أطيعوا**». فقام القوم يضحكون و يقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك و تطيع[١].

ثمّ نقل الطبري هذا المعنى بطرق اُخرى.

من الاُمور الظريفة أنّ الطبري المؤرخ و المفسر السنّي الكبير، الذي نقل قصة يوم الانذار في «تاريخه» بهذا النحو، عندما يأتي إلى «التفسير» (التفتوا إلى أنّ للطبري تفسيراً مفصلاً في ٣٠ جزءً، عدا التاريخ) و يصل إلى هذه الآية و يروي الحادثة المذكورة، يقول: إنّ النبيّ(عليه السلام)قال: «**أيكم يؤازرني على هذا الأمر على أنّ يكون اخي و كذا وكذا؟ قال: فأحجم القوم عنها جميعا، و قلت و إني لأحدثهم سنّا، و أرمصهم عينا، و أعظمهم بطنا، و أحمشهم ساقا. أنا يا نبي الله أكون وزيرك، فأخذ برقبتي، ثم قال:" إن هذا أخي" و كذا و كذا،**»[٢].

فكما تلاحظون فإنّ هذا المفسّر المعروف يعبّر «بكذا و كذا» بدلاً عن وصيي و خليفتي فيكم، و كرر هذا الأمر مرّتين لئلا يقع تعبير «**الوصي و الخليفة**» بأيدي اتباع مذهب أهل البيت (عليهم السلام) و يقدمونه وثيقة على خلافة علي(عليه السلام)، و يصاب حكم الطبري و أمثاله المسبق المليء بالتعصب!.

فهل هذا هو معنى المحافظة على الأمانة في تدوين و نقل أحاديث رسول الله(صلى الله عليه وآله)؟ ألم يكن يفكر بأن تعبيره التاريخي سيوضع يوماً أمام تعبيره التفسيري و يقام القياس بينهما، و تجري محاكمتهما؟ و يجدر الانتباه إلى أنّ الطبري ليس فريداً في القيام بهذا الفعل، فهنالك الكثير ممن مارسوا و يمارسون هذه الأفعال.

فقد نقل الآلوسي هذه الرواية أيضاً في روح البيان بشكل ناقص و معيب، ثمّ يضيف: «و من الروايات ما يتمسك به الشيعة فيما يدعونه من أمر الخلافة و هو مؤول أو ضعيف أو موضوع»[٣].

إنّ الأحكام المسبقة لهذا المفسر المعروف عجيبة حقاً، فهو يقول: بما إنّ هذه الرواية تصب في صالح الشيعة فإمّا يجب أن توجه، أو تضعف، أو تعتبر مزورة، أي أنّ أساس الحكم لايستند إلى الحقائق التاريخية و القرآن و السنّة، بل إلى الأحكام المسبقة و كل ما يخالفها يجب غض الطرف عنه و تبريره و تضعيفه.

---

١. تاريخ الطبري، ج٢، ص ٦٣.

٢. تفسير جامع البيان، ج١٩، ص ٧٥، ذيل الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.

٣. تفسير روح المعاني، ج١٩، ص ١٣٥ ذيل آية البحث.

و من البديهي أنّه لو اجتمع جميع الأنبياء و الكتب السماوية لعجزوا عن النفوذ إلى عقلية من يمتلك مثل هذا النمط من التفكير، و تغييره.

لقد ذكر «أحمد بن حنبل» أحد أئمّة مذاهب السنّة في كتابه المعروف ب «مسند أحمد» قصة يوم الانذار فقال:عن علي رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الاية و انذر عشيرتك الاقربين قال:جمع النبي صلى الله عليه و سلم من أهل بيته فاجتمع ثلاثون فأكلوا و شربوا قال: فقال لهم: من يضمن عني ديني و مواعيدي و يكون معي في الجنّة و يكون خليفتي في أهلي... فقال علي رضي الله عنه: أنا[1].

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي: أمّا خبر الوزارة (إشارة إلى الحديث الذي يثبت وزارة علي (عليه السلام)) فقد نقله الطبري في تاريخه عن عبد الله بن عباس عن علي بن أبي طالب(عليه السلام)قال: **لما أُنزلت هذه الآية (و انذر عشيرتك الاقربين) على رسول الله(ص)دعاني... ثمّ نقل القصة إلى أن ذكر قول الرسول (صلى الله عليه وآله):اني قد جئتكم بخير الدنيا و الاخرة و قد امرني الله ان ادعوكم اليه فايكم يؤازرني على هذا الامر على ان يكون اخي و وصيي و خليفتي فيكم فاحجم القوم عنها جميعا و قلت انا و اني لاحدثهم سنا و ارمصهم عينا و اعظمهم بطنا و احمشهم ساقا انا يا رسول الله أكون وزيرك عليه فاعاد القول فامسكوا و اعدت ما قلت فاخذ برقبتي ثم قال لهم: هذا أخي و وصيي و خليفتي فيكم»**[2].

انتبهوا إلى أنّه قد جاء في هذه الرواية و بعض الروايات المتقدمة التعبير بخليفتي فيكم، و يتضح من ذلك أنّ التعبير بالاهل في الروايات الأُخرى يفيد هذا المعنى أيضاً (**تأملوا جيداً**).

ذكر «**ابن الاثير**»[3] هذه الحادثة أيضاً بالتفصيل في كتابه «الكامل» بل و أكثر تفصيلاً من أغلب المحدثين و المؤرخين إلى أن يقول: ثم تكلم رسول الله (صلى الله عليه و سلم) فقال:يا بني عبد المطلب... **فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي و وصيي و خليفتي فيكم؟ فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلت:...أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه فاخذ برقبتي ثم قال: إنّ هذا أخي و وصيي و خليفتي فيكم فاسمعوا له و أطيعوا»**[4].

و اللطيف أنّه قد عبر ب «**خليفتي فيكم**» في هذا الحديث أيضاً، و في الحقيقة أنّها احدى معجزات النبي(صلى الله عليه وآله) إذ أنّه قال هذه العبارة بجزم لعلي (عليه السلام) في ذلك الحين، و لم يكن له

---

١. مسند أحمد، ج١، ص ١١١ (مع شيء من الاختصار).

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٣، ص ٢١٠.

٣. «ابن الاثير» من أشهر المؤرخين حيث عاش في القرن السابع، و تاريخه يقع في ١٣ جزء.

٤. الكامل، ج٢، ص ٦٣.

من العمر سوى ثلاث عشرة سنة، فمن يستطيع التنبؤ بأنّ هذا الصبي ذي الثلاثة عشر عاماً سيصبح من أعظم رجال البشرية في المستقبل، و يستحق خلافة النبي(صلى الله عليه وآله)، و الكل يسمعون له و يطيعونه؟

و اللطيف أيضاً: إنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) قال هذا في الأيّام الأُولى لدعوته، يوم الانذار، و كذلك في الأشهر الأخيرة من حياته المباركة، أليس هذا الكلام أفضل دليل على إمامة علي (عليه السلام)؟

آية مرج البحرين

(مَرَجَ البَحرَينِ يَلتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرزَخٌ لايَبْغيَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرجَانُ). (الرحمن / ١٩- ٢٢)

لقد وردت أقوالٌ كثيرة في تفسير هذه الآية، فتارة قيل: المراد من البحرين بحران ذواتا ماء عذب و مالح، حيث يتجاوران في الكثير من المناطق دون أن يختلطا مع بعضهما، و يلاحظ هذا المشهد جيداً في جميع المناطق التي تصب فيها الأنهار بالبحار.

و التفسير الآخر اللطيف لهذين البحرين، تيار «غولف استريم» و الأنهار البحرية العملاقة التي تتحرك في الكثير من محيطات العالم و تأخذ المياه الدافئة من المناطق الاستوائية نحو المناطق القطبية، و ربّما يختلف لونها عن لون المياة المحيطة بها، و المدهش أنّ عرضها يبلغ أحياناً مائة و خمسين كيلومتراً و عمقها عدّة مئات من الأمتار، و قد تصل سرعتها إلى ١٦٠ كم في اليوم! و تختلف درجة حرارتها عن المياه المجاورة ب ١٠ – ١٥ درجة!.

إنّ هذا التيار من المياه الدافئة يخلق رياحاً دافئة و يمنح قسماً من حرارته إلى المناطق المجاورة، و يعمل على تلطيف الجو في المناطق الشمالية للكرة الأرضية التي يمرّ بها، و يجعلها ملائمة، و لولا هذه التيارات البحرية لتعسّرت الحياة في تلك البلدان، و ربّما لا يمكن تجرعها.

و طبعاً فإنّ «غولف استريم» اسم لأحد التيارات و الأنهار البحرية، و يشاهد شبيه ذلك في مياه القارات الخمس، و أنّ السبب الرئيس لهذه الحركة هو الاختلاف بين درجة حرارة مياه المناطق الاستوائية و مياه المناطق القطبية. [١]

و حيث إنّ آيات القرآن ذوات ظاهر و باطن، فقد تفسر تفسيراً مادياً و معنوياً، ففي الروايات الإسلامية فسّر هذان البحران بعلي و فاطمة (عليهما السلام)، و فسّر اللؤلؤ و المرجان معنوياً بالحسن و الحسين (عليهما السلام).

---

١. للمزيد من التفصيل في هذا الصدد و بشأن هذه الآيات راجعوا الى التفسير الأمثل ذيل الآيات مورد البحث.

فقد روي في «شواهد التنزيل» عن «سلمان الفارسي» في تفسير آية «**مرج البحرين يلتقيان**» أنّ المراد هو علي و فاطمة(عليهما السلام) ثمّ يضيف قال النبي(ص): «**يخرج منهما اللؤلؤ و المرجان،قال: الحسن و الحسين** (ع)» [١]، و نقل هذا المعنى بطريق آخر عن «ابن عباس» و«الضحاك»[٢].

و جاء في رواية اُخرى عن «سعيد بن جبير» عن «ابن عباس» أنّ المراد من «**مرج البحرين يلتقيان**» علي و فاطمة (عليهما السلام)، و المراد من «**بينهما برزخ لا يبغيان** » حبّ دائم لا ينقطع و لا ينفد، و المراد من «**يخرج منهما اللؤلؤ و المرجان**» الحسن و الحسين (عليهما السلام) [٣].

و ورد في رواية اُخرى تعبير أكثر وضوحاً عن «ابن عباس» بشأن «**بينهما برزخ لايبغيان**» و هو أنّ المراد «**ودّ لا يتباغضان**»[٤].

و في الحقيقة إنّ البرزخ يعني «الحائل بين شيئين» فالمحبّة هنا تحول دون البغي و التجاوز.

و بعد أن يذكر «السيوطي» أيضاً في تفسيره الروائي «الدر المنثور» الروايات المتعلقة بالتفسير الظاهري لهذه الآية، نقل مضمون الأحاديث المتقدمة عن «ابن عباس» و عن النبيّ(صلى الله عليه وآله)، فيروي عن «ابن مردويه» عن «ابن عباس» في تفسير آية «**مرج البحرين يلتقيان**»، أنّ المراد علي و فاطمة (عليهما السلام).

ثمّ يضيف: قال النبي صلى الله عليه و سلم: «**يخرج منهما اللؤلؤ و المرجان، الحسن و الحسين**»[٥].

و روى هذا المعنى عن «انس بن مالك» أيضاً[٦].

و اللطيف أنّ المفسر المعروف «الآلوسي» بعد أن ينقل الرواية الآنفة في تفسير «روح المعاني» عن «ابن عباس» و«انس بن مالك»، و كذا عن طريق الطبرسي عن «سلمان الفارسي» و«سعيد بن جبير» و«سفيان الثوري» يضيف قائلاً: «و الذي أراه أنّ هذا إن صح ليس من التفسير في شيء بل هو تأويل كتأويل المتصوفة لكثير من الآيات، و كل من علي و فاطمة رضي الله تعالى عنهما عندي

١. شواهد التنزيل، ج٢، ص ٢٠٩ (ح ٩١٩).

٢. المصدر السابق، ص ٢٠٨.

٣. شواهد التنزيل، ج٢، ص ٢١٠.

٤. المصدر السابق، ص ٢٣٠.

٥. تفسير در المنثور، ج٦، ص ١٤٣.

٦. المصدر السابق.

أعظم من البحر المحيط علماً و فضلاً و كذا كل من الحسنين رضي الله تعالى عنهما أبهى و أبهج من اللؤلؤ و المرجان بمراتب جاوزت حد الحسبان»[١].

إنّ اعترافه الصادق بمنزلة هؤلاء العظماء أمر حسن في ذاته، على شرط أن لا يكون غرضه سلب قيمة هذه الروايات!

و لعل الآلوسي تناسى أنّ هذا الحديث روي عن النبيّ (صلى الله عليه وآله)، بطرق عديدة، و أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) له كامل الصلاحية في تأويل الآيات، و أنّ مقارنته بتأويلات الصوفيين الموضوعة و المنحرفة التي تفتقد للسند مقارنة مجحفة لا تتناسب و شأن العالِم.

على أيّة حال، فهذه الآية من الآيات التي تدلل على الفضل العظيم و المقام الرفيع لعلي و زوجته و ولديهما الحسن و الحسين (عليهم السلام)، لأنّها شبهت علياً و فاطمة(عليها السلام) ببحرين عظيمين، البحر الذي يكشف عن عظمة الباري جلّ وعلا، و الذي يعتبر مصدراً للبركات، و منطلقاً للعلوم و المعارف الزاخرة، و مظهراً بارزاً لفضائل الأخلاق كالجود و السخاء و الطهارة و العصمة، و تشبه ولديهما باللؤلؤ النفيس الذي لانظير له، الذي ينمو في أعماق البحر، ثمّ يبرز إلى الخارج، تكامل فيه الحسن و الجمال، ظاهرياً و باطنياً، و العلم و التقوى و الفضيلة و الطهارة و العصمة.

فأي شخص تشاهد فيه كل هذه المناقب؟ و من أكثر جدارة بخلافة النبيّ (صلى الله عليه وآله) غير علي و أولاده (عليهم السلام)، و كم مرّوا من هذه المناقب مرور الكرام!

---

١. تفسير روح المعاني، ج ٣٧، ص ٩٣ (ذيل آيات البحث).

الخلاصة

١- في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَة مِّنْ رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وردت اخبار كثيرة تفسر الشاهد بعلي (ع).

٢- تجشم البعض في تفسير «شاهد» بلسان النبي(ص) و «يتلوه »بيقرأ و حينئذ لا يستقيم المعنى لأن كيف يكون لسان الانسان شاهد عليه و المتبادر من الشاهد أن يكون شخصا آخر.

٣- كما أن تفسير الشاهد بجبرئيل لا يستقيم لأن جبرئيل لم يكن مرئيا للناس فكيف يكون شاهدا؟.

٤- رويت اخبار كثيرة في ذيل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئَكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ﴾ أن الصديق هو علي(ع) و هذا لا ينفي عموم الاية و إنما يشير إلى الفرد الأكمل.

٥- جاء في المصادر الحديثية في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ أن الكفلين الحسن و الحسين و النور هو علي (ع).

٦- لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرِبينَ﴾ دعا النبي(ص) بني عبد المطلب إلى مؤازرته فلم يستجب له سوى علي(ع) فقال(ص): إن هذا اخي و وصيي و خليفتي فيكم.

٧- روى هذا الخبر كثير من العلماء و المؤرخين كالطبري و ابن اثير و الامام احمد و ابن ابي الحديد و الجدير بالانتباه أن النبي(ص) صرح بالخلافة في حق علي في اول ايام الدعوة.

٨- قال تعالى: ﴿مرَجَ البَحرَينِ يَلتَقِيَانِ*بَيْنَهُمَا بَرزَخٌ لايَبْغيَانِ *... * يَخْرُجُ مِنْهُما اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرجَانُ﴾ ورد عن النبي(ص) تفسير البحرين بعلي و فاطمة و اللؤلؤ و المرجان بالحسنين(ع).

٩- هذا التشبيه يدل على فضل أهل البيت و مكانتهم التي لا يرقى إليها أحد، فهم كالبحر الذي هو مصدر العطاء و البركة الالهية و هل ينبغي للمسلم أن يتجاوز هذا الكم الهائل من الاخبار!.

بسمه تعالى

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٢٤

آيات الفضائل (٧)

بكالوريوس

المقدمة

نواصل بحثنا في الآيات التي تضمنت فضائل علي(ع) و أولاده حيث إن كتاب الله هو المصدر الأساس للعقيدة الصحيحة و في هذا الدرس نتناول موضعين من آيات الله تعالى هما آية النجوى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى نَجْوَاكُم صَدَقَةً﴾ و ندرس شان نزولها و ما تضمنت من مدلول و معنى ثم نقرأ قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فنقوم بدراسة مفصلة في التاريخ و التفسير ليتضح لنا من هو اول المسلمين من الرجال بعد رسول الله(ص).

المحتوى العلمي

آية النجوى

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى نَجْوَاكُم صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُم وَ اَطْهَرُ فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * ءَاَشْفَقْتُمْ اَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى نَجْوَاكُمْ صَدَقَات فَإِذ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَاَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اَطِيعُوا اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ). (المجادلة/١٢– ١٣)

من القرائن المتوفرة في هاتين الآيتين، و كذلك من شأن الترول الذي أورده الكثير من المفسرين من بينهم المرحوم «الطبرسي» في «مجمع البيان»، و«الفخر الرازي» في «التفسير الكبير»، و«القرطبي» في تفسير «الجامع لأحكام القرآن»، و«الآلوسي» في «روح المعاني»، و غيرهم يستفاد أن نفراً من المسلمين و كما يقول بعض المفسرين أنّهم جماعة من الأغنياء و الأثرياء كانوا يناجون رسول الله(صلى الله عليه وآله) في أبسط الأُمور من أجل الحصول على مكانة لهم لدى الناس، غافلين عن حقيقة أنّ وقت النبي (صلى الله عليه وآله)اثمن من أن يضيّعها شخص من أجل قضايا بسيطة أو لا أهميّة لها، اضف إلى ذلك أنّ هذا الأمر كان يؤدّي إلى انزعاج المستضعفين، و تمييز الأغنياء، و أحياناً كان يبعث على التشاؤم.

فترلت أول آية من الآيتين أعلاه تأمر المسلمين أنّ: (إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدَّمُوا بَينَ يَدَى نَجوَاكُم صَدَقَةً)، فخلق هذا الايعاز اختباراً لطيفاً، و كان محكاً للذين يزعمون قربهم من النبي (صلى الله عليه وآله)، فقد أبى الجميع اعطاء الصدقة و النجوى سوى شخص واحد و هو أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، هنا تبيّن ما كان يجب أن يوضّح و يفهمه المسلمون و يعتبروا به، و أخذوا منه الدرس البليغ.

و بعد مدّة وجيزة نزلت الآية الثانية، و نقضت هذا الحكم و اصبح معلوماً استحكام حب المـــال في قلوب البعض من الرغبة في نجوى النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله)، و ان هذه النجوى غالبـــاً مـــا كانت بشأن الأُمور غير الضرورية، و كان القصد منها الحصول على الوجاهة الاجتماعية.

و قد وردت هنا روايات عديدة مفادها أنّ علياً هو الرجل الوحيد الذي عمل بهذه الآية.

روي في شواهد التنزيل عن مجاهد، عن علي (عليه السلام) أنّه قال: «**انَّ في القرآن لآية ما عمل بها أحد قبلي و لا بعدي و هي آية النجوى، قال: كان لي دينارٌ فبعته بعشرة دراهم فكلما اردت أن أناجي النبي تصدقت بدرهم منه ثم نُسختْ**»[١].

و نقل في رواية اُخرى عن أبي أيوب الأنصاري قال: نزلت هذه الآية في علي: (يَا اَيُّهَـــا الَّـــذِينَ... صدقة) إن علياً ناجى النبيّ (ص) عشر نجوات، يتصدق في كل نجوة بدينار [٢].

و جاء في نفس الكتاب أيضاً في رواية اُخرى عن مجاهد انَّ في القرآن آية لم يعمل بها أحد غير علـــي بن أبي طالب (عليه السلام)حتى نُسختْ، و هي: (يَا اَيَّهَا الَّذِين آمَنُوا اِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ...)، فهو قد ناجى رسول الله (صلى الله عليه وآله) و تصدق بدينار[٣].

و نُقلت في هذا الكتاب روايات اُخرى عديدة بهذا الصدد تُناهز عشر روايات!.

و ذكر السيوطي في تفسيره الروائي «الدر المنثور» هذه الرواية أيضاً بطرق عديدة (أكثر مـــن ســـبع طرق)، لا سيّما أنّه ينقل عن «الحاكم النيشابوري» باقراره أنّ هذا الحديث صحيحٌ، عن علي (عليه السلام): «**إنّ في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي و لا أحد بعدي**»، ثم ذكر بقية الحديث كما ذكرنا أعلاه عن شواهد التنزيل[٤].

و في الكتاب نفسه ينقل عن الكثير من الرواة عن علي بن طالب قال لما نزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً قال: لي رسول الله(ص): ما ترى ترى دينارا قلت: لا يطيقونه. قال: فكم قلت: أرى شعيرة. قال: إنك لزهيد. فنزلت: أَ أَشْفَقْتُمْ الآية [ثم] قال [علي]: فبي خفف الله عن هذه الأمة[٥].

١. شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٣١، ح ٩٥١.

٢. المصدر السابق، ص ٢٤٠، ح ٩٤٦.

٣. المصدر السابق.

٤. تفسير در المنثور، ج ٦، ص ١٨٥.

٥. تفسير در المنثور، ج ٦، ص ١٨٥.

و هنالك رواية لطيفة بهذا الصدد ينقلها «البرسوني» في تفسير «روح البيان» عن «عبد الله بن عمر» حيث كان يقول: »**كان لعلي** رضي الله عنه **ثلاث لو كانت لي واحدة منهن كان أحبّ إليَّ من حمر النعم، تزويجه فاطمة** (رضي الله عنها) **و اعطاؤه الراية يوم خيبر، و آية النجوى**»[١].

وأورد الزمخشري ذلك أيضاً في «الكشاف»[٢].

وكذلك القرطبي في تفسير «الجامع لأحكام القرآن»[٣].

والطبرسي في «مجمع البيان»[٤].

و في الحقيقة أنَّ «عبد الله بن عمر» أشار إلى ثلاث قضايا مهمّة و هي: إنَّ فاطمة (عليها السلام)و كما يعبّر النبيّ (صلى الله عليه وآله) «**سيدة نساء العالمين من الأولين و الآخرين**»، لم يكن لها كفوٌ سوى علي (عليه السلام) إذ كان رجل التاريخ بعد النبيّ (صلى الله عليه وآله).

و قضية اعطائه الراية يوم خيبر، و احرازه للقب «**كرّار غير فرّار**»، بعد أن تقدم الآخرون و قفلوا خائبين، و الظفر الذي تحقق من خلال ذلك يعدُّ منقبة اُخرى لا نظير لها، و كذلك وجود آية في القرآن ما عمل بها إلاّ علي (عليه السلام).

و المدهش أنّ البعض يصرّون على التقليل من أهميّة هذه المنقبة، بل انكار كونها منقبة بشكل تام ! و كالمعتاد فإنّهم يتوسلون بمختلف المبررات و العلل الواهية، و التي لا أساس لها.

فتارةً يدَّعون أنَّ كبار الصحابة لّما لم يقوموا بهذا العمل فلأنّهم لم يروا حاجة إليها ! و اُخرى يقولون: لم يكن لديهم متسع من الوقت لأنّ الآية سرعان ما نُسختْ ! و حيناً يقولون: إنَّ الآخرين كانوا يظنون أنّ اعطاء الصدقة و النجوى يؤدي إلى انزعاج الفقراء و ذعر الأغنياء، و الفقراء عاجزون عن القيام بمثل ذلك، و الأغنياء القادرون على ذلك يخشون التعرض للتأنيب إذا تركوه، و على هذا الأساس فانَّ عدم عمل الآخرين بهذه الآية لا يسلب الفضل عنهم[٥].

و لكن، يبدو أنَّ هؤلاء المفسرين الكبار ! قد نسوا الآية الثانية خلال اختلاقهم لهذه المبررات، إذ وجّه القرآن الكريم اللَّومَ لمن تناجوا آنفاً و تركوا ذلك بعد نزول حكم الصدقة، فيقول تعالى: (ءَاَشْفَقْتُم اَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى نَجوَاكُم صَدَقَات).

---

١. تفسير روح البيان، ج ٩، ص ٤٠٦.

٢. الكشاف، ج ٤، ص ٤٩٤ (ذيل آيات البحث).

٣. تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٤٧٢.

٤. تفسير مجمع البيان، ج ٩ و ١٠، ص ٢٥٢.

٥. التفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٢٧٢; وتفسير روح المعاني، ج ٢٨، ص ٢٨.

ثم يعدُّ القرآن هذا الفعل و كأنّه معصية، و يعتبرهم إجمالاً مشمولين بالتوبة (وَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُم)، و من أجل تلافي هذا العمل القبيح أمرهم بإقامة الصلاة و ايتاء الزكاة و اطاعة الله و رسوله.

فلو كان الوقت ضيقاً لما كان هناك ما يدعو للتأنيب و اللوم، و لا حاجة للتوبة، و إذا كان هدفهم استقطاب قلوب الفقراء و ازالة الاضطراب عن قلوب الأغنياء فهو عمل يستحق التشجيع و التكريم، فلماذا يوجه الباري تعالى اللوم لهم و يتحدث عن التوبة؟ إذن من خلال التأمل في هذه الآية يتبيّن جيداً أنّ عملهم كان قبيحاً.

فالواقع أنّ القضايا الواقعة لا تتفق و الحكم المسبق لهؤلاء الاخوة، فإنّ كل شيء و حتى آيات القرآن الكريم يلفّها النسيان، و الحال أنّها شاخصة أمامهم.

و هنا يقول البعض من أجل التقليل من أهمية هذه الفضيلة: لقد كان الفاصل الزمني بين نزول آية النجوى ونسخها ساعة واحدة فقط، لهذا لم يفلح كبار الصحابة بالعمل بها، فهؤلاء من الناسين أيضاً، حيث لم ينتبهوا إلى لحن آية النسخ، الآية التي توجهت إلى بعض الصحابة باللوم لتركهم الصدقة خشية الاملاق، و تغاضوا عن النجوى، و الآن فإنّ الله تعالى يقبل توبتهم.

فاذا كان الفاصل الزمني بينهما ساعة واحدة فقط لن يبق مجال لهذه الجدالات، و عليه فمن المناسب أن تكون هناك رواية تقول: إنّ الفاصل الزمني بينهما كان عشرة أيّام[١].

سؤال:

السؤال الوحيد الذي يبقى ههنا هو: كيف يعد هذا العمل فضيلة؟ و هل الأمر كما يقول بعض المتعصبين من المفسرين: أن لا العمل بها يعد فضيلة و لا تركها منقصة؟

أم أنّ الأمر كما جاء في الروايات الإسلامية من أنّ علياً (عليه السلام) كان يعتبرها منقبة عظيمة بالنسبة له، و أنّ عبد الله بن عمر كان يعدُّ الزواج من فاطمة (عليها السلام) سيدة النساء و فتح خيبر منقبة؟

لقد تبيّن الجواب عن هذا السؤال خلال البحوث المتقدمة، و نضيف: إنّ أفضل طريق للحصول على جواب هذا السؤال هو الرجوع إلى القرآن الكريم و التمعن في الآية الناسخة (الثانية)، فهذه الآية تثبت أنّ الله تعالى كان يريد بهذا الحكم اختبار المسلمين، هل إنّهم على استعداد لدفع شيء ما من أجل النجوى مع النبي (صلى الله عليه وآله) حيث كانوا يزعمون أنّها تجري من أجل مصالح المسلمين، و أن يتصدقوا في سبيل الله؟

١. في تفسير روح المعاني، نقل هذا القول عن مقاتل الذي كان معاصراً للمنصور الدوانيقي، و من تلامذة التابعين.

و هنا يخرج شخص واحد ظافراً من هذا الاختبار، و هو علي بن أبي طالب (عليه السلام) أليس هذا هو الفخر بعينه؟

و بعبارة اُخرى: فإنّ جميع الناس شملهم التأنيب و التوبيخ و التوبة الواردة في هذه الآية، و الوحيد الذي لم يشمله هذا التوبيخ هو علي (عليه السلام)، فلماذا ياترى يُنكر بعض العلماء حقائقَ بهذا الجلاء و الوضوح؟ اجيبوا أنتم؟!

آية السابقون

(وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * اُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الاَوَّلِينَ * وَ قَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ). (الواقعة / ١٠ – ١٤)

روي في تفسير «شواهد التتريل» لـ «الحاكم الحسكاني» عن «ابن عباس»: « **السُّباق ثلاثة: سَبقَ يوشع بن نون إلى موسى، وسَبقَ صاحب ياسين إلى عيسى، وسَبقَ علي إلى النبي** (ص)» [١].

و روي في الكتاب نفسه عن «ابن عباس» قوله: سألت رسول الله)ص(عن قول الله: السَّابِقُونَ [السَّابِقُونَ] أُولِئِكَ الْمُقَرَّبُونَ قال: حدثني جبرئيل بتفسيرها قال: ذاك علي و شيعته إلى الجنة »[٢].

هذان التفسيران لا يتعارضان مع بعضهما، لأنّ علياً (عليه السلام) كان سبَّاقاً إلى الإيمان بالنبي(صلى الله عليه وآله) و كذلك فهو سبّاقٌ إلى الجنّة، و في الحقيقة إنّ بينهما ارتباط و التحام لا ينفك أبداً.

و في الكتاب نفسه نُقلت عدّة أحاديث اُخرى في هذا الصدد.

و في تفسير «الدر المنثور» أيضاً نُقلت روايتان عن «ابن عباس» في هذا المجال، في احداهما ينقل «ابن أبي حاتم»، و«ابن مردويه» عن «ابن عباس» في تفسير هذه الآية، قال: «**يوشع بن نون سبق إلى موسى و مؤمن آل يس سبق إلى عيسى و علي بن أبي طالب سبق إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم**»[٣].

و في الكتاب نفسه ينقل حديثاً آخر بنفس المضمون[٤].

---

١. شواهد التتريل، ج ٢، ص ٢١٣، ح ٩٢٤.

٢. المصدر السابق، ص ٢١٥ و ٢١٦، ح ٩٢٧.

٣. تفسير در المنثور، ج ٦، ص ١٥٤.

٤. المصدر السابق.

و من الذين نقلوا هذه الرواية هو «ابن المغازلي» (على ضوء نقل ابن البطريق) في كتاب «العمـدة»، و«سبط ابن الجوزي» في «التذكرة»، و«ابن كثير» في «تفسيره »، و«ابن حجر» في «الصـواعق»، و«العلاّمة الشوكاني» في «فتح القدير»، و«الشيخ سليمان القندوزي» في «ينابيع المودة»[١].

و المسألة الجديرة بالاهتمام أيضاً هي أنّ «**القاضي روزبهان**» الذي يتّصف بتعصب خاص في القضايا المتعلقة بالإمامة و الخلافة، و كتابه المسمى «ابطال نهج الحق» شاهد على هذا المعنى، يقول في اجابته للعلاّمة الحلّي بشأن هذه الآية (حيث ينقل العلاّمة الحلّي في كتابه، عن طريق أهل السنّة عـن ابـن عباس سابقُ هذه الأُمّة علي بن أبي طالب) في كتابه «ابطال نهج الحق »: هـذا الحـديث جـاء في روايات أهل السنّة و لكن بهذه العبارة: «**سبّاق الأُمّة ثلاثة: مؤمن آل فرعون، و حبيب النجار، و علي بن أبي طالب في ان عليا (ع) سابق في الاسلام و صاحب السابقة و الفضائل التي لا تحصـى و لكن لا تدل الاية على نص بامامته و ذلك المدعى**»[٢].

و لكن ينبغي الالتفات إلى عدم قول أي أحد بأنّ هذه الأحاديث لوحدها تعني النصّ على إمامة علي بن أبي طالب (عليه السلام) بل الغرض أنّنا عندما نستجمع هذه الآيات و الروايات مع بعضها نـرى أنّ علياً (عليه السلام) أبرز شخص في الأمّة الإسلامية كان لائقاً لهذا المقام، و لا يلحقه أحد في هذا المجال.

فهل من المناسب أن نقدّم غيره عليه مع كل هذه المناقب التي لا تقبل الانكار، و نتبـع غـيره مـع وجوده؟!

١- مَن المقصود من: «قليلٌ من الآخرين»؟

في سياق الآيات المتقدمة، و بعد ذكر القرآن الكريم لمنزلة السابقين الرفيعة على أنّهم المقرّبون لدى الله تعالى و أنّ منزلتهم في جنات النعيم، يضيف: (ثُلَّةٌ مِّنَ الاَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ).

ينقل الحاكم الحسكاني في «شواهد التنزيل» عدّة روايات عن «محمد بن فرات»، و«محمد بن سهل»، و«علي بن عباس» عن «جعفر بن محمد(عليه السلام)» في تفسير آية: (و قليل من الآخرين) قـال: علي بن أبي طالب[٣].

---

١. احقاق الحق، ج ٣، ص ١١٤- ١٢٠.

٢. المصدر السابق، ص ١٢١.

٣. شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٩٨- ٢٩٩، الأحاديث ٩٣٢- ٩٣٥.

ومن البديهي أن ليس مفهوم الآية أنّ جنّة هذه الامة مختصة به، بل إنّ مقام السبق في الإيمان يستدعي مقامات سامية في الجنّة و القرب من الله تعالى حيث يختص بعلي بن أبي طالب (عليه السلام) (بعد النبي(صلى الله عليه وآله)).

من هنا ففي الآيات اللاحقة من هذه السورة التي توضّح منازل و مزايا طائفة اُخرى من أهل الجنّة (أصحاب اليمين)، يقول تعالى في آخر المطاف: (ثُلَّةٌ مِّنَ الاَوَّلِينَ * وثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ). (الواقعة / ٣٩- ٤٠)

واضح أنّ أصحاب اليمين و إن كانوا من أهل الجنّة إلاّ أنّهم يُدانون «المقربين من السابقين».

مَنْ هو أول مسلم؟

هذا بحث مهم «**مَنْ هو أول مَن آمن**»؟ و البحث حوله لا تخفى أهميّته، فقد اتفقت الاُمّة الإسلامية جميعها على أنّ خديجة الكبرى (عليها السلام) كانت أوّل مَنْ آمن من النساء، أمّا من الرجال فبالرغم من اصرار البعض على تعقيد المسألة و تعريضها للبحث و الجدال، فمن خلال تفحص الأحاديث و التواريخ لا يبقى شك لكل مراقب محايد، بأنّ عليَّ بن أبي طالب (عليه السلام) كان أول مؤمن، فهو كان أول مصدّق برسول الله (صلى الله عليه وآله) و أول مَن بايعه، و أول مَن صلّى معه.

إنّ القرائن و الأدلة على هذه القضية متوفرة في جميع المصادر الإسلامية حيث نشير فيما يأتي إلى جانب منها:

لقد روي ما لا يقل عن ثمانية عشر من الصحابة و بطرق مختلفة هذا الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأنّ علياً (عليه السلام) كان أول مَن آمن من الرجال و صلّى مع النبي (صلى الله عليه وآله):

١- يقول أبو سعيد الخدري و هو من كبار الصحابة: أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) ضرب على كتف علي (عليه السلام) و قال: «**يا علي لك سبع خصال لا يحاجك فيهن أحد يوم القيامة أنت أول المؤمنين إيماناً بالله...**» [1].

٢- تقول عائشة: حدثتني فاطمة ابنة محمد ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: «**زَوَّجتُكِ أعلمَ المؤمنين علماً و اقدمَهمْ سلماً و افضلهم حلماً**»[2].

٣- يقول ابن عباس: سمعت «**عمر بن الخطاب**» يقول:

---

١. أورد هذا الحديث «أبو نعيم الاصفهاني» في «حُلية الاولياء»، ج ١، ص ٦٦.

٢. ينقل هذا الحديث «ابن عساكر» في «تاريخ دمشق» في ترجمة الإمام علي(عليه السلام) ج ١، ص ٢٤٤.

كفّوا عن ذكر علي بن أبي طالب فقد رأيت من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيه خصالاً لـئن تكون لي واحدة منهن في آل الخطاب أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس، كنت أنا و أبو بكر و أبو عبيدة في نفر من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فانتهيت إلى باب أم سلمة، و علي قائم على الباب فقلنا: أردنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقال: يخرج إليكم، فخـرج رسـول الله (صلى الله عليه وسلم) فسرنا إليه فاتكأ على علي بن أبي طالب ثم ضرب بيده منكبه، ثم قال: «**إنّك مخاصم تخاصم، أنت أول المؤمنين إيماناً، و أعلمهم بأيّام الله، و أوفاهم بعهده، و أقسمهم بالسوية، و أرأفهم بالرعية و أعظمهم رزية**»[١].

إنّ هذا الحديث يكشف عن قضايا كثيرة لا يستوعبها هذا البحث.

٤– يروي «**معاذ بن جبل**» عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنّه قال لعلـي (عليـه السـلام): «**تخصمُ الناس بسبع لا يحاجك فيه أحد من قريش أنت أولهم إيماناً بالله**»[٢].

٥– تروي «**أسماء بنت عميس**» زوجة جعفر بن أبي طالب، أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآلـه)قال لفاطمة: «**زوجتُك أقدمهم سلماً وأعظمهم حلماً وأكثرهم علماً**»[٣].

٦– يقول «**سلمان الفارسي**»: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: «**أولكـم وروداً علـى الحوض، أولكم إسلاماً علي بن أبي طالب**»[٤].

٧– يقول «**أبو سخيلة**» حججت مع سلمان فنزلنا بأبي ذر فكنا عنده ما شاء الله، فلما حان منـا خفوف قلت: يا أبا ذر إني أرى أموراً قد حدثت و إني خائف أن يكون في الناس اختلاف فإن كان ذلك فما تأمرني؟ قال: «**إلزم كتاب الله عزّ وجلّ و علي بن أبي طالب فأشهد أنّي سمعت رسـول الله** (صلى الله عليه وسلم) يقول: **علي أول من آمن بي، وأول من يصافحني يوم القيامـة، وهـو الصديق الأكبر وهو الفاروق يفرق بين الحق والباطل**»[٥].

---

١. كنز العمال، ج ١٣، ص ١١٧.

٢. أورد هذا الحديث شهاب الدين الحسيني الشافعي في كتاب «توضيح الدلائل»، ص ١٧١ (حسب نقل احقاق الحـق، ج ٢٠، ص ٤٥٥.

٣. تاريخ ابن عساكر، ج ١، ص ٢٤٥.

٤. أورد هذه الرواية محمد بن أبي بكر في كتاب «الجوهرة»، ص ٨، ونقلها صاحب كتاب كنز العمال أيضاً دون ذكر سـندها، ج ١١ ص ٦١٦.

٥. مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٣٠٦، حسب نقل احقاق الحق، ج ٢٠، ص٤٧٢، وأورد هذا الحديث كنزُ العمال من عبـارة (إنّ هذا أول من آمن بي إلى الأخير) في ج ١١، ص٦١٦، ح ٣٢٩٩٠.

٨– يقول «**عبد الرحمن بن عوف**» في حديث في ذيل آية «**السابقون الاولون**»، كانوا عشرة انفار من قريش: «**كان أولهم إسلاماً علي بن أبي طالب**»[١].

٩– ينقل **جمال الدين أبو الحجاج** في كتاب «تهذيب الكمال» عن أبي رافع من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله): «**أول مَنْ أسلم من الرجال علي**»[٢].

١٠– يروي **أنس بن مالك** خادم رسول الله أنّه (صلى الله عليه وآله) قال: «**أول هذه الأُمّة وروداً على الحوض أولها إسلاماً، علي بن أبي طالب** »[٣].

١١– عن **ابن عباس** انه قال:لعلي اربع خصال ليست لاحد غيره: هو **اول عربي و عجمي صلّى مع رسول الله** (صلى الله عليه و سلم)[٤].

ويقول في موضع آخر: «**أول مَنْ أسلم بعد خديجة، علي بن أبي طالب**»[٥].

١٢– ينقل المحدّث المعروف النسائي في كتاب «**السنن**» عن زيد بن أرقم أنّه قال: «**اول مَن أسلم مع رسول الله** (صلى الله عليه وسلم)**علي بن أبي طالب**»[٦].

١٣– ينقل **أبو أحمد الجرجاني الشافعي** في كتاب «الكامل في الرجال» عن مالك بن الحوريث» أنّه قال: «**كان علي أول مَن اسلم من الرجال وخديجة أول مَن أسلم من النساء**»[٧].

١٤– تقول **ليلى الغفارية**، وهي امرأة كانت تداوي جرحى الحرب في عصر الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله):...فلما خرج علي بالبصرة خرجت معه فلما رأيت عائشة واقفة دخلني شيء من الشك فأتيتها، فقلت: هل سمعت من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فضيلة في علي؟ قالت: نعم، دخل علي على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو على فِراش لي وعليه جرد قطيفة فجلس بينهما فقلت له: أما وجدت مكاناً هو أوسع لك من هذا؟ فقال النبيّ (صلى الله عليه وسلم): «**يا عائشة**

١. مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٣٠٧، تأليف الإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور).
٢. تهذيب الكمال، ج ٣، ص ٨٥، (طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ٢٠، ص ٣٦٧).
٣. أورد هذا الحديث ابن عديم الحلبي وهو من علماء القرن السابع الهجري، في كتابه تاريخ حلب ص ٢٩٥.
٤. المختار في مناقب الابرار، ص ١٦، طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ٢٠ ص ٤٥٧).
٥. ورد هذا الحديث في كتاب آل محمد، ص ١٧٤، عن حسام الدين الحنفي.
٦. احقاق الحق، ج ٢٠، ص ٤٧٥.
٧. الكامل في الرجال، ج ٦، ص ٢٣٧٨.

دعي لي أخي فإنّه أول الناس بي إسلاماً وآخر الناس بي عهداً عند الموت و أولى النـــاس بي يـــوم القيامة»[١].

١٥– ينقل **أحمد بن حنبل** أحد الأئمّة الأربعة لأهل السنّة في مسنده حديثاً عن الصحابي المعـــروف «معقل بن يسار»: وضأت النبي صلى الله عليه سلم ذات يوم فقال هل لك في فاطمة رضي الله عنها تعودها؟ فقلت: نعم، فقام متوكئاً عليَّ، فقال: أما انّه سيحمل ثقلها غيرك ويكون أجرها لك، قال: فكأنّه لم يكن على شيء حتى دخلنا على فاطمة (عليها السلام)، فقال لها: كيف تجدينك؟ قالـــت: والله لقد اشتد حزني، واشتدت فاقتي وطال سقمي.... قال: «**أ و ما ترضين أنّي زوجتُك أقدم اُمتي سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً**»[٢].

تجدر الإشارة إلى أنّ هذا الحديث أورده ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة ج ٣ ص٢٥٧»، و ابن عساكر في «تاريخ دمشق، ج ١، ص ٢٣٢»، و الهيثمي في «مجمع الزوائـــد، ج ٩، ص ١٠١»، و المتقي الهندي في «كنز العمال، ج ١٢، ص ٢٠٥ »، و أورده جمع آخر من علماء السنّة في كتبهم.

١٦– يقول «**عبد الله بن صامت**» (ثابت) و هو من صحابة الرسول (صلى الله عليه و آله): دخلنا يوماً على رسول الله فقلنا: «**من أحب أصحابك إليك؟ فإن كان أمر كنّا معه، وإن كان ناسئة كنا دونه، قال هذا علي أقدمكم سلماً و إسلاماً**»[٣].

ويظهر جلياً من هذا الحديث بأنّ «عبد الله بن ثابت» و أصحابه كانوا يبحثون عن رجـــل أفضـــل الناس جميعاً بعد النبي (صلى الله عليه وآله) للإمامة و الولاية، فأشار النبي (صلى الله عليه وآلـــه) إلى الإمام علي(عليه السلام)معرّفاً إيّاه لتحمل هذا الأمر.

١٧– و ينقل «**بريدة**» و هو صحابي من صحابة النبي (صلى الله عليه وآله) قصةً مشـــابهة لقصـــة «**معقل بن يسار**»، حيث نقرأ في نهاية تلك القصة أنّ الرسول الأكرم (صلى الله عليه و آله) واســـى فاطمة الزهراء (عليها السلام) و قال: «**أما ترضين أنّ الله زوجك من أقدم اُمتي إسلاماً و أغـــزرهم علماً و أفضلهم حلماً**»؟ ثم يضيف: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): و الله «**إنّ أبنيك ســـيدا شباب أهل الجنّة**»[٤].اين عبارت در تاريخ ابن عساكر هست:اما ترضين اني زوجتك اقدمهم سلما و و اكثرهم علما و افضلهم حلما و ان ابنيك لمن شباب اهل الجنة.

---

١. نقل هذا الحديث محمد بن مكرم الأنصاري في كتاب مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٣٠٨.

٢. مسند أحمد، ج ٥، ص ٢٦.

٣. نقل هذا الحديث أحمد بن مردويه في كتاب المناقب، احقاق الحق، ج ١٥، ص ٣٣٦.

٤. أورد هذا الحديث «ابن عساكر» في «تاريخ دمشق» في كتاب «ارجح المطالب» تأليف العلاّمة التستري، ص١٠٧ و ٣٩٦ فقط.

١٨– الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) نقل بنفسه هذا المعنى في حديثه المقبول من قبل الجميع، وقد ورد في كتاب «**الجوهرة**» تأليف محمد بن أبي بكر الأنصاري انّ الإمام علي(عليه السلام) قال على منبر البصرة: «**أنا الصديق الأكبر، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم**»[١].

كذلك ينقل «الشيخ محمد بن مكرم الأنصاري» في كتابه «مختصر تاريخ دمشق» عن الإمام أنّه قال: «**أنا أوَّلّ مَنْ أسلم**»[٢].

وهناك موارد متعددة في «نهج البلاغة» تستند على هذا المعنى، منها أنّ الإمام يقول في الجملة رقم ١٣١: «**اللّهم إنّي أول مَن أناب وسمع وأجاب، لم يسبقني إلاّ رسول الله** (صلى الله عليه وآله)**بالصلاة**»[٣].

تجدر الإشارة إلى أننا خرجنا بعض الشيء في هذا البحث عن اسلوبنا في هذا التفسير واسهبنا في الحديث، إلاّ أنّ أهمّيّة المسألة أوجبت علينا التوسّع في البحث أكثر مما ينبغي.

على أيّة حال نختم هذه الروايات والروايات التي أوردها «ابن هشام» في تاريخه المعروف «**السيرة النبوية**» مع الاعتراف بهذه الحقيقة، أنّ المواضيع غير المطروقة كثيرة في هذا الباب.

إنّه ينقل أنّ الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) في أوائل أيّام الإسلام كان يذهب إلى بعض مفاوز مكة عند دخول وقت الصلاة لأداء الصلاة، ويرافقه علي بن أبي طالب– خفية– فقط... وذات يوم قال له أبوه أبو طالب: يا ولدي ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ قال: يا أبت ! آمنت بالله وبرسول الله، وصدّقته بما جاء به، وصليت معه لله واتبعته، فقال له: أمّا أنّه لم يدعك إلاّ إلى خير فالزمه [٤].

إنّ أسبقية إيمان علي (عليه السلام) من الوضوح والجلاء بحيث إنّ جمعاً من الشعراء المعروفين ذكروه في أشعارهم كواحد من مناقب الإمام علي (عليه السلام) ومفاخره.

يقول أحدهم في هذا المجال:

أليس أول مَنْ صلّى لقبلتكُمْ   وأعلم الناس بالقرآن والسنن؟

---

١. الجوهرة، ص ٨، وقد نقل هذا المعنى طائفة اُخرى مثل «أبو أحمد الجرجاني» في كتاب الكامل في الرجال، ج ٣، ص ١١٢٣، وتوضيح الدلائل، ص ١٧١، و مختصر تاريخ دمشق وغيرها.

٢. مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ١١٨.

٣. ورد هذا المعنى في الخطبتين ٧١ و ١٩٢ أيضاً.

٤. سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٦٣.

ويقول آخر:

فهذا وفي الإسلام أوَّلُ مسلم واوَّل مَنْ صلّى وصام وهلّلا

وينقل المرحوم «العلاّمة الأميني» في «الغدير» بعد ذكره لعشرة شعراء أنّهم انشدوا هذا المعنى في طيات أشعارهم[١].

وجدير بالذكر أيضاً أنّ العلاّمة الأميني ينقل في ذلك الكتاب أكثر من مائة حديث آخر عن «الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله)»، و«أمير المؤمنين (عليه السلام)»، و«الصحابة»، و«التابعين»، و«المؤرّخين»، و«المحدثين»، كلها تنصّ على أنّ علياً (عليه السلام) أول مَن آمن برسول الإسلام (صلى الله عليه وآله)من الرجال.

سؤال واحد فقط !

بقي هنا سؤال معروف كان مطروحاً بين بعض «المرجفين» منذ القرون الاُولى لظهور الإسلام، وهو «صحيحٌ أنّ علياً (عليه السلام) أول مَن اسلم من الرجال، ولكن: هل يصح إسلامُ غلام في العاشرة من عمره؟» ولو سلّمنا بجعل زمان بلوغه معياراً فإنّ جمعاً آخر آمنوا بالإسلام قبله على هذا الأساس.

الجواب:

من المناسب أن نورد هنا المحاججة التي جرت بين «المأمون» الخليفة العباسي، مع أحد علماء أهل السنّة المعروفين في عصره ويُدعى «اسحاق»، وقد أورد هذا الحديث «ابن عبد ربه»، في «العقد الفريد».

إذ قال له «المأمون»: يا اسحاق أي الأعمال كان أفضل يوم بعث الله رسوله؟

قال اسحاق: الإخلاص بالشهادة، قال المأمون: أليس السبق إلى الإسلام؟ قال اسحاق: نعم، قال المأمون: فهل علمت أحداً سبق علياً إلى الإسلام؟ قال اسحاق: إنّ علياً أسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم، وأبو بكر أسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم... فقال المأمون: أخبرني عن إسلام علي حين أسلم؟ فهل يخلو رسول الله (صلى الله عليه وآله)حين دعاه إلى الإسلام من أن يكون دعاه بأمر الله أو تكلف ذلك من نفسه؟ ثم قال: يا اسحاق لا تنسب رسول الله إلى التكلف فإنّ الله يقول: «**وما أنا من المتكلفين**»، قال اسحاق: دعاه بأمر الله، قال المأمون: فهل من صفة الجبار جلّ ذكره أن يكلّف رسله دعاء من لا يجوز عليه حكم قد تكلّف رسول الله (صلى الله عليه وآله) من دعاء

---

١. الغدير، ج ٣، ص ٢٣١– ٢٣٣.

الصبيان ما لا يطيقون... أترى هذا جائزاً عندك أن تنسبه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ قال اسحاق: أعوذ بالله[١].

ويضيف المرحوم العلاّمة الأميني(رحمه الله)) بعد نقله هذا الحديث من «العقد الفريد »: قال أبو جعفر الاسكافي المعتزلي المتوفي سنة ٢٤٠ في رسالته: قد روى الناس كافة افتخار علي (عليه السلام) بالسبق إلى الإسلام وأنّ النبي (صلى الله عليه وآله) استنبئ يوم الاثنين وأسلم علي يوم الثلاثاء، وأنّه كان يقول: صليت قبل الناس سبع سنين وأنّه مازال يقول: أنا أول مَن أسلم ويفتخر بذلك ويفتخر له به أولياؤه، وما دحوه، وشيعته في عصره، وبعد وفاته، والأمر في ذلك أشهر من كل شهير، وقد قدمنا منه طرفاً وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا استخف بإسلام علي (عليه السلام)، ولا تهاون به، ولا زعم أنّه أسلم إسلام حدث غرير وطفل صغير، ومن العجب أن يكون مثل العباس وحمزة ينتظران أبا طالب وفعله ليصدوا عن رأيه، ثم يخالفه علي ابنه لغير رغبة ولا رهبة يؤثر القلة على الكثرة [٢].

وخلاصة الحديث توضح من خلال النقاط التالية:

أولاً: إنّ رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) قَبِل إسلام علي (عليه السلام)، ومَن لم يقرّ بإسلامه في ذلك السن، فانه في الواقع إنّما يُشكل على الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله).

ثانياً: من خلال الروايات المشهورة التي تمت الإشارة إليها آنفاً ورد في قصة يوم الدار أنّ الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) اعدَّ طعاماً ودعا عشيرته الأقربين من قريش لتناول الطعام ودعاهم للاسلام وأنَّ: أول من يلبي دعوته (صلى الله عليه وآله) في الدفاع عن الإسلام سيكون أخاه ووصيه، فلم يلب أحد دعوته (صلى الله عليه وآله) سوى علي بن أبي طالب، حيث قال (عليه السلام): «**أنا أعينك وأُبايعك**» فقال (صلى الله عليه وآله): «**أنت أخي ووصي وخليفتي من بعدي** »[٣].

فهل يصدّق احد أنّ الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) يتخذ- من لم يبلغ في ذلك اليوم سن البلوغ، و لم يكن إسلامه مقبولاً أيضاً حسب قول المرجفين- أخاً ووصياً وخليفة له من بعده ويدعو الآخرين لمؤازرته إلى أن يصل الأمر ليقول رؤوس الشرك لابي طالب مستهزئين: يجب أن تسمع لابنك وتؤازره.

إنّ سن البلوغ ليس شرطاً في صحة الإسلام بدون أدنى شك، فكل صبي مميز عاقل بما فيه الكفاية يؤمن بالإسلام على فرض عدم إسلام أبيه، يفصل عن أبيه ويحتسب في زمرة المسلمين.

---

١. العقد الفريد، ج ٣، ص ٤٣، بشكل مختصر.

٢. الغدير، ج ٣، ص ٢٣٧.

٣. أوردنا اسناد هذه الرواية بشكل مفصل في نهاية حديث يوم الدار.

ثالثاً: يستفاد من القرآن الكريم أنّ البلوغ ليس شرطاً حتى في النبوة، وأنّ بعض الأنبياء بلغوا هذا المقام في سن الطفولة، كما يقول تعالى بخصوص النبي يحيى (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً). (مريم / ١٢)

وقد جاء كذلك في قصة عيسى (عليه السلام) أنّه قال بصريح الكلام حين طفولته: (إِنّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً). (مريم / ٣٠)

وأكثر من هذه الأُمور جميعاً أنّ رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) قَبِلَ علياً (عليه السلام) حتى أنّه اتخذه في يوم الدار أخاً ووصياً ووزيراً وخليفة له من بعده.

وعلى أيّة حال فإنّ الروايات التي تقول إنّ علياً (عليه السلام) هو أول مَن قَبِلَ دعوة الرسول(صلى الله عليه وآله)تعد فضيلة لا مثيل لها للإمام لا يساويه فيها أحد، ولهذا السبب فإنّه أفضل الأُمّة لخلافة الرسول (صلى الله عليه وآله).

الخلاصة

١–من فضائل علي(ع)أنه الوحيد الذي عمل بآية النجوى و هي قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى نَجْوَاكُم صَدَقَةً﴾.

٢–روى كثير من المفسرين أن الآية لما نزلت كف الناس عن مناجاة الرسول(ص) إلا علي بن أبي طالب(ع).

٣–قيل إن الصحابة لم يتصدقوا لعدم متسع من الوقت أو لئلا يترعج الفقير الذي يعجزه التصدق والجواب أن الامر لو كان كذلك لما وجّهت الآية التالية اللومَ عليهم(ءأشفقتم أن تقدموا...).

٤–من الواضح أن العمل بآية النجوى يعد فضيلة لأنها وضعت المسلمين في اختبار ليتميز مدى اهمية نجوى الرسول عندهم فآثروا المال على ذلك و جاءت الآية توبخهم إلا علياً.

٥– عن النبي(ص)في قوله تعالى:﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ قال:« ذاك علي وشيعتُه إلى الجنّة» و هي منقبة أخرى لو ضمت إلى اخواتها دلت على أفضليته بعد رسول الله(ص).

٦–وردت أخبار كثيرة جدا تصرّح بأن عليّا كان أول الناس إسلاما فروى هذا المعنى كل من أبي سعيد الخدري و عائشة و عمر بن الخطاب و معاذ بن جبل و أسماء بنت عميس و....

٧– نقل العلاّمة الأميني أكثر من مائة حديث عن الرسول(ص) و أمير المؤمنين(ع) و الصحابة و التابعين، و المؤرّخين والمحدثين، كلها تنصّ على أنّ علياً(ع) أول مَن آمن بالرسول (ص) من الرجال.

٨–أشكل على إسلام علي(ص) لأنه كان صبيا و الجواب أن النبي(ص) لما دعاه إلى الاسلام لم يكن ليفعل اللغو و في حديث الدار لما جعله وصيا و خليفة لم يكن إلا لقبول إسلامه.

بسمه تعالى

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٢٥

آيات الفضائل (٨)

بكالوريوس

المقدمة

نواصل قرائتنا في كتاب الله تعالى لنتعرف المزيد من فضائل أمير المؤمنين(ع) و نزداد حبا و معرفة به، نعم هو الاذن الواعية لتعاليم السماء ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ و هو الذي غرست محبته في قلوب جميع المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ و ببغضه يعرف المنافق ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُم وَلَتَعْرِفَنَّهُم فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ و هو الذي قال بحقه المصطفى(ص): «ياعلي! من آذاك فقد آذاني». في هذا الدرس نتعرف على ما تقدم من الايات المباركة و نقرأ ما ورد في شأن نزولها و نتبين صلتها بموضوع الامامة و خلافة رسول الله (ص).

المحتوى العلمي

آية «أُذُنٌ واعِيَة»

(لِنَجعَلَهَا لَكُمْ تَذكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ). (الحاقة / ١٢)

لقد كان الهدف هو أن نجعل من نجاة المؤمنين بواسطة سفينة نوح واغراق الكافرين بواسطة الطوفان تذكرةً (**لكم**) لتعيها (والحوادث المشابهة لها) أُذُنٌ واعية (كي تنقلوها للآخرين فيتّعظوا).

ينقل «السيوطي» في «الدر المنثور» من ستة طرق عن «بريدة» الصحابي المعروف، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنّه قال لعلي (عليه السلام): «**إنّ الله أمرني أن اُدنيكَ ولا اُقصيَكَ، وأن اُعَلّمَكَ وَأنْ تَعِيَ، وَحَقٌ لَكَ أنْ تَعِيَ، فنزلت هذهِ الآيةَ: وَتَعِيهَا اُذُنٌ واعِيَةٌ**»[١].

وينقل في نفس ذلك الكتاب عن «أبي نعيم الاصفهاني» في «حلية الاولياء» عن علي(عليه السلام) أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) قال له: (و ذكر مضمون حديث «بريدة»)، ويضيف في النهاية: «**فَأنْتَ اُذُنٌ واعَيَةٌ لِعِلْمي**»[٢].

وينقل أيضاً في نفس ذلك الكتاب من خمسة طرق عن «مكحول» وهو احد خدّام النبي(صلى الله عليه وآله)، عندما نزلت آية «**وتعيها اُذُنٌ واعية**» قال الرسول (صلى الله عليه وآله): « **سألت ربي أن يجعلها اذن علي، قال محكول: فكان علي يقول ما سمعت من رسول الله** (صلى الله عليه و سلم) **شيئاً فنسيته**»[٣].

---

١. تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٢٦٠.

٢. المصدر السابق.

٣. المصدر السابق.

ونقل «الزمخشري» الحديث الأخير في «الكشاف» أيضاً دون أن يشكل عليه [١].

ونقل جمعٌ آخر من المفسرين مثل «الفخر الرازي» في «التفسير الكبير»[٢]، و«الآلوسي» في «روح المعاني»[٣]، و«البرسوني» في «روح البيان»[٤]، و«القرطبي» في «التفسير الجامع»[٥]، نقلوا جميعاً نهاية الآية بخصوص الحديث الأخير.

و أورد «الطبري» أيضاً في تفسيره هذا الحديث و طائفة اُخرى من الأحاديث بصدد هذا الموضوع.[٦]

و قد ذكر «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» **ثلاثة عشر حديثاً** في نهاية هذه الآية حيث نقلها من عدّة رواة، و تنتهي سلسلة سندها إلى الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله)، وبعض هذه الأحاديث مروية عن «مكحول» خادم النبي (صلى الله عليه وآله)، وبعض منها عن «بريدة»، وبعضها عن شخص «علي بن أبي طالب (عليه السلام)»، والبعض الآخر عن «جابر بن عبد الله الأنصاري»، حيث ستطالعون نماذج من تلك الأحاديث أدناه:

نقرأ في حديث عن «أبي الدنيا» عن علي (عليه السلام) أنّه عندما نزلت الآية (وَتَعْيَهَا اُذُنٌ وَاعِيَةٌ)، قال لي الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله): «**سألت الله أن يجعلها اُذنك يا علي**»[٧].

ونقرأ في حديث آخر عن «مكحول» أنّه عندما تلا الرسول (صلى الله عليه وآله) آية «**وَتَعِيهَا اُذُنٌ وَاعِيَةٌ**»، التفت إلى علي (عليه السلام) وقال: «**سألت الله أن يجعلها اُذُنك**»[٨].

وفي حديث آخر عن «بريدة» أورد مضمون الحديث الذي نقلناه بادىء الأمر نصاً[٩] و اخيراً ينقل عن عن «جابر بن عبد الله الأنصاري» أنّه عندما نزلت الآية الآنفة الذكر، سأل الرسول الله تعالى أن يجعل اُذن علي (عليه السلام) (مصداقها الأتم) و تحقق مراد النبي هذا[١٠].

---

١. تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٦٠٠.

٢. تفسير الكبير، ج ٣٠، ص ١٠٧.

٣. تفسير روح المعاني، ج ٢٩، ص ٤٣.

٤. تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ١٣٦.

٥. تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٧٤٣.

٦. تفسير جامع البيان، ج ٢٩، ص ٣٥.

٧. شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٧١.

٨. المصدر السابق، ص ٢٧٧ ح ١٠١٥.

٩. المصدر السابق، ص ٢٨٢، ح ١٠٢٢.

١٠. شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٨٠، ح ١٠١٩.

ونقل مؤلف كتاب «الفضائل الخمسة» هذا الحديث أيضاً، اضافة لما ذكر من « كنز العمال»، و«نور الابصار»، و«مجمع الزوائد» للهيثمي، و«أسباب النزول» للواحدي[1].

النتيجة:

مع الأخذ بنظر الاعتبار ما نقلناه سابقاً بخصوص شروط الإمامة و الولاية و خلافة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) و التي تنص على ضرورة تمتع الأئمّة الإلهيين بالمقدار الكافي و السهم الأعظم من العلم و المعرفة لكي يتمكنوا تحمل مسؤولية قيادة الأمّة، و هداية الخلق في أمر الدين و الدنيا، و يحفظوا تعاليم الإسلام و قوانين الله تعالى و يحرسوا القرآن و السنّة، و مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ علياً (عليه السلام) كان الشخص الوحيد من الأُمّة الذي يمتاز بمثل هذه المكانة و الموهبة بما يطابق الروايات الآنفة الواردة في تفسير الآية المذكورة، فقد ثبت لنا دون أدنى شك بأنّه لم يكن اليق منه لاحراز مقام الإمامة و الخلافة أحد.

آية المحبة

(إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحمَنُ وُدّاً). (مريم / ٩٦)

لهذه الآية دلالة واضحة على أنّ الإيمان و العمل الصالح هما مصدر المحبة بين فئات المجتمع.

أجل، للإيمان و العمل الصالح جاذبية عجيبة، ذلك أنّها تجذب القلوب نحو بعضها كما يجذب المغناطيس الحديد نحوه، و حتى الأفراد الملوثون و النجسون يستأنسون بالطاهرين و الصالحين من الأفراد.

و نقلت روايات كثيرة في تفسير هذه الآية الشريفة في المصادر المعروفة لأهل السنّة بواسطة عدّة رواة عن شخص الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) تنص على أنّ هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب (عليه السلام) وقد قلنا مراراً بأنّ نزول الآية في أحد الأفراد، يراد منه بأنّ ذلك الشخص هو المصداق الأتم لتلك الآية، ولا يتنافى مع شمولية معنى الآية.

و نتوجه هنا نحو المنابع الإسلامية متناولين جوانب من هذه الروايات بالبحث و الدراسة:

في «شواهد التنزيل» ينقل روايات متعددة عن «البراء بن عازب»، و«أبو رافع »، و«جابر بن عبد الله الأنصاري»، و«ابن عباس»، و«أبو سعيد الخدري»، و«محمد بن الحنفية»، وبطرق متعددة على أنّ هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب(عليه السلام)بأنّ جعل الله محبته في قلب كل مؤمن.

١. الفضائل الخمسة، ج ١، ص ٣٢٠ و ٣٢١.

وجاء في حديث عن أبي سعيد الخدري أنّ الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) قال لعلي (عليه السلام): «**يا أبا الحسن ! قل اللّهم اجعل لي عندك عهداً و اجعل لي في صدور المؤمنين مودةً** »[١].
فنزلت الآية الكريمة: (إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)، ثم أردف قائلاً: «**لا تلقى مؤمناً إلاّ في قلبه حبُّ لعلي بن أبي طالب**»[٢].

و يلاحظ هذا المعنى في حديث آخر عن «جابر بن عبد الله الأنصاري» باختلاف قليل جدّاً[٣].

و نقل هذا المضمون أيضاً عن «البراء بن عازب» عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) [٤].

و كذلك نقل هذا المعنى عن «محمدبن الحنفية» (بعدة طرق) مع هذا الفارق أنّه في هذه الروايات وردت محبّة ذرية و أهل بيت علي (عليه السلام) إلى جانب محبّته[٥].

و قد وردت في هذا الكتاب عشرون رواية تقريباً و كلها تتناول هذا المعنى بطرق متعددة.

و نقل «السيوطي» هذا الحديث أيضاً في «الدر المنثور» بطرقه المختلفة عن «البراء بن عازب»، و عن «ابن عباس»[٦].

و نقل «الزمخشري» في تفسير «الكشاف» هذه الرواية في نهاية الآية الشريفة أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) قال لعلي (عليه السلام): «**يا علي قل اللهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودة**» فأنزل الله هذه الآية[٧].

و أورد المفسر المعروف «القرطبي» عين هذا المضمون في تفسيره، و لم يشكل عليه أيضاً مثل الكشاف[٨].

و من الشخصيات المعروفة التي نقلت هذا الحديث في نهاية الآية «سبط ابن الجوزي» في «التذكرة»[٩]، «التذكرة»[٩]، و «محب الدين الطبري» [١٠]، و «ابن الصباغ المالكي» في «الفصول المهمّة»،[١١]و

---

١. هذا التعبير إشارة للآية ٨٧ من هذه السورة التي تقول حول مسألة الشفاعة أنّهم لا يملكون الشفاعة إلاّ من اتخذ عند الرحمن عهداً.

٢. شواهد التنزيل، ج ١ ص ٣٦٥، ح ٥٠٤.

٣. المصدر السابق.

٤. المصدر السابق، ص ٣٥٩، ح ٤٨٩ و ٤٩٠.

٥. شواهد التنزيل، ج ١، ص ٣٦٦ و ٣٦٧ الأحاديث ٥٠٥ و ٥٠٦ و٥٠٧ و ٥٠٨ و ٥٠٩.

٦. تفسير در المنثور، ج ٤، ص ٢٨٧.

٧. تفسير الكشاف، ج ٣، ص ٤٧.

٨. تفسير القرطبي، ج ٦ ص ٤٢٠ (ذيل آية مورد البحث).

٩. التذكرة، ص ٢٠.

١٠. ذخائر العقبى، ص ٨٩.

١١. الفصول المهمة، ص ١٠٦.

«الهيثمي» في «الصواعق» [١]، و«ابن صبان» في «اسعاف الراغبين» [٢]، و قـد وردت اسماؤهم في الكتب المبسوطة حول الإمامة و الولاية.

و المفسر الوحيد الذي اتخذ موقفاً سلبياً ازاء هذا الحديث بين المفسرين المعروفين «هو الالوسي» في «روح المعاني»، حيث إنّه ينقل الحديث طبقاً لما هو معمول به ثم يسعى إلى التقليل من شأنه أو اهماله بالكامل.

إنّه و بعد أن ينقل الحديث عن «البراء بن عازب» و يؤيده مع حديث «محمد بن الحنفية» يقول: «المعيار في تفسير الآية عموم اللفظ دون خصوص سبب النزول » [٣].

قلنا مراراً ونعود فنقول مرة اُخرى: لا يدعي أحد أنّ سبب النزول يحدد المفهوم الشامل للايات، بل إنّ سبب النزول هو الاتم و الاكمل للاية.

و بتعبير آخر: إنّ ما جاء في هذه الروايات بشأن علي (عليه السلام) على أنّ الله تعالى جعل محبته في قلوب المؤمنين جميعاً، لم يأت بشأن أي فرد آخر من امة محمد (صلى الله عليه وآله)، و هذه فضيلة كبرى لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) حيث لا يجاريه احد في هذه الفضيلة.

يا ترى أليس من جعل الله تعالى قلوب المؤمنين جميعاً تطفح بمودته و محبته، أجدر من الجميع لمنصب الإمامة الإلهي، و خلافة الرسول (صلى الله عليه وآله)؟

آية المنافقين

(وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيَماهُم وَ لَتَعْرِفَنَّهُم فِي لَحْنِ القَوْلِ). (محمد / ٣٠)

تعدُّ هذه الآية في الحقيقة نقطة مقابل شيء ما ورد في الآية السابقة.

فقد نزلت هذه الآية بشأن المنافقين و صفاقم، يقول تعالى: و لو نشاء لأريناكهم بل و نضع العلامات في وجوههم لتعرفهم بها.

ثم يضيف بعد ذلك: و لتعرفنّهم أيضاً في طريقة حديثهم، لاسيما و أنّه كلما ورد الحديث عن الجهاد، تراهم يسعون للتنصل و اضعاف معنويات الناس، و عندما يدور الحديث عن الصالحين و الطاهرين و السابقين في الإسلام، يسعون لخدش سمعتهم ومكانتهم.

---

١. الصواعق المحرقة، ص ١٧٠.

٢. اسعاف الراغبين المدون في حاشية نور الابصار، ص ١١٨.

٣. تفسير روح المعاني، ج ١٦، ص ١٣٠.

و من هنا حيث نقرأ في حديث مشهور عن «أبي سعيد الخدري» أنّه يقوله في تفسير جملة (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ القَوْلِ): «**ببغضهم علي بن أبي طالب!**» نقل هذا الحديث «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» من ثلاثة طرق [١].

و نقل «السيوطي» أيضاً في تفسير «الدر المنثور» هذا الحديث عن «ابن مردويه» و«ابن عساكر» عن «أبي سعيد الخدري» [٢].

و ينقل في رواية أُخرى عن «ابن مسعود» أنّه كان يقول: «**ماكنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله** (صلى الله عليه و سلم) **إلاّ ببغضهم علي بن أبي طالب**»[٣].

و لا يقتصر رواة هذا الحديث و الكتب التي نقل فيها على ما ذكره فقط، ذلك أنّ «جابر بن عبد الله الأنصاري»، و «أبوذر الغفاري» نقلا هذا الحديث أيضاً.

و منهم أنّ «ابن عبد البر» ينقل هذا الحديث عن جابر في «الاستيعاب» [٤]، و أنّ «محب الدين الطبري» ينقل عن «أبي ذر» في «**الرياض النضرة**» بهذا النحو: «**ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله** (صلى الله عليه وآله) **إلاّ بثلاث: بتكذيبهم الله ورسوله والتخلف عن الصلاة وبغضهم عليَّ بن أبي طالب**»(عليه السلام) [٥].

ونقل هذا الحديث أيضاً في «صحيح الترمذي» وهو من المصادر الرئيسة لدى أهل السنة من طريقين عن «أبي سعيد الخدري» و«أم سلمة»، وهناك فارق بسيط في حديث «أم سلمة» عن الحديث السابق [٦].

ونقل ابن عساكر أيضاً في تاريخ دمشق، نفس هذا المضمون أو نظيره مرة عن «أبي سعيد الخدري»، ومرة عن «جابر بن عبد الله»، وأُخرى عن «عبادة بن الصامت»، ومرة عن «محبوب بن أبي الزناد»[٧].

---

١. شواهد التنزيل، ج ٢، ص ١٧٨ (ح ٨٨٣ إلى ٨٨٥).

٢. تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٦٦.

٣. المصدر السابق.

٤. الاستيعاب، ج ٢، ص ٤٦٤.

٥. الرياض النضرة، ص ٢١٤.

٦. صحيح الترمذي، ج ٥، ص ٦٣٥، ح ٣٧١٧.

٧. تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٢، ص ٢٨٧.

جاء في حديث «عبادة بن الصامت» أنّه قال «**كنّا نبور أولادنا بحب علي بن أبي طالب، فاذا رأينا أحداً لا يحب علي بن أبي طالب علمنا أنّه ليس منّا، و أنّه لغير رُشده**»، و في حديث «محبوب بن أبي الزناد»، أنّه ورد على لسان طائفة من الأنصار قولهم: «**إن كنّا لنعرف الرجل إلى غير أبيه ببغضه علي بن أبي طالب**»[١].

وننهي حديثنا بنقل هذه الرواية التي تمتاز بسعة مفهومها وشموليتها مع حديث منقول عن شخص الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله).

تحدث الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) يوم خيبر بحديث مفصل بشأن علي (عليه السلام)، ومن جملة ماقاله: «**يا أيّها الناس امتحنوا أولادكم بحبه، فإنّ علياً لايدعو إلى ضلالة ولا يبعدعن هدى، فمن أحبه فهو منكم ومن أبغضه فليس منكم!**»[٢].

يتضح لنا بشكل جلي أنّ الإنسان عندما يتأمل بشكل دقيق في هذه الروايات والرواية السابقة المذكورة في نهاية الآيتين الشريفتين من القرآن بانه يواجه شخصية يعد حبه ومودته علامة الإيمان، ومخالفته ومعاداته علامة الكفر والنفاق، هذا في الوقت الذي تمكنت فيه هذه الروايات أن تمر عبر الممرات الزمنية السابقة، حيث قامت الحكومات السابقة مثل حكومة بني اُمية بمضايقة ومحاصرة أصحاب ومحبي علي (عليه السلام) باشد ما يكون، وحيث كان أعداؤه يمسكون زمام الاُمور في كل مكان، بل وحتى أنّ سب ولعن علي في المجالس العامة كان ممّا يتقرب به للحكومة ومراكز السلطة، حقاً أنّ الإنسان ليتعجب من أنّ كل هذه الفضائل الفريدة والنادرة التي ملأت الآفاق شرقاً وغرباً، وملأت صفحات كتب الرواية والتفسير والتاريخ، كيف تمكنت أن تفلت من قبضة هؤلاء الأعداء الألداء وتصل اليوم إلى أيدينا.

لا يمكن أن ننظر إلى هذا الأمر سوى أنّه من مشيئة الله وامداده من أجل بقاء نور الحق مضيئاً على مر القرون والأعصار، ولإتمام الحجة في خلافة وولاية علي (عليه السلام)على جميع الاجيال.

آية الإيذاء

(اِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِى الدُّنيَا وَالآخِرَةِ وَ اَعَدَّ لَهُمْ عَذابَاً مُّهيناً).(الأحزاب/٥٧)

من البديهي أنّه ليس بوسع احد أن يلحق الاذى والضرر بالذات المقدسة لله تعالى، وبناءً على ذلك فإنّ المراد من ايذاء الله ـــ كما أكّد على ذلك المفسرون أيضاً ـــ أنّ الكفر والالحاد هما اللذان

١. المصدر السابق.

٢. مختصر تاريخ ابن عساكر، ج ١٧، ص ٣٧١.

يغضبان الله تعالى، وقد أكدت الآية على معاقبة الذين يؤذون الرسول والمؤمنين، ذلك أنّ ايذائهم يعد بمترلة ايذاء الله تعالى.

ونقرأ هنا في الروايات المتعددة التي وصلت عن طرق الأُخوة من أهل السنّة، وعن طرق أهل البيت (عليهم السلام) أنّ الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله)قال: «**ياعلي ! من آذاك فقد آذاني** »، وعلى هذا النحو فإنّ ايذاءه يعد ايذاءً للرسول (صلى الله عليه وآله).

ينقل «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التتريل» عن «جابر بن عبد الله الأنصاري» عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله)، أنّه قال لعلي: «**من آذاك فقد آذاني**»[١].

وينقل في حديث آخر عن «ابن أبي سلمة» عن أم سلمة زوج الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله)، أنّها قالت: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله)يقول لعلي بن أبي طالب (عليه السلام): « **أنت أخي وحبيبي، من آذاك فقد آذاني**» [٢].

ثم يضيف قائلاً: ونقل نفس هذا المعنى عن طائفة اُخرى مثل «عمر»، و«سعد بن أبي وقاص»، و«أبو هريرة»، و«ابن عباس»، و«أبو سعيد الخدري»[٣].

ونقل في حديث آخر عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنّه قال وقد اشار إلى شعره ومسكه بيده: حدثني رسول الله و هو آخذ بشعره فقال: «**من آذى شعرةً منك فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فعليه لعنة الله** »[٤].

إنّ الأحاديث التي ذكرت تشير فقط إلى أنّ ايذاء علي (عليه السلام) يعد ايذاءً للرسول(صلى الله عليه وآله)، إلاّ أنّه لم يستند فيها إلى الآية السابقة، بينما ورد هذا الاستناد بشكل صريح في بعض الروايات، منها ما قاله الحاكم النيسابوري في «مستدرك الصحيحين » في حديث صحيح و بالحرف الواحد:جاء رجل من أهل الشام فسب علياً عند ابن عباس، فحصبه ابن عباس فقال: «**ياعدو الله آذيت رسول الله** (صلى الله عليه و آله)، (إنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِـي الـدُّنيَا وَ الآخِرَةِ وَ اَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُّهِيناً) **لو كان رسول الله** (صلى الله عليه وآله)**حياً لآذيته**» [٥].

---

١. شواهد التتريل، ج ٢، ص ٨٩، ح ٧٧٧.

٢. المصدر السابق، ص ٩٨، ح ٧٧٨.

٣. المصدر السابق، ص ٩٩.

٤. شواهد التتريل، ج ٢، ص ٩٧، ح ٧٧٦.

٥. مستدرك الصحيحين، ج ٣، ص ١٢١.

و نقل «الذهبي» هذا الحديث أيضاً في «تلخيص المستدرك» و يصرح أنّه حديث صحيح[١].

و نقل السيوطي في «الدر المنثور» رواية ابن عباس و استناده إلى الآية الشريفة السابقة أيضاً[٢].

و ينقل أيضاً في كتاب «مستدرك الصحيحين» عن «عمرو بن شاس» حديثاً مفصلاً جاء في آخره: «**عن عمرو بن شاس الاسلمي و كان من أصحاب الحديبية قال: خرجنا مع علي رضي الله عنه إلى اليمن فجفاني في سفره ذلك حتى وجدت في نفسي، فلما قدمت اظهرت شكايته في المسجد حتى بلغ ذلك رسول الله** (صلى الله عليه و آله) **قال: فدخلت المسجد ذات غداة، و رسول الله**(صلى الله عليه و آله) **في ناس من أصحابه فلما رآني أبدني عينيه، قال: يقول حدد إليّ النظر حتى إذا جلست قال: ياعمرو أما والله لقد آذيتني، فقلت: أعوذ بالله أن أوذيك يارسول الله، قال: بلى، من آذى علياً فقد آذاني**».

و يقول الحاكم النيسابوري بعد ذكره هذا الحديث: هذا حديث صحيح الاسناد و لم يخرجاه[٣].

تجدر الإشارة إلى أنّ: مؤلف «مختصر تاريخ دمشق» أورد هذا الحديث في كتابه مع عدّة أحاديث اُخرى، عن «جابر»، و«سعد بن أبي وقاص»، و«عمرو بن شاس»، وكلها تُجمع على أنّ ايذاء علي (عليه السلام) يعد ايذاءً للرسول (صلى الله عليه وآله)[٤].

إنّ هذه الأحاديث «متضافرة» و كثيرة، و إنّ الكثير منها يعدّ من الأحاديث التي قال بصحة سندها علماء أهل السنّة، و هي تدل بشكل واضح على أنّ علياً (عليه السلام) هو نفس الرسول(صلى الله عليه وآله)، و مودته مودة للرسول (صلى الله عليه وآله) و محبته محبة لرسول الله (صلى الله عليه وآله)و ايذاؤه ايذاء لرسول الله (صلى الله عليه وآله).

و بناءً على ما تقدم، هل من شك في أنّ علياً (عليه السلام) أفضل الأُمّة بعد رسول الله، و أنّه أليق فرد في الأُمّة لتولي منصب الإمامة و الولاية و خلافة رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟

---

١. تلخيص المستدرك المطبوع نهاية مستدرك الصحيحين، ج ٣، ص ١٢٢.

٢. تفسير در المنثور، ج ٥، ص ٢٢٠.

٣. مستدرك الصحيحين، ج ٣، ص ١٢٢، وقد ورد هذا الحديث نصاً في تلخيص الذهبي.

٤. مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٣٥٢.

الخلاصة

١- روى المفسرون في ذيل قوله تعالى: ﴿لِنَجعَلَهَا لَكُمْ تَذكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أن النبي(ص) قال لعلي(ع): «سألت الله أن يجعلها اُذنك يا علي» و في هذا المعنى اخبار كثيرة.

٢- الذي يستنتج من هذا هو أن الامام و خليفة الرسول(ص) لا بد أن يتمتع بدرجة عالية من العلم و المعرفة و طبقا لهذه الرويات فإن عليا هو الذي كان يعي آيات الله بتمامها.

٣- عنه(ص)أنه قال لعلي (ع): «يا أبا الحسن!قل اللّهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودةً»فنزلت الآية الكريمة:﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجعَلُ لَهُمُ الرَّحمَنُ وُدّاً﴾.

٤- كما نوهنا سابقا إن سبب النزول لا يحدد المعنى و لكن لنزول هذه الاية مدلول كبير و هو أن عليّا هو الذي امتلأت قلوب المؤمنين من حبّه و مودته وهذه المكانة تتيح له الخلافة و زعامة الامة.

٥- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيَماهُم وَلَتَعْرِفَنَّهُم فِى لَحْنِ القَوْلِ﴾ فسرها بعض الصحابة و العلماء ببغض علي(ع) و ان علامة المنافق بغض أمير المؤمنين(ع).

٦- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِى الدُّنيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُّهِيناً﴾ و ورد كثيرا عنه(ص):«ياعلي ! من آذاك فقد آذاني » و النتيجة أن ايذاء علي،ايذاء للرسول(ص).

٧- إذا لاحظنا ما تقدّم من فضل علي و أنه نفس الرسول(ص) و ان محبته محبة لرسول الله(ص) و ايذائه ايذاءا لرسول الله(ص) فهل من شك بأنه أولى و أليق من غيره لخلافة الرسول(ص)؟

بسمه تعالى

جامعة المصطفى المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٢٦

آيات الفضائل (٩)

بكالوريوس

المقدمة

نتعرف في هذا الدرس على آيات أخرى نزلت بحق امير المؤمنين علي(ع) فهي تثني على انفاقه في الليل و النهار و السر و العلن كما أنها تبين أن عليّا يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله و من ثم نتطرق الى مسألة حب رسول الله(ص) لعلي(ع) حيث نقرأ حديث الطير الذي تظافرت الاخبار بنقله و أخيرا نمرّ على قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُم اِنَّهُمْ مَّسْؤولُونَ﴾ حيث إن ولاية علي(ع) من أهم ما يسأل عنه يوم القيامة.

المحتوى العلمي

آية الانفاق

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ اَمْوَالَهُمْ بَالَّليلِ وَ النَّهَارِ سِرّاً وَ عَلاَنِيَةً فَلَهُم اَجْرُهُم عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. (البقرة / ٢٧٤)

لاشك أنّ مفهوم الآية مفهوم عام و شامل، إذ إنّ الترغيب بالانفاق في سبيل الله يتخذ اشكالاً مختلفة، في السر و العلن و في الليل و النهار، و تبشر الآية الباركة المنفقين بشارة عظيمة: (فَلَهُمْ اَجْرُهُمْ عِندَ رَبَّهِم وَ لاَ خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاَ هُمْ يَحزَنُونَ) مّما قد سلف أو ممّا هو آت، و لكن يستفاد من الروايات الإسلامية أنّ مصداق هذه الآية الأكمل هو علي (عليه السلام).

لاسيما أنّه وردت روايات كثيرة في سبب نزول هذه الآية، تؤكد على أنّها نزلت أول مرّة في حق علي (عليه السلام).

يقول ابن عباس:« نزل في علي بن أبي طالب لم يكن عنده غير أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلاً، و بدرهم نهاراً، و بدرهم سراً و بدرهم علانية، فقال له رسول الله: ما حملك على هذا قال: حملني عليها رجاء أن أستوجب على الله الذي وعدني. فقال رسول الله: ألا إن ذلك لك. فأنزل الله الآية في ذلك.أورد هذا الحديث «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» مع سبعة أحاديث اُخرى بنفس هذا المضمون بطرق مختلفة» [١].

و ينقل «السيوطي» هذا المضمون نفسه في «الدر المنثور» بطرق متعددة منها ما روى عن ابن عباس، في قوله «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ باللَّيْلِ وَ النَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِيَةً» قال:نزلت في على بن أبى طالب كانت له أربعة دراهم فأنفق بالليل درهماً و بالنهار درهماً و سراً درهماً و علانية درهماً [٢].

---

١. شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٠٩ ــ ١١٥.

٢. تفسير در المنثور، ج ١، ص ٣٦٣.

معنى هذا الحديث أنّ علياً (عليه السلام) كان يسلك مختلف السبل من أجل الحصول على رضـــا الله تعالى، فقد انفق كل ما تحت بساطه في سبيل الله، و كذلك فإنّه اعطى ليلاً و أنفق في حالتين مختلفتين سراً و علناً، و في النهار أيضاً انفق في كلا الحالتين سراً و علانية، إنّ هذا الإيثار و الإخلاص المقرون بالشوق العظيم لكسب رضا الله تعالى، و بكل وسيلة ممكنة، نال قبول الله تعالى فترلت تلك الآيـــة الشريفة.

و من الذين نقلوا هذه الرواية، «محب الدين الطبري» في «ذخائر العقبى »[١]، و «سبط ابن الجوزي» في «التذكرة»[٢]، و «العلاّمة الكنجي» في «كفاية الطالب»[٣]، و المفسر المعـــروف «القـــرطبي» في تفسيره[٤]، و أورد هذا الحديث بنفس تلك العبارة أو باختلاف بسيط جمع آخر في كتبهم و كذلك ذكره «الشبلنجي» في «نور الأبصار»[٥]، و «الشيخ سليمان القندوزي » في «ينابيع المودة»[٦].

و ينقل مؤلف «الفضائل الخمسة» هذا الحديث أيضاً في كتابه عن جمع آخر منهم «ابن الاثـــير» في «اسد الغابة»[٧]، و «ابن حجر» في «الصواعق المحرقة »[٨]، و «الواحدي» في «أسباب الترول»[٩].

و نختم هذه الأحاديث بجملة عن ابن أبي الحديد المعتزلي حيث إنّه و بعد الإشارة إلى الصفات السامية لعلي (عليه السلام)، و عندما يصل إلى مسألة الجود و السخاء يقول بعد الإشارة لآيات سورة «هل أتى»: و روى المفسرون أنّه لم يملك إلاّ أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، و بدرهم نهاراً، و بدرهم سراً، و بدرهم علانية، فأنزل فيه ﴿ الذين ينفقون أموالهم...﴾[١٠].

يبين هذا التعبير أنّ هذه المسألة متفق عليها بين المفسرين أو على الأقل مشهورة.

---

١. ذخائر العقبى، ص ٨٨.

٢. تذكرة الخواص، ص ١٧.

٣. كفاية الطالب، ص ١٠٨.

٤. تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١١١٥، (ذيل الآية مورد البحث).

٥. نور الابصار، ص ١٠٥.

٦. ينابيع المودة، ص ٩٢.

٧. اسد الغابة، ج ٤، ص ٢٥.

٨. الصواعق المحرقة، ص ٧٨.

٩. أسباب الترول، ص ٦٤ (استناداً لنقل الفضائل الخمسة)، ج ١، ص ٣٢١ و ٣٢٢.

١٠. شرح ابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢١ (أورده ضمن مقدمة في وصف المولى علي (عليه السلام)).

آية المحبة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لاَيَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. (المائدة / ٥٤)

تصرّح هذه الآية بوضوح: بأنّ ارتداد المسلمين الداخلين توّاً إلى الإسلام لا يشكل ضرراً عليه، فإنّ الله تعالى قد أوكل أمر الدفاع عن هذا الدين المقدس إلى طائفة من المؤمنين ذوي الخصال المتميزة، من الذين يحبون الله و يحبّهم.

و الذين يمتازون بالتواضع و التخضع أمام المؤمنين، و بالشدة و الشجاعة أمام الكافرين، الذين يحاربون و يجاهدون دون كلل في سبيل الله، و لا يخافون لومة لائم أبداً.

أجل، إنّ اجتماع هذه الصفات في فرد أو مجموعة من الأفراد، يعدّ فضلاً إلهياً لا يليق بكائن من كان.

و لا شك في أنّ مفهوم هذه الآية واسع و شامل كما هو الحال في كثير من الآيات السابقة، و لكن يستفاد من الروايات المنقولة عن طرق الشيعة و السنة و بشكل واضح أنّ علياً (عليه السلام)أفضل و اكمل مصداق لهذه الآية.

و عندما يصل الفخر الرازي إلى تفسير هذه الآية، و ينقل اقوالاً عن المفسرين حول تطبيق هذه الآية، يقول في نهاية البحث:

و قال قوم: إنها نزلت في علي عليه السلام، و يدل عليه وجهان: الأول:

أنه عليه السلام لما دفع الراية إلى علي عليه السلام يوم خيبر قال: «لأدفعن الراية غدا إلى رجل يحب اللّه و رسوله و يحبه اللّه و رسوله» و هذا هو الصفة المذكورة في الآية.

و الوجه الثاني: أنه تعالى ذكر بعد هذه الآية قوله ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] و هذه الآية في حق علي، فكان الأولى جعل ما قبلها أيضا في حقه. [1].

إنّ استدلال الفخر الرازي بكلام الرسول(صلى الله عليه وآله) يوم فتح خيبر إشارة إلى حديث معروف نقل في الكثير من الكتب المشهورة على أنّه قيل بحق علي (عليه السلام)، و يعد من أعظم فضائله (عليه السلام)، سيما و أنّه طبقاً لهذا الحديث، و بعد أن فشل نفر من قادة جيش الإسلام في فتح خيبر، فإنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) وقف في ليل ذلك اليوم وسط الجيش و خاطبهم قائلاً:

---

١. التفسير الكبير، ج ١٢، ص ٢٠.

«لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله و يحبه الله و رسوله كراراً غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله على يده!».

ثم قال: اين علي؟ قالوا: إنّه مريض، و عينه تؤلمه (و لا يقوى على الحرب) فقال: عليّ به، فجاء علي و نفخ الرسول (صلى الله عليه وآله) في عينه (أو مسح من ريق فمه على عينه) فبرأت عينه المباركة، فأعطاه الراية، و في اليوم التالي فتح خيبر في هجوم خاطف فتحقق هذا التنبوء العجيب للرسول (صلى الله عليه وآله) بشأنه.

و قد أورد هذا الحديث إضافة للفخر الرازي كثير من المحدثين و المؤرخين (باختلاف بسيط في التعابير) في كتبهم، و منهم الحاكم النيسابوري في كتاب مستدرك الصحيحين و قد أشار إليه في ثلاثة مواضع: أولاً نقل في حديث عن «ابن عباس» أنّ جماعة تحدّثوا عنده بألفاظ غير مناسبة بشأن علي (عليه السلام) فانزعج بشدّة وقال: «اف و تف، وقعوا في رجل له بضع عشرة فضائل ليس لأحد غيره وقعوا في رجل قال له النبي (صلى الله عليه وآله)لأبعثن رجلاً لا يخزيه الله أبداً يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله»[١].

و ينقل في حديث آخر عن «عامر بن سعد بن أبي وقاص» أنّ معاوية قال لأبي سعد ذات يوم: ما يمنعك أن تسب ابن أبي طالب؟ قال:فقال: لا أسبه ماذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله(صلى الله عليه و آله)لأن تكون لي واحدة منهن احب الي من حمر النعم، قال معاوية: ما هن يا ابا اسحاق؟ قال:لا اسبه ما ذكرت حين نزل عليه الوحي فأخذ علياً و و ابنيه و فاطمة فادخلهم تحت ثوبه ثم قال: «ربّ إنّ هؤلاء أهل بيتي»، و لا أسبه ما ذكرت حين خلفه في غزوة تبوك غزاها رسول الله صلى الله عليه و اله فقال له علي: خلفتني مع الصبيان و النساء، قال: «الا ترضى أن تكون مني بمترلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبوة بعدي»، و لا اسبه ما ذكرت يوم خيبر، قال رسول الله صلى الله عليه و اله: «لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله و رسوله و يفتح الله على يديه» فتطاولنا لرسول الله (صلى الله عليه و آله) فقال: أين علي، قالوا: هو أرمد، قال: ادعوه، فدعوه فبصق في وجهه ثم أعطاه الراية ففتح الله عليه، قال: فلا و الله ما ذكره معاوية بحرف حتى خرج من المدينة [٢].

و ينقل في الحديث الثالث عن «عبد الله بن بريدة الأسلمي» أنّ الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) قال الجملة التالية في خيبر... ثم ينقل القصة مع بعض الإضافات علاوة على ما ذكر آنفاً[٣].

١.المستدرك، ج ٣، ص ١٣٢.

٢. تلخيص المستدرك المطبوع في حاشية المستدرك، ج ٣، ص ١٠٨ و ١٠٩.

٣. المستدرك، ج ٣، ص ٤٣٧.

و من الذين صرحوا بأنّ الآية السابقة نزلت بحق علي (عليه السلام)، «الثعلبي» في تفسيره (استناداً إلى ما ورد في مناقب عبد الله الشافعي) إذ صرح في نهاية الآية السابقة انها نزلت في علي عليه السلام[1].

و يصرح العلاّمة «الثعلبي» في نهاية هذه الآية أيضاً (بناءً على نقل ابن بطريق في كتاب العمدة) أنّها نزلت في علي بن أبي طالب (عليه السلام) [2].

و ينقل ذلك أيضاً مؤلف «كنز العمال» في كتابه عن «سعد بن أبي وقاص»، و في حديث آخر عن «عامر بن سعد» أورد نفس هذا المعنى مع بعض الإضافات [3].

إنّ هذه الأحاديث و ما يشابهها التي وردت في الكتب المعروفة للسنة و اتباع مذهب أهل البيت (عليهم السلام) كما مر عن لسان سعد بن ابي وقاص تحكي عن فضيلة لا مثيل لها و التي إن وجدت في أحد الأفراد تكفيه فخراً و فضلاً.

و بوجود مثل هذه الشخصية وسط الأُمّة، هل يجدر بنا أن نتصور أنّه بالإمكان تسليم خلافة الرسول (صلى الله عليه وآله) لغير شخصه؟!

و لهذه الملاحظة أيضاً أهميّة بالغة في تأكيد مفهوم آية المودّة، فانّه يستفاد من الروايات الواردة في الكتب المعروفة و المشهورة أنّ علياً (عليه السلام) لم يحظ برعاية الرسول (صلى الله عليه وآله) و لطف الله تعالى فحسب، بل إنّه كان أحبّ المخلوقات عند اللّه و رسوله أيضاً.

و الشاهد على هذا الكلام حديث «الطير» المعروف.

نقرأ في كتاب «المستدرك على الصحيحين» انّ «أنساً» خادم الرسول (صلى الله عليه وآله)كان شاكيا فأتاه محمد بن الحجاج يعوده في أصحاب له، فجرى الحديث حتى ذكروا علياً (رضي الله عنه) فتنقصه محمد بن الحجاج، فقال أنس: من هذا أقعدوني فأقعدوه، فقال: يا ابن الحجاج، الا أراك تنقص علي بن أبي طالب، و الذي بعث محمداً (صلى الله عليه و آله) بالحق، لقد كنت خادم رسول الله (صلى الله عليه وآله) بين يديه و كان كل يوم يخدم بين يدي رسول الله(صلى الله عليه و آله وسلم) غلام من أبناء الأنصار، فكان ذلك اليوم يومي، فجاءت أُم أيمن مولاة رسول الله(صلى الله عليه و آله) بطير فوضعته بين يدي رسول الله (صلى الله عليه و آله)، فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله): يا أُم أيمن ما هذا الطائر؟ قالت: هذا الطائر أصبته فصنعته لك، فقال رسول الله (صلى الله

---

١. المناقب، ص ١٦٠ مخطوطة (بناءً على نقل احقاق الحق، ج ١٤، ص ٢٤٨).

٢. العمدة، ص ١٥١، (طبقاً لنقل احقاق الحق،ج ٣ ص ١٩٨).

٣. كنز العمال، ج ١٣، ص ١٦٢ و ١٦٣ (الحديث رقم ٣٦٤٩٥ و ٣٦٤٩٦) (طبع مؤسسة الرسالة ــ بيروت).

عليه و آله): «اللّهم جئني بأحبّ خلقك إليك و إليَّ يأكل معي من هذا الطائر»، و ضرب البـــاب، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا أنس اُنظر من على الباب، قلت: اللّهم اجعله رجـــلاً مـــن الأنصار، فذهبت فاذا علي بالباب، قلت: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) على حاجة فجئت حتى قمت مقامي فلم ألبث أن ضرب الباب، فقال: يا أنس اُنظر من على الباب، فقلت: اللّهـــم اجعلـــه رجلاً من الأنصار فذهبت فاذا علي بالباب، قلت: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) على حاجـــة فجئت حتى قمت مقامي فلم ألبث أن ضرب الباب، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) يا أنـــس اذهب فأدخله فلست بأول رجل أحبّ قومه ليس هو من الأنصار فذهبت فأدخلته، فقال: يا أنـــس قرب إليه الطير، قال: فوضعته بين يدي رسول الله(صلى الله عليه وآله)فأكلا جميعاً، قال محمد بـــن الحجاج: يا أنس كان هذا بمحضر منك؟ قال: نعم، قال: اعطي بالله عهداً أن لا انتقص علیـــاً بعـــد مقامي هذا و لا أعلم أحد ينتقصه إلاّ أشنت له وجهه[١].

و أورد «الذهبي» هذا الحديث أيضاً في «تلخيص المستدرك» المطبوع في حاشية «المستدرك».

و إضافة لما قلناه، فإنّ الحديث المعروف بـــ «حديث الطير» في مختلف المصادر الإســـلامية، ورد في كتب كثيرة، بحيث إنّ العلاّمة الأميني(رحمه الله) يقول بشأنه: حديث الطير حديث متواتر و صحيح سلّم أئمّة الحديث بتواتره و صحته.

و أورد هذا الحديث «موفق بن أحمد» (و هو فقيه و محدث كبير و خطيب فذّ و أديب و شاعر) في كتاب المناقب [٢].

و الأهم من ذلك أنّ المحدث المعروف «الترمذي» ينقل في كتابه المشهور باسم «صحيح الترمـــذي» عن «أنس بن مالك» أنّه كان بين يدي الرسول (صلى الله عليه و آله) طير، فقال: «اللّهـــم ائـــتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي هذا الطير فجاء علي فأكل معه»[٣].

يقول العلاّمة الكنجي الشافعي في «كفاية الطالب» بعد نقله هذا الحديث: «و فيه دلالة واضحة علـــى أنّ علياً (ع) أحبّ الخلق إلى الله و أدل الدلالة على ذلك اجابة دعاء النبي (صلى الله عليه و سلم) فيما دعا به، و قد وعد الله تعالى من دعاه بالاجابة حيث قال عز و جل: (ادعوني استجب لكـــم) فـــأمر بالدعاء و وعد بالاجابة، و هو عزّ وجلّ لا يخلف الميعاد، و ما كان الله عزّ وجلّ ليخلف وعده رسله و لا يرد دعاء رسوله لأحبّ الخلق إليه و من أقرب الوسائل إلى الله تعالى محبته و محبة من يحبّه لحبّه»[٤].

١. المستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ١٣١.
٢. المناقب، ص ٦٧.
٣. صحيح الترمذي، ج ١٣، ص ١٧٠.
٤. كفاية الطالب، ص ٥٩، (طبقاً لنقل شرح احقاق الحق، ج ٥، ص ٣١٩).

و ينقل «العلاّمة النسائي» و هو من علماء القرن الثالث الهجري هذا الحديث أيضاً مع بعض الإضافات في كتابه المعروف «الخصائص» [١].

و من العلماء الآخرين الذين نقلوا هذا الحديث في كتبهم: «سبط ابن الجوزي» في «التذكرة»، و«ابن الأثير» في «اُسد الغابة»، و«ابن مسعود الشافعي» في «مصابيح السنة»، و«محب الدين الطبري» في «ذخائر العقبى»، و«الشيخ سليمان البلخي القندوزي» في «ينابيع المودة»، و طائفة اُخرى غيرهم لو أردنا ذكر أسمائهم و شرح كلماتهم لطال بنا المقام.

و من الملاحظات التي قد تثير الدهشة لدى البعض أنّ ابن الأثير في «اُسد الغابة» عندما ينقل حديث الطير بعدة طرق، يقول في احدى الطرق: عن أنس بن مالك أنّ النبي (صلى الله عليه وسلم) كان عنده طائر فقال اللّهم ائتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي من هذا الطائر فجاء أبو بكر فردّه، ثم جاء عثمان فردّه (وفي رواية اُخرى نقلها النسائي في الخصائص ورد اسم عمر بدل عثمان) فجاء علي فأذن له.

يقول «ابن الأثير» في نهاية هذا الحديث أن ذكر «أبي بكر و عثمان» في هذا الحديث غريب جدّاً [٢].

و الأعجب من ذلك أنّ بعض المحدثين من السنّة إذ أرادوا المرور بهذه الفضيلة الفريدة مرّوا مستطرقين و أغمضوا أعينهم عن الحقائق، و لجأوا إلى التشكيك في سند هذا الحديث، مثل ابن كثير الدمشقي كاتب «البداية و النهاية» إذ يقول بعد ذكر هذا الحديث: «و في القلب من صحة هذا الحديث نظر و إن كثرت طرقه» [٣].

بينما نجد أنّ هذا الحديث المتواتر الذي ورد في الكثير من المصادر المعروفة بشكل واسع، لا غبار عليه من حيث السند و الدلالة سوى أنّه لا ينسجم مع الأحكام المسبقة للبعض، و للمرحوم العلاّمة الأميني جملة لطيفة بعد ذكر هذه العبارة إذ يقول: «باجتماع جميع شروط الصحة في هذا الحديث إن كان شك ما في القلب تجاه هذا الحديث أيضاً، فالإشكال يكمن في ذلك القلب و ليس في الحديث».

---

١. الخصائص، ص ٥.

٢. اسد الغابة، ج ٤، ص ٣٠.

٣. البداية والنهاية، ص ٣٥٣.

آية المسؤولين

نقرأ في القران الكريم أنّ الخطاب الالهي يأتي إلى ملائكة العذاب: ﴿وَ قِفُوهُم اِنَّهُـمْ مَّسْـؤولُونَ﴾. (الصافات / ٢٤)

و هناك أخذ ورد بين المفسرين فيما سيسألون عنه، قال بعضهم: عن البدع التي ابتدعوها، و قال بعضهم الآخر: عن أعمالهم السيئة و عن خطاياهم، و أضاف بعضهم: عن التوحيد: و لا إله إلاّ الله[١].

و لا مانع من اجتماعهن جميعاً في مفهوم الآية إلاّ أنّه ورد في العديد من الروايات أنّ المراد هو السؤال عن «ولاية علي بن أبي طالب(عليه السلام)» و قد وردت هذه الروايات في المصادر الإسلامية المعروفة و منها في «شواهد التنزيل»، إذ ينقل بطريقين عن أبي سعيد الخدري، عن الرسول الأكرم(صلى الله عليه و آله) أنّه قال في تفسير هذه الآية: «عن ولاية علي بن أبي طالب»[٢].

و ينقل في حديث آخر عن «سعيد بن جبير»، عن «ابن عباس» أنّ الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله)قال: «إذا كان يوم القيامة أوقف أنا و علي على الصراط فما يمرّ بنا أحد إلاّ سألناه عن ولاية علي، فمن كانت معه، و إلاّ ألقيناه في النار ! و ذلك قوله ﴿و قفوهم إنّهم مسؤولون﴾[٣].

و نقل «الحاكم الحسكاني» هذا الحديث أيضاً في الكتاب المذكور، عن طرق اُخرى و نقل «ابن حجر» أيضاً في كتاب «الصواعق» هذا الحديث عن «أبي سعيد الخدري» عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) [٤].

و ممن نقل هذا الحديث «أحمد بن حنبل» (أحد الأئمّة الأربعة للسنّة) في كتاب المسند عن أبي سعيد الخدري، إنّه يسأل في يوم القيامة عن ولاية علي بن أبي طالب(عليه السلام).

و نقل هذا الحديث أيضاً كل من: «عز الدين الحنبلي» في «كشف الغمة»[٥]، والآلوسي في تفسيره[٦]، و«سبط ابن الجوزي» في «التذكرة»[٧]، و«أبي نعيم الاصفهاني» في «كفاية الخصام»[٨]، و«الشيخ

---

١. تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٤٤١ (نهاية الآية التي نحن بصددها)

٢. شواهد التنزيل، ج ٢، ص ١٠٦ ـــ ١٠٧، ح ٧٨٦ و ٧٨٧.

٣. المصدر السابق، ح ٧٨٨.

٤. الصواعق، ص ٨٩.

٥. كشف الغمة، ص ٩٢.

٦. تفسير روح المعاني، نهاية الآية التي نحن بصددها.

٧. التذكرة، ص ٢١.

٨. كفاية الخصام،، ص ٣٦١.

سليمان القندوزي» في «ينابيع المودة» [١]، و جمع آخر لو أردنا ذكر اسمائهم و كتبهم لطال بنا المقام.

و الطريف أنّه في بعض هذه الروايات وردت «ولاية أهل البيت» إضافة لولاية علي(عليه السلام) [٢].

كما أنّ هذه الملاحظة جديرة بالاهتمام أيضاً و هي أنّ جميع الروايات الآنفة الذكر نقلت عن المصادر المعروفة و الكتب المشهورة للسنة و الرواة المقبولين و لكن مع ذلك فإنّ «الآلوسي» عندما ينقل هذه الرواية يقول: «روى بعض الإمامية عن ابن جبير عن ابن عباس: يسألون عن ولاية علي»، و «كذلك نقل الإمامية هذه الرواية عن أبي سعيد الخدري» [٣].

و يضيف من عنده ولاية سائر الخلفاء بكل تعجب!

إنّ هذا المفسر المتعصب يتصور أنّ كل حديث بشأن فضائل علي (عليه السلام) لابدّ و أن يكون رواته من الإمامية و الشيعة حتماً، و كأنّ أحكامه الطائفية المسبقة لا تسمح له التصديق بأنّ هذه الأحاديث منقولة بهذا الشكل الواسع في المصادر المعروفة للسنّة، و كأنّه لا يصدق أيضاً بأنّ الاجيال اللاحقة سيقرأون كلماته، و يشكلون عليه أنّ رواة هذا الحديث ليسوا من الإمامية فحسب، بل إنّهم غالباً من علماء السنّة.

و على أيّة حال فإنّ مفهوم هذه الأحاديث و كذلك الآية الآنفة لا يعني أنّه في يوم القيامة يسأل عن ولاية «علي بن أبي طالب» فقط، ذلك أنّ يوم القيامة هو يوم السؤال عن جميع الأعمال و النعم و جميع أنواع المسؤوليات، بل المراد أنّ احدى أهم الأُمور التي يسأل عنها هي ولاية هذا الإمام المعصوم، و بلا أدنى شك فإنّ الولاية هنا ليست بمعنى نوع من المحبة العادية و الدارجة التي لابدّ و أن يتحلى بها كل مؤمن تجاه الآخرين، ذلك أنّ هذا الأمر يعد أحد الفروع العادية للدين، بل إنّ المراد شيء أبعد من هذه المسألة و يعد من أهم أركان الإسلام و أُسس الدين.

فهل يمكن أن يكون هذا الموضوع شيئاً آخر غير مقام القيادة و الخلافة الإلهيّة بعد رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله)؟!

نعم، علي بن أبي طالب (عليه السلام) هو ذلك الشخص الذي تعد ولايته من أهم أركان الإسلام و شروط الإيمان، و على رأس لأُمور التي يُسال عنها في يوم القيامة.

و كيف لا يكون كذلك، و قد ملأت فضائله و مفاخره جميع كتب الحديث، و تتلألأت شخصيته الرفيعة في آيات القرآن المجيد، بالرغم من كل المواقف العدائية التي اتخذها أعداؤه معه، و كتموا

---

١. ينابيع المودة، ص ٢٥٧.

٢. علي في الكتاب والسنة، ج ١ ص ٢٢٩.

٣. تفسير روح المعاني، ج ٢٣، ص ٧٤.

فضائله (و لايزالون يكتمونها لحد الآن أيضاً)، و بالرغم من أنّ أصحابه و اتباعه اضطروا إلى اخفاء فضائله أيضاً خوفاً من بطش الأعداء!.

و نختم هذا الكلام بنقل حديث معروف عن ابن عباس ورد في الكثير من المصادر الإسلامية إذ يقول: ما نزل في القرآن ﴿يَا اَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلاّ علي سيدها و شريفها و أميرها، و ما أحد من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلاّ قد عاتبه الله في القرآن، ما خلا علي بن أبي طالب فإنّه لم يعاتبه في شيء منه،

وفي رواية اخرى عنه يقول: ما نزل الله ما نزل في علي

و في رواية اخرى ايضا: نزلت في علي ثلاثمائة آية !»[1].

و نقل هذا الحديث أو قسمه الأول عن طائفة أُخرى كثيرة أيضاً، مثل الحافظ «أبي نعيم الاصفهاني» في «حلية الأولياء»، و«محب الدين الطبري» في «ذخائر العقبى»، و«العلاّمة الكنجي الشافعي» في «كفاية الطالب»، و«سبط ابن الجوزي» في «التذكرة»، و«الشبلنجي» في «نور الأبصار»، و«الهيثمي» في «الصواعق»، و«السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»، و«القندوزي» في «ينابيع المودة »[2].

كانت هذه طائفة من الآيات التي نزلت بشأن علي (عليه السلام) في القرآن، إذ عمدنا إلى اختيار هذا العدد منها.

---

١. مختصر تاريخ دمشق، ج ١٨، ص ١١.

٢. للمزيد من الاطلاع على هذه المصادر يرجى مراجعة احقاق الحق، ج ٣، ص ٤٧٦.

الخلاصة

١- من الايات التي نزلت في حق علي(ع)قوله تعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ اَمْوَالَهُمْ بَالَّليلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُم اَجْرُهُم عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ).

٢- روي في سبب نزول هذه الاية أنه كان لعلي اربعة دراهم فتصدق بواحد بالليل و بالثاني بالنهار و بالثالث سرا و تصدق بالرابع بالعلن فنزلت الاية تشيد بموقفه.

٣- روى الكثير نزول الآية:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمْ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ... يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَيَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِم ﴾ في علي(ع).

٤- مما يؤيد نزولها في علي(ع) أنه قال رسول الله (ص) في حقه(ع) يوم خيبر:« لأدفعن الراية غداً إلى رجل يحبُّ الله و رسوله ويحبّه الله و رسوله».

٥- يتضح من خلال الاية و كلام الرسول (ص) بالاضافة الى روايات اخرى ان عليا كان احب الناس اليه و اقربه عنده كما في حديث الطير المتواتر.

٦- روي أنه كان بين يدي الرسول (ص) طير، فقال: «اللّهم ائتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي هذا الطير فجاء علي فأكل معه».

٧- روى حديث الطير عدد كبير من المحدثين كالحاكم في المستدرك و الترمذي في صحيحه و الكنجي و النسائي و سبط بن الجوزي و ابن اثير و....

٨- قال تعالى:﴿وَقِفُوهُم اِنَّهُمْ مَّسْؤولُونَ﴾ و قد وردت اخبار عديدة بانهم يسألون عن ولاية علي(ع).

٩- من الواضح أن هذه الاخبار تعني أن من اهم الامور التي يسأل عنها هي ولاية علي(ع) و ليست هي مجرد محبة عادية و إنما هي الاعتقاد بقيادته و زعامته.

بسمه تعالى

جامعة المصطفى المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٢٧

الأئمّة الاثنى عشر(عليهم السلام)

بكالوريوس

المقدمة

نواصل الحديث في الايات التي تنوه بفضل علي(ع) و نتسائل ما اذا كانت هذه الايات تنطبق على سائر ولده من الائمة المعصومين، فنجد ان التمعن في هذه الايات يفيد بأنها لا تأبى الصدق على سائر ائمة اهل البيت لوجود نفس الملاك فيهم و لانهم يحملون نفس المؤهلات، نعم كيف تكون آية الصلاة على النبي(ص) تدل على فضل أهل البيت(ع)؟ عندما يتحدث القرآن الكريم عن بيوت أذن الله أن ترفع فلمن تلك البيوت و أين مصداقها في الاسلام؟

المحتوى العلمي

الأئمّة الاثنى عشر(عليهم السلام)

تمهيد:

بالرغم من أنّ المذهب الشيعي لا ينحصر بـــ «الإمامية الاثنى عشرية»، بل يضم الشـــعب والفـــرق الأُخرى مثل «الزيدية» الذين يعتقدون بأربعة من الأئمّة فقط، و«الاسماعيلية» الذين يعتقدون «بسبعة أئمّة» و غيرهم من الفرق، إلاّ أنّه و بلا أدنى شك يعدّ الشيعة الاثنى عشرية أشهر تلك الفرق قاطبة، إذ يشكلون جزءً مهماً من المسلمين في سائر انحاء العالم، و يشكلون في بعض الدول كايران و العراق و البحرين الأكثرية الساحقة من السكان، و في البعض الآخر يشكّلون نسبة كبيرة من السكان كما هو الحال في أغلب البلدان الإسلامية.

إنّ للشيعة الاثني عشرية مراكز علمية هامة، تضم عشرات الآلاف من العلماء و الطلاب المنـــهمكين في التحقيق و التدريس و تعلم العلوم الإسلامية.

و قد تمّ تأليف و طبع و نشر عشرات الآلاف من الكتب العلمية حول العقائد الإسلامية، و الفقه، و الأُصول، و التفسير، و الحديث، و الفلسفة، و الرجال، و الدراية، و التاريخ الإسلامي من قبل علماء الشيعة.

و قد ذكر المرحوم المحقق الجليل «الشيخ آقا بزرك الطهراني» في كتابه «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» و الذي تمّ طبعه مؤخراً في ٢٦ مجلداً، أسماء عشرات الآلاف من كتب علماء الشيعة مع ذكر مؤلفيها مع شرح وجيز لكل منهم، مما يوضح بشكل جلي حجم الخدمات الجليلة التي قدمها العلماء الشـــيعة للعلوم الإسلامية، و كيف أنّهم خلفوا وراءَهم تصانيف ثمينة جدّاً في جميع الفنون الإسلامية و العلوم الإنسانية مخلدة ذكراهم.

و يجدر بالذين لا يدركون هذه الحقائق أن يقوموا بزيارة المراكز العلمية للشيعة في مختلـــف منـــاطق العالم، ليروا الطلاب و الفضلاء و علماء الشيعة الذين يمتازون بالمهارة الفائقة في العلـــوم الإســـلامية

المختلفة عن كثب، و يطلعوا على مكتباهم المملوءة بالكتب العلمية لهؤلاء العلماء، و كذلك بالكتب العلمية للعلماء السنّة.

و يلاحظوا عن قرب، الفقهاء، و المتكلمين، و مفسري القرآن، و الكتّاب اللامعين، و الخطباء، و الكم الهائل من حفظة القرآن الكريم.

و لكن مما يؤسف له أنّ الرقابة الشديدة المفروضة على الكثير من وسائل الاعلام الإسلامية و الحاكمة كذلك على أغلب المكتبات المعروفة للدول الإسلامية، لم تسمح لحد الآن بأن يقوم المحققون المحايدون للسنّة بالتعرف بشكل واضح على أتباع مذهب أهل البيت (عليهم السلام) و العلماء و آثارهم العلمية.

و نجد هنا أنّ المكتبات مليئة بكتب علماء السنّة إلى جانب كتب علماء الشيعة دون ملاحظة أدنى فرق بينهم من حيث الحضور في المكتبات، و لا يشعر أي منهم أيضاً بأدنى خطر من هذه الناحية على مذهبه، إلاّ أنّ مكتبات الاخوة السنة لها شكل آخر غالباً، و لا يلاحظ فيها أي أثر لعشرات الآلاف من المؤلفات العلمية المعروفة للشيعة، أو أنّها تقتصر على مقدار قليل منها فقط!.

و على أيّة حال نأمل أن يأتي اليوم الذي يتمكن فيه المحققون و بحياد تام، أن يدققوا و يبحثوا فيما قلناه آنفاً، و يعرفوا المجتمع الشيعي الإمامي كما هم عليه، وليس كما يقوله اعداؤهم، أو كما تحاول أن تصوره الأبواق الاستعمارية عنهم، و يقيناً سيشهد ذلك اليوم وقائع جديدة في العالم الإسلامي مع اتباع هذا المذهب، و سينعم العالم الإسلامي بتفاهم و انسجام أفضل.

و لكي لا نبتعد عن أصل الموضوع(عدد الائمة) نقول: تلاحظ في الآيات القرآنية، إشارات لأئمّة أهل البيت المعصومين (عليهم السلام) تزداد جلاءً و وضوحاً بمساعدة الروايات الواردة في المصادر الإسلامية المعروفة بشأن تفسير هذه الآيات.

و هذه الآيات متعددة، و نشير في النهاية إلى بعض منها فقط، و تمت الإشارة إلى مجموعة منها في بداية البحث في موضوع ولاية و إمامة علي (عليه السلام)، و منها:

١- قوله تعالى:﴿إنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجسَ أَهلَ البَيتِ﴾. (الاحزاب / ٣٣)

بشهادة محتواها، و كذلك الروايات الواردة في شرحها و تفسيرها عن الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله)في المصادر الإسلامية المعروفة، إنّ مفهومها عام أي أنّها تشمل بالإضافة لعلي(عليه السلام)سائر الأئمّة المعصومين، و خاصة الإمام الحسن و الإمام الحسين (عليهما السلام) اللذين صُرح باسميهما في هذه الروايات.

٢- قوله تعالى﴿ قُل لا أَسأَلُكُم عَلَيهِ اَجراً إِلاَّ المَوَدَّةَ فِي القُربى﴾. (الشورى / ٢٣)

تشير أيضاً و بنحو الإجمال الى جميع الأئمّة المعصومين(عليهم السلام)، و قد صرح في روايات متعددة منقولة عن سعيد بن جبير و ابن عباس عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) أنّ المراد من «**القربى**» في هذه الآية، علي (عليه السلام) و فاطمة (عليها السلام) و ذريتهما، و صرح في البعض الآخر باسم الإمامين الحسن و الحسين (عليهما السلام) أيضاً.

و لغرض المزيد من التوضيح يرجى مراجعة «شواهد التنزيل» و سائر المصادر التي ذكرناها أثناء شرح هذه الآية [1].

٣- آية ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَ اَطيعُوا الرَّسُولَ وَ اُولِي الاَمرِ مِنكُم﴾. (النساء / ٥٩)

و هذه الآية هي الأُخرى كسابقتها، لاسيّما أنّ لهذه الآية مفهوماً عاماً يشمل كل زمان، و بناء على ذلك لابدّ من وجود مصداق من «**اُولي الأمر**» في كل عصر و زمان، يكون فرداً معصوماً، و طاهراً من الذنوب (لأنّ الطاعة المطلقة الخالية من كل قيد وشرط غير مشروعة سوى للمعصومين خاصة).

إضافة إلى ذلك ففي بعض الروايات المعروفة الواردة في مصادر أهل السنّة صرح باسم الإمام الحسن والإمام الحسين (عليهما السلام).

٤- آية ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. (التوبة / ١١٩)

هي الأُخرى بنفس المفهوم الذي شرحناه سابقاً، إذ لها مفهوم عام شامل لكل عصر و زمان، و هي دليل على أنّه يوجد في كل عصر و زمان صادق معصوم (ذلك أنّ المؤازرة و التبعية المطلقة دون قيد أو شرط ليس لها مفهوم سوى للمعصومين فقط)، و إضافة إلى ذلك فإنّ بعض الروايات الواردة في شرح هذه الآية، تفسر الصادقين بأنّهم محمد و أهل بيته(عليهم السلام) [2].

و بما أنّ هذه الآيات و الروايات المتعلقة بها، ذكرناها في هذه المباحث بشكل مفصل لذا نحجم عن تكرارها مرة اُخرى، و ننتقل إلى آيات الفضيلة.

و نؤكد مرّة اُخرى على أنّ آيات الفضيلة لا تطرح باعتبار أنّها الآيات التي لها دلالة مباشرة على إمامة و ولاية أئمّة أهل البيت (عليهم السلام)، بل الهدف من ذلك هو أن يتضح بشكل جلي أنّ كل واحد منهم كان أفضل أفراد عصره، و بما أنّه لابدّ من وجود اولي الأمر و الإمام المعصوم في كل عصر و زمان طبقاً لمفهوم الآيات السابقة، فإنّهم مصداق هذا المعنى.

١. أوردت روايات بطرق مختلفة في هذا المجال في شواهد التنزيل، ج ٢،ص ١٣٠- ١٣٤.

٢. شواهد التنزيل، ج ١، ص ٢٦٢.

١- آية الصلوات و التحية

نقرأ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَ مَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾. (الأحزاب / ٥٦)

لقد تم تجسيد مقام نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله) في هذه الآية بأفضل وجه، ذلك أنّ الله تعالى و ملائكته المقربين يصلون على النبي (صلى الله عليه وآله)، و كذلك صدور الأمر لجميع المؤمنين أن يصلوا و يسلموا عليه بدون استثناء.

أي مقام اسمى من هذا المقام؟ و أي عظمة فوق هذه العظمة؟

صحيح أنّه لم يرد في هذه الآية، كلام عن آل الرسول (صلى الله عليه وآله) إلاّ أننا نقرأ في الكثير من الروايات أنّ أصحابه و انصاره عندما سألوه: كيف نصلي و نسلم عليك، فقد جعل الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) «الآل» إلى جانب الصلاة عليه، و جميع الرحمة و السلام اللذان يطلبان من الله تعالى فهما له، و آله أيضاً، و هذه قرينة على أنّ الصلوات و التحية من الله و الملائكة تتسم بالتعميم أيضاً، فهي تشمل الرسول(صلى الله عليه وآله) و آله و هذه ليست مسأله بسيطة، بل إنّها توضح أنّ لهم مقامات تالية لمقام الرسول (صلى الله عليه وآله) و تكليف شبيه بتكليفه من بعض الجهات، و إلاّ فإنّ هذا المقام الشامخ لا يمكن أن يكون لهم بسبب القرابة فقط.

و ننتقل الآن إلى طائفة من هذه الروايات الواردة في أشهر مصادر السنة:

١- نقل في «**صحيح البخاري**» عن أبي سعيد الخدري انه قال: قلنا يا رسول الله هذا التسليم فكيف نصلي عليك؟ قال: «**قولوا اللّهم صل على محمد عبدك و رسولك كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم**»[١].

و ينقل هذا الحديث في نفس الكتاب و الصفحة بنحو اكمل عن «كعب بن عجره » أحد الصحابة المعروفين أنّه قال: قيل يا رسول الله اما السلام عليك فقد عرفناه فكيف الصلاة؟ قال: «**قولوا اللّهم صل على محمد و على آل محمد كما صليت على آل إبراهيم انك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد**»[٢].

تجدر الإشارة إلى أنّ البخاري يذكر هذه الأحاديث عند الآية الشريفة: (إنّ الله و ملائكته...).

٢- نقل في «**صحيح مسلم**» و هو ثاني مصدر معروف للحديث عند الاخوة السنّة عن «أبي مسعود الأنصاري» قال:اتانا رسول الله صلى الله عليه و سلم و نحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير

---

١. صحيح البخاري ج ٦، ص ١٥١.

٢. المصدر السابق.

بن سعد: امرنا الله تعالى أنّ نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى تمنينا انه لم يسأله، ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «**قولوا اللّهم صـــل على محمد و على آل محمد كما صليت على آل إبراهيم و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد و السلام كما قد علمتم**»[١].

٣- و في تفسير «**الدر المنثور**» و هو اشهر تفسير روائي ينقل نفس رواية «أبي سعيد الخدري» عن «البخاري» و«النسائي» و«ابن ماجة» و«ابن مردويه» عن الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله) [٢].

و نقل في نفس الكتاب عبارة «أبي مسعود الأنصاري» عـــن «الترمـــذي» و«النســـائي» و«ابـــن مردويه» [٣].

و ينقل عين هذا المضمون أيضاً بفارق قليل عن «مالك» و«أحمد» و«البخاري » و«مســـلم «و«أبي داود» و«النسائي» و« ابن ماجة» و«ابن مردويه» عن «أبي أحمد الساعدي»[٤].

و ينقل الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين عن ابن أبي ليلى انه قال:لقيني «كعب بـــن عجرة» فقال: ألا اهدي لك هدية سمعتها من النبي (صلى الله عليه وآله)؟! قلت: بلى قال فاهـــدها الي! قال: سألنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقلنا يا رسول الله كيف الصلاة عليكم اهل البيت؟ قال:« **قولوا: اللّهم صل على محمد و على آل محمد كما صليت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد، اللّهم بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبـــراهيم وعلـــى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد**».

ثم يقول الحاكم النيسابوري (وكان قد عزم على ذكر أحاديث غير مذكورة في صحيحي البخاري و مسلم): وقد روى هذا الحديث باسناده و الفاظه حرفا بعد حرف الامام محمد بن اسماعيل البخـــاري عن موسى بن اسماعيل في الجامع الصحيح و انما خرجته ليعلم المستفيد ان اهل البيت و الال جميعـــا هم.

و تجدر الإشارة إلى أنّ الحاكم نقل هذا الحديث بعد حديث «الكساء» الذي اُشير فيـــه و بشـــكل صريح أنّ أهل بيتي علي و فاطمة و الحسن و الحسين [٥]، و هذا تعبير عميق المعنى.

---

١. صحيح مسلم، ج ١ ص ٣٠٥، ح ٦٥.

٢. تفسير در المنثور، ج ٥ ص ٢١٧.

٣. المصدر السابق.

٤. المصدر السابق.

٥. المستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ١٤٨.

و بعد ذلك ينقل «الحاكم» حديث الثقلين، و بعده حديث «أبي هريرة» أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) نظر إلى علي و الحسن و الحسين و قال: «**أنا حرب لمن حاربكم و سلم لمن سالمكم**»[١].

و نقل محمد بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية، الرواية أعلاه مع اختلاف بسيط عن «موسى بن طلحة» عن أبيه، و يروي برواية أُخرى نفس الحديث عن ابن عباس، و في رواية ثالثة عن «زياد» عن «إبراهيم»، و في رواية رابعة عن «عبد الرحمن بن بشر بن مسعود الأنصاري»[٢].

و نقل البيهقي أيضاً في كتابه المعروف «السنن» روايات متعددة بهذا الصدد حيث إنّ بعضها يوضح تكليف المسلمين في الصلاة و أثناء التشهد، و منها في حديث عن أبي مسعود عقبة بن عمرو،قال:اقبل رجل حتى جلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه و سلم و نحن عنده فقال:يا رسول الله اما السلام عليك فقد عرفناه فكيف نصلي عليك اذا نحن صلينا عليك في صلاتنا صلى الله عليه؟ قال:فصمت رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى احببنا ان الرجل لم يسأله، ثم قال:«**إذا أنتم صليتم علي فقولوا اللّهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد النبي الأُمي وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد**».

ثم ينقل عن «أبي عبد الله الشافعي» أنّه قال: هذا حديث صحيح بذكر الصلاة على النبي (صلى الله عليه و سلم)في الصلوات[٣].

و أورد البيهقي أحاديث متعددة أُخرى بصدد كيفية الصلاة على الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله) بشكل مطلق أو في الصلاة خاصة كما في حديث عن «كعب بن عجرة» عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) أنّه كان يقول في الصلاة: «**اللّهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم و آل إبراهيم و بارك على محمد و آل محمد كما باركت على إبراهيم و آل إبراهيم إنّك حميد مجيد**»[٤].

يتضح من هذا الحديث أنّه حتى الرسول (صلى الله عليه وآله) كان يذكر هذه الصلوات في صلواته.

---

١. المستدرك على الصحيحين ج ٣، ص ١٤٩.

٢. تفسير جامع البيان، ج ٢٢ ص ٣٢.

٣. سنن البيهقي ج ٢ ص ١٤٦ و ١٤٧.

٤. سنن البيهقي ج ٢ ص ١٤٧.

يقول البيهقي في نهاية احدى الروايات التي لم يرد الحديث فيها عن الصلاة:و قوله في الحديث «قد علمنا كيف نسلم» اشارة الى السلام على النبي صلى الله عليه و سلم في التشهد فقوله فكيف نصلي عليك ايضا يكون المراد به في القعود للتشهد[١].

و على هذا الأساس فإنّ المسلمين مأمورون بالصلاة على الرسول (صلى الله عليه وآله) في التشهد أيضاً كما هم مأمورون حسب اعتقاد جميع الفرق الإسلامية بالسلام على الرسول (صلى الله عليه وآله) في التشهد بلفظ: «**السلام عليك أيّها النبي و رحمة الله**».

و بالرغم من أنّه يلاحظ هنا اختلاف بسيط بين المذاهب الأربعة للسنّة، إذ إنّ الشافعيين و الحنبليين يقولون: الصلاة على الرسول (صلى الله عليه وآله) في التشهد الثاني واجبة، في الوقت الذي يقول المالكيون والحنفيون: إنّها سنّة[٢]، إلاّ أنّه و طبقاً للروايات الآنفة فإنّها واجبة على الجميع.

و على أيّة حال فإنّ الكتب التي نقلت فيها الروايات المرتبطة بالصلوات على محمد و آل محمد (صلى الله عليه وآله) (سواء بشكل مطلق أو في خصوص التشهد في الصلاة) أكثر ممّا أوضحناه في هذا الموجز، و ما ذكر هنا كان بمثابة نموذج من هذه الروايات و الكتب، و قد نقل هذه الروايات مجموعة من الصحابة أمثال ابن عباس، و طلحة، و أبي سعيد الخدري، و أبي هريرة، و أبي مسعود الأنصاري، و بريدة، و ابن مسعود، و كعب بن عجرة، و شخص علي (صلى الله عليه وآله).

الملاحظة المحيرة جدّاً أنّ علماء السنّة بالرغم من كل هذه التأكيدات الواردة في روايات الرسول (صلى الله عليه وآله) بشأن إضافة آل محمد تراهم دائماً (باستثناء بعض الموارد النادرة) يحذفون «**آل محمد**» و يقولون **صلى الله عليه و سلم!**.

و الأعجب من ذلك أنّه في كتب الحديث، و حتى في الأبواب التي تنقل فيها الروايات الآنفة بشأن إضافة «آل محمد (صلى الله عليه وآله)» فإنّهم عندما يذكرون اسم الرسول (صلى الله عليه وآله) في طيات هذه الأحاديث يقولون: «صلى الله عليه وسلم»! (بدون إضافة الآل) و لا ندري ما عذرهم بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) في هذه المخالفة الصريحة لأوامره و توجيهاته؟

فمثلاً يكتب البيهقي في عنوان هذا الباب «**باب الصلوة على النبي صلى الله عليه و سلم في التشهد**»**!** و كذا الحال في البعض الآخر من مصادر الحديث المعروفة.

إنّ اختيار هذا العنوان سواء كان من قبل مؤلفي هذه الكتب أو من قبل المحققين التالين لهم، فهو يتناقض مع ماورد في نهايته تناقضاً واضحاً.

---

١. سنن البيهقي ج ٢ ص ١٤٧.

٢. الفقه على المذاهب الأربعة، ج ١، ص ٢٦٦.

و ننهي هذا الموضوع بذكر حديثين آخرين:

١– ينقل ابن حجر في الصواعق أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: «**لا تصلوا علي الصلاة البتراء، فقالوا: و ما الصلاة البتراء؟ قال: تقولون اللّهم صل على محمد و تمسكون، بل قولوا: اللهم صل على محمد و آل محمد**»[1].

يوضح هذا الحديث أنّه حتى كلمة «على» يجب أن لا تفصل بين محمد، و آل محمد و يجب القول: «**اللهم صل على محمد وآل محمد**».

٢– ينقل السمهودي في الاشراف على فضل الاشراف عن ابن مسعود الأنصاري أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: «**من صلى صلاة لم يصل فيها علي و على أهل بيتي لم تقبل**»[2].

و على ما يبدو أنّ الإمام الشافعي في شعره المعروف، أخذ بنظر الاعتبار هذه الرواية يقول:

يا أهل بيت رسول الله حبكم *** فرض من الله في القرآن انزلهُ

كفاكم من عظيم القدر أنّكم *** من لم يصل عليكم لا صلاة لهُ[3]

يا ترى، انّ الذين يمتلكون مثل هذا المقام الذي يجب ذكر أسمائهم إلى جانب اسم النبي(صلى الله عليه وآله)في الصلوة كواجب و فريضة إلهيّة، هل يمكن مساواتهم مع الآخرين.

و هل يبقى مكان لغيرهم للتصدي لمسألة الولاية و الإمامة و خلافة النبي (صلى الله عليه وآله)بوجودهم؟ و أي منصف بوسعه أن يرجّح الآخرين عليهم مع حيازتهم لكل هذه الفضائل و المقام الشامخ؟ ألا توضح كل هذه الادلة مسألة الولاية و الخلافة بشكل مباشر؟ لكم أن تحكموا بأنفسكم.

٢– آية النور و البيوت

نقرأ في الآيات التي تأتي بعد آية النور(اللَّهُ نُورُ السَّموَاتِ وَالارْضِ)، ما يلي: (فِي بُيُوت اَذِنَ اللَّهُ اَنْ تُرفَعَ و يُذْكَرَ فيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيَها بالغُدُوِّ وَ الآصَالِ * رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ و اِقَامِ الصَّلاَةِ و إيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخافُونَ يَوماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَ الاَبصَارُ * لِيَجزِيَهُمُ اللَّهُ اَحسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِن فَضلِهِ وَ اللَّهُ يَرزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيرِ حِسَاب). (النور / ٣٥– ٣٨)

---

١. الصواعق، ١٤٤.

٢. السمهودي في الاشراف، ص ٢٨ طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ١٨، ص ٣١٠.

٣. في كتاب الغدير النفيس ورد أن انتساب هذه الابيات هي للإمام الشافعي عن شرح المواهب للزرقاني ج ٧، ص٧ وجمع آخر.

بعد أن بيّن الله تعالى في الآية ٣٥ من هذه السورة، النور الإلهيّ بمثال دقيق و ظريف و لطيف، ينتقل إلى مكان هذا النور في الآيات التالية.

تأملوا جيداً في التعابير الآنفة الذكر، و لاحظوا ما لهذه البيوت الإلهيّة و حرّاسها من مكانة و عظمة، حسب الوصف و التجسيد الوارد في هذه الآيات، ثم تأملوا الروايات الواردة ادناه:

ينقل السيوطي في تفسير الدر المنثور عن «أنس بن مالك»، و«بريدة» (و هما من صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله)) أنّه عندما تلا رسول الله (صلى الله عليه وآله) هذه الآية، قام رجلٌ، و قال: «**ايُّ بيوت هذه يارسول الله!**».

قال: «**بُيُوتُ الأنبياء!**».

فقام اليه «أبو بكر» فقال يا رسول الله: «**هذا البيت منها لبَيْتُ عليٍّ و فاطمة؟!**».

قال: «**نَعَمْ من أفاضلها** »[1].

و نقل «الحاكم الحسكاني» شبيه هذا المعنى في «شواهد التنزيل» عن «أبي برزة» (رجلٌ آخر من الصحابة) عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله)، دون أن يذكر شخصاً معيّناً، بل هكذا: «**قيل: يا رسول الله أَبيت عليٍّ و فاطمة منه؟ قالَ: مِنْ أفضلها**»[2].

و بعد ذكر هذه الرواية، ينقل الرواية السابقة أيضاً بطريقين عن «أنس بن مالك» و«بريدة »[3].

و من الملفت للنظر أنّ «الآلوسي» في «روح المعاني» و بالرغم من ذكره لجميع فضائل أهل البيت (عليه السلام) دون رغبة منه إلاّ أنّه يضيف هنا بعد أن ينقل الرواية الأُولى عن « أنس بن مالك » و«بريدة»: «**هذا إن صَحّ لا ينبغي العُدول عَنْهُ**»[4]. (وبعبارة أُخرى: إنّه أفضل كلام في تفسير الآية إذ إنّ المراد بذلك بيوت الأنبياء و أفضلها بيت عليّ و فاطمة).

و أورد جمعٌ آخر من كبار علماء السنّة هذه الرواية في كتبهم أيضاً.

و يقيناً فإنّ هذه الروايات، تشمل علياً (عليه السلام) و فاطمة (عليها السلام) و ولديهما الحسن و الحسين(عليهما السلام)و كذا أولاد فاطمة (عليها السلام) من نسل الحسين (عليه السلام) أي الأئمّة المعصومين فإنّهم مشمولون بهذه الآية أيضاً، ذلك أنّهم يواصلوان نفس الطريق ونفس النهج.

---

١. تفسير در المنثور، ج ٥، ص ٥٠.

٢. شواهد التنزيل، ج ١ ص ٥٣٢، ح ٥٦٦.

٣. المصدر السابق، ح ٥٦٧ و ٥٦٨.

٤. تفسير روح المعاني، ج ١٨، ص ١٥٧ نهاية الآية التي نحن بصدده.

نعم، إنّ بيوتهم كبيوت الأنبياء،بل من أفضلها، إنّه بيت يتلألأ منه نور الله دائم، و لا تصل إليه يدُ الشيطان، و يقيناً فإنّ الساكنين في هذا البيت هم من أفضل البشر، و هم كالأنبياء في الفضل و الفضيلة.

٣- الصراط المستقيم

في الآية السادسة من سورة الحمد التي نقرأها ليل نهار في الصلوة نسأل الله تعالى، و نقول:﴿اِهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ الصراط الذي يوصلنا إليك و إلى ما يرضيك، صراطاً غير صراط الذين غضبت عليهم و لا الضالّين.اللّهم اهدنا أيضاً إلى هذا الصراط، و ثبتنا عليه.

بلا شك إنّ مفهوم «**الصراط المستقيم**» مفهوم واسع جدّاً و لذا فسره البعض على أنّه بمعنى «**الإسلام**»، و البعض الآخر فسّره على أنّه «**القرآن**»، و بعض على أنّه « **الرسول** (صلى الله عليه وآله)**و ائمة الحق**» و بعض آخر بمعنى «**دين الله**»، و بعض آخر بمعنى طريق و نهج أنبياء الله، إذ إنّ كلاً من هذه التفاسير بوسعه أن يشكّل جزءً من مفهوم الآية الواسع.

و لكن في العديد من الروايات التي نقلت عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) بطرق مختلفة، وُضِع الاصبع على واحدة من ابرز مصاديق هذه الآية، ذلك أنّ الصراط المستقيم فُسِّرَ بمعنى صراط و طريق علي بن أبي طالب (عليه السلام) أو محمد و آل محمد (صلى الله عليه وآله).

ينقل «الحاكم الحسكاني» في «شواهد التنزيل» عن «جابر بن عبد الله الأنصاري » عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) أنّه قال:

«**اِنّ اللهَ جَعلَ علياً و زوجتَهُ و ابناءَهُ حُجَجَ اللهِ على خلقهِ و هُمْ أبوابُ العِلْمِ في اُمَّتي، مَن اهْتدَى بِهِمْ هُدِيَ إلى صراط مستقيم**»[١].

و ينقل في حديث آخر عن «ابن عباس» عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنّه قال لعلي بن أبي طالب (عليه السلام): «**أنت الطريق الواضحُ و أنت الصِّراطُ المستقيمُ و أنت يعسوبُ المؤمنين!**»[٢].

و ينقل أيضاً في حديث ثالث عن «ابن عباس» أنّه كان يقول في تفسير (اهدنا الصّراط المستقيم): «**قولوا معاشرَ العبادِ: اهدنا إلى حُبِّ النبيِّ و اهلِ بيتهِ** »![٣].

١. شواهد التنزيل، ج ١، ص ٧٦، ح ٨٩.

٢. المصدر السابق، ح ٨٨.

٣. المصدر السابق، ح ٨٧.

و ينقل في الحديث الرابع عن «أبي بريدة» في نهاية هذه الآية أنّه قال: المراد بالصراط محمدٌ و آله» [١].

و قد أورد «العلاّمة الثعلبي» هذا الحديث في تفسيره أيضاً [٢].

و نقله أيضاً «الشيخ عبيد الله الحنفي» في كتاب «ارجح المطالب» عن «أبي هريرة » [٣].

و ينقل في الحديث الخامس الوارد في «شواهد التتريل» عن «عبد الرحمن بن زيد» عن أبيه أنّه قال في تفسير آية﴿صِرَاطَ الَّذِينَ اَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾: « **هو النبيُّ و من مَعَهُ و عَليُّ بنُ اَبي طالب و شيعَتُه** » [٤].

و قد وردت روايات متعددة بهذا الشأن أيضاً في مصادر الشيعة و اتباع مذهب أهل البيت (عليهم السلام)، و منها أنّه ورد في رواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير الآية: ﴿صراط الَّذِينَ اَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾ أنّه قال:«**يعني محمداً و ذرِّيَتَهُ** صلوات الله عليهم» [٥].

و بناءً على ذلك فإنّ أبرز و أوضح مصاديق الصراط المستقيم هو صراط النبي(ص) و عليٍّ (ع) و أولاده المعصومين من نسل فاطمة الزهراء (س)، من اهتدى بهم و سار على نهجهم، هُدي إلى صراط مستقيم يقرّبه إلى الله تعالى، و يبعده عن الضلالة و الانحراف.

٤- وسيلة القبول لتوبة آدم (عليه السلام)

جاء في القرآن الكريم أنّ آدم (عليه السلام) بعد «ترك الأولى» تلقّى كلمات من ربّه، و تاب بهن، و قبل الله توبته ذلك أنّ الله توابٌ رحيم و هو قوله تعالى (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَات فَتَابَ عَليهِ اِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ). (البقرة / ٣٧)

فما هي هذه الكلمات التي أوحاها الله تعالى لآدم كي يتوب بهن؟ هناك جدال بين المفسّرين، إذ يرى البعض منهم أنّ ذلك يعد إشارةً لما جاء في الآية: (قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا اَنْفُسَنَا وَ اِنْ لَم تَغفِر لَنا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ). (الأعراف / ٢٣)

و يرى البعض الآخر أنّ ذلك إشارة للأدعية الاُخرى، و منها دعاء يونس أثناء مكثه في بطن الحوت، أي جملة: (سُبحَانَكَ اِنِّي كُنْتُ من الظَّالِمينَ).

---

١. شواهد التتريل، ج ١، ص ٧٤، ح ٨٦.

٢. تفسير الثعلبي بناءً على نقل كفاية الخصام، ص٣٤٥.

٣. أرجح المطالب، ص ٨٥.

٤. شواهد التتريل، ج ١، ص ٨٥، ح ١٠٥.

٥. تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٣، ح ١١٠١ (للمزيد من الاطلاع على هذه الأحاديث يرجى مراجعة تفسير نور الثقلين و البرهان).

و لكن جاء في الروايات المتعددة التي نقلت عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) أو عن الصحابة، أنّ تلك الكلمات كانت القسم على الله بحق محمد و عليٍّ و فاطمة و الحسن و الحسين (عليهم السلام).

ينقل السيوطي في «الدر المنثور» عن «ابن عباس» قال:سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربّه فتاب عليه، قال: «**سأل بحق محمد و علي و فاطمة و الحسن و الحسين إلاّ تُبت عليَّ، فتاب عليه**»[١].

و ينقل أيضاً في ذلك الكتاب عن عليٍّ (عليه السلام) قال:سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، فقال: ان الله اهبط آدم... حتى بعث الله اليه جبريل و قال يا آدم...فعليك بهؤلاء الكلمات فان الله قابل توبتك و غافر ذنبك، قل: «**اللهم إنّي أسألك بحق محمد و آلِ محمد، سبحانك لا إله إلاّ أنت عملتُ سوءً و ظلمتُ نفسي فَاغْفِرْ لِي إنّكَ أنتَ الغفورُ الرحيم، اللهم إنّي أسأَلُكَ بحق محمد و آلِ محمد سبحانك لا إله إلاّ أنت عملتُ سوءً وظَلمتُ نفسي فَتُبْ عليَّ إنَّكَ أنت التّوابُ الرحيم** » فهؤلاءِ الكلمات التي تلقّى آدَمُ. [٢].

يُعلَمُ جيداً من هذه الروايات أنّه لا منافاة بين هذه التفاسير الثلاثة، و كل هذه الكلمات كانت مجموعة في دعاء آدم (عليه السلام).

و نقل «ابن المغازلي» في مناقبه نفس هذا المعنى عن «سعيد بن جبير» عن «ابن عباس» أنّه سأل الرسول (صلى الله عليه وآله) بشأن الكلمات التي تلقاها آدم من ربّه فتاب عليه، فقال الرسول (صلى الله عليه وآله): «**سَأَلَهُ بِحَقِّ محمد و علي و فاطِمةَ و الحسن و الحسينِ إلاّ ما تُبْتَ عليَّ فتابَ عليهِ**»[٣].

و نقل «العلاّمة القندوزي» هذا الحديث أيضاً في «ينابيع المودّة»، و البيهقي في «دلائل النبوّة»، و «البدخشي» في «مفتاح النّجاح»، و«عبد الله الشافعي» في «المناقب»[٤].

و بالرغم من أنّ الكثير من الكتب، انهت سند هذا الحديث بـــ «ابن عباس»، إلاّ أنّ الراوية لا تنحصر بـــ «ابن عباس»، ذلك أنّه ينقل نفس هذا المعنى في «الدر المنثور» عن الديلمي في «مسند الفردوس» بسند ينتهي بـــ عليٍّ (عليه السلام)،كما تقدم آنفاً[٥].

---

١. تفسير در المنثور، ج ١، ص ٦٠.

٢. المصدر السابق.

٣. مناقب ابن المغازلي، طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ٩ ص ١٠٢.

٤. المصدر السابق.

٥. تفسير در المنثور، ج ١، ص ٦٠ (مع الاختصار).

و نقل هذا المعنى في مصادر أهل البيت (عليهم السلام) و مصادر السنّة عن الإمام الصادق (عليه السلام)أيضاً، و رواياته متعددة و طرقهُ متنوعة [١].

لا ينبغي الاستهانة بهذه الفضيلة السامية، والمرور بهذا الحديث مروراً عابراً، إذ إنّ آدم (عليه السلام) عندما يريد أن يتوب من تركه الأولى (و هذا أول ترك للأولى) يؤمرُ من قبل الله أن يسأَلَهُ بحق محمد و آل محمد (صلى الله عليه وآله)، أو بحق محمد و عليٍّ و فاطمة و الحسن و الحسين(عليهم السلام)، كي يقبل توبته لاسيّما و أنّ هذا المعنى لم يرد بشأن أحد سواهم، و هو مقام رفيع مختصٌ بهم، و هذا دليل العظمة الفائقة للخمسة الطيبة و للرسول و أهل بيته و الأئمّة المعصومين (عليهم السلام).

و على هذا كيف يمكن القول بوجود مَن هو أفضل و أليق منهم للولاية و خلافة الرسول (صلى الله عليه وآله)، و كيف يمكن ترجيح سواهم عليهم؟

و بالرغم من وجود مثل هذه الأسانيد، أَمِنَ العجب ياترى أن تبقى الإمامة في نسل الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى يوم القيامة؟!

٥- أفضل الحسنات

﴿مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئذ آمِنُونَ ﴾. (النمل / ٨٩)

للحسنة هنا، مفهوم واسع بأنّها تشمل جميع الحسنات، والاية المباركة تبشّر أن مَن يأتي بحسنة، فله خيرٌ منها، و أحد آثارها المهمّة الأمان من خوفٍ و فزعٍ يوم المحشر و هو أعظم الفزع.

و لكن ورد في بعض الروايات أنّ محبّة أهل بيت النبي(صلى الله عليه وآله) تعتبر واحدة من أهم و أبرز مصاديق الحسنة في هذه الآية، و تبيّن أنّ هذه المحبّة تعد من أفضل وسائل الأمان في يوم المعاد.

و نقلت عدّة روايات في «شواهد التنزيل» في نهاية هذه الآية بهذا المعنى، أنّ المراد من «**الحسنة**» في الآية أعلاه محبّة أهل البيت(عليهم السلام).

و منها أنّه يُنقل عن «أبي عبد الله الجدلي» عن عليٍّ (عليه السلام) أنّه قال له: «ألا أُخبرك بقول الله تعالى: (مَن جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا– إلى قوله– تعملون)؟ قال: بلى جُعلت فداك. قال: «**الحسنة حبّنا أهل البيت و السيئة بغضنا**»، ثم قرأ الآية»[٢].

١. تفسير البرهان، ج ١، ص ٨٦; تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٧ فما فوق; بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٣١٩ فما فوق.

٢. شواهد التنزيل، ج ١، ص ٥٤٨، ح ٥٨١.

و نقل نفس هذا المعنى في الحديثين ٥٨٢، و٥٨٧ مع هذا الفارق أنّه جاء في نهاية الحديث الثالث: **«ألا أُخبركَ بالسيئةِ التي مَن جاء بها أَكَبَّهُ اللهُ على وجهِهِ في نارِ جهنَّمَ،{هي} بُغْضنا أهل البيتِ »!** ثم تلا أمير المؤمنين: (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ)[1]. (النمل / ٩٠)

و يُنقل في حديث آخر عن «أبي امامة الباهلي»[2] أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: **«إنَ اللهَ خلق الأنبياء من شجر شتّى و خلقني و علياً من شجرة واحدة فانا أصلها و عليٌّ فرعها، و الحسنُ و الحسينُ ثمارها، و اشياعنا اوراقُها، فمَن تعلقَ بغُصْن من أغصانها نجا، و مَنْ زاغَ هوى، وَ لَو أنّ عابداً عَبَد اللهَ الفَ عام، ثم الف عام، ثم ألف عام ثم لم يدرك محبّتنا اهل البيت اكَبَّهُ اللهُ على مِنْخرَيْهِ في النار!»**[3].

و ينقل العلاّمة القندوزي أيضاً مضمون الحديث الأول عن عليٍّ (عليه السلام) و يختم الحديث أنّه قال: **«الحسنَةُ حبّنا و السَّيئَةُ بغضنا»**[4].

و ينقل عن «ابن كثير» عن الإمام الصادق (عليه السلام) في ذلك الكتاب نفسه أنّه قال في قوله تعالى: (مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشرُ اَمثَالَهَا)، **هي للمسلمين عامة و اما الحسنة التي من جاء بها فله خير منها و هم من فزع يومئذ آمنون فهي ولايتنا وحبّنا »**.

و بالرغم من أنّ طائفة من المفسرين و أرباب الحديث لم يوردوا مودة أهل البيت (عليهم السلام) على أنّها حسنة كبيرة في نهاية الآية، إلاّ أنّهم نقلوا هذا المضمون في الآية: (وَ مَنْ يَقتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسناً). (الشورى / ٢٣)

و من جملة هؤلاء«السيوطي» إذ نقل في «الدر المنثور» عن «ابن أبي حاتم» عن « ابن عباس» أنّه قال في تفسير هذه الآية: **«المودَّةُ لآلِ محمَّد»**[5].

---

١. المصدر السابق، ص ٥٥٢، ح ٥٨٧.

٢. أبو امامة الباهلي كان من أصحاب الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله)، و ذكروا أنّ وفاته كانت سنة ٨١، وهو آخر مَن توفي في الشام (اسد الغابة، في مادة صَدَيَهْ)، و لكن في كتاب الكنى والالقاب ذكروا أنّ وفاته كانت سنة ٨٦ واسمه صُدَي على وزن رُجَيل، وكان من جملة الذين جعل عليهم معاوية العيون لئلا يذهب إلى عليٍّ (عليه السلام).

٣. شواهد التنزيل، ج ١ ص ٥٥٣، ح ٥٨٨.

٤. ينابيع المودّة، ص ٩٨.

٥. تفسير الدر المنثور، ج ٦، ص ٧.

و يقول «الآلوسي» في «روح المعاني» في نهاية هذه الآية ٢٣ من سورة الشورى، بعد أن ذكر الاقوال:وقيل المراد بالحسنة المودة في قربى الرسول صلى الله عليه و سلم و روي ذلك عن ابن عباس و السدي... و حب آل الرسول عليه الصلاة و السلام من اعظم الحسنات[١].

و هناك أحاديث اُخرى شبيهة بالأحاديث السابقة وردت في كتب اُخرى، لو أردنا ذكرها لطال بنا المقام.

و نختم هذا البحث بحديث ورد بشأن محبّة أهل البيت (عليهم السلام) (وإن لم يرد في هذه الآية):

نقل «الشبلنجي» حديثاً عن الرسول (صلى الله عليه وآله)، في كتاب «نور الأبصار» و صرّح بأنّه حديث صحيح، و قد ورد ضمن الحديث أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) قال: «**واللهِ لا يدخُلُ قَلب رجل، الإيمان حتى يحبَّهُم (اهلَ بَيتي) لِقرابتهِم مِنّي**»[٢].

و هذه الملاحظة أيضاً لها أهميتها، إذ إنّ المحبّة العادية و المألوفة لا يسعها اِطلاقاً أن تصبح وسيلةً للنجاة من فزع يوم القيامة، أو أن تكون شرطاً من شروط الإيمان، إنّ هذه التعابير توضح بشكل جليّ أنّ محبّة أهل البيت إنّما هي إشارة لمسألة الولاية و الإمامة الهامة لبناء الدين، إذ تعد سبب بقاء الدين و استمرارية خط النبوّة و حفظ الإيمان.

و من مجموع ما ورد بنحو الإشارة في الآيات السابقة، و ما ورد بشكل صريح في الروايات الواردة في تفسير تلك الآيات، تتّضح لنا هذه المسألة، و هي: إنّ آل محمد (صلى الله عليه وآله) و أهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله) خاصةً علي و فاطمة و الحسن و الحسين (عليهم السلام) يحظون بمقام رفيع جداً و ذلك لأنّهم:

أولئك الذين تعد محبتهم اَجراً على الرسالة.

من لم يصلّ و يسلّم عليهم لا صلاة له.

تعد مترلتهم بمثابة الصراط المستقيم.

إنّ آدم (عليه السلام) ومن أجل الفكاك من غضب الله تعالى عليه بسبب «تركه الأولى» أقسم بأسمائهم على الله تعالى و تاب لكي تقبل توبته!

و أخيراً فإنّ مودتهم حسنة تنقذ كل مؤمن من خوف و فزع يوم القيامة.

نعم، إنَّ الذين يتصفون بهذه الصفات الحميدة، و يحظون بهذا المقام الشامخ كما ورد في

١. تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ٣١.

٢. نور الأبصار، ص ١٢٦.

الروايات المعروفة للسنّة و المصادر المشهورة لأهل البيت، لا يمكن أن يجاريهم الآخـــرون اطلاقـــاً، و بالنتيجة لا يمكن المتابعة لغيرهم مع وجودهم، و يقيناً فإنّ هذه المحبّة و المودةَ تعد مقدمةً لمسألة الولاية و القيادة و التي بدورها تعد استمراراً لخط قيادة الرسول (صلى الله عليه وآله).

و هؤلاء هم الذين ذكروا في الروايات المتواترة لحديث الثقلين و أصبحوا إلى جوار القـــرآن الكـــريم يمثلون أحد الثقلين، و اصبح الاثنان يمثلان وسيلتي النجاة من الضلال، الوسيلتين اللـــتين ســـتبقيان قائمتين في الأُمّة الإسلامية حتى قيام الساعة، و لابدّ للمسلمين أن يلجأوا إليهما.

و الذين عُرفوا بأنّهم سفينة النجاة، و نجوم الهداية الساطعة هم خير البريّة و أفضـــل النـــاس، هـــذه الأوصاف التي وردت في أغلب المصادر المعروفة و المشهورة لكلا الفريقين.

نعم، إنّنا نعتقد بأنّ الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) و تأكيداً على الإشارات الواردة في آيـــات القرآن الكريم بهذا الشأن أتمّ الحجة بحديثه على جميع المسلمين، و بقي على المسلمين أن يختاروا سبيل نجاتهم بعيداً عن مشاعر التعصب و الأحكام المسبقة، فيلجأوا إلى آل محمد (صلى الله عليـــه وآلـــه) ليصلوا من خلال هدايتهم و قيادتهم إلى السعادة و الأمان، و الذين لا يعتنون بكل هذه الإشارات و التصريحات المستندة إلى هذا الكم من الوثائق المعتبرة أو يبررون و يؤوّلون و يفسّرون بالرأي، عليهم أن يجيبوا عن أعمالهم هذه.

التصريح باسماء أئمّة أهل البيت(عليهم السلام):

هذه الملاحظة جديرة أيضاً بأن تذكر و هي انّ في البعض من الروايات الواردة في مصـــادر الســـنّة ذكرت أسماء الأئمّة الاثني عشر بشكل كامل أيضاً، أي أنّه بعد ذكر عليٍّ (عليه السلام) ورد اســـم الإمام الحسن (عليه السلام) ثم الإمام الحسين (عليه السلام) ثم الإمام علي بن الحسين (عليه الســـلام) ثم الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) و بعده جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام)، ثم موســـى بن جعفر الكاظم(عليه السلام)، ثم علي بن موسى الرضا(عليه السلام)، ثم محمد بن علـــي الجـــواد التقي(عليه السلام)، و بعده علي بن محمد الهادي النقي(عليـــه الســـلام)، ثم الحســـن بـــن علـــي العسكري(عليه السلام)، ثم محمد بن الحسن المهدي (عليه السلام)!

و من هؤلاء الذين ذكروهم «سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي» إذ نقل في كتاب «**ينابيع المودّة** » حديثين بهذا الشأن:

الحديث الأول: ينقله عن «فرائد السمطين» بسند ينتهي بابن عباس أن يهودياً جـــاء إلى الرســـول (صلى الله عليه وآله) و سأل أسئلة متعددة حول الإسلام و التعاليم الإسلامية، و من جملة أسئلته أنّه قال: أخبرني عن وصيك مَن هو؟ فما من نبي إلاّ و له وصي، و انّ نبيّنا موسى بن عمران أوصى إلى

يوشع بن نون، فقال (صلى الله عليه وآله): إنّ وصيي علي بن أبي طالب، و بعده سبطاي الحسن و الحسين، تتلوه تسعة أئمّة من صلب الحسين [١].

الحديث الثاني: و ينقل في حديث آخر عن «المناقب» عن جابر بن عبد الله الأنصاري قصّة مشابهة لهذه القصة أيضاً، وردت فيها أسماء الأئمّة الاثنا عشر واحداً بعد الآخر بشكل صريح، و قد أشرنا إلى كلا الحديثين بنحو الاختصار خشية الاطالة[٢].

و يجب أن لا ننسى بأننا نقلنا روايات كثيرة في السابق لها دلالة على الأئمّة الاثنا عشر بنحو الإجمال، و متى ما عاودتم الرجوع إلى ذلك البحث، و أخذتم بنظر الاعتبار تلك الروايات المعتبرة و المشهورة المنقولة عن طرق السنّة و الشيعة ستلاحظون بأنّه لم يطرح أي تفسير صحيح و جدير بالملاحظة بشأن الأئمّة الاثني عشر (أو الخلفاء والأمراء الاثني عشر) سوى ما نقله الشيعة، و بقي الجميع متحيرين في تفسير عدد الاثني عشر بشأن خلفاء الرسول (صلى الله عليه وآله).

إنّ هذه الروايات المنقولة في أكثر مصادر الحديث اعتباراً، على درجة من القوة بحيث أنّها غير قابلة للانكار، و التفسير الصحيح و الوحيد لهذه المسألة هو التفسير الذي ذكره «الإمامية».

نأمل أن يأتي اليوم الذي ندع فيه أحكامنا المسبقة جانباً، و نشرع بانجاز بحث جديد و مستقل في هذه الروايات و الآيات القرآنية بشأن الإمامة و خلافة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، لعل ذلك يؤدي إلى فتح آفاق جديدة امام الجميع.

---

١. ينابيع المودة، ص ٤٤٠، الباب ٧٦.

٢. المصدر السابق، ص ٤٤٢، الباب ٧٦.

الخلاصة

١- إن الايات التي نزلت في علي(ع) تشمل بمفهومها سائر أئمة اهل البيت(ع) كآية التطهير و آية القربى خصوصا إنه ورد في بعض الروايات التصريح بذرية علي و فاطمة(ع).

٢- إن آية اولي الامر تدل على وجوب طاعة اولي الامر في كل زمان فلا بد ان يكون في كل زمان مصداقا للاية و مثلها آية (كونوا مع الصادقين) حيث يلزم كون امام معصوم في كل زمان.

٣- ﴿انَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ هذه الاية رسمت المقام الاسمى لرسول الله(ص) حيث تبين ان الله و ملائكته يصلون على رسول الله (ص).

٤- اذا ضممنا الى الاية المباركة قوله(ص) بكون الصلاة عليه و اله معا، تتضح دلالة الاية على فضلهم و أنهم مشمولون لصلوات الله و الملائكة المقربين.

٥- روى في صحيح مسلم عنه(ص):«قولوا اللّهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على آل إبراهيم، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد»

٦- ﴿في بُيُوت اَذِنَ اللَّهُ اَنْ تُرفَعَ ويُذْكَرَ فيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيَها بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ رويت احاديث كثيرة عن النبي تذكر بيت علي كمصداق للاية.

٧- لا شك أن سائر الائمة المعصومين تشملهم الاية لأنهم على نفس النهج و يتحلون بنفس الفضائل.

٨- وردت اخبار كثيرة تفسر الصراط المستقيم بعلي (ع) و ذلك من باب بيان المصداق البارز للآية.

٩- وردت اخبار كثيرة تبين ان آدم لما ترك الاولى و تاب الى ربه «سأل بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلاّ تُبت عليَّ، فتاب عليه».

١٠- توسل آدم بهؤلاء الخمسة يستدعي التأمل حيث إنه يؤمر من قبل الله تعالى أن يدعو الله بهذه الكلمات ليتوب عليه و هذا فضل لا يشاركهم فيه احد،و معه فكيف يكون غيرهم اولى بالخلافة؟.

١١- نقلت عدة روايات في ذيل قوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر منها بأن الحسنة حب أهل البيت و السيئة بغضهم.

١٢- من الواضح أن المحبة العادية لا تكون سببا لنجاة الانسان و إنما محبة تتبعها الطاعة و الاعتقاد بولايتهم.

١٣- توجد اخبار في كتب السنة تصرح بالائمة الاثني عشر فبعضها تذكر العدد و بعضها تذكر اسمائهم و لو اردنا ان نطبق حديث الائمة الاثني عشر لا يوجد له تطبيق غير ما تذهب اليه الشيعة.

بسمه تعالى

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٢٨

الإمام المهدي(عليه السلام)

بكالوريوس

المقدمة

من المفاهيم التي تستحق الدراسة على ضوء كتاب الله هي العقيدة المهدوية، ما هي جذور هذه العقيدة في الايات القرآنية و هل هناك إشارات او تصريحات في الكتاب العزيز تؤكد أن العالم سوف يخضع لحكم الهي عادل و شامل تحت راية الاسلام؟ من سيكون القائد و الزعيم لتلك الحكومة العالمية؟ هل قضية المهدي تشكل جزءا هاما في عقيدة الانسان المسلم؟ هذه المحاور سوف نتناولها في هذه الدرس إن شاء الله تعالى.

المحتوى العلمي

الإمام المهدى(عليه السلام)

تمهيد:

على العكس مما يتصوره بعض الجهلة فإنّ الاعتقاد بقيام المهدي (عليه السلام) وحكومته العالمية، لا يختص فقط بالشيعة واتباع مذهب أهل البيت (عليهم السلام)، بل إنّ جميع الفرق الإسلامية دون استثناء يعتقدون بظهور رجل من ذرية الرسول في آخر الزمان يسمى المهدي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، ونقلوا رواية هذا الموضوع في كتبهم عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله).

وقد كُتبت مصنفات كثيرة وذكرت روايات عديدة في هذا الصدد على أيدي علماء السنّة والشيعة سنشير إلى بعض منها في الأبحاث القادمة.

هذه الروايات من الروايات المتواترة والقطعية وأيّدها جميع المحققين من الإسلاميين- بصرف النظر عن مذاهبهم الخاصة، باستثناء عدد محدود مثل «ابن خلدون»، و«أحمد أمين المصري» اللذان شككا في صدور هذه الروايات عن الرسول (صلى الله عليه وآله)، وبين ايدينا مجموعة من القرآئن الدالة على أنّ الباعث الذي حملهم على هذا السلوك لم يكن ضعف الروايات، بل لعلهم كانوا يتصورون بأنّ الروايات المتعلقة بظهور المهدي تنطوي على الخارق من العادات بحيث لا يسعهم تصديقها بسهولة.

هذا في الوقت الذي وافقت على ذلك أكثر الفرق الإسلامية تعصباً لاسيما الوهابيون، واعترفوا بتواتر أحاديثه.

والشاهد على هذا الادّعاء بيان صدر قبل عدّة سنوات من قبل **رابطة العالم الإسلامي** الواقعة بشدة تحت نفوذ الوهابيين وحكومة آل سعود، جواباً على سؤال موجه لهم بشأن ظهور الإمام المهدي (عليه السلام).

وكان هذا البيان بمثابة جواب لأحد أهالي (**كينيا**) باسم «**أبو محمد**» وبتوقيع الامين العام «لرابطة العالم الإسلامي» «**محمد صالح القزاز**»، وقد ورد في هذا البيان مايلي:

انَّ «ابن تيمية» مؤسس مذهب الوهابيين يؤيد الأحاديث المتعلقة بالمهدي (عليه السلام). وقد تطرق البيان بعد ذلك إلى الرسالة التي اعدها خمسة من علماء الحجاز المعروفين في هذا الشأن: ونقرأ في مقطع من هذه الرسالة:

عندما يظهر الفساد في العالم وينتشر الكفر والظلم، سوف يملأ الله تعالى العالم عدلاً بـ (المهدي) كما مليء ظلماً وجوراً، وأنه آخر الخلفاء الراشدين الاثنى عشر الذين أخبر عنهم النبي (صلى الله عليه وآله) في كتب الصحاح المعتبرة...الاحاديث المتعلقة بالمهدي نقلها عدة من اصحاب النبي صلى الله عليه و سلم منهم: عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، طلحة بن عبيد الله، عبد الرحمن بن عوف، عبد الله بن عباس، عمار بن ياسر، عبد الله بن مسعود، أبو سعيد الخدري، ثوبان، قرة بن اياس المزني، عبد الله بن الحارث، أبو هريرة، حذيفة بن اليمان، جابر بن عبد الله الأنصاري، أبو امامة، جابر بن ماجد، عبد الله بن عمر، أنس بن مالك، عمران بن الحصين، و اُم سلمة.

فهؤلاء عشرون راوياً صحابياً رووا عن النبي في المهدي و غيرهم كثير ايضاً و هناك احاديث كثيرة عن الصحابة انفسهم ورد فيها الكلام عن ظهور المهدي و يمكن ان تضاف هذه الروايات الى الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم،لان ذلك اي الكلام في المهدي لم يكن مسألة اجتهادية ليمكن الاجتهاد فيها فبناء على ذلك فإن الصحابة قد سمعوا هذا الموضوع من النبي صلى الله عليه و سلم.

ثم تضيف الرسالة: إنّ الاحاديث آنفة الذكر المروية عن النبي صلى الله عليه و سلم مذكورة في كتب الحديث و الكتب الاسلامية الاخرى سواء منها السنن او المعاجم او المسانيد و كذلك شهادات الصحابة و اقوالهم التي هي بمثابة الحديث ايضا و من الكتب التي وردت فيها الاحاديث في المهدي او اقوال الصحابة هي (سنن أبي داود و سنن الترمذي و ابن ماجة و ابن عمرو الداني و مسند أحمد، وابو يعلي و البزاز و صحيح الحاكم، و معجما الطبراني الكبير و المتوسط و الروياني و الدارقطني، و أبو نعيم، في اخبار المهدي و الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد و ابن عساكر في تاريخ دمشق و غيرها).

وتضيف الرسالة: إن بعض العلماء المسلمين كتبوا في هذا الشأن كتبا خاصة منهم (أبو نعيم الاصفهاني) في أخبار المهدي و(ابن حجر الهيثمي) في القول المختصر في علامات المهدي المنتظر و الشوكاني في التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر و الدجال و المسيح و ادريس العراقي المغربي في كتاب المهدي و أبو العباس ابن عبد المؤمن المغربي في كتاب الوهم المكنون في الرد على ابن خلدون...

ثم تضيف الرسالة ايضاً: إن جماعة من علماء الاسلام قديماً و حديثاً صرحوا في كتبهم أنّ الأحاديث الواردة في المهدي تقرب من التواتر ولا يمكن انكارها بأي وجه و منهم (**السخاوي**) في فتح المغيث و محمد بن الحسن السفاويني في شرح العقيدة ، و أبو الحسن الابري في مناقب الشافعي، و ابن تيميه في فتاواه، و السيوطي في الحاوي، و ادريس العراقي في كتابه المهدي، و الشوكاني في كتاب التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر، و محمد جعفر الكناني في نظم التناثر و ابوالعباس بن عبد المؤمن في الوهم المكنون...

وتختم الرسالة بالقول بان ابن خلدون وحده انكر الأحاديث في المهدي و عدها واهية لا اساس لها و انها عارية من الصحة اذ قال لا مهدي الا عيسى الا ان علماء الاسلام و رجاله ردوا على مقالته و خاصة ابوالعباس بن عبدالمؤمن في كتابه الوهم المكنون في الرد على بن خلدون...ويقول حفاظ الاحاديث و العلماء الكبار بصراحة ان الاحاديث في المهدي تشتمل على الصحيح و الحسن و مجموعها متواتر فبناءً على ذلك فالاعتقاد بظهور المهدي واجب على كل مسلم، ويعد هذا من عقائد أهل السنّة و الجماعة، و لا ينكر ذلك إلاالجهلة أو المبتدعون) [١].

و من الضروري أيضاً الإشارة إلى هذا المطلب، أنّه حسب اعتقاد طائفة من المحققين، فإنّ الاعتقاد بوجود المهدي لا يقتصر على المسلمين فقط، بل إنّ سائر اتباع المذاهب الأُخرى أيضاً في انتظار مصلح كبير لهذا العالم، و قد اُشير إلى هذا المعنى في مصادرهم المختلفة، و للتعرف على الشرح الوافي لهذا الموضوع لابدّ من مطالعة الكتب المصنّفة بشأن ظهور المهدي [٢].

و الآن ننتقل إلى الآيات التي تشير إلى هذا الظهور الكبير:

١- حكومة الصالحين فى الأرض

نقرأ في قوله تعالى: ﴿ وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذّكرِ اَنَّ الاَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصّالِحُونَ * اِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغَاً لّقَوم عَابِدِينَ ﴾. (الأنبياء / ١٠٥– ١٠٦) تأتي هذه الآيات بعد الآيات التي تبيّن الأجر الأُخروي للصالحين، و في الواقع فانها تكشف عن الاجر الدنيوي لهم، و هو أجرٌ مهمٌ جداً، ذلك أنّه يهييء أرضية السعادة و تطبيق أحكام الله تعالى، و صلاح و نجاة المجتمع الإنساني و مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «**الأرض**» بمعناها المطلق تشمل كل الكرة الأرضية، و جميع أنحاء العالم (إلاّ

١. من الرسالة المؤرخة في ٢١ مايو ١٩٧٦ التي جاءت بتوقيع مدير المجمع الفقهي الإسلامي محمد المنتصر الكناني، و هي الرسالة التي جاءت نتيجة مباحثة المذكور مع أربعة أشخاص آخرين من فقهاء الحجاز المعروفين و هم، الشيخ صالح بن عثيمين، والشيخ أحمد محمد جمال، والشيخ أحمد علي، والشيخ عبد الله الخياط.

٢. بإمكانكم مراجعة كتاب ثورة المهدي العالمية بهذا الشأن.

إذا كانت هناك قرينة خاصة)، فإنّ هذه الآية تعدّ بشارةً بخصوص **الحكومة العالمية للصالحين**، و إذ لم يتحقق هذا المعنى في الماضي، فلابدّ من انتظار تحققه في المستقبل، و هذا هو نفس الشيء الذي نتوخاه تحت عنوان «الحكومة العالمية للمهدي ».

و هذه الملاحظة جديرة بالاهتمام أيضاً إذ تقول الآية بأنه قد كتبنا هذا الوعد في كتب الأنبياء السابقين أيضاً، و هذه إشارة إلى أنّ هذا الوعد ليس وعداً جديداً، بل إنّه امرٌ متجذر ورد في المذاهب الأُخرى أيضاً.

و المراد بـ «**الزبور**» على الأقوى نفس «زبور داود»، و هو عبارة عن مجموعة من المناجاة، و الأدعية، و نصائح داود النبي المذكورة في كتب العهد القديم (الكتب الملحقة بالتوراة) باسم «مزامير داود».

و اللطيف أنّه بالرغم من كل التحريفات التي طالت كتب العهد القديم بمرور الزمان فإنّ هذه البشارة الكبيرة يمكن ملاحظتها بشكل واضح في نفس هذا الكتاب أي «مزامير داود».

و نقرأ في المزمور / ٣٧: (... لأن عاملي الشر يقطعون و الذين ينتظرون الرب يرثون الارض بعد قليل لا يكون الشرير تطلع على مكانه فلا يكون اما الودعاء فيرثون الارض و يتلذذون في كثرة السلامة).

و ورد المعنى نفسه أيضاً بالعبارة التالية: (لأنّ مباركين منه يرثون الأرض، و الملعونين منه يقطعون).

وجاء ايضاً: (الصديقون يرثون الارض ويسكنونها الى الأبد).

ومن الواضح أن التعابير السابقة من قبيل «**الصديقون**»، «**الذين ينتظرون**»، «**المتبركون**» إشارة لعبارة «**عبادي الصالحون**» التي وردت في القرآن الكريم.

و المراد من «الذكر» في الآية الآنفة،حسب اعتقاد الكثير من المفسرين التوراة، و تشهد على ذلك الآية: ﴿وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَ هَارُونَ الفُرقَانَ وَ ضِياءً وَ ذِكرى لِلمُتَّقِينَ ﴾. (الأنبياء / ٤٨)

و احتمل البعض الآخر أنّ المراد من «**الذكر**»، «**القرآن**»، و جميع كتب الأنبياء السابقين من «**الزبور**»، (و بناء على ذلك فإنّ معنى الآية يصبح بهذا الشكل: لقد كتبنا هذه البشارة في جميع كتب الأنبياء السابقين بالاضافة «للقرآن») و على أيّة حال فإنّ هذه البشارة قد جاءت أيضاً في قسم من ملحقات التوراة مثل كتاب «النبي اشعياء» كما نقرأ ذلك في الاصحاح الحادي عشر من هذا الكتاب:

«بل يقضي بالعدل للمساكين و يحكم بالانصاف لبائسي الارض و يضرب الارض بقضيب فمه و يميت المنافق بنفخة شفتيه و يكون البر منطقة متنيه و المانة منطقة حقويه فيسكن الذئب مع الخروف

و يربض النمر مع الجدي و العجل و الشبل و المسمن معا و صبي صغير يسوقها...لأن الارض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر).

كما تلاحظ مثل هذه الإشارات في كتاب التوراة نفسه أيضاً من جملتها: سفر التكوين- الاصحاح / ١٣: (وقال الرب لأبرام... جميع الارض التي انت ترى لك اعطيها و لنسلك الى الابد و اجعل نسلك كتراب الارض حتى اذا استطاع احد ان يعدّ تراب الارض فنسلك ايضاً يعدّ).

وجاء في الاصحاح/ ١٧ الجملة / ٢٠: (و أما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه و أثمره و أكثره كثيراً جداً اثني عشر رئيساً يلد و أجعله أمة كبيرة).

و في الاصحاح / ١٨ الجملة / ١٨: (و إبراهيم يكون أمة كبيرة و قوية و يتبارك به جميع أمم الارض).

و هناك تعابير و اشارات اُخرى من هذا القبيل لو اردنا ذكرها لطال بنا المقام.

لقد وردت هذه المسألة بشكل صريح في الروايات الإسلامية أيضاً بالإضافة إلى الإشارات الواضحة لمسألة قيام المهدي (عليه السلام) في الآية السابقة، و منها أنّ المرحوم « الطبرسي» في «مجمع البيان» نقل عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: «**هم أصحابُ المهديِّ في آخر الزَّمانِ**».

و جاء في تفسير القمي عند قوله تعالى:أن الارض يرثها عبادي الصالحون «**قال: القائمُ وَ اَصحابُه**».

ليس من شك في أنّه من الممكن أن يقيم عباد الله الصالحون حكومة على جزء من الأرض، كما حصل في عصر رسول الله (صلى الله عليه وآله) و بعض الأعصار الاُخرى، إلاّ أنّ استقرار الحكومة بأيدي الصالحين على وجه الأرض كلها ستحصل في عصر المهدي (عليه السلام) فقط، و هناك روايات كثيرة بلغت حد التواتر، و قد وردت عن طرق السنّة و الشيعة.

كما أنَّ «الشيخ منصور علي ناصف» مؤلف كتاب «التاج الجامع للاصول» و هو كتاب يضم الاُصول الخمسة المعروفة لدى السنّة، و قد كتب علماء الازهر تقاريض مهمة عليه أورد في الكتاب المذكور ما يلي: «اِشتهر بين العلماءِ سَلَفاً و خَلَفاً اَنَّهُ في آخِرِ الزمانِ لابدَّ من ظهور رجل من أهلِ البيت يسَمّى المهدي يستولي على الممالك الإسلاميةِ و يَتَّبعُهُ المسلمونَ و يَعدِلُ بينهم و يؤيِّدُ الدين».

ثم يضيف قائلاً: «و قد روى أحاديث المهدي جماعة من خيارِ الصَّحابةَ، و اَخرَجَها أكابرُ المَحَدّثين: كابي داود، و الترمذي، و ابن ماجة، و الطبراني، و أبي يعلي و البزاز و الإمام أحمد و الحاكم رضي الله عنهم اجمعين [1].

١. التاج الجامع للاُصول، ج ٥ ص ٣٤١ (ورد هذا المطلب كهامش في تلك الصفحة).

لم يستطع حتى ابن خلدون المعروف بمخالفته لأحاديث المهدي، انكار شهرة هذه الأحاديث بين جميع علماء الإسلام أيضاً [١].

و من الذين أوردوا تواتر هذه الأخبار في كتبهم «محمد الشبلنجي» العالم المصري المعروف في كتاب «**نور الأبصار**» إذ يقول: «**تواترت الأخبار عن النبي** (صلى الله عليه وآله) **أنّه من أهل بيتهِ و أنّه يملأ الأرضَ عدلاً** ».

لقد ورد هذا التعبير في الكثير من الكتب الأُخرى أيضاً، حتى أنّ «الشوكاني» من علماء السنّة المعروفين يقول في كتاب أَلَّفَهُ حول تواتر الأحاديث المرتبطة بالمهدي (عليه السلام)، و خروج الدجال، و عودة المسيح (عليه السلام)، بعد بحث مفصّل بشأن تواتر الأحاديث المتعلقة بالمهدي(عليه السلام):

«**هذا يكفي لمن كان عندَهُ ذرَّةٌ من الإيمان و قليل من انصاف**»[٢].

و من المستحسن هنا أن نذكر على الأقل بعضاً من الروايات الواردة في أشهر المصادر الإسلامية كغيض من فيض:

١– ينقل «أحمد بن حنبل» من أئمّة السنّة الاربعة في كتابه «مسند أحمد» عن «أبي سعيد الخدري» أنّ الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) قال: «**لا تقوم الساعَةَ حتى تمتلأ الأرض ظلماً و عدواناً، قال: ثم يخرجُ رجلٌ من عترتي اَو مِنْ أهل بيتي يملأها قسطاً و عدلاً كما مُلِئَتْ ظلماً و عدواناً**»[٣].

٢– ونقل الحافظ أبو داود السجستاني نفس هذا المعنى في كتابه «السنن» مع فارق ضئيل [٤].

٣– نقل الترمذي المحدّث المعروف بسند صحيح (طبقاً لتصريح منصور علي ناصف في التاج) عن عبد الله، عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) أنّه قال: «**لو لم يبقَ من الدنيا إلاّ يومٌ لطوَّلَ اللهُ ذلك اليومَ حتى يبعثَ رجلاً منّي أو من أهل بيتي يواطئُ اِسمَهُ اِسمي، و اسم ابيهِ اسم اَبي**[٥]، يملأُ الأرضَ قسطاً و عدلا، كما مُلئَتْ ظلماً و جوراً» [٦].

---

١. ابن خلدون، ص ٣١١.

٢. نقلاً عن كتاب التاج، ج ٥، ص ٣٦٠.

٣. مستدرك أحمد، جملة ٣، ص ٣٦.

٤. سنن أبي داود، ج ٤ ص ١٥٢.

٥. صرّح بعض العلماء الكبار أنّ الصحيح هنا، اسم ابيه اسم ابني، وبهذا الشكل يكون موافقاً تماماً للاسم المبارك للامام المهدي حسب اعتقاد الشيعة أي (محمد بن الحسن العسكري).

٦. التّاج، ج ٥، ص ٣٤٣.

و أورد الحاكم النيسابوري في «**المستدرك**» ما يشبه هذا الحديث مع فارق قليل، و يقول في نهايته: هذا حديث صحيح [١].

٤- ونقل أيضاً في صحيح «أبي داود» عن امّ سلمة أنّها قالت: سمعتُ رسول الله(صلى الله عليه وسلم): يقول: «**المهديُّ من عترتي من ولدِ فاطمَةَ**» [٢].

٥- نقل الحاكم النيسابوري في المستدرك، حديثاً أكثر تفصيلاً بهذا الشأن عن أبي سعيد الخدري عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) أنّه قال: «**يترِلُ بأُمتي في آخرِ الزمانِ بلاءٌ شديد من سلطانِهِمْ، لم يُسمع بلاءٌ اشدّ منه، حَتّى تضيق عَنْهُمُ الأرضُ الرَّحْبَةُ، و حتى يملأُ الأرضَ جوراً و ظَلماً، لا يجدُ المؤمنُ مَلْجأً يَلتَجأُ اِليهِ مِنَ الظلْمِ فيبعثُ اللهُ عزَّ وجَلَّ رجُلاً من عترتي، فيمَلأُ الأرضَ قسطاً و عدلاً كما مُلئتْ ظُلماً وَ جَوراً، يرضى عنه ساكن السماء و ساكنُ الارضِ، لا تدَّخِرُ الأرضُ مِنْ بَذرها شَيْئاً اِلا اخْرَجَتْهُ، و لا السماءُ من قطرها شيئاً اِلاّ صَبَّهُ اللهُ عليهم مدراراً**» [٣].

و بعد ذكر هذا الحديث يقول الحاكم: هذا حديث صحيح الاسناد و لم يخرجاه.(يعني البخاري و مسلم في صحيحيهما)

و مثل هذه الأحاديث الواردة عن مختلف الرواة من المصادر المشهورة كثيرة جدّاً، و تشير إلى الحكومة العالمية التي ستقام في نهاية المطاف على اليد المقتدرة الكفوءة للإمام المهدي (عليه السلام)، و يملأ العدل و القسط كل مكان، و يتحقق بالتالي مضمون الآية السابقة: (أنَّ الأرض يَرثُها عبادِيَ الصالحون).

٢- آية سورة النور

نقرأ في قوله تعالى:﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الاَرْضِ كَمَا استَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوفِهِمْ اَمْناً يَعْبُدُونَنِى لاَيُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ). (النور / ٥٥)

لقد بُشر المؤمنون الصالحون في هذه الآية المباركة و بشكل صريح، أنّهم سيمسكون زمام السلطة و الحكومة على الأرض في نهاية المطاف، و سيُنشر الدين الإسلامي، و ستتبدل حالات اللاأمن و الخوف إلى الاستقرار و الأمن، و تُقلع جذور الشرك في جميع أنحاء العالم، و يتمكن عباد الله من

١. المستدرك، ج ٤، ص ٥٥٨.

٢. صحيح أبي داود، ج ٢، ص ٢٠٧.

٣. المستدرك على الصحيحين، ج ٤، ص ٤٦٥.

مواصلة عبادة الله الواحد الأحد بكل حرية، و تتم الحجّة على الجميع، بحيث لـو أنّ أحـداً أراد أن يواصل مسير الكفر سيكون فاسقاً و مقصراً، (أرجو أن تتأملوا في القسم الأخير من الآية بدقّة).

و بالرغم من أنّ هذه الأُمور الهامة كانت تعد وعداً إلهياً تحقق في عصر الرسول الأكـرم (صـلى الله عليه وآله) و الأزمنة اللاحقة من بعده بنحو أوسع للمسلمين في العالم، و عاد الإسلام الـذي كـان يوماً ما تحت قبضة الأعداء يعاني من وطأة الظلم بحيث لم يسمحوا له بأدنى فرصة للظهور و الـبروز على الساحة، و يعيش المسلمون في حالة دائمة من الخوف و الفزع، عاد في نهاية المطاف و انتشـر ليس في شبه جزيرة العرب فحسب، بل عمَّ أجزاءً عظيمة واسعة من العالم، و انكفأ الأعداء منهزمين في جميع الجبهات، و لكن بالرغم من هذا كله، فإنّ حكومة الإسلام العالمية التي يجبُ أن تعمّ كافـة أرجاء المعمورة و آفاق الأرض، و تقلع جذور الشرك و عبادة الأوثان بشكل نهائي، و تنشر الأمن و الآمان و الهدوء و الحرية و التوحيد الخالص، لم تتحقق بعد، إذن يجب انتظار تحقق هذا الأمر.

سيتحقق هذا الأمر طبقاً لما ورد في الرواية المتواترة التي أشرنا إليها آنفاً في عصر قيام المهدي (عليـه السلام)، و بناءً على ما تقدم فإنّ احدى مصاديق هذه الآية تحقق في عصر النبي (صلى الله عليه وآله) و الأعصار المقارنة له، و سيتحقق شكله الأوسع في عصر قيام المهدي (عليه السلام)، و لا منافاة بين هـــذين الأمرين، و لابدّ من تحقق هذا الوعد الإلهيّ في كلا المرحلتين.

المراد من الاستخلاف هنا خلافة الأقوام الكافرة الماضية، إذ تزول فيها حكومتهم و تحل محلها حكومة الحق، نظير ما جاء في قوله تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِى الاَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ). (يونس / ١٤) و قد ورد شبيه هذا المعنى في الآيتين ٦٩ و ٧٤ من سورة الأعراف.

و بناءً على ذلك، فأمثال الفخر الرازي الذين تصوروا أنّ الآية تعد دليلاً واضحاً على خلافة الخلفـاء الأربعة باعتبار أنّ أولئك هم الذين استخلفوا الرسول، و أنّ الوعد الإلهيّ قد تحقق في عصرهم، إنّما وقعوا في الخطأ، لأنّ هذه الآية لا يراد بها خلافة الرسول، بل خلافة الأقوام السابقة كما ورد ذلـك في الآيات الثلاثة الآنفة الذكر، و كما ورد في قوله تعالى: (وَ اَوْرَثْنَا القَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُستَضـعَفُونَ مَشَارِقَ الاَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الحُسْنَى عَلَى بَنِـي إِسـرَائِيلَ بِمَـا صَبَرُوا). (الأعراف / ١٣٧)

من البديهي أنّ بني اسرائيل ورثوا الفراعنة و سيطروا على جميع أنحاء ذلك البلـد الواسـع الملـيء بالبركات (مصر وأطرافها).

على أيّة حال فإنّ الآية تُبشر بقيام حكومة المؤمنين الصالحين في جميع أنحاء العالم، تلك الحكومة الـتي تحقق مقدار واسع منها في عصر رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله)و بعده، و هـي و إن لم تعـم جميع العالم، إلاّ أنّها كانت نموذجاً على تحقق هذا الوعد الإلهي، و لكن لم تتحقق بعد علـى هيئـة

حكومة عالمية تعمّ أرجاء المعمورة، و المصداق النهائي لها سوف يتحقق بقيام حكومة الإمام المهـــدي (عليه السلام) مع توفر الأرضية و الظروف بمشيئة الله تعالى، إذ ستُملأ الدنيا عدلاً و قسطاً طبقاً لمـــا ورد في الروايات الصادرة عن الرسول (صلى الله عليه وآله) و سائر الأئمّـــة المعصـــومين (علـــيهم السلام)، بعد ما ملئت ظلماً و جوراً، و نحن بانتظار تحقق هذا الوعد القرآني و الروايات الـــواردة في المصادر المختلفة في تفسير هذه الآية تؤكد و تؤيد هذه المسألة أيضاً.

و منها انّ المفسّر المعروف «القرطبي» ينقل في تفسير «الجامع لاحكام القرآن» في نهاية هذه الآية عن «سليم بن عامر»، عن «المقداد بن اسود»، قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: «**ما على ظهر الأرض بيتُ حجر و لا مدر إلاّ أدخَلَهُ الله كَلِمَةَ الإسلام** » [1].

و في تفسير «روح المعاني» نُقل عن الطبرسي عن «الإمام علي بن الحسين (عليه السلام)» أنّـــه قـــرأ الاية فقال: «**هم و الله شيَعتُنا أهل البيتِ يُفعَلُ ذلِكَ بِهِمْ على يَدِ رَجُل منّا و هو مهديُّ هذه الاُمّة و هو الّذي قال رسول الله** (صلى الله عليه وسلم) فيه: **لو لم يبقَ من الدنيا إلاّ يوم واحد لطوَّلَ الله تعالى ذلك اليومَ حتى يلِيَ رجلٌ من عترتي اِسمُهُ اسمي يملأُ الأرضَ عدلاً و قسِطاً كما مُلِئَتْ ظلماً و جَوراً**».

و يمكن مشاهدة هذا المعنى باختلاف قليل في الكثير من مصادر أهل البيت(عليهم السلام).

و بالرغم من أنّ «الآلوسي» لم يقيمّ هذا الحديث برأي ايجابي في تفسير «روح المعاني»، إلاّ أنّه يقول في نهايته: نعم ورد من طريقنا ما يستأنس به لهم في هذا المقام لكنه لا يعول عليه ايضا مثل اخبارهم و هو ما اخرجه عبد بن حميد عن عطية انه عليه الصلاة و السلام قرأ الآية فقال:اهل البيـــت هاهنـــا و اشار بيده الى القبلة» [2].

و ينقل القرطبي حديثاً آخر بهذا الشأن أيضاً أنّ الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) قال: « **زُوِيَتْ لِي الأرضُ فَرأَيتُ مشارِقَها ومغارِبَهَا وسيبلُغ ملْكُ أُمَّتي ما زويَ لِي منه** » [3].

يتّضح من كل ما أسلفناه، الجواب عن الكثير من مؤآخذات المخالفين لمنطق اتباع أهل البيت(عليهم السلام) في تفسير هذه الآية.

و توضيح ذلك: إنّه كما قلنا سابقاً: إنّ تحقق هذا الوعد الإلهي له عدّة مراحـــل، و احـــدى هـــذه المراحل حصلت مع المؤمنين الصالحين في عصر الرسول (صلى الله عليه وآله)، إذ بعد فـــتح مكـــة و

١. تفسير القرطبي، ج ٧ ص ٤٦٩٢.

٢. تفسير روح البيان، ذيل آية مورد البحث.

٣. تفسير القرطبي، ذيل آية مورد البحث.

سيطرة الإسلام على الجزيرة العربية، شعر المسلمون في ظل الإسلام و الرسول (صلى الله عليه وآله)بأمن نسبي و استولوا على جزء عظيم من المنطقة، و تحقق بذلك ما ورد بشأن نزول هذه الآية.

(وقد ورد سبب نزول هذه الآية في العديد من التفاسير، و منها أسباب الترول، و مجمع البيان، و في الظلال، و القرطبي (باختلاف بسيط)، أنّه عندما هاجر رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) و المسلمون إلى المدينة و استقبلهم الأنصار بأحضانهم، نهض العرب بأجمعهم ضدهم، بحيث إنّهم اضطروا إلى عدم مفارقة اسلحتهم، فينامون الليل بالسلاح،

و يستيقظون الصبح مع السلاح، و كان الاستمرار على هذه الحالة يثقل على المسلمين، و أخذ بعضهم يتساءل إلى متى ستستمر هذه الحالة؟ هل سيأتي زمان ننام فيه الليل براحة بال و اطمئنان، و لا نخشى احداً سوى الله؟ فترلت هذه الآية، و بشرت بقرب حلول هذا الوقت).

و المرحلة الأُخرى لهذا الوعد، حصلت في زمن الخلفاء إذ سيطر الإسلام على أجزاء واسعة من العالم و أخضعها لسلطته، فعادت على المسلمين بمزيد من الأمن و الاستقرار.

إلاّ أنّ المرحلة الثالثة و النهائية أي عالمية الإسلام و حاكميته المطلقة على العالم المتزامنة مع الأمن و الاستقرار و انتصار جيش التوحيد على معسكر الشرك و لم يتحقق بعد، و سيقتصر تحققهُ على عصر قيام المهدي (عليه السلام) فقط، و هذه المعاني الثلاثة التي تمثل سلسلة مراحل لحديث واقعي لا توجد بينها أيّة منافاة.

كما يستفاد من هذه الآية أيضاً، إنّ هذا الوعد الإلهيّ يختص بالأفراد الذين يمتلكون الإيمان و العمل الصالح، و يقيناً كلما تحقق هذان الشرطان و في أي عصر و مصر سوف تتهيّأ للمسلمين احدى مراحل هذه الحاكمية الإلهيّة، و بالمقابل كلما حدثت هزيمة ما، و عاد المسلمون أذلاء ضعفاء في قبضة الأعداء، يجب أن نعلم بأنّ ذينك الأساسين اللذين يمثلان شرطي تحقق الوعد الإلهيّ قد طوتهما صحف النسيان، فالإيمان عاد ضعيفاً، و الاعمال آلت ملوثة!

٣- آية ظهور الحق

نقرأ في قوله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِی اَرسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَی وَ دِینِ الحَقِّ لِیُظهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ لَوْ کَرِهَ المُشرِکُونَ ﴾. (التوبة / ٣٣)

تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الآية تأتي بعد قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ اَنْ يُطفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِاَفواهِهِم وَ يَأْبَی اللَّهُ اِلاَّ اَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ کَرِهَ الکَافِرُونَ).

وأعطى الله في هذه الآيات- كما في الآيات السابقة- الوعد في غلبة و انتصار الإسلام على كافة الأديان في العالم.

وحول السؤال القائل: ما هو المقصود بانتصار الإسلام على كافة الأديان؟ اعطى المفسرون عدّة احتمالات.

فالفخر الرازي يعطي خمسة تفاسير هنا تعد جواباً على الاسئلة المرتبطة بكيفية هذه الغلبة:

١- المقصود بالغلبة هو الغلبة النسبية و الموضعية، ذلك إنّ الإسلام انتصر بمنطقه على جميع الأديان والمذاهب.

٢- المراد هو الانتصار على الأديان في الجزيرة العربية.

٣- المراد إخبار النبي (صلى الله عليه وآله) بجميع الأديان الإلهيّة (فسّرت جملة «ليظهره» هنا بمعنى الإخبار).

٤- المراد النصر والغلبة المنطقية، أي أنّ الله ينصر منطق الإسلام على سائر الأديان.

٥- المراد النصر النهائي على جميع الأديان و المذاهب عند نزول عيسى (عليه السلام) و قيام المهدي (عليه السلام) إذ سيصبح الإسلام عالمياً.

ولا شك بأنَّ تفسير الآية بالنصر المنطقي و بصورة وعد مستقبلي لا ينطوي على مفهوم صحيح، لأنّ النصر المنطقي للإسلام كان واضحاً منذ البداية، إضافة إلى ذلك فإنّ مادة «الظهور» و«الاظهار» (ليظهره على الدين كُلِّهِ) و كما يستفاد من موارد استعماله في القرآن المجيد، بمعنى الغلبة الخارجية و العينية كما نقرأ ذلك في قصة أصحاب الكهف: (إِنَّهُم اِنْ يَظْهَرُوا عَلَيكُم يَرجُمُوكُم). (الكهف/٢٠) ونقرأ في قوله تعالى: (كَيفَ وَ اِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَيَرقُبُوا فِيكُم اِلاًّ وَ لاَ ذِمَّةً). (التوبة / ٨)

ومن البديهي أنّ عَبَدة الأصنام من قوم أصحاب الكهف، و مشركي مكة لم ينتصروا منطقياً على المؤمنين بالله اطلاقاً، و اقتصرت غلبتهم على الغلبة الخارجية فقط، و بناءً على هذا فإنّ المراد بغلبة الإسلام على جميع الأديان هي الغلبة الخارجية و العينية، و ليس الغلبة المنطقية والفكرية.

إنَّ هذه الغلبة- وكما ورد نظير ذلك في البحث الماضي- لها مراحل مختلفة:

حصلت احدى مراحلها في عصر الرسول (صلى الله عليه وآله)، و مرحلتها الأوسع حصلت في القرون

التالية، ومرحلتها النهائية ستحصل عند قيام المهدي (عليه السلام)، لأنّ الآية الشريفة تتحدث عن غلبة الإسلام على جميع الأديان دون أي قيد وشرط، و الغلبة المطلقة دون أي قيد أو شرط إنّما تتحقق بشكل كامل عندما تلقي ظلالها على جميع أرجاء المعمورة، كما ورد في رواية رسول الإسلام

(صلى الله عليه وآله) إذ قال: «**لا يبقى على ظهر الأرض بيتُ مَدَر ولا وَبَر اِلاّ أدخَلَهُ اللهُ كلمة الإسلامِ**»[١].

ونقل شبيه هذا المعنى في تفسير «الدرّ المنثور» عن «سعيد بن منصور، و« ابن المنذر » و«البيهقي» في سننه عن «جابر بن عبد الله» أنّه قال في تفسير هذه الآية:

«**لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهوديٌّ و لا نصرانيٌّ صاحبُ ملة اِلاّ الإسلام**»[٢].

أجل سيتحقق هذا الوعد الكبير في ذلك اليوم الكبير.

ونقل هذا المعنى عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير الآية السابقة، إذ قال: «**والله ما نزل تأويلها بَعْدُ ولا يترلُ تأويلها، حتى يخرُجَ القائمُ، فاذا خرجَ القائمُ لم يبق كافرٌ بالله العظيم** »[٣].

وهذه الملاحظة على جانب من الأهمّيّة إذ إنّ الآية: (هُوَ الَّذِی اَرسَلَ رسُولَهُ باِلهُدَی وَدِینِ الحَقِّ لِیُظهِرَهُ عَلَی الّدِینِ کُلِّهِ) **قد ورد في ثلاث سور من القرآن:** الأُولى في التوبة الآية ٣٣ (كما مرَّ سابقاً)، والثانية في سورة الفتح الآية ٢٨، والثالثة في سورة الصف الآية٩.

هذا التكرار يبيّن أنّ القرآن المجيد قد تابع هذه المسألة بتأكيد متزايد.

ونقرأ في حديث آخر نُقل في مصادر السنّة عن أبي هريرة: المقصود من الآية: (لِیُظهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ)، خروج عيسى بن مريم (عليه السلام) (ونحن نعلم أنّ خروج عيسى ابن مريم (عليه السلام)وطبقاً لما ورد في الروايات الإسلامية سيكون أثناء قيام المهدي(عليه السلام)) [٤].

و نختم هذا البحث بحديث منقول عن «قتادة» المفسّر المعروف، إذ يقول في تفسير هذه الآية: «**الأديانُ ستَّةٌ: الَّذين آمنوا، والذين هادو، والصابئون، والنصارى، والمجوس، والذين اشركوا، فالأديان كُلُّها تدخل في دين الإسلام**»[٥].

و من الواضح أنّ هذا المعنى لم يتحقق بَعْدُ بشكل نهائي، و لن يتحقق إلاّ في عصر قيام المهدي (عليه السلام).

و هذه الملاحظة جديرة بالاهتمام أيضاً، و هي: أنّ المقصود بزوال الديانة اليهودية و المسيحيّة ليس بشكل كامل، بل المقصود حاكمية الإسلام على العالم اجمع (**تأملوا جيد**).

---

١. تفسير مجمع البيان، الآية التي نحن بصددها.

٢. تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٢٣١.

٣. تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٢.

٤. تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٢٣١.

٥. تفسير در المنثور، ج ٣، ص ٢٣١.

الخلاصة

١- إن الاعتقاد بالمهدي و صدور الاحاديث النبوية بحقه مما تسالم عليه كافة المذاهب الاسلامية حتى الوهابية و قد روى اخبار المهدي جم غفير من الصحابة حتى بلغت حد التواتر.

٢- إن قضية المهدي جزء من عقائد المسلمين كافة و لا يجحدها إلا جاهل أو معاند،بحيث انبرى عدد كبير من العلماء للرد على ابن خلدون لما شكك في المهدي.

٣- من الايات التي تتحدث عن المهدي قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذّكرِ اَنَّ الاَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصّالِحُونَ﴾ فاطلاق الارض يشمل جميع الكرة الارضية وبالتالي فهي حكومة عالمية.

٤- بما أن الحكم العالمي على أساس العدل و التوحيد لم يتحقق في الماضي فلا بد من انتظاره في المستقبل، و الزبور هو كتاب داوود (ع) حيث لا تزال توجد فيه البشارة باقامة حكومة العدل.

٥- الزبور هو الذي يعرف الان بالمزامير و فيه:« لأن الأشرار سينقطعون، وأمّا المتوكلون على الرب فسيكونون ورثة الأرض، وحالاً يختفي الأشرار، وكلما بحثت عنهم فسوف لن تجد لهم أثراً».

٦- الذكر في الاية المباركة اما التوراة او القرآن و على أية حال فإن في التوراة عبائر متعددة تبشّر بحكومة الصالحين و من ذرية اسماعيل(ع).

٧- روى أحمد بن حنبل عنه(ص):«لا تقوم الساعَة حتى تمتلأ الأرض ظلماً وعدواناً، قال ثم يخرجُ رجلٌ من عترتي اَو مِنْ أهل بيتي يملأها قسطاً وعدلاً كما مُلِئَتْ ظلماً وعدواناً».

٨- من آيات الباب قوله تعالى:﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الاَرْضِ كَمَا استَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارتَضَى لَهُمْ﴾.

٩- هذه الاية تتحدث عن تحول المسلمين الى قوة كبيرة و انهزام اعداء الدين و قد تحقق هذه المعنى في حكومة الرسول(ص) لكنه سيتم بشكل اوسع عند ظهور المهدي.

١٠- الاستخلاف في هذه الاية يعني خلافة الاقوام السابقة بعد زوال حكمهم لا خلافة الرسول(ص) و نظير ذلك في عدة آيات كقوله تعالى:﴿ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِى الاَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾

١١- هناك اخبار عديدة وردت في ذيل الاية المباركة تؤيد ما ذكر، روى القرطبي عنه (ص): «ما على ظهر الأرض بيتُ حجر ولا مدر إلاّ أدخَلَهُ الله كَلِمَةَ الإسلام ».

١٢- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى اَرسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشرِكُونَ﴾ وعد آخر بتحقق الحكم المهدوي في آخر الزمان حيث ينتصر الاسلام على الاديان كافة.

١٣- الظهور يعني الغلبة العينية و الخارجية فليس المراد غلبة منطق الاسلام لأن الاسلام منذ البداية كان أقوى في منطقه.

١٤- تحققت غلبة الاسلام في عهد رسول الله (ص) الى حدما و سيتم بشكل تام في المستقبل و تلك هي المرحلة النهائية التي تبشّر بها الآية المباركة.

بسمه تعالى

جامعة المصطفى المفتوحة

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٢٩

آثار انتظار المهدي (عليه السلام)

بكالوريوس

المقدمة

بعد ما تعرفنا على اخبار المهدي و انه سوف ياتي ليصلح الارض و يقيم العدل، يبقى السؤال مطروحا بأن هذه الفكرة ألم تكن تدعو للسكون و الركود و عدم الاصلاح الى حين قيام المهدي؟ ما هو الاثر التربوي الذي يتركه مفهوم الانتظار على نفس الانسان المسلم؟ من أين نأخذ الاجابة الصحيحة على هذه التساؤلات و غيرها؟

المحتوى العلمي

آثار انتظار المهدى (عليه السلام):

تصوّر بعض الجهلة أنّ انتظار ظهور المهدي (عليه السلام) بناءً على الآيات و الروايات الآنفة، يمكن أن يتسبب في الركود و التخلف، أو الهروب من تحمّل أعباء المسؤوليات، و الاستسلام أمام الظلم و الاضطهاد، ذلك أنّ الاعتقاد بهذا الظهور الكبير يعني في مفهومه اليأس و قطع الأمل في إصلاح العالم قبله، بل و حتى الاعانة على انتشار الظلم و الفساد لكي تتهيأ الأرضية المناسبة لظهوره !

لقد مرّت سنوات عديدة و ألسن المخالفين و المنكرين لقيام المهدي (عليه السلام) تتناول هذا الحديث، وأشار إلى ذلك ابن خلدون، في الوقت الذي تعد هذه المسألة على العكس من ذلك تماماً، و أنّ انتظار هذا الظهور الكبير له آثار بناءة جدا، سنشير إليها لاحقاً بشكل سريع و مختصر، كي يتّضح أنّ مثل هذا الحكم يعدُ حكماً متسرعاً و غير دقيق أمام مسألة اُشير إليها في القرآن المجيد، و كذلك في الأحاديث المتواترة الواردة في الكتب المعروفة للسنّة، و المصادر المشهورة للشيعة، و مبيّنة بشكل صريح.

حقيقة الانتظار و آثاره البناءة:

لقد كان الحديث يدور حول حقيقة الإيمان بظهور المهدي (عليه السلام) ببرنامجه العالمي الذي يملأ بموجبه العالم عدلاً و قسطاً و يقطع جذور الظلم و الاضطهاد، فهل لتلك الحقيقة آثار تربوية بناءة أم آثار سلبية؟

و هل إنّ الإيمان بمثل هذا الظهور يحمل الإنسان على الاستغراق في افكار تخيلية بحيث يغفل عن واقعه المعاش و يجعله مستسلماً أمام كل الظروف؟

أم أنّ ذلك في حالة صحة هذه العقيدة يعد نوعاً من الدعوة للثورة و بناء الفرد و المجتمع؟

هل يبعث على التحرك أم الركود؟

هل يخلق روح تحمّل المسؤولية أم يكون داعياً إلى الهروب من اعباء المسؤوليات؟!

وأخيراً: هل هو عامل مخدّر أم منبّه؟

و لكن قبل توضيح و متابعة هذه الاسئلة، يعدُ الالتفات إلى هذه النقطة أمراً ضرورياً جدّا، و هي: أنّ أفضل القوانين و ارقى المفاهيم إذا وقعت في ايدي الأفراد غير الكفوئين أو غير اللائقين أو الانتهازيين يمكن أن تتعرض إلى المسخ الشديد، بحيث تعطي نتائج مغايرة للهدف الأصلي تماماً، و تتحرك بالاتّجاه المضاد منه، ولهذه القضية نماذج كثيرة، و مسألة «الانتظار» و بالنحو الذي سنراه في عداد هذه المسائل.

و على أيّة حال فإنّ التخلّص من كافة أنواع الخطأ في الحساب في مثل هذه الأبحاث، لابدّ كما يقال من أخذ الماء من مصدره، لكي لا يُؤثر فيه التلويث المحتمل للأنهار و القنوات التي يمرُ فيها الماء خلال مسيره.

أي إنّنا سنتوجه في بحث مسألة «الانتظار» مباشرةً نحو المصادر الإسلامية الأصلية، و نُخضع مضامين الأحاديث المختلفة التي تؤكد على مسألة «الانتظار» للبحث و التحقيق، كي نصل إلى الهدف الأساسي.

والآن تأمّلوا في هذه الطائفة من الروايات بدقّة:

١ ــ سأل سائل من الإمام الصادق (عليه السلام): ما تقول فيمن مات على هذا الامر منتظراً له؟

قال: «**هو بمنزلة مَنْ كان مع القائم في فسطاطِه ــ ثم سكت هنيئةً ــ ثم قال: هو كَمَنْ كانَ مع رسول الله** (صلى الله عليه وآله)» [١].

و نُقل هذا المضمون نفسه في روايات كثيرة و بتعابير مختلفة.

٢ ــ و جاء في بعض منها: «**بمنزلة الضاربِ بسيفهِ في سبيل الله**».

٣ ــ و في البعض الآخر: «**كمَنْ قارَعَ مع رسول الله** (صلى الله عليه وآله) **بسيفِهِ**».

٤ ــ و في البعض الآخر: «**بمنزلةِ مَنْ كانَ قاعداً تحت لِواءِ القائمِ**».

٥ ــ و في البعض الآخر: «**بمنزلةِ المجاهِدِ بين يديْ رسولِ الله** (صلى الله عليه وآله)».

٦ ــ و في البعض الآخر: «**بمنزلةِ مَنْ استشهِدَ مع رسول الله** (صلى الله عليه وآله)».

انَّ هذه التشبيهات السبعة الواردة في هذه الروايات الستّة بشأن انتظار ظهور المهدي (عليه السلام)، تكشف عن هذه الحقيقة، بوجود نوع من الرابطة و التشابه بين مسألة «**الانتظار**» من جهة، و«**الجهاد**»، و مقاتلة الأعداء بأعلى صورة من جهة اُخرى (تأملوا).

٧ ــ ورد انتظار مثل هذه الحكومة أيضاً في روايات متعددة، و اُشير إليه على أنّه أفضل العبادات.

---

١. محاسن البرقي طبقاً لنقل بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٣٦.

و نقل هذا المضمون في بعض الأحاديث عن الرسول (صلى الله عليه وآله)، و في البعض الآخر عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، و نقرأ في حديث أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) قال: «**أَفضَلُ اعمالِ اُمَّتي اِنتِظارُ الفرجِ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**» [١].

و نقرأ في حديث آخر عن الرسول (صلى الله عليه وآله): «**أَفضَلُ العبادَةِ انتظارُ الفرجِ**» [٢].

و هذا الحديث سواء نظرنا فيه إلى مسألة انتظار الفرج بالمعنى الواسع للكلمة أو بالمفهوم الخاص لها أي بمعنى انتظار ظهور المصلح العالمي الكبير، يُوضّح أهمّيّة الانتظار في بحثنا هذا.

كل هذه التعابير تقول بأجمعها إنّ الانتظار يعد ثورة مقرونة بشكل مستمر بالجهاد الواسع الشامل، اجعلوا هذه المسألة نصب أعينكم كي ننتقل إلى مفهوم الانتظار، ثم نستخلص النتيجة من مجموع هذه المفاهيم.

الخلاصة

١– اذا نظرنا الى مفهوم الانتظار من منظار تربوي نجد أن هذا المفهوم يلعب دورا تربويا هاما في بناء الفرد و المجتمع حيث إن الروايات تضمنت هذا المعنى بشكل واضح.

٢– ورد في الاخبار العديدة أن المنتظر لحكومة المهدي إذا مات قبل ان يدركها فهو «بمنزلة الضاربِ بسيفهِ في سبيل الله» و هو«كمَنْ قارَعَ مع رسول الله (ص) بسيفِهِ» و قريب من هذا المعنى.

٣– إن هذه الروايات تفصح عن علاقة وطيدة بين الانتظار و بين الجهاد فالانتظار يجب أن يبعث الانسان نحو الاصلاح و بناء مجتمع يتطلع و يتلهف الى بسط العدل و التوحيد.

١. اصول الكافي بناءً على نقل بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٣٧.

٢. اصول الكافي بناءً على نقل بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٣٦.

بسمه تعالی

معارف القرآن الاعتقادية (١)

الدرس ٣٠

الانتظار

بكالوريوس

المقدمة

الانتظار هو المفهوم الذي يقترن بالعقيدة المهدوية، ما هي الاثار التي يتركها الانتظار على الفرد و المجتمع؟ من هو المنتظر الحقيقي و ما ذا يتطلب الانتظار من الانسان ان يفعل؟ هل يجوز للانسان أن يأمل و ينتظر مستقبلا يسود فيه العدل و التوحيد و لا يكيّف نفسه مع تلك الظروف؟ هذه المحاور و المواضيع سوف نسلط الضوء عليها في هذا الدرس إن شاء الله تعالى.

المحتوى العلمي

مفهوم الانتظار:

«**الانتظار**»: يُطلق عادةً على حالة من يشعر بعدم الارتياح من الوضع الموجود، و يسعى من أجل ايجاد وضع أفضل.

و مثله كمثل المريض الذي ينتظر تحسن حالته، أو الأب الذي يعيش حالة انتظار عودة ولده من السفر، أو مَن يشعر بعدم الارتياح من مرض أو فراق الولد ويسعى من أجل وضع أفضل.

و كذا الحال بالنسبة للتاجر الذي يشعر بعدم الارتياح من وضع السوق المضطرب و يعيش الانتظار كي تنتهي الأزمة الاقتصادية، فانه يعيش كلتا الحالتين «عدم الانسجام مع الوضع الموجود»، و«السعي من أجل وضع أفضل».

و بناءً على ذلك فإنّ مسألة انتظار حكومة الحق و العدالة للامام «المهدي» و قيام المصلح العالمي مركّبة في الواقع من عنصرين، عنصر «النفي» و عنصر «الإثبات». و يمثل عنصر النفي عدم الانسجام مع الوضع الموجود، و يمثل عنصر الإثبات السعي من أجل الحصول على الوضع الأفضل.

و إن حلّت هاتان الخصلتان بصورة متجذرة في روح الإنسان فستكونان مصدراً لنوعين من الأعمال الواسعة الشاملة.

و هذان النوعان من الاعمال يتمثلان بترك أي نوع من أنواع التعاون و الانسجام مع عوامل الظلم و الفساد، و حتى النضال و الاشتباك معها من جهة، و بناء الذات و اعدادها و المحافظة عليها من الزلل، و اكتساب الاستعدادات الجسمية و الروحية و المادية و المعنوية من أجل تبلور تلك الحكومة العالمية و الشعبية الموحّدة من جهة أُخرى.

و لو تأملنا جيداً نرى أنّ كلاً منها يعدُ بنّاءً و عامل تحرّك و وعي و يقظة.

و مع أخذ المفهوم الأساس «للانتظار» بنظر الاعتبار يمكن أن نُدرك جيدا معنى الروايات المتعددة التي نقلناها آنفاً بشأن البشارة، و نتيجة عمل المنتظرين و الآن نفهم لماذا عُدَّ المنتظرون الحقيقيون أحياناً

كالذين مع المهدي (عليه السلام) في فسطاطه، أو تحت لوائِهِ، أو كالضارب بسيفه في سبيل الله، أو المتشحط بدمه، أو المستشهد؟

أليست هذه الحالات إشارة إلى المراحل المختلفة، و درجات الجهاد في سبيل الحق و العدالة، و التي تتناسب مع مقدار الاستعداد و درجة انتظار الأفراد؟

أي، كما أنّ ميزان تضحية المجاهدين في سبيل الله و دورهم متفاوت فيما بينهم، فإنّ الانتظار و بناء الذات و الاستعداد له درجات متفاوتة أيضاً، بحيث إنّ كلاً منها يتشابه مع ما يقابلها من حيث «المقدمات» و«النتيجة»، فكلاهما يمثلان الجهاد، و كلاهما يريدان الاستعداد و بناء الذات، فمن كان في فسطاط قائد مثل تلك الحكومة أي في مركز القيادة العامة لحكومة عالمية لا يسعه أن يكون فرداً غافلاً و غير مبال، لأنَّ ذلك المكان ليس لكائن مَنْ كان، إنّه مكان أولئك الذين يليقون حقاً بتلك المنزلة و الأهميّة

و كذلك فإنّ الذي يحمل السلاح بيده و يقاتل بين يدي قائد هذه الثورة ضد المخالفين لحكومته، حكومة الصلح و السلام و العدالة، لابدّ و أن يمتلك استعداداً روحياً و فكرياً و قتالياً عالياً.

و لغرض المزيد من الاطلاع على الآثار الواقعية لانتظار ظهور المهدي (عليه السلام) نرجو الالتفات إلى التوضيح التالي:

الانتظار يعني الاستعداد التام:

لو كنت ظالماً و مضطهداً كيف يمكن أن أنتظر فرداً تكون دماء الظلمة طعمة لسيفه؟

لو كنت ملوثاً نجساً كيف بوسعي أن أكون في انتظار ثورة ستأتي شرارتها على حضائر النجسين و الملوثين؟

فالجيش الذي ينتظر أن يخوض حرباً شعواء يجب أن يعمل على رفع الاستعداد القتالي لأفراده، و يؤجج فيهم روح الثورة، و يعمل على إصلاح أي نقطة ضعف فيه.

لأنّ كيفية «الانتظار» تتناسب دائماً مع الهدف الذي نحن بانتظاره.

انتظار مسافر عائد من سفره.

انتظار عودة أحد الأحبّة الأعزاء.

انتظار حلول موسم جني الثمار من الأشجار و حصاد المحصول.

و كل نوع من حالات الانتظار هذه ممزوج بنوع من الاستعداد، ففي احداها لابدّ من اعداد البيت و توفير وسائل الاستقبال، و في الأُخرى تهيئة الأدوات اللازمة، كالمنجل.

من هنا لكم أن تنظروا إلى أنّ الذين ينتظرون قيام مصلح عالمي كبير فإنّهم ينتظرون في الواقع ثورةً و انقلاباً و تحولاً يعدُ من أوسع و اشمل الثورات الإنسانية على مرّ تاريخ البشرية.

إنّهم ينتظرون ثورة مغايرة للثورات السابقة التي كانت تفتقر إلى الصيغة المنطقية في محتواها، بل ثورة عامة شاملة لجميع الشؤون و الجوانب الحياتية للبشرية، ثورة سياسية و ثقافية و اقتصادية و أخلاقية.

الفلسفة الاولى: بناء الذات فردياً

إنَّ مثل هذا التحول يحتاج قبل كل شيء إلى العناصر الإنسانية المستعدة و الأمينة لكي يكون بوسع القائمين به تحمّل أعباء تلك الإصلاحات الواسعة في العالم، و يحتاج ذلك بالدرجة الأُولى إلى رفع مستوى التفكير و الوعي و الاستعداد الروحي و الفكري للمساهمة في تطبيق ذلك البرنامج العظيم، إنّ النظرات الضيقة و المحدودة، و الأفكار المنحرفة، و الحسد، و النزاعات الصبيانية و غير العقلائية، و بشكل عام كل نوع من النفاق و التشتت لا ينسجم مع مكانة «المنتظرين الواقعيين».

و الملاحظة المهمّة هي أنّ المنتظر الحقيقي ليس بوسعه أن يتخذ دور المتفرّج أمام هذا البرنامج المهم اطلاقاً، و لابدّ أن ينخرط من الآن في صفوف الثوريين.

إنّ الإيمان بنتائج و عاقبة هذا التحول لا يسمحان له بأنّ يكون في خندق المعارضين اطلاقاً، كما أنّ الانضمام لخندق المؤيدين أيضاً لا يحتاج فقط إلى امتلاك «اعمال نظيفة»، و روح أنظف، و التحلّي «بالشهامة» و«الوعي»، إذ إنّ ذلك وحده لا يكفي.

فلو كنت شخصاً فاسداً و غير مستقيم كيف بوسعي أن أعدّ الأيّام في انتظار نظام ليس فيه للفاسدين و غير الصالحين أي دور أو أثر، بل سيكونون مطرودين و غير مرغوب فيهم.

ألا يكفي هذا الانتظار لتصفية الروح و الفكر، و غسل الجسم و الروح من الدرن و النجاسات؟

إنّ الجيش الذي يعيش الانتظار لخوض جهاد التحرير لابدّ و أن يكون في حالة الانذار القصوى، و الاستعداد الكامل، و يعمل جاهداً للحصول على السلاح اللائق بساحة القتال هذه، و يبني المواضع اللازمة، و يرفع المستوى القتالي لمنتسبيه،

و يقوي معنوية أفراده، و يعمل على ابقاء شعلة الحب و الشوق لمثل هذه المنازلة حيّة في قلوب جنوده، و الجيش الذي لا يتحلى بمثل هذا الاستعداد لا يمكن أن يعيش حالة الانتظار مطلقاً، و إن ادّعى ذلك فإنّما يكذب.

إنّ انتظار مصلح عالمي بمعنى الاستعداد الفكري و الأخلاقي، المادي و المعنوي الكامل، إنّما هو من أجل إصلاح العالم اجمع، تأملوا كم أنّ هذا التهيؤ و الاستعداد يُعدّ بنّاءً.

إنّ إصلاح جميع أرجاء الأرض و إنهاء كل أنواع المظالم و الاضطرابات ليس مزاحاً، و لا يمكن أن يكون عملاً بسيطاً، فالاستعداد و التهيؤ لمثل هذا الهدف العظيم يجب أن يكون متناسباً مع حجمه، أي يجب أن يكون بسعته و عمقه!

و من أجل تحقيق هذه الثورة، لابدّ من رجال عظماء جداً يمتازون بالتصميم العالي و الاقتدار الرفيع و لا يقبلون الهزيمة، طاهرين و بعيدي النظر و بشكل استثنائي، و على استعداد كامل، و يمتلكون نظرة ثاقبة تجاه لأُمور.

و يستلزم البناء الذاتي لمثل هذا الهدف **استخدام اعمق البرامج الأخلاقية و الفكرية و الاجتماعية، هذا هو معنى الانتظار الواقعي، فهل يتسنى لاحد الادّعاء بأنّ مثل هذا الانتظار ليس بنّاءً؟**

الفلسفة الثانية: كلكم راع...

المنتظرون الصادقون مكلفون في نفس الوقت بأن لا يركّزوا اهتمامهم بأنفسهم فحسب، بل بمراقبة أحوال بعضهم البعض، و أن يبادروا في إصلاح الآخرين و إصلاح أنفسهم، لأنّ البرنامج العظيم و الثقيل الذي ينتظرونه ليس برنامجاً فردياً، بل إنّه برنامج ينبغي أن تساهم فيه جميع عناصر الثورة، و لابدّ أن يكون طابع العمل طابعاً جماعياً و جماهيرياً، و لابدّ أن تتناغم الجهود و المساعي، و ينبغي أن يكون عمق الانسجام و سعته بعظمة ذلك البرنامج الثوري العالمي الذي يعيشون انتظاره.

و في هكذا ميدان واسع للمنازلة الجماعية، ليس بوسع أي فرد أن يبقى غافلاً عن أحوال الآخرين، بل إنّه مكلّف بإصلاح أي نقطة ضعف في أي مكان يراها، و أن يرمم أي موضع متضرر، و أن يقوي كل جزء ضعيف، لأنّه بدون الاشتراك الفعّال و المنسجم لكل المناضلين فإنّ تطبيق مثل هذا البرنامج يعدُ اَمراً مستحيلاً.

و بناءً على هذا فإنّ المنتظرين الواقعيين و اضافة لسعيهم في إصلاح أنفسهم، مكلفون أيضاً بإصلاح الآخرين.

هذا هو الأثر البنّاء الآخر لانتظار قيام مصلح عالمي، و هذه هي فلسفة كل تلك الفضائل المعدّة للمنتظرين الحقيقيين.

الفلسفة الثالثة: المنتظرون الحقيقيون لا يذوبون في فساد المحيط

الأثر المهم الآخر الذي يمتاز به انتظار المهدي هو عدم الذوبان في مفاسد المحيط، و عدم الاستسلام أمام الانحرافات و الفساد.

و توضيح ذلك: إنّه عندما يشيع الفساد و يجر الأكثرية نحو التلوث، فإنّ الأفراد الطاهرين يواجهون أحياناً مأزقاً نفسياً حاداً لا مخرج منه، مأزقاً مغلقاً نابعاً من اليأس من الإصلاحات.

إنّهم يعتقدون أحياناً بأنّ الأمر قد خرج من أيديهم و لا أمل بالإصلاح قط، و السعي من أجل المحافظة و الابقاء على الطهارة يعد عبثاً، و من الممكن أن يجرهم هذا اليأس و الاحباط نحو الفساد و التأقلم مع المحيط تدريجيا، بحيث لا يتمكنون معه من المحافظة على أنفسهم بصورة أقلية صالحة أمام الأكثرية الطالحة، و ينظرون إلى مسألة عدم التأقلم مع الجماعة كباعث على الفضيحة!

و الشيء الوحيد الذي يمكن أن يبعث فيهم «الأمل» و يدعوهم إلى المقاومة و المحافظة على النفس، و لا يدعهم يذوبون في المحيط الفاسد هو الأمل بالإصلاح النهائي، في هذه الصورة فقط سوف لن يرفعوا أيديهم عن بذل المساعي و الجهود للمحافظة على طهارتهم و إصلاح الآخرين.

و إن كنّا نلاحظ في القوانين الإسلامية أنّ اليأس من غفران الذنوب يعدّ من الذنوب الكبيرة، و من الممكن أن يتعجب الجاهلون أنّه لماذا يعد اليأس من رحمة الله على هذا القدر من الأهميّة، بل حتى أنّه أهم من كثير من الذنوب، إنّ فلسفة هذه المسألة تكمن في حقيقة مفادها هو أنّ المذنب الآيس من الرحمة لا يرى أي مبرر للتفكير بالتكفير عن ذنبه، أو على الأقل الاعراض عن الاستمرار بارتكاب الذنب، و منطقه يرتكز على أنّ الماء قد تجاوز هامتي سواء بمتر أو مائة متر! أنا المفضوح في الدنيا فلن اُبالي بهموم الدنيا! و لا لون بعد السواد أشد منه، سأدخل جهنم لا محالة، أنا الذي اشتريت ذلك لنفسي، فممّ الخوف إذن؟! و أمثال هذا المنطق...

أمّا عندما تفتح أمامه نافذة أمل، الأمل بعفو الله، الأمل بتغيير الوضع الموجود، ستتولد نقطة عطف في حياته تدعوه إلى التوقف عن مسيرة الذنوب و العودة نحو الطهارة و الإصلاح.

و لهذا السبب يمكن اعتبار الأمل على أنّه عامل تربوي مؤثر في أوضاع الفاسدين دائما، و كذلك الصالحون المبتلون بالأوساط الفاسدة، لا يسعهم المحافظة على أنفسهم بدون الأمل.

و النتيجة إنّ انتظار ظهور مصلح يزداد الأمل بظهوره كلما إزدادت الدنيا فسادا، له أثر نفسي متزايد لدى المعتقدين، و يصونهم أمام أمواج الفساد المتلاطمة; إنّهم لا يعرفون اليأس بمجرّد انتشار رقعة فساد المحيط، بل بمقتضى «اقتراب موعد الوصل * يزداد لهيب الشوق و الوله» فإنّهم يرون موعد الوصل و الوصول إلى الهدف الذي هو نصب أعينهم، و تزداد حدّة المنازلة مع الفساد أو المحافظة على النفس بكل شوق و استماتة.

من مجموع الأبحاث الماضية نستخلص النتيجة التالية: إنّ الأثر التخديري للانتظار يقع في حالة واحدة بأن يصبح مفهومه المسخ أو التحريف ـــ كما حرّفه إلى هذا المفهوم جمعٌ من المعارضين، و مسخه جمعٌ من المؤيدين ـــ أمّا لو تُرجم إلى مفهومه الواقعي في المجتمع و الفرد فيتحوّل إلى عامل مهم للتربية و بناء الذات و التحرك و الأمل.

و من جملة الأسانيد الواضحة التي تؤيد هذا الموضوع ما جاء في آخر هذه الآية (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الاَرْضِ....). (النور / ٥٥)

و نقل عن أئمّة الإسلام الكرام المقصود بهذه الآية «**هو القائِمُ و أصحابُهُ**»[١].

و نقرأ في حديث آخر: (**نَزَلت في المهدي**).

و في هذه الآية اُشير إلى المهدي (عليه السلام) و أصحابه بأنّهم (الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)، و بناءً على ذلك فإنّ تحقق هذه الثورة العالمية بدون الإيمان الراسخ الذي لا يداخله أي نوع من الضعف و التخاذل، و بدون الأعمال الصالحة التي تفتح الطريق أمام إصلاح العالم يعدّ أمراً غير ممكن البتة، و على الذين ينتظرون مثل هذا البرنامج أن يرفعوا مستوى وعيهم و إيمانهم، و أن يجتهدوا في إصلاح اعمالهم.

و يمكن لهؤلاء الأفراد أن يمنحوا أنفسهم أمل الاشتراك في حكومته فقط، و ليس الذين يتعاونون مع الظلم و الاضطهاد، و ليس البعيدون عن الإيمان و العمل الصالح، و لا الأفراد الجبناء و الأذلاء الذين يخشون كل شيء و حتى يخافون من ظلهم بسبب ضعف إيمانهم.

و لا الأفراد المتقاعسون و الكسالى و العاطلون الذين يقفون مكتوفي الأيدي أمام مفاسد محيطهم و مجتمعهم مفضلين السكوت دون أن يكون لهم أدنى سعي أو جهد على طريق مواجهة معالم الفساد.

هذا هو الأثر البنّاء لقيام المهدي (عليه السلام) في المجتمع الإسلامي.

اللّهم! نوّر أبصارنا بجمال طلعته البهيّة، و اجعلنا من أنصاره المخلصين و جنوده المضحّين!

١. بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٤.

الخلاصة

١- الانتظار بمفهومه العام يعني عدم الارتياح للوضع الموجود و التطلع الى حالة افضل و بالتالي ففيه النفي و الايجاب، الرفض والقبول، رفض الموجود و السعي لتغييره الى الاحسن.

٢- إذاً الانتظار يبعث حالة من التحرك نحو بناء النفس و تقوية الاستعدادات الروحية و الجسمية و استثمارها لأجل القضاء على الباطل و ازالة الظلم بكل معانيه و لذلك عد المنتظر كالمجاهد.

٣- إن طبيعة الانتظار يخلق نوعا من الاستعداد في الانسان و ذلك بحسب ما ينتظره فتارة ينتظر ضيفا او ينتظر حربا او... و بالتالي فانتظار المصلح العالمي يستدعي استفراغ الوسع لتهيئة الوضع له

٤- إن التطلع الى التغيير العالمي الذي يشمل كل ساحات الحياة من اقتصاد و ثقافة و دين و... يتطلب في الدرجة الاولى بناء شخصيات امينة و نفوس مهذبة تؤمن بهذا الهدف و الغاية المثلى.

٥- الاثر الثاني الذي يتركه الانتظار هو أنه يجعل الشخص لا يفكر في بناء نفسه فقط و إنما يقوم باصلاح مجتمعه فهو ليس مهملا لما يجري حوله و يحدث.

٦- من الاثار الكبيرة للانتظار هو أن الامل بنهاية مشرقة للمجتمع الانساني يحول دون يأس الانسان من اصلاح نفسه و مجتمعه فلاجل ايمانه بالمستقبل لا ينخرط في الفساد و لا يخيب ظنه.

٧- الانتظار الحقيقي يجانب السكون و الركود قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الاَرْضِ﴾ فوعد الله يخص أهل الايمان و العمل الصالح لا غيرهم.